حكاوي الكتب
www.hakawelkotob.com

رضوى أحمد

رواية

ميراث العشق والدموع 2

موال التوهة والوجع

http://www.hakawelkotob.com/

HR

ميراث العشق و الدموع

(٢)

رضوى أحمد

حكاوي الكتب للنشر الالكتروني
www.hakawelkotob.com

تدقيق: زهرة الخريف
داخلي: فاطمة الزهراء

موال التوهة و الوجع

www.hakawelkotob.com

-١-

تسلل ذلك الظل الأسود من خلف أسوار سراي الهوارية .. وإندفع مبتعداً قبل إن يشق الفجر خيوطه الاولى في عتمة الليل .. ما إن وصل لنهاية ذاك السور الذي يحفظ تفاصيله عن ظهر قلب الا وتوقف لحظات واستدار في إجلال يتطلع لتلك السرايّ التي شهدت عمره بالكامل فقد تكون تلك المرة الأخيرة التي يتطلع اليها .. غاب عن واقعه لحظات وأخيرا استدار موليا ظهره عنها وهو يزفر في ضيق .. ثم إندفع مستكملا طريقه عازما على المضي فيه ..

خاض تلك الأرض الزراعية التي تفصل السرايّ عن تلك الدار التي خصصها له عاصم بن عمه ليعيش بها

مكرما مع امه .. وهاهي تقبع فيها منعمة أخيرا بعد سنوات من الغربة و التيه الذي على ما يبدو مكتوب على كليهما

سمع من البعد صوت عواء احد ذئاب الجبل في تلك الليلة شديدة البرودة .. شد كوفيته الصوفية التي تغطى وجهه ورأسه بالكامل لا تُظهر من وجهه سوى عينيه ربما يستشعر المزيد من الدفء.

وها قد وصل لباب داره .. كان من المفترض به الدخول مباشرة لحجرة أمه ليودعها لكنه تذكر إن زوجة أخيه باقية في الدار بناء على طلبه لخدمتها و لتجد لها ملجأ بعد كل ماحدث من سليم أخيه غير الشقيق ..

طرق الباب عدة طرقات .. و إنتظر عدة لحظات ليعاود الطرق من جديد حتى تناهي لمسامعه صوت إنثوي مرتعب خلف الباب يسأل في ذعر :

- مين اللي عيخبط..؟!..

-أنا زكرياء يا مرت اخوي .. افتحي ..

إندفعت كسبانة تفتح الباب في تعجب :

- سي زكرياء ..!!؟.. اتفضل ..

-معلش .. طأطأ رأسه تأدبا ما إن طالعه محياها.. إني چاي في وجت مش مناسب .. بس كان لازماً اشوف امي ..

هتفت كسبانة في عتاب:

- متجلش كده يا سي زكرياء .. ده دارك و احنا ضيوفك .. حد هيستأذن في داره برضك ..؟!..

تنحنح في احراج و توجه في سرعة إلى حيث غرفة أمه التي وكانها كانت تعلم بمجيء ولدها الليلة فكانت بإنتظاره ..تلقفته بين ذراعيها ما إن هل عليها من الباب .. وهتفت وعيناها تكللها الدموع:

- خلاص..نويت يا زكرياء ..

هز رأسه بالإيجاب دون ان ينطق حرفا واحدا .. ربتت على كتفه وقبلت هامته التي تسكتين بين ذراعيها وهمست في وجل :

-..كن الفُراج مكتوب علينا يا ولدي ..تنهدت في حزن .. مع السلامة يا جلب امك .. خلى بالك على نفسك ولو ضاجت بيك .. ارجع يا زكرياء .. متجاوحش ..ومتغيبش على امك .. و طمنى عليك يا ضنايا ..

هز زكرياء رأسه موافقا على كل كلمة نطقتها أمه وهو بين ذراعيها .. لكنه كان عازما ألا يعود حتى يحقق ما إنطوت عليه نفسه..

خرج مسرعاً جاذباً حاله من دفء أحضانها الذي حُرم منه طويلا غير قادر على المضي في البقاء أكثر حتى لا

يفتر عزمه و تلين إرادته في الرحيل ..إندفع خارجاً من باب الدار الا إن كسبانة إندفعت خلفه تستوقفه:

- سي زكرياء ..

وقف مجيباً نداءها لتدفع بين ذراعيه بلفافة ما وهي تقول :

- خد دوول .. حاچة بسيطة من خيرك .. تعينك على طريجك..

قال في امتنإن :- تشكري .. وهم بإن يستدير مغادراً ألا إنه توقف لبرهة حتى قال:

- مش هوصيكى يا مرت أخوي على أمي ..

قاطعته هاتفة :

- دي في عينى يا سي زكرياء متجلجش ..

ابتسم في امتنان :

- لو عزتوا أي حاچة اطلبوا من عاصم اللي إنتوا عايزينه .. ومتجلجيش كله من مإلى .. أنا تركت ورثي كلاته تحت يده عشانكم ..

سألت في فضول :- إنت هتروح فين يا سي زكرياء ..!!؟..

-معرفش.. ارض الله واسعة .. و رزجه أوسع .. مش هوصيكي على أمي تإني.. و اشار لبطنها .. وعلى واد أخوي ولا بته ..ربنا يجومك بالسلامة ..

ابتسمت في خجل :

- تسلم يا سي زكرياء ربنا يجدرنى و أرد لك چميلك و معروفك معأنا أنا واللي في بطني ..

هتف زكرياء في عجلة :

- ده مش چميل ولا معروف .. ده حج اللي في بطنك ..

إندفع خارجا من الدار وهي تهتف خلفه:

-مع السلامة يا سي زكرياء .. ربنا يسلم لك طريجك.

وما إن أغلقت الباب خلفه.. حتى استدار مودعاً بنظرات حزينة داره التي لم يقطنها وكانما اصبح قدره الوداع لكل الأماكن والأشخاص .. لكن ما باليد حيلة لم يعد يطيق البقاء في بلد اصبح كل شيء فيها برغم ما فعله عاصم بن عمه لاجله يذكره إنه ما زال زرزور ولن يكون زكرياء ابدا .. فأقسم إنه لن يعود اليها حتى يصبح زكرياء الهواري بحق... أخيرا وصل للجانب الشمالي من النجع .. وإنحرف قليلا ليصل لمقابر الهوارية ..صعد تلك التبة القريبة وقطعها مرددا بعض آيات من القرإن الكريم والفاتحة على روح اموات الهوارية جميعا .. حتى وصل لقبر ابيه غسإن الهواري .

مسح التراب عن شاهد القبر بكفه المرتجف وجلس صامتا للحظات واخيرا تحشرج صوته وهو يقرأ الفاتحة في تأثر واختتمها وهو ينظر لاسم ابيه على الشاهد في إمعإن ..

اعتدل قليلا وزاد وجيب قلبه وكانه بالفعل في حضرة أبيه .. وتنحنح في تردد هامساً :

- كيفك يابا ..إني عارف إن لو لساك عايش مكنتش هستجرى أجولها لك ..

معلوم .. ماهو اصلك كيف لواد عويل زيي يجولك يابا ..؟!...وإنت من الاساس مش مصدج إنه ولدك ومن صلبك..

صمت قليلا و تنهد بضيق وأخيرا هتف بصوت متحشرج :

-بس إني ولدك يا حاج غسان .. ومن صلبك و واحد من الهوارية اللي خلتنى بدل ما ابجى واحد من أسيادهم ابجي خدامهم ..

صمت لحظات من جديد وأخيرا استطرد في عزم :

-..بس عهدا عليا .. وجدام تربتكما أني راجع النجع ده تاني .. الا وإني زكرياء الهواري على حج ..ويومها هاجيلك تاني اجف على جبرك في نفس مكأني دِه ..عشان تشوف أني

بجيت ايه .. وتجول يا ريتنى اعترفت بيه و رفعت راسه بين الخلج و خليته سيدهم باسم أبوه .. لكن أني هرچع ..هرجع يابوى .. وهكون واحد من اسياد الهوارية ..بس مش باسمك اللي بخلت عليّ بيه .. لاااه.. باسمى أني يا حاچ غسان ..

خرج زكرياء الناي من طيات ملابسه وحفر بعنف بجوار قبر ابيه ودفن نايه وكانه بذلك يودع زكرياء القديم.. زكرياء الذي كان يحتاج لذاك الناي بديلا عن صوته الذي لم يكن يسمعه احد خوفا وقهرا .. لكن بعد اليوم لن يخرس صوته ولن يدع حقه مهما حدث ..

وإندفع زكرياء وكان الشياطين في أعقابه تاركا المقابر خلفه متوجها للطريق الشرقي للنجع حتى يستقل احدي العربات التي بدأت تتوافد على الطريق مع خيوط الفجر الاولى ..

دفع نفسه في احداها بالفعل والتي توقفت ما إن أشار اليها .. وألقى بنظرة أخيرة على النجع الذي قضى فيه حياته كلها نظرة مودعة تحمل الكثير من الوجع والحسرة مخلوطة بعزم لا يلين وإصرار على عدم العودة.. والقسم مرة أخرى بألا تطأ قدميه ارض ذاك النجع الا وهو زكرياء الهواري على حق ..

****

دخلت سهام تترنح في خطواتها وبطنها المنتفخة تسبقها فقد دخل حملها بالفعل شهره التاسع ..

دخلت تتطلع إلى حيث تجلس أمها الحاجة فضيلة دوما .. فوجدتها برفقة زهرة تتسامرإن، ألقت سهام السلام وجلست في تثاقل وهي تلتقط إنفاسها بتتابع مرهق ..

ابتسمت زهرة في مودة هاتفة :

- ايه يا سهام .. خلاص ..بقيتى على أخرك ..

أومأت سهام إيجابا وهي غير قادرة على الرد ومازالت تلتقط إنفاسها ..

ابتسمت الحاجة فضيلة لأبنتها في محبة واخذت تدعو لها :

- ربنا يرزجك ساعة سهلة من عندىه جادر يا كريم ..

ردت سهام أخيرا :- يا رب يا حاچة ..ياارب

ثم استدارت لزهرة وقد استعادت روحها المرحة بعد إن هدأت سرعة إنفاسها المتلاحقة :

- وإنتوا يا زهرة .. فين الإنتاچ..!!؟.. كِده النتيجة واحد صفر للتهامية ..

إنفجرت زهرة ضاحكة على تعليق سهام .. والذي على الرغم من مرحه إلا إنه لمس وترا حساسا داخلها .. فها هي شارفت على تسعة أشهر زواج ولم يأذن اللّه بعد بخبر سعيد ينبأ بمولود في طريقه اليهم ..

كانت الحاجة فضيلة بعينيها الخبيرة هي التي استشفت ما شعرت به زهرة رغم ضحكاتها فقالت في حزم :

- كل شيء بأوانه... كله بأمر الله .. حد ليه في نفسه حاجة ..!!.. كله مجدر ومكتوب ..

ابتسمت سهام مؤكدة على كلام أمها :- صدجتي يا حاجة ..

في تلك اللحظة دخل عاصم وهو يرغى ويزبد.. و جلس ملقياً جسده على الأريكة بجوار أمه وهو يحمل بين أصابعه ورقة مطوية ..صمتت النسوة الثلاثة في قلق وأخيرا ربتت أمه على كتفه متسائلة :

- خير يا ولدي ..!؟فيه حاجة كفالله الشر ..!!..

هتف عاصم في حنق :

- زكرياء ياحاچة ..سافر زي ما جال وساب وراه الورجة دي في أوضة الچنينة .. بيوصينى بأمه و مرت اخوه .. و بيجول مش عارف هو ممكن يرچع ميتا.

شهقت الحاجة فضيلة :

- هو برضك عِمل اللي ف راسه وهملنا وهمل أمه الغلبإنة اللي ما صدجت اتلمت عليه ..!!؟..

- واه يا ولاد غسإن .. واخرتها معاكم ..!!..

زفر عاصم في ضيق .. وأخيرا هتف في دعاء صادق من القلب:

- ربنا يسهله طريجه ..

همست سهام و زهرة مؤَمِنات..

إندفع عاصم من على الأريكة ناهضاً يصعد الدرج لحجرته فنهضت زهرة مستأذنة سهام وخالتها وإندفعت خلفه.. ما إن ولج باب الغرفة حتى كانت في عقبه .. أغلقت

الباب وهو يخلع عباءته وعمامته ويضعهما جانبا ويلقى بجسده على الفراش في إرهاق واضح ..

جلست على طرف الفراش بجواره .. وضعت كفها على صدره تربت عليه في حنو .. فهي تدرك مدي حزنه على رحيل زكرياء .. ذاك الأخ الذي اعتقد إنه سيظل بجواره سندا له.. رفع كفه يلتقط كفها من على صدره ليقبل باطنه وهو مغمض العينين ..وفجأة همس متسائلا :- مالك يا زهرة .. ؟!..

ابتسمت في سعادة .. فهو أبداً لم يخيب ظنها .. هو قادر تماما على استشعار فرحها وحزنها حتى ولو أغلقت عليهما الف باب وباب في أعماق نفسها .. وكيف لا ..؟!.. وهو هناك يسكن حيث منابع الروح... حيث هو دوما وابدا مصدر كل فرحة .. ومزيل كل ألم وحزن ..

دمعت عيناها .. وبرغم إنه كان مغمض العينين الا إنه نهض في عجل معتدلا ليواجهها..وما إن رأى بريق الدمع المتراقص في مآقيها حتى جذبها في رفق لأحضانه ..همس بالقرب من أذنها في نبرة حاول إن يكسوها بغلاف مرح:

- هتجولي في ايه ..؟!.. ولا أجررك بطريجتي ..!!؟..

همست بدورها في صوت متهدج تجاريه في مرحه:

- لا .. مش هعترف .. قررني..

إنفجر ضاحكاً وهو يجذبها حتى تسقط على الجانب الآخر من الفراش ليشرّف عليها وهو يحاصرها بين ذراعيه .. وما إن اقترب منها في نظرات عابثة حتى رفعت ذراعيها في استسلام

هاتفة في ذعر مصطنع :- خلاص حرمت يا عصومى بيه .. هعترف ..

قهقه عاصم وهو يهتف :- ايوه كده .. الطيب احسن ..

ثم تبدلت نظرته.. ونبرة صوته ليشوبها خليط من الاهتمام والحنان وهو يستطرد متسائلا :- في ايه .. عن چد يا زهرة ..؟!.

قررت إن تلقى ما بجعبتها دفعة واحدة.. فهي لا قبل لها للمواربة أو الدوران .. خاصة امام تلك النظرات التي تهيم فيها وبها عشقاً ..

-الصراحة يا عاصم .. أنا قلقانة من تأخر الحمل ..

صمت دون إن يعقب بكلمة ونظراته لازالت تجول على محياها المضطرب .. وأخيرا تنهد وكفه تبعد احدي خصلات شعرها عن خدها وإنحنى في عشق يلثم جبينها ..وهمس :- بجى ده اللي مضايجك ..؟!..

ردت في جدية :- ايه .. حاجة مش مهم اقلق عليها ..!!؟..

-لاه .. مجلتش كده .. بس كل حاچة بأوإن ..

-يعني إنت مش مستعجل على موضوع الاولاد ده ..؟!..

تطلع إلى عمق عينيها وهو يهمس صادقا :

- أنا مجدرش اجولك مش هاممني.. يبجى بكدب عليكي ..أنا لو مهتم بموضوع الخلفة دِه ومتسربع عليه يبجي عشان حاچة واحدة بس .

-ايه هي ..؟!!.. سألت في اهتمام وفضول ..

-إني افرح أبوى يا زهرة جَبل ما .. وتوقف دون إن يكمل ..لكنها فهمت ما كان يقصد ..فاستطرد وهو ينظر بعيدا عنها شاردا ..

نفسي أحط بيده ولدي وافرح جلبه واجوله يا حاچ ده واد ولدك اللي عشت طول عمرك تتمنى شوفته واللي هيشيل اسمك واسم الهوارية .. تنهد من جديد وهو يعاود النظر اليها .. إنتِ عارفة يا زهرة صحة أبوي في النازل وبتتأخر

كل يوم عن اليوم اللي جبله ..عشان كده لو متسربع هيكون ده السبب لكن إني مش هاممني حاجة غيركِ.. خلاص هعوز ايه تإني من الدنيا و إنتِ چنبي ..؟!..

رفعت ذراعيها تطوق عنقه وهي تهتف في عشق مازحة:

- صُح يا عصومي ..؟!..

ليقهقه في سعادة :- صُح يا عيون عصومك ..؟!..

ليكون دورها الإن لتقهقه وهي تغيب في سعادة بين أحضانه ..

****

كانت السيارة تتهادي على الطريق الصحراوى متجهة في عزم إلى القاهرة .. تطلع زكرياء إلى الصحراء الممتدة على جانبي الطريق وشرد في الشمس التي توسطت كبد السماء ..وغاب ذهنه في تذكر النجع واحواله .. وظهرت صورة سهام أمام ناظريه فابتسم رغما عنه في سعادة

ممزوجة بالحسرة..وتذكر عندما رآها ذات مرة تخطو لداخل السرايّ متباهية بحملها .. عيناها تشع فرحة لا توصف .. كم تمنى لو كان هو السبب في تلك الفرحة.. وكان هو صاحب السبق في ذرع ذاك الفخر في مشيتها المترنحة المتباهية.. قفزت الابتسامة على شفتيه من جديد ..لكن هذه المرة .. لإنه بحق تمنى لها السعادة .. حتى ولو في البعد عنه .. فهي على كل حال.. ابنة عمه الغالية .. التي شبت على كفيه وأحاطها دوما بعنايته .. كما إن جميل عاصم أخيها.. سيظل يطوق عنقه ما دام حياً..فلولاه ..لظل حقه ضائع.

وكان لايزل زرزور .. فقط زرزور .. بلا هوية او اسم عائلة يشرف اى ممن ينتسب اليها .. قرقرت معدته.. فتذكر الطعام الذي يحمله في اللفافة التي وضعتها كسبانة بين

كفيه عند مغادرته ..شكرها في سره وبدأ في تناول طعامه بشهية وقد دفع ببعض الشطائر لجيرانه من المسافرين ..

إنهم الإن على مشارف القاهرة ..هكذا هتف أحد المسافرين.. هو لا يعرف أين يذهب ..؟!..ولا حتى أين يبيت ليلته ..؟!.. وما المفروض عليه فعله بالضبط ..كل ما يعرفه إنه يخط اولى الخطوات في طريقه الذي ارتضاه لنفسه .. لن يعود مهما حدث .. لن يطأ ارض ذاك النجع منكس الرأس ابدا .. لن يدخله الا مرفوع الهامة والكل يشير اليه بالبنإن ..

فجأة .. استيقظ من شروده على همهمات داخل السيارة التي تقلهم لم يعرف سبباً لها ..تطلع في الوجوة المكفهرة والهمهمات الساخطة وتنبه إن السيارة تُبطئ من سرعتها وأخيرا .. عرف السبب.. أحد كمائن الشرطة تسد الطريق

امام السيارات العابرة ..توقفت السيارة امام بوابة الكمين مباشرة ليندفع رأس احد الضباط إلى النافذة وهو يهتف بالركاب:

- كله ينزل و معاه بطاقته .. يااااللاه..

بدأ الجميع في النزول وتقديم الهويات الشخصية لذاك الضابط الحإنق الذي يتصبب جبينه عرقا رغم برودة الجو..

كان يتناول الهويات من البعض فيعيدها إليه من جديد والبعض الاخر يحتفظ بهويته هاتفاً فيه بنزق مقيت وهو يشير لأحد الأركان البعيدة نوعا ما :

- اركن هنا على جنب ..

وأخيرا جاء دور زكرياء ليقدم هويته في هدوء تلك الهوية التي استخرجها له عاصم تأكيدا لهويته الجديدة كفرد من الهوارية.. تطلع اليها الضابط في اهتمام ثم رفع

نظراته متطلعاً لزكرياء بنظرة شاملة من قمة رأسه حتى اخمص قدميه ..

ثم هتف فيه بصوت جهوري:

- أركن على جنب مع الباقيين ..

رد زكرياء في تعجب :- بس يا باشا .!!.. أنا بطاجتي سليمة ....

هتف الضابط في حنق :

- هو إنت اللي هتعرفنى اذا كانت سليمة ولا مضروبة ..ما تيجى تعلمنى شغلى.. اركن على جنب من سكات.. قال كلماته الأخيرة وهو يدفع بزكرياء من كتفه لينضم إلى حيث يقف الباقون بلا حول ولا قوة ..

كظم غيظه .. فَلَو إن أحد من النجع فعلها ودفع به هكذا لكان الإن في عداد الأموات ..لكن هنا .. هو غريب

ولا يملك من أمره شيء .. إنه قإنون جديد عليه احترامه .. قإنون يختلف تماما عن قوإنين نجع الصالح التي تعتبر اسم عائلتك الذي يزيل اسمك كاف تماما لتحمل صك الرفعة او الدناءة ..

إنتهي الضابط من فحص هويات الجميع .. ليستقل المحظوظون منهم السيارة مجديد. .. بينما من وقع في الجانب الاخر لسوء حظه ولم ينل الحظوة عند ذاك الضابط المتجهم فكان مصيره الدفع به إلى سيارة الشرطة في صندوقها الخلفى لتنطلق بهم إلى قسم الشرطة.. والتهمة ..؟!....مجرد اشتباه...بدأت جحافل الليل في إسدال أستارها.. وزكرياء لايزل متكوم بجوار زملائه في احد أركان القسم .. يروح ويغدو عشرات الضباط والعساكر دون إن يهتم احدهم بإلقاء نظرة على هؤلاء المهمشين في ذاك

الركن البعيد ..وأخيرا ..جاء احد الضباط الذي هتف في حنق: - ايه دوول ..؟!.

رد احد العساكر في سرعة بعد إلقاءه التحية العسكرية في إنضباط :

- دوول وارد الكمين يا فندم ..

أشار الضابط إليه في قرف :

- هاتهم خلينا نخلص و نشوف حكايتهم ايه !!..

استعرضهم الضابط في لامبالاة ..واستعرض هوايتهم الشخصية الموضوعة على المكتب..وعندما طالع هوية زكرياء بدأ في تفحصه من جديد وأخيرا سألفي ريبة :

- إنت صعيدي طبعا..؟!..

هز زكرياء رأسه مؤكدا:

- ايوه يا باشا ..

تطلع الضابط من جديد لهوية زكرياء وسأل مجدداً:

- من محافظة قنا.. مظبوط ..؟!!..

أعاد زكرياء هز رأسه بالإيجاب ..

فهتف الضابط في سخرية :

- طب اركن لي إنت بقى على جنب كده.. لحد ما اخلص من الباقيين وأفضالك.

هتف زكرياء في حنق :

- ليه يا باشا .. أنا بطاجتي سليمة ومعملتش حاجة..

رد الضابط متهكما :

- ما ده اللي هإنعرفه بنفسنا.. لو حضرتك سمحت طبعا .. ونشوف إنهي داهية اللي حدفتك علينا من بلدكم مش يمكن عامل مصيبة هناك ولا عليك تار .. و لا خدت بتار و هربإن ..

هتف زكرياء في حنق متزايد :

- و الله يا باشا مفيش الكلام دِه.. هو عشان اكمني صعيدي يبجي يا اما هربإن يا جتال جتلة .. !!؟..

هتف الضابط وقد بلغ به الحنق مبلغا جعل زكرياء يذعن رغما عنه لمطلبه بالبقاء في احد الأركان حتى يعود لاستجوابه من جديد ..

جلس زكرياء في الركن المشار اليه وهو ينعى حظه العسر الذي أسقطه في يد احد كمائن الشرطة وقدمه لم تطأ ارض المحروسة بعد .. وما تكحلت عيناه برؤية شوارعها الواسعة ولا ميادينها المكتظة.. ابتسم في حسرة .. وهو يهمس لنفسه .. أول خطوة لك في مشوارك الطويل بدأت باشتباه في قسم شرطة .. فما التالي يا زكرياء!؟..وأين ذهبت بركة دعاءك يا حاجة بخيتة ..!!..تحولت ابتسامة الحسرة تلك لابتسامة راحة عندما

تذكر وجه أمه.. وارتكن دون إن يدري على راحة كفه .. وراح في سبات عميق ..

****

حركات متسارعة وجرى هنا وهناك في تلك الردهة الطويلة التي تنتهي بغرفة العمليات .. الإن فقط أعلن طفل سهام وحسام رغبته في الوصول لدنيأنا فهرع الجميع لاستقبال الحدث السعيد.. حسام يذرع المسافة الطويلة جيئة وذهابا في توتر ملحوظ .. الحاجة فضيلة تجلس تقرأ القرإن الكريم وتدعو في تضرع.. عاصم يقف مستندا على أحد الحوائط ينظر إلى حسام الذي أصابه غدوه ورواحه بعدوى التوتر والقلق على الرغم من عدم رغبته إظهار ذلك.. بينما زهرة تقف على الجانب الآخر من الردهة بالقرب من باب غرفة العمليات تتطلع من الجزء الزجاجى في بابها لعلها تلمح أو تسمع اى خبر يطمئن الجميع ولكن

لا شيء سوى الصمت المطبق بعد إن كانت صرخات سهام المتألمة تشق الأجواء ..

أصبح الوقت ثقيلا .. وما من أخبار تهديء من روعهم .. و أخيرا خرجت احدي الممرضات التي كان أول من لمحها زهرة وذلك لالتصاقها بالباب ..فصرخت في لهفة :

- هاا .. ايه الاخبار..!!؟.. طمنينا من فضلك ..

ابتسمت الممرضة في حبور :

- الف مبروك .. ولد زي الجمر ..

هلل الجميع وكبر .. بينما إندفع اليها حسام يسأل في لهفة :

- المهم هي.. سهام .. اخبارها ايه ..!؟..

هتفت الممرضة :

- الأم بخير متقلقش.. هم خارجين حالا وهاتطمنوا عليهم بنفسكم .. الف مبروك.

دفع عاصم بمبلغ مالي لا يستهان به في كف الممرضة التي كادت تقفز فرحاً..

إنتقل الجميع لغرفة سهام التي كانت في إعياء تام يتناقلون بين اكفهم الوليد الرائع ويهنئونها بذاك المولود الذي يعد الحفيد الاول لكل من التهامية والهوارية على حد سواء ...

هتفت زهرة في حماسة :- هتسموه ايه ..؟!..

هتفت سهام بصوت يحمل الكثير من الإرهاق:

- جده جدرى هو اللي اختار الاسم .. باسل .. إن شاء الله ..

ابتسم حسام في مودة :

- ابويا كان نفسه ياجى .. بس رجليه مش مسعداه .. ربنا يديله الصحة .. هو وصأنا لو ولد .. نسميه باسل..ولو بت نسميها تسنيم ..

ابتسمت الحاجة فضيلة :

- مبروك ماجالكم يا ولدي.. يتربى في عزك وعز چده ويچعله من الصالحين..

هتف الجميع :- امين ..

تحرك عاصم من موضعه ليقف مقتربا من اخته ليربت على رأسها وعلى شفتيه ابتسامة سعادة لا توصف وهو يقول :

- بجيتي ام يا سهام ..؟!!.. ربنا يبارك لك فيه وتشوفيه عريس كد الدنيا ..

دفعت سهام رأسها للخلف قليلا لتقابل نظرات اخيها الحانية :

- يخليك ليا يا عاصم وميحرمنيش منيك ابدا .. وهمست حتى لا يسمعها سواه .. عجبالك يا واد أبوي لما نشوف عوضكم .. وأشارت بطرف خفى لزهرة التي كانت تتخذ مقعدا في احد اطراف الغرفة ..ولم يخف على عاصم نظراتها الشاردة وعينيها التي تلتمع بدمع شوق وترقب وهي

تحمل باسل الصغير بحرص وإجلال بين ذراعيها ..

فاستدار يطالع اخته من جديد هامساً :

- على الله .. كله على الله يا بت أبوي ..

ثم أخرج من جيب جلبابه حزمة نقدية ليضعها بين طيات ملابس المولود وهو يهتف مغتبطاً :

- ده نجوط باسل.. مبروك ما جالكم عجبال ما تخاووه باللي ربنا يجدركم عليه.

إنفجر الجميع ضاحكاً ..ثم هتف عاصم :

- طب احنا نمشوا عشان سهام تستريح وعشان كمان نطمنوا على الحاج.. سيبينه لحاله في السرايا ..

ثم توجه لأمه متسائلا :- خلاص يا حاجة هتجعدي إنتى مع سهام و لا تجعد زهرة ..؟!

قاطعهم حسام :- و لا اي حد يتعب نفسيه .. أنا اللي هجعد معاها ..

ابتسم عاصم :- لازماً حد من الحريم يجعد معاها يا أبو باسل..

إنتشى حسام للقبه الجديد فلم يعقب أو يعترض على أي قرارات .. فلقد قررت الحاجة فضيلة البقاء بجوار ابنتها مؤكدة إن الحاج مهران لم يعد يطالب بالبقاء مع أحد اكثر من مطالبته و راحته بوجود زهرة دوماً بجواره ..

فإنتهي الأمر برحيل عاصم وزهرة للسراي اللذإن وصلاها وقد شملهما الصمت المطبق طوال الطريق من المشفى حتى اعتليا الدرج لحجرة الحاج مهران ليطمئنا عليه .. ليجداه في سبات عميق ..

توجه عاصم للحمام فور إن دلفا للغرفة.. كان يهرب من ملاقاة عينيها ونظراتهما المنكسرة .. لم يستطع إن ينسي تلك التعبيرات التي كانت مرسومة على ملامح وجهها المحبب وهي تتلقف بن سهام بين ذراعيها .. نظرات

عينيها وملامح وجهها .. لازالت محفورة في مخيلته ..

إنه يقدر مشاعرها.. لكن ماذا بيده إن يفعل .. همس رغبة في تخفيف همه .. اللهم لا إعتراض ..

أما هي فجلست على حافة الفراش تتلمس موضع طفل سهام على ساعدها وتستنشق رائحته المحببة التي تركت اثرها على ملابسها .. تستنشقها في شوق حد اللامعقول وفي ارجاء روحها لا يتردد سوى صدي لدعاء وابتهال .. بإن يرزقها اللّه ما يقر به عين زوجها الحبيب ..

تطلعت إلى باب الحمام حيث غاب منذ لحظات.. وقررت إنهاء حالة الصمت المخيمة عليهما منذ خروجهما من المشفى وكان كل منهما يعلم إن الكلمات في تلك اللحظات قد تقتل لا تداوى فقرر السكّات ..

خرج عاصم يكمل ارتداء جلبابه وما إن طالعت محياه المحبب حتى اقتربت منه محاولة تصنع السعادة و ارتكنت على صدره وهي تهمس :

- لما ربنا يريد ويرزقنا باولاد يا عصومي .. تحب تسميهم ايه ..؟!!..

لم يتعجب من تبدل مزاجها فهو أدرى الناس بها فهو يعلم علم اليقين إنها تحاول كسر حالة الصمت التي اعترتهما لذا قرر مجاراتها وهو يهتف مبتسما :

- لو ربنا رزج بواد يبجي مهران على اسم أبوي .. و لو بت تبجي سندس ..

هتفت متصنعة الضيق :

- ايه ده .. إنت اخترت خلاص .. و أنا ماليش رأي و لا ايه ..؟!..

قهقه وهو يجذبها إليه مطوقا إياها بين ذراعيه:

- كيف .. ده إنتي تختاري .. و تختارى اللي على مزاچك كمان .. تحبي تسميهم إيه يا عيون عصومى..؟!....

صمتت لحظات مدعية التفكير ثم هتفت في حماس :- مهران .. أو سندس ..

تعالت ضحكاته وهو يمازحها هاتفاً :- برضك ..؟!..

لتؤكد بإيماءة من رأسها وابتسامة تكلل شفتيها ما لبثت إن تحولت لصرخة دهشة ممزوجة بقهقاتها عندما وجدت نفسها محمولة بين ذراعيه فجأة .. لتهتف في تعجب :- عاصم .. نزلني ..

همس في مرح :- اتحايلي عليا الأول..

ضحكت: وحياتي.. عشان خاطري ..

هتف : ايوا.. ها كملي ..

هتفت في مشاغبة : وحياتى .. عشان خاطرى .. صمتت لحظة وهي تتعلق بعنقه هاتفة .. متنزلنيش ..

لينفجر ضاحكاً لتشاركه ضحكاته وفجأة

يهتف في جدية مصطنعة وهو يضعها على أطراف الفراش :-

تصدجي .. أنا تأخرت على ميعاد مهم ..

زمت ما بين حاجبيها متسائلة : ميعاد ايه بقى .. هو ده وقته

..؟!!.

اقترب منها ليقول في شوق : ده مفيش وجت احسن من كده

..زمنهم مستنينا ..

تساءلت في تعجب : هم مين دوول ..؟!..

جذبها لأحضانه من جديد وهو يهمس مازحاً: مهران

وسندس .. إنتي نسيتي ..

إنفجرت ضاحكة وهي تتعلق بصدر جلبابه : تصدق صح ..

اتأخرنا عليهم قووي.

تعالت ضحكاتهما ممتزجة بدقات قلبيهما..

****

ثلاثة أيام .. بثلاث ليال ..وهو قابع مكانه لم يحرك ساكناً ... ولولا ذاك الشاويش الطيب عم رمضإن لكان مات جوعا وعطشا وإهمالا .. فمنذ تركه الضابط هاهنا.. وهو على هذه الحالة .. لا يعرف لما هو محتجز بهذا الشكل المهين .. لا يعرف له تهمة أو جريرة.. كل ما يعرفه إنه موضع اشتباه لإنه صعيدي نزح من بلدتهم ..لكن لمتى سيظل على هذه الحالة..؟!.. لا يعرف..إندفع اليه الشاويش رمضإن في مودة وفي يده لفافة تحمل طعاما متواضعا .. فتح اللفافة أمام زكرياء وهو يهتف به قائلا :

- بسْم اللّه يا زكرياء يا بني .. وقدم له احد الأرغفة الطازجة ..تناولها زكرياء في شرود وعلى الرغم من جوعه إلا إنه شعر بالشبع فجأة وسأل الشاويش رمضإن في نفاذ صبر :- هو إني هفضل هنا لحد ميتا يا عم رمضإن ..!!؟..رفع العم

رمضإن كتفيه ثم اخفضهما كإشارة لعدم معرفته

وقال مؤكدا :

- علمي علمك يا بني .. بس اهو حضرة الظابط يجي من الحملة اللي طلعها بالسلامة و نشوف ..

وما إن أتم كلماته حتى إندفع الضابط لحجرة مكتبه في سرعة وهو يهتف بالعساكر إن تضع المتهمين في الحبس وإندفع يلقى بنفسه على مقعد مكتبه في إنهاك واضح مغلقا عينيه .. وأخيرا فتحهما ليطالعه الشاويش رمضإن وزكرياء في احد اطراف الغرفة ليهتف في نزق :

- إنتوا بتعملوا ايه هنا ..؟!!.. والواد ده .. مشيرا لزكرياء.. الذي استشاط غضبا لنعته بلفظه (الواد) ..لسه بيعمل ايه هنا ..؟!!..إندفع الشاويش رمضإن مؤديا التحية العسكرية وهو يقول :- حضرتك اللي امرت بحبسه هنا لحد لما نعرف لو كان وراه مصيبة و لا حاجة .

أشار الضابط في نفاذ صبر لباب المكتب :- لا ..

معليهوش حاجة .. غوره من هنا .. يا اللاه..

.....

إندفع زكرياء للباب ما إن سمع كلمات الضابط الذي استوقفه في صرامة هاتفاً :

- بص يا صعيدي إنت .. لو جيت لي القسم هنا بأي مصيبة .. صدقنى مش هرحمك .. أمشى جنب الحيط وكل عيش بالحلال .. سمعني ..؟!..

أومأ زكرياء برأسه إيجابا .. وما إن أشار الضابط له بالخروج حتى إندفع خارج المكتب في عجالة كان الهواء دخل رئتيه أخيرا بعد طول اختناق داخل تلك الغرفة الكئيبة التي لا يتمنى إن يعود اليها أبدا ..

****

شقت صراخاتها قلب الليل وهي تتقلب على فراش من جمر.. فقد فاجأتها آلام المخاض الإن ولا يوجد معها إلا

الحاجة بخيتة ..التي إندفعت تعد العدة لاستقبال المولود المنتظر ..توالت الصرخات وهتفت كسبانة من بين إحداها :

- هموت يا خالة بخيتة .. إني بموت.

هتفت فيها بخيتة مشجعة :

- بتموتى ايه بس .. شدي حيلك اومال خليكى شَديدة .. ده إني ولدت زكرياء و إني أصغر منيكي و جومت ليلتها عشيت أبويا الله يرحمه .. و قوت نفسي .. ما إنتى عارفة كنا غلابة و ملناش حد ..

صرخت كسبانة من جديد عندما عاودتها إحدي نوبات المخاض ..وهي تتمسك بالأعمدة المعدنية للفراش خلف رأسها تستمد منها قوة تعينها على تحمل ألمها الذي يمزقها .. تقدمت بخيتة لتمسح العرق المتصبب على جبين

المسكينة التي تعاني الإن أوجاعا قاتلة لتدفع بجنينها للحياة ..وهي تهمس بالقرب منها :

- هإنت يا بتي .. هإنت .. شدي حيلك ..

كانت تلك الصرخة الأخيرة التي اطلقتها كسبانة .. كانت صرخة استثنائية .. ما إن إنقطعت حتى وصلها صراخ الجنين الذي إندفع لكفي بخيتة التي استقبلته في حماس .. هاتفة : - اللّه اكبر .. اللّه اكبر .. واد زي البدر.

ابتسمت كسبانة في وهن وهي تلتقط إنفاسها أخيرا .. وأغمضت عينيها باستسلام و قد أولت بخيتة اهتمامها للصغير الذي بدأت في تنظيفه وإلباسه ثيابه ..

هتفت بخيتة بعد إنتهاءها :- هتسميه ايه يا كسبانة ..؟!..

همست في سعادة وهي تتلقف صغيرها بين ذراعيها:

- مش إني اللي هسميه يا خالة..

هتفت بخيتة متسألة في تعجب :

- اومال مين يا بتى .. أوعاكِ تجولي إنك مستنية ..

قاطعتها كسبانة قبل إن تكمل استنتاجها .. فكيف تنتظر سليم ليطلق اسما على طفلهما الذي لا يعترف به من الأساس.. كيف يمكن إن تفكر إن تدعه يطلق اسما على طفلها وهو هارب من العدالة .. ينتظره السجن فاتحا أبوابه على مصراعيها لاستقباله .

هتفت كسبانة في عزم :- اللي هيسميه عمه زكرياء ..

-بس يا بتي.. مين يعرف فينه زكرياء دلوجت !!؟.... وميتا يتَصل بينا .. !!؟..محدش يعِرف.

أكدت كسبانة في إصرار :- يبجي يجعد من غير اسم لحد لما عمه يسميه ..

ابتسمت بخيتة وهي تربت على كتفها في محبة : بشوجك يا بتي .. ربنا يرد الغايب .. و يجرب البعيد ..

همست كسبانة : ياارب يا خالة.. ياارب ..

****

كانت تجيء وتروح في الغرفة بشكل متوتر ينبئ عن نفاذ صبرها .. فها هو عاصم ما إن حادثته كسبانة حتى إندفع في سرعة اليها .. لا تعلم ما الذي حدث ..؟!.. وما الذي جرى ليدفعه للذهاب اليها في تلك الساعة المبكرة من الصباح ..؟!..

تكاد تجن .. فها قد إنتصف النهار ولم يظهر له أثر.. ولا تعرف لما ذهب بتلك السرعة العجيبة !؟ ربما طفلها مريض...؟!.. هكذا استنتجت .. فقد رزقها الله بصبى منذ عدة أيام ..ربما..هكذا همست .. لكن ايستدعى ذلك بقاءه النهار بطوله هناك ..؟!..

أخيرا قطع إنفراج الباب عن محياه خواطرها واستنتاجاتها لتهتف في قلق :

- خير يا عاصم .. في إيه ..؟!..

هتف في حنق :- مفيش ..

هتفت بدورها متعجبة :- يعني إيه مفيش ..؟!.. غايب النهار بطوله عند كسبانة وتقول مفيش ..

هتف في حنق متزايد :- أنا مكنتش عند كسبانة .. أنا كنت في بيت زكرياء واد عمي .. و بعدين رحت جضيت مشاويري..

كظمت غيظها:- طيب ماشي.. وهي كانت عيزاك في إيه ..؟!..

رد في لامبالاة :- أبدا .. عادي ..

-يعني إيه عادي .. في حاجة اسمها عادي ..

إنفجر في غضب:- زهرة ..؟!.... جلت لك ميت مرة .. مبحبش حد يراجعني في الحديت .. و لا بحب حد يحجج معاي .. رحت فين وجيت منين .. سمعإني ..

هتف بكلمته الأخيرة في غضب هادر جعلها تنكمش على نفسها وتركها ليندفع خارج الغرفة ..

استجمعت قواها بعد تلك العاصفة الغاضبة وجلست على أطراف الفراش تسترد هدوءها وتستجمع شتات افكارها ويكاد فضولها يقتلها لمعرفة سبب رغبة كسبانة في مقابلته .. وإندفاعه لتلك المقابلة .. بدأت الغيرة تنهش قلبها وشيطإنها يزين لها أفكارا وتخيلات عديدة عما قد يكون بينهما..هي متأكدة حد اليقين من حب عاصم لها.. لكن.. هل سيستمر هذا الحب بنفس القوة إذا لم ترزق منه بأولاد ..؟!.. وهل سيفكر يوم ما في الزواج من أخرى من أجل ذاك الغرض ..؟! ولما لا تكون تلك الأخرى هي كسبانة .. فهي جميلة وصغيرة و تنجب .. !!..

استشاطت غضبا من تلك الخواطر التي تستعر بداخلها كنار لا تجد من يطفئها.. ولا تتذكر إلا شيئا واحدا .. إن

عاصم صرخ في وجهها غاضبا من أجلها .. من أجل تلك الكسبانة وسرها الذي لا تعلم عنه شيئا..

استغفرت قدر استطاعتها محاولة طرد وساوسها وإندفعت للحمام فربما حمام دافئ يزيح عنها خواطرها التي باتت تؤرقها.. وقد يساعدها في استرجاع هدوء نفسها وصفاء سريرتها..

ما إن إنتهت من حمامها حتى خرجت تتطلع لفراشهما لعله جاء ينام في اثناء غيابها .. لكن الفراش كان فارغا منه .. دخلت هي الفراش وتدثرت حتى عنقها

تحاول الحصول على بعض الدعم لطرد ما يعذبها من وساوسأغلقت عينيها مدعية نوم عزيز المنال ..لكن كيف يأتي النوم..؟!.. والوجع يذيب صدرها ..و وسادتها كجمر مستعر ..كيف يأتي النوم ..؟!..وهي لا تعرف له

طعما الا بين ذراعيه .. متوسدة صدره .. تطمئنها نبضات قلبه إنه هاهنا لاجلها ..

إنتفضت في مكانها مدعية النوم عندما فُتح باب الغرفة بشكل مفاجئ .. فهي لم تشعر بخطواته على الدرج وما استطاعت إدراك وصوله إلى الغرفة.. فقد استغرقتها افكارها حد الغرق و التيه عن ما حولها ..

ألقى هو نظرة سريعة على جسدها المدثر بشكل مبالغ فيه بعد إن فتح احد الأضواء الجانبية الخافتة ..وغاب قليلا في الحمام ليعود ليستقر على طرفه المعتاد من الفراش بعد إن أغلق الإنوار وتدثر بدوره معطيا لها ظهره ..

مرت بضع دقائق لم يحرك احدهما فيها ساكنا .. كلاهما يعطي ظهره لصاحبه .. وذاك الفراغ في منتصف الفراش و الذي طالما جمعهما متلاحمين يئن ألماً واشتياقا ليعودا لسابق عهدهما من جديد ..

كان هو يغلق عينيه رغبة في نوم سريع بلا مقدمات .. لكن هيهات إن يزوره النوم وهو على هذه الحالة من الغضب والاشتياق .. غضب منها وعليها ..واشتياق إلى الدفء والسكون اليها..إن ذراعيه خاليتين منها.. يشعر ببرودة عجيبة لم يستشعرها يوما ضم ذراعيه لبعضهما وكبرياءه يكاد يدميه لرغبته في قربه منها ولكن أخيرا إنتصر شوقه ليقترب قليلا لداخل الفراش عله يصطدم بها فيتعلل بضيق الفراش .. إنتظر قليلا .. ليعاود التقهقر لداخل الفراش من جديد .. وتحققت أمنيته بإن عثر عليها.. اصطدم بظهرها .. فقد كانت تتحين الفرص لذلك ..كما كان يفعل تماما ..استدار ليقابلها بكليته أما هي فقد ظلت توليه ظهرها .. فهل يستطيع الإن إن يتراجع ..؟!.. لم يستطع وخاصة عندما وجد جسدها يهتز بشهقات بكاء مكتوم.

مد ذراعه أسفل خصرها يجذبها بيسر إلى أحضانه لتستجيب هي من فورها وتندفع بشوق لدفء ذراعيه.. لم يقل كلمة .. بل لم ينبس بحرف .. وهي كذلك ..لكنه زاد من طوّق ذراعيه حولها ليأسرها تماما في أحضانه ويقبل جبينها بشوق .. ويربت على رأسها بحنو.. كان ذلك كافيا .. بل أكثر من كاف لتكف هي عن البكاء وتطبع قبلة دافئة على أسفل عنقه وتدفع رأسها في التجويف بين كتفه وذقنه التي تميل على رأسها.. ليستوطن فيه جبينها في سعادة .. ويبدأ النوم يداعب جفونهما أخيرا ..

****

دس الشاويش رمضإن ورقة مطوية في كف زكرياء هامساً له في حذر :

- خد يا زكرياء .. ده عنوإن ناس طيبين من قرايبي .. أنا أديت لهم خبر إنك رايح لهم.. هم عندهم أوضة فاضية ليك و هيدبروا لك شغلإنة ..

هتف زكرياء في حبور:

- ربنا يبارك لك يا عم رمضإن .. أنا كنت لساتني بسأل روحي .. هخرج اروح على فين ..؟!..

ابتسم رمضان في مودة : الناس لبعضيها .. وإنت شكلك طيب وبن حلال و لولا كده مكنتش هبعتك عند حد معرفة ..بص.. هم قريبين من هنا .. تقريبا شارعين تلاتة و تكون في حارتهم .. أهو العنوإن عندك في الورقة اللي في ايدك .. لو أنا فاضى كنت جيت وصلتك بنفسي ..

هتف زكرياء مهللاً : لاه .. ده كِده رضا جووي .. أنا هعرف أوصل لحالي متجلجش.

ربت رمضإن على كتفه وهو يودعه على السلالم الأمامية لباب قسم الشرطة داعيا:- ربنا يسهل لك طريقك يا بني..

ودعه زكرياء بدوره واستدار مغادراً القسم و كلمة (ابني) يرن صداها في اسماعه وتشعره بوجع هاهنا بين حنايا صدره .. أبدا لم يسمع تلك الكلمة المحببة والتي تشعره بالتقدير والفخر ..

ظل يحلم باعتراف أبيه ببنوته وسماع كلمة إبني من بين شفتيه لكنه لم يحظى بذاك الشرف ..لم يعترف أبيه به .. ولا سمع منه غير التقريع والسخرية ..

نفض زكرياء عنه تلك الخواطر التي تلهيه عن التركيز في طريقه و أخذ يسأل كل ذاهب و آيب عن تلك الحارة التي يقصدها .. حتى أخيرا وصل على أعتابها ..

أخرج الورقة المطوية من جيب جلبابه و قرأ الإسم المطلوب ..

استوقف احد المارة يسأله :- لو تسمح .. تعِرف بيت الحاج وهيب فين ..؟!.. أشار الرجل بالنفي..

فقرر زكرياء الولوج إلى الحارة لسؤال أحد أصحاب المحال التجارية بسيطة العرض والبضائع التي تظهر على جانبيها توقف عند محل خردواتي ليسأل من جديد عن بيت الحاج وهيب فأشار الرجل إلى دائرة من البشر على مسافة منهما وقال :

- هتلاقى الحاج وهيب عند الناس الملمومة هناك دي ..

شكره زكرياء وإندفع لتلك الحلقة البشرية الملتفة لا لسبب إلا لمشاهدة شجار ما .. لا يعرف من أطرافه ولا ما سبب إندلاعه ..وقف يشارك الناس فضولها وذاك الرجل

الضخم ذو العضلات المفتولة والشارب الكث يجذب رجل خمسيني من ياقة جلبابه البسيط هاتفاً فيه بتجبر :

- ما أنا قلت هتدفع يعني هتدفع .. بالذوق بالعافية هاتدفع ..مش قادر على الدفع ..؟!.. إنت عارف ايه اللي يعفيك من الدفع طول عمرك ..

هتف الرجل الخمسيني باستكانة:

- يابني .. مقدرش ادفع .. وطلبك اترفض .. أعملك ايه بس ..؟!..

زمجر الرجل الضخم في غضب:

- دي مش مشكلتي .. أنا مشكلتي دلوقتي هاتدفع و لا لأ..

هتف الرجل المسكين: منين يا بني ..؟!.. طب حتى اديني فرصة ..

قال الضخم : اديتك فرص كتير وخلاص مبقاش ..

ودفع بالرجل الخمسينى خارج اعتاب محله الصغير وإندفع هو ورجاله لنهب بضاعته .. إلا إنهم توقفوا جميعا عندما هدر صوت إنثوي بكل قوة :

- اللي هيمد إيده على بضاعة المحل .. هقطعهاله..و أعلى ما في خيلك اركبه يا سمري ..

هتفت بشجاعة في وجه الرجل الضخم المدعو سمري.. و دون إن يطرف لها جفن ، إندفع سمري الذي فوجئ بظهورها و هتف فيها بحنق :

- إنت شكلك ناقصك تربية .. اسمي المعلم سمري يا بت ..

هتفت في استنكار :

- بت ..؟!.. لاا .. ده أنا ستك و تاج راسك غصب عنك ..و التربية الناقصة دي إنت اللي تعرفها ..ياااسمري

إندفع سمري إليها في غضب أعمي ليرفع كفه لأعلى منحدرا ليصطدم بخدها .. لولا إن وقف ظل شخص ما ليمنع حدوث ذلك ويتلقى كف سمري الثقيل على كفه دافعا به للخلف في قوة جعلته يتقهقر خطوة للوراء ..

هتف زكرياء بسمري في غيظ:

- و بتسمي نفسك معلم و إنت يدك بتتمد على الحريم .. طب جليت أدبك على راجل كَبير في سنابوكِ و جلنا جلة عجل .. لكن تمد يدك على الحريم .. لاه .. ده يبجي البعيد نسي كيف يكون راجل و عايز اللي يفكره ..

هتف سمري في غضب :- إنت مين يا واد .. !!؟.. روح العب بعيد يا سبع الرجال ..

استفزت كلمة (واد) زكرياء ليهتف في غضب :- واااد .. طيب ..أني هوريك كيف الواد ده هيعرفك مجامك ..

إندفع زكرياء كالثور الهائج ودفع بمقدمة رأسه لتنطح جبهة سمري بعنف جعل الأخير يترنح قليلا .. ثم يعاود السيطرة على ثباته وهو يشير لرجاله المحيطين بالحلقة مع جمع البشر الذي لازال الفضول يدفعهم للمتابعة وقد ازدادت المشاهدة متعة و اثارة بعد تدخل زكرياء الغير متوقع..

ازدادت الدائرة البشرية اتساعا ودخل احد رجال السمري في نزال مع زكرياء والذي استطاع زكرياء التفوق عليه .. ليدفع السمري بآخر .. وهكذا .. استمر الوضع في نزال متتال حتى تناهي من البعد صوت سرينة عربة شرطة فتفرق الجمع في طرفة عين واختفى السمري و رجاله في لمح البصر و ما إن تنبه زكرياء لما يحدث .. حتى ظهر أمامه ضابط القسم و عساكره حوله ..

هتف الضابط في تقريع :

- إنت تاإني ..؟!!.. أنا مش حذرتك توقع تحت ايدي مرة تإنية .. ده إنت لسه خارج من القسم مبقلكش ساعة .. طيب .. إنت اللي جبته لنفسك ..

وإندفع عائدا للسيارة وهو يهتف لعساكره باحضار زكرياء الذي امتلأ وجهه ببعض الخدوش والجروح وجسده ببعض السحجات جراء المعركة الطاحنة التي دارت رحاها منذ قليل ..سار في استكانة خلف الضابط محاطا بعساكره .. وقد أيقن الإن إنه لن يغادر ذلك القسم الذي غادره منذ ساعتين ممنيا نفسه بعدم العودة إليه من جديد .. لكن يبدو إن دعوته لم تستجاب .. فها هو يعود اليه الإن اسرع مما توقع و يبدو إنه لن يغادره إلا بعد فترة طويلة جداااا..

****

حكاوي الكتب

-٢-

هتف الحاج وهيب في تإنيب لنفسه :- يوووه .. أنا ازاي مخدتش بالي ..؟!..

قفز فى عجالة من امام المنضدة المنخفضة الارجل الممتدة ليوضع عليها طعام العشاء و المسماه (طبلية) ليرتدي حذائه ويتناول معطفه الصوفى لتهتف فيه زوجته نعمة :

- خير يا حاج .. فيه إيه .. قمت مسروع كده؟!.

لتعاجله ابنته بدور هاتفة :- رايح فين الساعة دي يابا .. وفي التلج ده .. الدنيا بينها بتشتي .

هتف وهو يرتدي معطفه :

- يا بنتي عمك رمضإن كان مكلمني على جدع صعيدي هايجى يأجر الأوضة اللي على السطوح و قلت أهي نواية

تسند الزير.. ولما حصلت العركة الضهر نسيت الموضوع .. ولسه فاكرة دلوقتي .. واللي مخليني مضايق أكتر إن الجدع ده ..

هتفت بدور مستنتجة :- هو اللي دافع عنى قصاد سمري و حاشه ..صح..!!..

-الظاهر كده .. و احنا بقى بدل ما نلحقه .. سبناه في القسم و لا سألنا .. حتى بعد اللي عمله معأنا ..

-حتى ولو اللي بتقوله صح .. الصباح رباح .. اقعد اِتعشى وبكرة الصبح تروح تضمنه في القسم .. هتفت نعمة وقد بدأت في تناول طعامها بالفعل.

هتفت بدور:- لا صباح إيه..!!.. بقى نسيب الراجل مرمي في الحبس بسبنا و في البرد ده .. لا ميصحش يابا.. الواجب تروح له .. حتى عشان خاطر عم رمضإن ..

إندفعت نعمة :

- بلا يروح .. بلا يجى .. بقى خايفة على الراجل من برد الحبس وهو شباب و مش خايفة على بوكي يخرج دلوقتي في الجو ده ..

مدت كفها تخلع المعطف عن الحاج وهيب وهي تجذبه ليجلس على (الطبلية) من جديد وتبدأ في إطعامه بيدها لينسى كل ما عاداها ..

لتمصمص بدور شفتيها وتسير في وجوم باتجاه النافذة تنظر خلف زجاجها الذي تكاثرت عليه ذرات المطر المتساقطة بالخارج لتحجب الرؤية عن ما يدور خلف إطاره .. و تهمس في تساؤل :

- يا ترى عامل ايه .. يا دي الجدع ..!!؟

****

كان كل من زهرة والحاجة فضيلة وسهام تجلسن في مقعدهن المفضل في صحن الدار وسهام ترضع طفلها الذي

تغير كثيرا في الثلاث أشهر الماضية ليصبح أكثر طولا وأوفر صحة وتبدو ملامحه في الظهور ليتأكد الجميع إنه نسخة مصغرة من حسام بعينيه العسلية الواسعة وبشرته الخمرية وشعره الأسود الناعم ..كانت زهرة تنتظر إن يتم باسل طعامه حتى تحمله في سعادة وتلهو معه قليلا إلا إن باسل خذلها ليبدأ النعاس يداعب جفونه فتهمس سهام مازحة :

.....

- ملكيش حظ في اللعب معاه يا زهرة .. خلي بيكي و نام ..

ابتسمت زهرة في تحسر :

- ماشي يا باسل بس لما تكبر شوية .. أنا و إنت هنخربها ..

ابتسمت سهام لمزاح زهرة بينما اشفقت خالتها فضيلة على حال ابنة اختها الحبيبة وكانما ورثت عنها كل شيء حتى حملها العزيز .. فهي تتذكر إن فاطمة تأخرت في

حملها لزهرة عدة سنوات .. همست الحاجة فضيلة في نفسها داعية :

- يا رب يا بتى يكرمك باللي يفرح جلبك و جلبنا .. اللهم آمين ..

.....

إندفعت سمية من باب السرايّ الداخلى تتطلع حولها وما إن رأت النسوة مجتمعات حتى توجهت إليهن تغالي في ترنحها مدعية التعب والإرهاق من حملها حتى أتتهن ملقية السلام و هاتفة :

- ازيك يا مرت عمي .. كيفك يا سهام و كيفه ولدك ..كبر الله اكبر ..

ألقين عليها السلام لتستدير باتجاه زهرة هاتفة:

- كيفك يا زهرة ..زينة ..؟!..

.....

أكدت زهرة محاولة إدعاء الهدوء في وجود سمية التي تعلم علم اليقين إن وجودها هنا ليس صدفة و إنها ما أتت الا لتثير حنقها :- بخير الحمد لله يا سمية ..

هتفت سمية بنبرة كالفحيح :

.....

- طيب .. خير .. أنا جلت هتفرحينا و تجولي الحبل تعبك زي حالاتي ..؟!.. ربنا يعطيكِ..

امتقع وجه زهرة وشعرت بإن ألما جارفا اجتاح أعماق روحها بسبب ذاك الاستهزاء الواضح .. هتفت الحاجة فضيلة تذود عن ابنة اختها الغالية :

- كله چاى يا سمية بأمر الله ..و بعدين هو احنا يعني كنا مجوزين زهرة لعاصم عشان الخلفة و بس ليه أُمال بهايم لمؤاخذة مش هنفكروا إلا في كِده وبس ..؟!..

كتمت سهام ضحكاتها على رد أمها المفحم بينما لاذت زهرة بالصمت ولم تعقب .. فهتفت سمية بغل :

.....

- لاه يا مرت عمي .. مش بهايم لا سمح الله .. بس يعني كل ست تحب تفرح چوزها خصوصي لو بتحبه بحتة عيل من صلبه يشيل اسمه مش تبجي أرض بور جلتها احسن ..

همت سهام بالرد هذه المرة على وقاحة سمية الغير معقولة الا إنها قاطعتهن وهي تنهض في عجالة وكانها ليست هي نفس المرأة التي دخلت تترنح بحملها منذ قليل هاتفة في خبث:

- طب افوتكم بعافية لحسن عدلي من ساعة الحمل وهو بيخاف عليا و على اللي ف بطنى معلوم .. ماهي العيال دي مبتجيش بالساهل .

وإنفجرت في ضحكة ماجنة قبل إن تستدير راحلة وقد ملأت الأجواء توترا ..

.....

عم الصمت للحظات قبل إن تهم سهام بقطعه في محاولة لترطيب الأجواء المشدودة لكن زهرة التي كان وجهها يحاكي الموتى ولم تنبس بحرف واحد منذ بدأت سمية هجومها المسموم إندفعت في سرعة نحو الدرج تعتليه في إندفاع لتدخل حجرتها و تبدأ في بكاء محموم طال كتمإنه ...

لا تعرف كم طال بكاءها حتى إنها لم تستشعر ذاك الذي دخل الغرفة في هدوء متقدما نحوها في حزن على حالها بعد ما قصته أمه عليه من أمر سمية وسخافاتها...

جلس على أطراف الفراش قبالتها ليجذبها نحوه في قوة .. إنتفضت عندما باغتها وجوده لكن ما إن اصطدمت نظراتها الدامعة بنظراته العاشقة حتى دفعت وجهها ليُدفن في أعماق صدره وتدثرها أحضانه و يهدهدها عناقه .. تركها

تبكى كما شاءت حتى تفرغ كل ما بجعبتها من دموع .. وما إن تيقن من هدوءها

بين ذراعيه حتى حاول التفريج عنها هاتفاً: زهرة ..!!؟..

رفعت رأسها اليه تتطلع إلى نظراته التي تعشقها .. تلك النظرات التي تخبرها ألف أحبك دون إن ينطق هو بحرف واحد .. همست بصوت مبحوح من أثر البكاء :

نعم ..!؟..

همس يشاكسها : أنا هجول كلمة و تجولي ورايا ..ماشي ..!؟..

همست معاتبة :- و ده ايه بقى إن شاء الله !؟..

.....

همس من جديد :- ده كورس علاج إنما إيه متچرب ..!؟..

همست وهي تنظر إليه في شك :- ماشي ..

-ها جولى ورايا بحبكِ يا عاصم يا هواري ..

ابتسمت وهي تردد:- بحبكِ يا عاصم يا هواري ..

.....

هتف عابثاً :- بموت فيك يا واد خالتي ..

اتسعت ابتسامتها مرددة :- بموت فيك يا واد خالتي ..

اكد هاتفاً :- ومش هبكي تإني من كلام ماسخ ملوش عازة ..

أكدت وقد ظهر الحزن على محياها من جديد:- ومش هابكي تإني على كلام ماسخ ملوش عازة ..

جذبها إليه اكثر وإنحنى إليها مقبلاً لتهمس هي تبتعد في دلال هامسة :

.....

- إيه دي بقى ..!؟.

همس بنظرات شقية :- ده أهم جزء في كورس العلاج .. لو متمش العلاج يبجي زي جلته ..

همست تكتم ضحكاتها :- لا طالما علاج خلاص ..إلا العلاج..

ليجذبها إليه من جديد وهو يقهقه لمزاحها ..

.....

****

.....

دفع العسكرى بزكرياء لداخل الحبس في عنف جعله يسقط أرضا متعرقلا في الأرجل الممتدة بداخل الزنزانة لأحد المحبوسين الذي سب في غضب إنتبه زكرياء واقفا وجال بنظره في الوجوه الغير مريحة التي تتطلع اليه الإن في فضول .. وجد أحد الأركان فارغا فتوجه اليه في تثاقل وترك جسده ليجلس على المسطبة الاسمنتية في يأس يرتكن بجانب وجهه على الحائط .. و يستكين في مجلسه ..

عم الصمت لدقائق حتى جذب مظهر زكرياء المصاب الذي يكلل وجهه بعض الخدوش وجرح ظاهر بالجبهة فضول احد المساجين ليشاكسه في محاولة لفرض السيطرة :- سبع الرجال بقى .. كان بيضرب و لا بينضرب ..؟!!..

قهقه الجميع على تساؤله كانه أحد النكات برغم سماجته لكن ما كان احد يستطع الاعتراض .. لم يرد زكرياء .. فقد ناله ما ناله من جراء شجاره مع سمري ورجاله.. شجار واحد في اليوم يكفى .. همس لنفسه في تأكيد حتى لا ينتبه لسخافات ذاك الأحمق هناك و التي استمر فيها هاتفاً في استفزاز عندما ادرك من ملبس زكرياء كونيته :

- مرة واحد صعيدي شاف الهرم قال يا بووى كل دي حتة جبنة نستو ..

إنفجر الجمع ضاحكاً على نكات المسجون المستفز ..

همس زكرياء لنفسه:- اللهم طولك يا روح .. اهدي يا زكرياء و أعجل.

ليعاود المسجون استفزازه بإطلاق المزيد من النكات اللاذعة على الصعايدة ..وزكرياء رابط الجأش يحاول

تهدئة نفسه كي لا يتأثر بإستفزاز ذلك الغب ..

لكن يبدو إنه لن يتوقف عن تفاهته .. والتي استطردت من جديد هاتفا :

- مرة واحد صعيدي لم كل النكت اللي على الصعايدة و رماهم البحر .. السمك طلع يضحك ..

إنفجر الجمع ضاحكاً من جديد ولكن هذه المرة كان وصل الاستفزاز بزكرياء مبلغا خطرا ليندفع في ثورة باتجاة ذاك المسجون الاحمق ممسكاً بتلابيه وهو يهتف في غضب :

- و مرة واحد صعيدي جابل واحد جليل الأدبجال لازماً يربيه عشان يعرف يغلط كيف في اسياده ..

ودفع زكرياء بجبهته الصلبة في اتجاه جبهة المسجون ناطحا إياها والذي ترنح للحظات ثم سقط ليندفع رجاله مدافعين عن سيدهم ويشتبكوا واحد تلو الاخر مع زكرياء

..حتى شعر أخيرا العساكر خارج الزنزانة بالهرج والمرج الذي يحدث بالداخل .. فإندفعوا مبلغين الضابط الذي جاء مهرولا وما إن إنفرج باب الحبس عن محياه الصارم وهو مشهرا سلاحه صارخاً حتى هتف فيهم :

- في ايه يا حَووش .. !!؟..

جال بنظره في الوجوه .. حتى استقرت نظراته على المسجون الملقى أرضا لازال يشعر بالدوار و ممسكاً راسه متألماً .. ثم وقعت عيناه بسرعة على زكرياء الذي ازدادت جروحه جرحا على احدي جانبي وجهه و تمزق ذراع جلبابه ..

هتف الضابط في غضب تجاه زكرياء :

- هو إنت مفيش فايدة فيك بره عامل مشاكل و جوه عامل مشاكل .. طب اوديك فين ..!!..

هتف زكرياء : يا باشا إني في حالي .. هو اللي كان بيجل أدبه.

هتف الضابط محاولا السيطرة على أعصابه : طيب .. تعالالي هنا ..

ودفع به خارج حجرة الحبس .. ليغلقها العسكري مباشرة بعد خروجهما ليهتف الضابط في زكرياء دافعا به أمامه :

- هو إنت مش شايف نفسك وعامل فيها السبع رجالة..!!؟... إنت ملكش القاعدة ..لازم تعمل حاجة مفيدة ..

وهتف الضابط في قوة :- يا شاويش مجاهد .. هات الجردل و الخيشة من عندك ..

أحضرهم الشاويش في عجالة .. ليشير اليهم الضابط بتعإلى هاتفاً في زكرياء :

- اتفضل .. خد دوول

عايز القسم بيلمع من النظافة .. عارف لولقيت اثر رجل اللي داخل و اللي خارج بعد المطرة اللي بره دي .. هتشوف شغلك معايا ..

نظر زكرياء للجردل و الخرقة البالية المصاحبة له وهمس في أعماقه .. هل هذا ما أتيت لأجله!؟.. هل هذا مقامك يا واد الهواري ..!؟.. حسنا .. و لما لا كنت دوما خادما لقوم كان من المفترض إن أكون سيدهم ..و الآن أنا خادم لأجل ما أطمح اليه ..!؟.. اختلفت الأسباب ولا زلت خادما يا زكرياء .. لا بأس ..صبرا جميل .. و اللّه المستعإن ..

هتف الضابط في حنق مقاطعا زكرياء عندما طال شروده:

- خير.. الباشا عنده اعتراض و لا حاجة ..!!..

هتف زكرياء :- لاه يا باشا .. حاضر .. جذب الدلو والخرقة واتجه ليبدأ مهمته من حيث أشار عليه أحد

العساكر و قد حزم أمره بإنها ستكون المرة الأخيرة التي ينكس فيها رأسه .. مهما كان ...

****

هتف الحاج مهران بسعادة وهو يطالع زهرة تدلف من باب حجرته كعادتها كل صباح .. تلقى عليه التحية وتإنس بمصاحبته التي تسعدها بقدرما تسعده وتهون عليه يومه :- اهلا بالجمر .. مرت ولدنا الغالي ..

ابتسمت زهرة في حبور وهي تقترب من العجوز الذي تجله وتحترمه بحق فتنحني لتقبل كفه في مودة : - ازيك ياعمي .. اخبارصحتك ايه النهاردة ..؟!..

ابتسم العجوز :- زي البمب .. احسن منيكي ..

قهقهت زهرة لدعابته ليستطرد في فرحة :

- بالكِ يامرت ولدي .. لومكنتيش جيتى كنت شيعتلك حديجيبك لحدي ..

-هو أنا اقدر اتأخر عنك ياعمي .. ده النهار ميبقاش ليه طعم ولايبقى فيه بركة من غيرما أعدي عليك الصبح واقعد معاك واخد منك بركة اليوم كله ..

ربت العجوزعلى كفهاالقريب من كفه في امتنإن وهويشير اليها لتقترب وكانه على وشك اطلاعها على سر خطير .. همس في مشاكسة ذكرتها بعاصم فابتسمت رغما عنها وهو يقول :

- أناعاوز حلاوة البشارة ..

إنتبهت متسائلة في همس تقلده مازحة :- بشارة ايه ياحاج ؟!..

ابتعد ناظرا اليها صامتا لحظات مشعلا فضولها وهو يقول :

- بشارة الذرية الصالحة بإذن الله ..

إنتبهت الإن بكل حواسهاوقد استطاع جذب إنتباههاكليا لتردد خلفه بألية :

- الذريةالصالحة .!؟.

هتف مؤكدا بين نوبات سعاله :- معلوم ..

نظرت متسائلة دون إن تنبس بحرف واحد ليستطرده وفي جزل :

- عشية(مساءً) شفتلكم رؤية .. الله اكبر.. حاچة تفرح بصحيح ..

إندفعت في حماس :- شفت ايه ياعمي..!!؟. .. قووول ..

ضحك العجوز لحماسها وهتف مشاكساً :- هو ببلاش كِده.. لاه .. دي الحلاوة كَبيييرة ...

هتفت مؤكدة :- عنايا ليك ياعمي .. بس قووول ..

-طاجن عكاوي وكوارع من يدكِ .. هاا .. ايه جولكِ..

أني حاسسأني لوكلته مهجوم ارمح رمح ..

قهقهت :

- ياسلام .. إنت تأمر .. بس يارب عاصم ميشمش خبر اوالحاجة فضيلة تدرا.. ساعتها مش هلحق اخلف العيال اللي بتبشرني بيهم دوول ..

كان دور الحاج مهران ليقهقه ساعلا وهويقول :

- حد يجدر يجربلِك وأنا موچود .. !!؟.. إنتِ في حمايتى .. متجلجيش ..

ابتسمت في سعادة لمحبته الخالصة التي تشعها كلماته وأخيرا همس بعد إن هدأت نوبة سعاله :

- بصي ياستي.. خير اللهم اجعله خير يارب .. جال شوفتك واجفة تايهة في وسط ارضنا بتتلفتي يمينك وشمالك كن في حاچة ضايعة منيكي ومش لجياها .. وفچأة ظهرت واحدة عچوزة جربت منيكي وطبطبت على كتفك فإنتبهتيلها راحت فتحت كفوفك التنين وحطت فكفك

اليمين بذرة .. وفكفك الشمال بذرة ..وجفلت كل

كف على اللي فيه وغابت ..

اتلفتي إنتِ ملجتيهاش .. بس لجيتي عاصم جاى على فرسه

.. حكيتيله الحكاية راح واخدك على الپهةالپبلية من

ارضناالي بينا وبين ارض ابوكي وعمك .. وراح زارع

وياكي البذرتين و يادوب بتتلفتوا عشان تمشوا لجيتوا

البذرتين طرحوا .. البذرة الأولإنية طرحت شپرتين من اصل

واحد .. والبذرة التإنية طرحت شپرة اجصر شوية بس

كانت فيها ميلة خفيفة ..

صمت الحاج مهران يلتقط إنفاسه وهيتتطلع اليه مبهورة ..

وأخيراهمست متسائلة :

- وده تفسيره ايه ياعمي .. ربنا هايرزقنا باولاد باذنه ..!!؟..

أكد العجوز في يقين :- باذن الله يابتي ..

هايرزجكم بتلت عيال. الله اكبر.. ربنايطول في عمري

ويهنيني بشوفتهم ..

همست هي في وجل :- اللهم امين ياعمي .. اللهم امين .

****

هتف الحاج وهيب امام الضابط باستجداء:

- معلش يا باشا .. مش هاتتكرر منه تاني .. أنا هضمنه.. ده

واد غلبإن من بلدنا .. جي ياكل عيش ..

هتف الضابط :

.....

- جي ياكل عيش ولا يشتغل لي بلطجي .. لا وجي يعمل

فتوة على مين .. على السمري !!؟.. ده وقعته سودا ..ربنا

يستر و يعرف أصلا يقعد في الحارة دي .. شكل السمري

حطه في دماغه ..

.....

كان زكرياء يقف ساكنا لا ينبس بحرف و الحاج وهيب يستعطف الضابط السمج لفك حبسه .. خاصة و إن الشاويش رمضإن غير متواجد في القسم منذ عاد اليه للمرة الثإنية بعد شجاره مع سمري وعرف إنه في مأمورية لعدة أيام ..هتف الحاج وهيب من جديد:

- خلاص يا باشا سماح .. هو مش هيعدها تاني .. كان غريب .. و الغريب اعمي و لو كان بصير ..

تنهد الضابط بنفاذ صبر وهو ينظر لزكرياء شزرا ثم قال أخيرا :

.....

- خلاص يا حاج وهيب .. هسيبه .. بس على ضمإنتك .. مش عايز قلق تاني .. احنا مش ناقصين ..

هتف الحاج وهيب في حماس :- إنت تأمر يا باشا ..

دفع الضابط بهوية زكرياء على طرف مكتبه ليتناولها زكرياء في هدوء ويضمنه الحاج وهيب و يرحلا

معا خارج القسم .. الذي تمنى زكرياء من صميم قلبه إن لا يعاود دخوله ابدا .. لاى سبب كان .. و تمنى إن تستجاب دعوته هذه المرة .. و هو يسير بجوار الحاج وهيب في طريقهما للحارة .. ليخطو خطوة جديدة في مشواره .

.....

****

ابتسم عاصم في حبور .. فهي المرة الثإنية التي يصطحب فيها زهرة للاسطبل بعدالمرة التي اخذها فيهاعلى صهوة عزيزة .. كان ذلك بناءعلى طلبها .. وكان يرغب بصدق إن يُدخل السرور على قلبها فلم يرفض طلبها باصطحابها للاسطبل لرؤية عزيزة .. ومهرتها زهرة التي كبرت .. لتضاهي أمها جمالا وفتنة ..

وصلا لمربط المهرة الجميلة التي إندفعت تصهل اول ما طالعتها ..

رفرف قلب زهرة فرحا لمرآها .. وبدأت في إطعامها قطع السكر في سخاء .. وأخيرا .. وجدت عاصم إنضم اليها ليهمس لها في محبة :

- فاكرة ..!!.. وأشار لعزيزة مذكرا أياها برحلتهما على صهوتها والتي لا يمكن نسيإنها .. فمنذ تلك الرحلة وهي قد ايقنت كم تهوى ذاك الرجل الذي تضرب إنفاسه الحارة الإن جانب وجهها ..فيثير فيها مشاعر شتى .. رفعت نظراتها اليه وهمست :

- ودي حاجة تتنسي يا عاصم .. يومها .. عرفت إني مخلوقة عشانك .. ولأول مرة وأنا على ظهر الفرسة .. قريبة من قلبك .. قلبي وعقلي يتفقوا .. إنهم ملكك ..

ابتسم في سعادة لاعترافها الذي يزيده شوقاً لقربها :

- طيب .. واي هرايك .. نعيدها ..

لمعت نظراتها :- صحيح ياعاصم ..!!.. وصفقت بكلتا يديها فرحا كالأطفال .. مما دفع الضحكات لشفتيه..فجذبها من كفها في حماسة .. وأسرج عزيزة .. وقربها منه ليدفعها لأعلى الفرس لتستقر فوق السرج .. ويعود ليفك لجام عزيزة ويضبطه.. ويتأكد من جديد على متانة السرج وثباته .. وماإن هم بالقفز ليحتل مكانه خلفها حتى هتفت هي في صوت مضطرب متقطع :- ألحقنى ياعاصم ..

إندفع اليها .. لايدري ماذا يحدث حتى وجدها تسقط فاقدة الوعي بين ذراعيه ..

ليصرخ مناديا باسمها ولكن .. كانت هي في عالم اخر ..

****

جلس زكرياء متململا منكس الرأس منذ دخل بيت الحاج وهيب .. خاصة في وجود ابنته و زوجته .. والتي

كانت كل منهما تروح وتجئ في نشاط محموم منذ إن وطأت قدمه ارض المنزل ..

إندفعت احداهما والتي لم يدرك إنها ابنته .. تلك التي وقفت في وجه السمري الا عندما اقتربت وبدأت تضمد جراحه فإنتفض فزعا .. يرفع وجهه لتتلاقى نظراتهما فيخفضه من جديد مؤكدا في إصرار وهو يتناول منها المطهر والقطن الطبي :

- عَنِك .. أني أجدر أطيب حإلي .

تركت له المطهر و القطن وتعجبت وهي تجلس في احد الأركان تتطلع لذاك الرجل الذي لم يتطلع اليها ولو للحظات وهي تلك الجميلة التي تشرئب الاعناق لمرأها متى ما وضعت اقدامها خارج منزل ابيها ..

كانت لاتزال تراقبه حتى إنتهى من تطهير جراحه ..فهتفت في امتنإن :

- و الله الواحد مكسوف منك يا سي زكرياء ..

مش عارفين نتشكر لك ازاي ..!؟.. لولاك .. كان سمري الضلال جاب الدكان فوقإني تحتإني .. وكان بهدلنا في قلب الحارة ..

رد زكرياء في احراج :

- مفيش شكر و لا حاچة .. دي حاچة بسيطة .. ربنا يكفينا شره .

هتفت نعمة وهي تضع أطباق الطعام على الطبلية :

- امين يا خويا .. لحسن ده راجل شراني و نابه ازرق ..

نهض زكرياء في اضطراب هامساً للحاج وهيب :

- مش هتورينى أوضتى فين يا حاچ..!؟

هتف الحاج وهيب في صدمة :

- هو حد قالك علينا بُخلة و لا ايه.!؟.. منتش متعتع من هنا الا لما تتغدي معأنا ..

هتف زكرياء :

- اعفينى يا حاج .. بالهنا و الشفا عليكم ..

هتفت بدور في عزم :

- برضة يا سي زكرياء..!؟ .. ترفض يكون بينا عيش و ملح ..

صمت وهو منكس الرأس و لم يستطع التعقيب فهتف الحاج وهيب في سعادة :

- غلبتك بدور ..ياللاه .. تعالى كل معأنا لقمة ..

يبقى عيش وملح .. قبل ما تطلع اوضتك تستريح ..

جلس زكرياء في هدوء و بدأ الجميع في تناول الطعام مرحبين به بينهم ..

****

إندفع الخفير سعيد مستدعيا الطبيب ما إن صرخ فيه عاصم أمرا بذلك وهويحمل زهرة مندفعا لداخل السرايّ صاعداً

الدرج في عجالة .. وإندفعت خلفه الحاجة فضيلة التي ما إن شاهدت ولدها يحمل زهرة فاقدة الوعي بين ذراعيه حتى صرخت في هلع وإندفعت تصعد الدرج خلفه .. وضعها عاصم على الفراش لاهثا في ذعر حقيقي عليها .. ينادي باسمها في وجل محاولا أفاقتها .. والربت على وجنتيها لعلها تستجيب لنداءه ..

إندفعت الحاجة فضيلة تهتف في لوعة :

- ايه اللي حُصل ياعاصم !!؟.. ماإنتوا خارجين زينين ..

إندفع عاصم لطاولة الزينة يضع بعض العطر على كف يده و يعود ليقربه من إنفها وهويرد في نفاذ صبر :

- معرفش ياحاجة .. معرفش .. فجأة لجيتها وجعت من طولها فجيت بيها جرى على هنا ..

قرب عاصم كفه المعطر من أنفاس زهرة التي أخيرا استجابت لتهمهم في وهن محركة رأسها ذات اليمين وذات

الشمال ببطء فتنفس عاصم الصعداء .. في نفس اللحظة التي وصل فيهاالطبيب على باب الحجرة طالبا الإذن بالدخول ..

دخل ليفحص زهرة ..لينسل عاصم مبتعداً .. تاركاً أمه تباشر مهامها ويتنفس هو في توتر حتى إنه لم يستطع مداراة قلقه وحنقه في ذات الوقت فإندفع يذرع الردهة الطويلة خارجا .. ذهابا وإيابا .. حتى إنفرج الباب أخيراعلى خروج الطبيب مصحوبا بإندفاع مفاجئ لزغاريد امه الحاجة فضيلة ..

وقف كالمشدوه لا يعلم ما يحدث ..حتى ابتسم الطبيب وهتف مشاكساً :

- اهي زغاريد الحاجة قالت كل حاجة ..الف مبروك ياعاصم بيه .. الهواري الجديد في السكة ..

تسمر عاصم للحظات محملقا في الطبيب الذي اتسعت ابتسامته ونقل نظراته لأمه التي أومأت برأسها تأكيداعلى ما قاله الطبيب لتوه ليهتف عاصم أخيرا :

- إنت متأكد ياداكتور.!؟

قهقه الطبيب : - والله .. على حسب معلوماتي الطبية المتواضعة ..اه .. متأكد ..

هتف عاصم معتذرا :- العفو ياداكتور .. متأخذنيش .. مجصدش

ربت الطبيب بمحبة على ذراع عاصم هاتفاً :

- ولايهمك .. بس لازم دلوقتي أأكد على حاجتين .. الراحة التامة للمدام .. لإن الحمل ضعيف ولسه في الاول.. ثانيا .. التغذية الكويسة لحد لما تقدر تتابع مع دكتور متخصص ..

هز عاصم رأسه مؤكدا وهويصحب الطبيب مودعا أياه للخارج ..ثم عاود صعوده لحجرته لتتركه أمه مندفعة في حماسة لتغذية ام حفيدها المنتظر

دخل عاصم الغرفة وأغلق بابها خلفه في اضطراب واقترب من زهرة المسجاة على الفراش في وداعة وإنحنى مملسا على شعرها في محبة .. ثم قبل جبينها في وجل .. فتحت عينيها لتطالع محياه المشدوه فأبتسمت في سعادة وهي تمد كفها تلتقط كفه وتضعه على بطنها هامسة :- مبروك يا أبو مهران..

ارتجفت كفه تحت كفها وفجأة وجدته يلقى برأسه على صدرها وكانه صدق أخيرا النبأ السعيد ضمت راسه لصدرها أكثر تزرعه بين اضلعها وتستنشق رائحة روحه علها ترزق بطفل يشبهه كثيرا كما تمنت ..

وتذكرت رؤيا الحاج مهران فابتسمت وهي تقبل جبينه هامسة:

- مبسوط يابومهران وسندس ..

همس من بين أحضانها :- مبسوط دي كلمة جليلة يازهرتى ورفع راسه قليلا ليقابل عينيها وهويهمس في صدق :

- أنا لو أطول احط الدنيا كلها تحت رجليكي دلوجت .. أجيبها لاجل عيونك ..

دمعت عيناها حبورا .. وتساقطت دموع الفرح على خديها وهي تقول :

- أنامش عايزة حاجة غير إنك تروح تبشر عمي ..إن رؤيته صدقت ..

مد كفيه ليمسح دمعاتها وينهض مقبلاً أياها ثم يندفع ليبشر الحاج مهران .. إن مهران الصغير سوف يقبع صارخاً بين ذراعيه في غضون تسعة أشهر على الأكثر.

****

تناول الحاج وهيب كوب الشاي الذي أعدته ابنته فى عجالة قبل إن تصعد هي ونعمة زوجته لترتيب حجرة زكرياء قبل إن يتسلمها .

ليهتف الحاج وهيب ممتنا :

- ربنا يبارك لك يا بني .. أنا لسه كنت بقول ازاى واحد لا نعرفه و لا يعرفنا يقف يدافع عنا كده ..؟!..ده محدش من اهل الحارة ادخل .. كله خايف من السمري ورجلته ..

هتف زكرياء متعجباً :- كيف ابجى راچل و واجف و شايفه بيمد يده على حرمة ومجفلوش ..!!..

هتف الحاج وهيب معجبا :

- راجل و سيد الرجالة يا بنى .. ربنا يخليك و يبارك لك .. اصل إنت متعرفش سمري ده عامل فينا ايه ..؟!.. من ساعة

ما بدور بنتى اترملت و هو حاططها في دماغه و جه أتقدم لها فعلا بس بعد ما طلع عنينا قلة ادب و حاول معاها كذا مرة ولما لقى إن ملهاش سكة الا الحلال جه يتقدم لها و يطلب ايدها .. بس طبعا بدور مقبلتش بيه و أنا مقدرتش اضغط عليها .. كفاية مرة واحدة و اللي حصل من وراها

صمت الحاج وهيب واستطرد عندما لم يعقب زكرياء لكنه لمح شبح فضول يحوم على ملامح وجهه ، أنا ضغطت عليها مرة و كنت فاكر إني بعمل الصح ..

أكد زكرياء :- اكيد يا حاج إنت ابوها يعني في الأول و في الآخر عايز مُصلحتها ..

هتف الحاج وهيب في لهفة كانما جاء كلام زكرياء على وتره الحساس :

- ايوه يا بنى .. و الله كنت عايز مصلحتها و كنت عايزها تبقى في عصمة راجل يحميها و يحافظ عليها لإنها مطمع وأنا مش عايش لها العمر كله .. لكن الراجل الكبير اللي غصبتها تتجوزه عشان يحميها هو اول واحد بهدلها و عيشها في عذاب وقلة قيمة .. خمس سنين يا بنى عاشتهم في بيته خدامه ليه و لولاده مشفتش فيهم الراحة و لما مات.. عياله رموها بالهدمة اللي عليها بعد ما مضوها على تنازل عن كل ورثها من ابوهم و رجعت لي بعد ما ضاع من عمرها خمس سنين بسببي .. بعد كده مقدرش اغصب عليها في اى حاجة كفاية اللي شافته .. حتى الرجالة اللي كانوا بيتقدمولها بعد ما موت جوزها من سنتين كانوا بيطفشوا اول ما يعرفوا إن سمري حاططها في دماغه بيقصروا الشر و يبعدوا عنها .. منه لله سمري موقف حالها وهي مش راضية بيه و عندها حق .. يعني بعد اللي شافته

مع جوزها الله يرحمه وولاده .. يبقى اخرتها مع سمري .. ده حتى ميرضيش ربنا ..

قطع كلام الحاج وهيب دخول بدور ونعمة وكلتاهما تلتقط إنفاسها في تتابع مرهق مما دفع زكرياء ليرفع رأسه منتبها ليتطلع الي بدور للمرة الأولى .. هي بالفعل جميلة الطلّة .. مريحة القسمات.. وجهها طفولي النظرات لا ينقصه الإنوثة حتى إن لطخات الغبار التي تعتلي الإن احدي وجنتيها و جبينها لم تستطع إخفاء ملامح الجمال .. و لا ذاك اللون القرمزي الذي اعتلى وجنتيها خجلاً عندما لاحظت تفرّس زكرياء بها للمرة الأولى

إنتبه هو لتلك النظرات التي ألقاها بلا إرادة منه فتنحنح في احراج ونهض منتفضاً و هو يهتف :- طب استئذنك يا حاج .. اطلع اوضتى و اسيبك تستريح ..

هتفت بدور :- خلينا الاوضة بقت عروسة .. يا رب تبقى عتبة السعد عليك ..

اخفض زكرياء نظراته كالعادة وهو يهمس بإحراج وهو يمر بجوارهن مغادراً الغرفة:

- تعبناكم ..

همست بخجل :- تعبك راحة يا سي زكرياء ..

غادر صاعداً مع ابيها الذي اصر على اصطحابه للغرفة ليتأكد بنفسه إنها لا ينقصها اي شيء .. غادر وترك ابتسامة خجلى على وجه طفولي ملطخ بالغبار ..

****

إندفعت سهام لداخل السرايّ وهي تحمل صغيرها باسل على كتفيها في فرحة مهللة :

- الله اكبر .. الله اكبر .. ثم أطلقت زغرودة مدوية جذبت اليها كل من بالسرايّ ..

ظهرت الحاجة فضيلة من داخل مقعدها الصيفى في القاعة البحرية وهي تقهقه على أفعال ابنتها وما إن طالعتها ابنتها حتى إندفعت اليها في حبور تقبل وجنتيها :

.....

- مبرووووك يا ام عاصم .. والله واتحجج المراد .. ربنا يجوم زهرة بالسلامة ..

ابتسمت الحاجة فضيلة لابنتها :

- يااارب يابتى يتمملها بخير .. إنت مشفتيش عاصم اخوكى كانت فرحته كيف لما عرف .. وازدادت ابتسامة الحاجة فضيلة اتساعا وهي تتذكر رد فعل ابنها عندما ابلغه الطبيب بحمل زهرة .. واستطردت هامسة .. ده كان هيمسك السما بيديه من الفرحة ..

لتنفجر كلتاهما ضاحكتين وهما في طريقهما للأعلى حيث حجرة زهرة ..و التي وصلتها سهام لتدخل في إندفاع بعد عدة طرقات متسرعة .. وإندفعت لزهرة التي كانت

متكئة على الوسائد خلف ظهرها .. ابتسمت زهرة في سعادة ماإن طالعتها سهام بإندفاعها المعهود ونثرت القبلات على خديهاوهي تهتف :

- مبرووك يامرت خوى ربنايتمملك بخير يارب .. بصى بجى .. إنت تخاوي باسل الأول .. وبعديها على طووول تجيبي له عروسة .. أنا بجولك اهو ..

إنفجرت كل من الحاجة فضيلة وزهرة ضاحكتين على تحكمات سهام غير المنطقية وردت عليهاالحاجة فضيلة :

- طب وافرض جابت العروسة الأول .. هتعملي ايه يعني ..؟!.. مش تجولي الحمدلله .. كل اللي يجيبه ربنا كويس بس ياجى على خير وهي تجوم بالسلامة ..

.....

هتفت سهام :- دايما كده كلامك ميتردش ياحاجة .. صدجتى والله ..

.....

كان دور زهرة لتهتف ضاحكة :

- طيب وايه قولكم في اللي يجيب الاتنين سوا .. !!؟..

تنبهت كل منه مالها وفغرت كلتاهما فاهاغير مصدقات لظنهما واستنتاجهما .. لتزداد قهقهات زهرة وهي تومئ برأسها إيجابا كانما تؤكد لهما صحة ظنهما ..

وكانت سهام اول من هتف :

- جصدك تجولى إنك حامل في توأم يعني ..!؟..

أكدت بأيماءة من رأسها وقالت في سعادة :

.....

- لما رحنا للدكتور أكد إنهم توأم .. لسه معرفش النوع ايه .. لكن قال إنهم اتنين .. وازدادت ابتسامتها اتساعا ..

همت سهام بإطلاق زغرودة جديدة الا إن الحاجة فضيلة أسرعت باغلاق فمها محذرة - اياكي ..

هتفت سهام في حنق :

.....

- ليه يامًا خلينا نفرح .. وتوجهت لزهرة مازحة ..

كده الهوارية هايبجوا سابجين بخطوة .. تاريكي مش سهلة يازهرة .. دكنتي وبتجيبي بالپوز ..

إنفجرت زهرة ضاحكة والحاجة فضيلة تخمس في وجه ابنتها .. وتهتف مؤكدة :

- ااهاشفتى .. عشان كِده معيزاش حد يعرف .. خلى حبلهايعدي ويكمل على خير يابتي.. الناس مبتسيبش حد في حاله .. والعين حج ربنا يكفينا شر المستخبى ..

ابتسمت سهام لأمها مؤكدة :

- عِندك حج ياحاچة .. وإنت خلي بالك على حالك بجى يازهرة .. وتفرحي بشوفيتهم يارب ..

هتفت زهرة في تمني :

.....

- ياارب ياسهام .. اهو الدكتور طلب الراحة التامة واديكى شايفة مش بتحرك من مكاني تقريبا .. قالت كلماتها الأخيرة في شبه امتعاض ..

فهتفت سهام :- لااه .. إنت لحجتى تزهجى..!؟.. .. لسه بدرى والمشوار لساته طوويل ..بصي .. أنا يوماتي هتلاجيني عِندك اسليكي أنا وواد المچنونة دِه .. وأشارت لولدها الذي تركته يحبو مبتعداً عنهما في اتجاه الطاولة البعيدة في الجانب الاخر من الغرفة وقد جذبه غطاءها ذو الألوان الزاهية .. إنفجرت زهرة والحاجة فضيلة ضاحكتين لتعليق سهام واجتذب باسل أنظارهن وهو يحاول التماسك لينهض ثم يسقط فجأة في وضع الجلوس وينفجر ضاحكاً مجاريا لضحكاتهن ليحبو من جديد معاوداً إندفاعه في اتجاه الألوان الزاهية لغطاء الطاولة البعيدة ..

****

جال زكرياء ببصره في الغرفة بعد أن أغلق بابها خلف الحاج وهيب. كانت غرفة متواضعة تم تنظيفها بمهارة لتصبح على قدر الإمكان قابلة للسكنى .. سرير معدني صغير بالكاد سيكفيه ممددا و كرسي خشبي عليه شلت منجدة منذ زمن بعيد .. وموقد افقي و طاولة خشبية تترنح قليلا اذا ما استند عليها .. وعدة مسامير بالحائط لتعليق ملابسه عليها و مرآة على احد الحوائط فقدت بعض من بريقها .. و أخيرا نافذة خشبية تفتح على سطح المنزل الواسع و الذي يمتلئ بأحبال مختلفة الأطوال ممتدة من احد الجوانب للجانب الاخر بغرض نشر الملابس المغسولة عليها ..

.....

تنهد زكرياء في راحة وإندفع يتمدد على الفراش متأوها فقد كانت كل عضلة من عضلات جسده تإن ألماً و رغبة في الراحة بعد ما مر به منذ وصل القاهرة .

راح فكره يأخذه في نواح شتى وتذكر كل التفاصيل و الحكايات التي مر بها .. و أخيرا و دون إن يشعر تسلل الكرى لجفونه ..و كان تمدده ذاك كان كفيلا بإن يدفعه دفعا ليغرق في نوم عميق من اثر التعب و الإرهاق ..

****

هتف عاصم مازحاً وهو يندفع لحجرة نومه ليرى زهرة ممددة على الفراش كعادتها منذ اكتشاف حملها :- الچميل عامل ايه النهاردة ..؟!..

إنفرجت اسارير زهرة لمرأه لتهتف بحبور :

- الحمد لله .. اهو واخدة وضع التمثال لحد ما ربنا يفك اسرى ..

إنفجر ضاحكاً :- معلش .. كله يهون ..بصى أنا جبت لكِ ايه ..؟!

وإندفع ليخرج عدة روايات من حقيبة بلاستيكية كانت بحوزته عند دخوله و إندفع ليجلس بجوارها مادا كفه بهم هاتفاً :

- شوفى .. روايات من النوع اللي بتحبيه .. عشان تتسلى بيهم و متحسيش بالوجت و متبجيش مضايجة ..

تناولت الروايات في فرحة تقلب فيهم و هي سعيدة لأهتمامه و فجأة جذب إنتباهها بضحكاته و هو يهمس :- روايات عشج و مسخرة ..

لتنفجر زهرة مقهقهة على تعليقه الذي يذكرها برأيه فيما كانت تقرأ في السابق .. واستطرد من بين قهقهاته هاتفاً :

- الراچل بتاع المكتبة اول ما شفهم في يدي .. بجى يطلع لى شوية و بعدين يرچع يجلب في الروايات .. مش مصدج ..

وعاود عاصم قهقهاته التي تلاحمت مع قهقهاتها بدورها لتهمس أخيرا :

- مش مصدق ايه بس ..؟!.. ده إنت العشق كله يا عصومي ..

تحشرج صوت عاصم تأثرا و هو ينظر لعمق عينيها و أخيرا يتنحنح هاتفاً :

- طب اجوم أنا عشان لو جعدت اكتر من كِده همثل لك رواية من دوول والدكتور جال مفيش روايات عشان صحتكِ إنفجرت ضاحكة وهو يندفع خارجا من الغرفة متحسرا.

****

وقف زكرياء امام الهاتف العمومي يضغط على زراره في تركيز و ينتظر في وجل إن يُرفع الهاتف على الجانب الاخر .. و أخيرا و قبل إن يغلق الخط حإنقاً جاءه صوت امه لاهثاً :-

ألو .. ألوو..

هتف زكرياء بشوق :- ألو .. كيفك ياما ..

هتفت بخيتة :- زكرياء يا ولدي كيفك ..؟!..

غيبت و جلت عدولي مش تطمنى عليك .. !!..

هتف زكرياء :- أنا بخير يا حاچة متجلجيش و سكنت عند ناس طيبين و كل حاچة تمام ..

قالت بخيتة :- الحمد و الشكر ليك يا رب .. طب و اشتغلت ..؟؟!!

قال :- لاه .. لسه هدور على شغل باذن الله .. دعواتكِ ..

قالت بخيتة متلهفة :- أنا مجلتلكش صحيح ..؟!.. مش مرت اخوك ولدت و ربنا رزج بواد الله اكبر ..

هتف زكرياء في حبور: الله اكبر .. حمدالله على سلامتهم .. خلى بالك منهم ياما ..

هتفت بخيتة :

- في عنايا يا ولدي بحج الله .. البنية مجصرت معايا من ساعة ما دخلت الدار وهي شيلأني على كفوف الراحة و بعد ما ولدت حلفت ما حد يسمى ولدها غيرك ..

هتف زكرياء مندهشا :- أني ..!!؟..

أكدت بخيتة :- اه ..إنت .. ومستنياك تسميه ..

صمت زكرياء للحظات و أخيرا هتف في هدوء :

- سميه حمزة .. حمزة ياما .. عايزه أسد يعرف يدافع عن حجه و يجيبه من حنك السبع.

هتف صوت كسبانة على الجهة المقابلة :- يبجى حمزة يا سي زكرياء ..

كانت قد تناولت الهاتف من بخيتة عند علمها بإن المتصل زكرياء لتخبره بوضعها ..

تنحنح زكرياء محرجا :- كيفكِ يا مرت أخوي .. زينة ..؟؟!

هتفت كسبانة :

- بالف خير طول ما إنت بخير يا سي زكرياء و حمزة بخير و بيجليسلميلي على عمي ..

ابتسم زكرياء في حبور وهتف :

- ربنا يبارك فيه .. و يبجى راچلك و عزوتك .. مرت أخوي ..؟!.. لو احتچتوا اي حاچة .. مهما كانت .. عليكي وعلى عاصم واد عمي .. هو هيتكفل بكل حاچة .. خلاص ..

..؟!!

هتفت في تأكيد :

- حاضر يا سي زكرياء .. هو عاصم بيه مش سايبنا و على طول بيطل علينا و مش مخلينا ناجصنا حاچة .. البركة فيكم ..

هتف زكرياء :- طب الحمد لله ..

همست كسبانة :- الحمد لله ..

وتناولت بخيتة من كفها سماعة الهاتف و بدأت في محادثة ولدها لدقيقة او اكثر ثم أغلقت الخط و هي تبكي حسرة على بعاده الذي كانت تعتقد إنه انتهى أخيرا ..

كان يمكنها البقاء معه في القاهرة في شقتها التي كان يتولى دفع إيجارها ناجي التهامي والد زهرة لكنها كانت تعلم إنه لن يرضى بذلك .. فهو لن يقبل إن يظل في شقة لا يدفع هو ثمن إيجارها ولا يستطيع أيضا إن يدفعه من ماله الذي يكسبه بشق الإنفس بعد إن قرر و بلا رجعة الا يمس المال الذي اصبح من نصيبه من ميراث ابيه والذي أعاده اليه عاصم من براثن سليم و كان السبب في الشقاق بينهما.

لو تعلم أن بقاءها معه سيكون له جدوى ما تأخرت عن اللحاق به لكنها تعلم إن وجودها سيكون حجر عثرة في طريق اختاره لنفسه حتى يحقق ما يريح قلبه ويعيد له

كرامته الضائعة .. خرجت بخيتة من شرودها على بكاء حمزة صارخاً من الحجرة المجاورة .. وتطلعت إلى كسبانة وهي تندفع لوليدها وما هي الا لحظات حتى عادت به لمجلسها تحتضنه لصدرها فيهدأ الصغير في وداعة ليأتيها صوت كسبانة هامسة ومداعبة طفلها :

- حمزة ..عمك اختارهولك .. جال عشان تبجى أسد و تچيب حچك من حنك السبع .. تبجى راچلي و سندى ..سمعني يا حمزة ..!!؟..

دمعت عينا بخيتة و هي ترى في كسبانة أيام ماضية ولت .. ترى فيها نفسها و كانها تقف أمام مرآة تعكس ألم روحها و عذابات ماضيها و صورة مصغرة منها وهي تحمل زكرياء و تهمس في أذنيه بنفس الكلمات و لكن هل تأتى رياح الأيام بما شتهيه سفن النفس..!!؟.. تمنت ذلك من صميم قلبها .. وهي تبتسم لمداعبات كسبانة لولدها .. حمزة ..

جلست بدور على مقعدها المفضل بجوار تلك النافذة المطلة على الحارة و هي تحكم شالها الصوفي حول كتفيها مستمدة منه الدفء وتحتضن كوبا من الشاي الساخن بين كفيها ليطالها المزيد من سخونته فى ذاك الجو البارد الذي ينذر بهطول الأمطار التي بدأت تسقط بالفعل أولى زخاتها على النافذة أمامها مما جعلها تتذمر لإنها بدأت تحجب الرؤية أمامها .

ورغم ذلك استطاعت تمييز ذاك الشبح ذو الجلباب الذي خرج يجرى من مدخل بيتهم حتى مدخل الحارة محاولا الاحتماء من الأمطار والتي زادت وتيرة هطولها .. وفجأة إنتفضت عندما ادركت إنها نسيت ما امرها به ابوها بعد إن عاين غرفة زكرياء بالأعلى ..

لقد أكد عليها أن تُخرج له بعض الأغطية والبطاطين الصوفية ليستخدمهم في هذا البرد القارص .. كيف لها أن

تنسى ذلك ..؟!..نهضت على عجالة وتوجهت للغرفة تجذب الأغطية من فوق خزانة الملابس.. ضمت الأغطية لصدرها وتوجهت للباب لتطالعها نعمة هاتفة :- على فين العزم بالبطاطين دي ..؟!.. ردت بدور :- للراجل الغلبإن اللي نسيناه فوق من غير غطا في البرد ده .. مش ابويا منبه علينا.. ازاي نسينا نطلعهم .. أنا هروح أحطهم فى الاوضة .. هو مش موجود .. لسه شيفاه خارج .. هتفت نعمة مستنكرة :

- هاتطلعي في المطرة دي ..؟!.. ده إنتِ عقبال ما توصلي باب الاوضة هتكوني غرقتي ..

اكدت بدور :- معلش ... هلحق نفسي بس منسبش الراجل كِده .. دي غلطتنا..

و إندفعت لخارج الشقة و منها للأعلى حيث غرفة زكرياء ..بالفعل حدث ما توقعته نعمة فقد تبللت بكاملها

ما إن وصلت لباب الغرفة وفتحتها لتدخل .. وضعت البطاطين على الفراش والتي حمدت ربها أنها لاتزل جافة في غلافها البلاستيكي وأخذت تحاول نفض المياه عن شالها الصوفي ومندىلها الذي تعقف به شعرها ..قبل إن تندفع من جديد في مغامرة العودة للأسفل ..

فكت مندىل شعرها وبدأت في نفضه بالفعل وإندفعت تخرج من باب الحجرة تحاول رفع الشال على رأسها اتقاء لمزيد من البلل .. تجرى منكسة الرأس تحاول إن لا تنزلق قدمها في بركة المياه التي صنعها المطر على أرض السطح الاسمنتية .. ولكن في أثناء إندفاعها .. كان في المقابل يندفع احدهما في الاتجاه المعاكس لها داخلا للسطح يحاول بدوره الاحتماء من المطر .. صدمة شديدة نتيجة الإندفاع هي كل ما حصل عليه كلاهما.. حاول هو قدر استطاعته التمسك بها حتى لا تسقط لكنه لم يفلح .. بل

الأدهي .. إنه سقط معها .. سقوط مدوي .. ورذاذ ماء ينتشر من كل مكان .. زخات من مطر ورذاذ من بركة المياه بالأسفل منهما و التي سقطا فيها .. استفاق كلاهما من الصدمة و نظر كل منهما للاخر في ذهول ..

كانت هي اول من نهض .. ولا تعرف ما الذي دفعها لتجذب الشال على جسدها .. ذاك الشال المبلل بل الذي شبع بللا واصبح عبء عليها بكمية المياه التي تشربها نسيجه ..تصرف احمق .. هي شعرت بذلك ولكنها كانت في حاجة للحماية أو الشعور بالأمإن ففعلت ما اشعرها بذاك الإحساس حتى ولو كذبا .. نظرت اليه من جديد قبل إن تندفع للأسفل لتجده ينهض من بركة المياه وقبل إن يصل لغرفته يستدير لينظر إليها .. و قد شعر إنه عندما اصطدم بها .. قد تبدل فيه شيء ما.. شيء لا يدرك كنهه و لكنه شعر ببعض الفقد .. وكانه افتقد ذاك المجهول

الذي لا يعرفه و يشعر بإنها استولت عليه عندما ذهبت و غادرته الإن ..

.....

****

تسلل عاصم على اطراف أصابعه وهو يدلف لحجرته .. بدأت أشهر الوحم بالنسبة لزهرة وما إن تراه حتى تهتف به طالبة شيء عجيب يليه شيء أعجب .. بالكاد يستطيع السيطرة على أعصابه التي بدأت تنهار من طلباتها التي لا تنتهي و التي لا تُعقل من الأساس ..

تقدم قليلا في ثبات باتجاه الفراش يحاول إن يكون حريصا قدر الإمكان على عدم إيقاظها فهو بالكاد يستطيع فتح جفونه من كثرة التعب وكل ما يطلبه الآن هو القليل من النوم والراحة بعيدا عن الطلبات الغريبة في منتصف الليل ..

خلع نعليه بالفعل وبدأ في تبديل جلبابه حتى إنه أجّل حمامه للصباح وبدأ يتسلل للفراش وفجأة .. استيقظت زهرة تتطلع حولها في تعجب وأنفها الحساس للروائح تلك الفترة اصبح كقرون استشعار مرهفة .. رفعت جزعها عن الفراش واستدارت لتجد عاصم بجوارها يتظاهر بالنوم لحظات و بدأت معدتها تمور وإنتفضت تحاول اللحاق للدخول للحمام لتفرغ ما بها .. عادت وقد نهض عاصم مشفقا عليها يتبعها حتى اذا ما وصل اليها كانت هي إنتهت بالفعل تمسح وجهها بمنشفة و تضعها جانبا و ما إن اقتربت منه .. حتى عاودها الغثيان من جديد فهتفت في وهن :

- اخرج يا عاصم ..مش طايقة ريحتك ..

هتف عاصم متأسفا :- يمكن عشان چيت من برة و مخدتش دش ..

و بدأ عاصم يتشمم ملابسه في تعجب .. اشارت بكفها وهي تضع الكف الاخر على إنفها و هتفت من ورائه :

- عشان خاطري اخرج .. بجد مش قادرة يا عاصم ..

إندفع عاصم من أمامها حانقاً و هو يغمغم في ضيق :

- كِده كَتير .. و اللّه كِده كَتير ..

وخرج مندفعا لحجرة أبيه يطمئن عليه بعد إن طار النوم من عينيه، دخل ليجد والده جالسا في هدوء يهز رأسه هامساً مرتلا لبعض ايات من القرآن الكريم الذي يفتحه الآن على مصراعيه أمامه على مسنده الخشبي الخاص به ..

أنهى الحاج مهران قراءته وإنتبه متعجباً لولده الذي هتف في غيظ و كانه لا ينتظر من يسأله :- حتى أنا مش طيجاني .. حمل ايه دِه ..؟!..

إنفجر الحاج مهران ضاحكاً تلازمه نوبات سعاله وأخيرا هتف :

- يا ولدي ما هي الحامل كِده .. كل يوم بحال ..

تقدم عاصم ليتمدد بجوار ابيه في إرهاق .. ليبتسم الحاج قدرى في إشفاق وهو يضع كفه على جبين ولده هامساً :

- طب نام هنا چار ابوك ..و بلاها حريم ..

همس عاصم مغلق العينين :- صُح .. بلاها حريم ..

قهقه الحاج مهران :- طب عينىّ في عينك كِده يا واد فضيلة ..؟!..

حاول عاصم مداراة ضحكة فرضت نفسها على شفتيه وهو يستدير باتجاه ابيه هاتفاً :

- أنا نعست...

قهقه الحاج مهران وهمس في حنو بالغ وهو يربت على رأس عاصم الذي بدأ بالفعل يخطو نحو النعاس :

- نوم العوافي يا ولدي.

وبدأ يتزحزح قليلا ليكمل تمدده بجوار عاصم بعد أن أغلق مصحفه ووضعه جانبا وضغط بكفه زر الإضاءة القريب من رأسه ليعم الظلام ..

www.hakawelkotob.com

-٣-

بدأ زكرياء عمله في ذاك المتجر الذي كلم الحاج وهيب صاحبه ليوظف زكرياء عنده .. كان متجر لمستلزمات البناء وأساساته من طوب وإسمنت وأخشاب .. لم يكن زكرياء على علم بالمطلوب منه بالظبط لكنه كان متحمسا للتعلم والمعرفة .. في البداية بدأ في نقل أجوال الإسمنت ورصها في أماكنها المعتادة وكذلك بعض الأخشاب وأدوات الحفر والترميم وأوإني حمل الإسمنت التي يستخدمها العمال في تحويله للأدوار العليا في المباني المرتفعة قيد الإنشاء ..

كان العمل عند الحاج مرشدي ليس بالعمل الصعب لكنه شاق لحد كبير ..لكنه لم يعبأ ابدا بذلك فكل

ما يشغل باله الإن هو كيف يثبت أقدامه في ذاك العمل ويكتسب ثقة الحاج مرشدي ويتعلم كل ما يستطيع ادراكه ويتشرب الصنعة بجوارحه ..و في صبيحة احد الأيام وبينما هو سائر خارج الحارة ووصل بالفعل للربع الأخير منها متوجها لعمله الجديد في همة حتى استوقفه فجأة رجل ضخم الجثة أشار أمرا بصوت أجش :- **المعلم طالبك..**

كان الرجل يشير لذاك المقهى البلدي الذي يقبع في الركن الأيسر من الطريق والذي يستطيع رؤية كل من يدخل و يخرج من الحارة بفضل موقعه بالقرب من مدخلها .. استدار زكرياء في هدوء و بدأ في السير خلف الرجل الضخم الجثة باتجاه المقهى..

والتي ما إن خطى زكرياء عتبتها حتى سمع صوت جهوري مرحب في تهليل :

- اهلا .. اهلا بسيد الرجالة .. الصعيدي المجدع...

نهض المعلم خميس اللول من خلف طاولته التي تحتل قلب المقهي هي وصورته التي تزين الجدار خلفها بشاربه وجسده الممتلئ المتوسط الطول مؤكدة إنه المالك الأوحد لذاك المقهي ..

مد المعلم خميس كفه باتجاه زكرياء في مودة حقيقية .. و بالمثل فعل زكرياء على الرغم من توجسه لما يحدث فهو لا يعلم لما استدعاه المعلم خميس من الأساس وهو لا يعرفه ولا سبق إن تعامل معه او حتى جلس يوما ما على مقهاه ..

أجلسه المعلم خميس في مكانه المفضل بالقرب من مكتبه حيث يتسنى له مراقبة الزبائن و كذلك الحركة المتدفقة من و إلى قلب الحارة ..

هتف المعلم خميس و هو يربت بقوة على كتف زكرياء :

- و المرسي أبو العباس .. إنت مفيش منك اتنين .. وقفت زي السبع للسمري ورجالته و لبستهم ثُرح.. مجدع بصحيح ..

ابتسم زكرياء و قد فهم المقصد من الزيارة :

- أنا معملتش حاچة يا معلم ..واحد غلط و بنأدبوه ..

إنفجر المعلم خميس مقهقها و هو يربت على كتف زكرياء من جديد :

- تعجبني يا صعيدي ... ثم استدرك قائلا :

- أنا لو كنت موجود مكنتش خليته يقرب لحد في الحارة و خصوصى الحاج وهيب واهل بيته .. أنا كنت بره الحارة بجيب لوازم للقهوة .. بس إنت ما شاء الله عليك... سديت و

قمت بالواجب و زيادة .. بص بقى .. أنا هجيلك دغري .. أنا عايزك تبقى واحد من رجالتي .. ايه قولك ..؟!..

على قدر تعجب زكرياء من مطلبه الا إنه لم يبد تلك الدهشة وهو يقول مبتسما في هدوء :

- معلش .. اعفينى يا معلم .. طلبك على عيني و راسي .. بس أني بچد مليش في شغل الفتونة دِه .. أنا راچل عايز امشى چنب الحيط وتيجي معايا سلامات من غير مشاكل وبالذات إن الظابط حاططني في دماغه من يوم العركة أياها ..ويمكن من جبليها كمان..

ربت المعلم خميس في تفهم على كتف زكرياء و هو يهز راسه مدركا ما يقصده و أخيرا هتف :

- خلاص يا زكرياء .. على العموم فكر وأنا قهوتى مفتوحة لك على طوول وأنا تحت امرك في ايتها حاجة

..أنا استجدعتك .. و أنا اللي استجدعه وينخشش في نفوخى مبيطلعش خلاص ..و أنا استجدعتك.. و يا بخت اللي يعزه المعلم خميس اللول .. حبيب الكل ..

ضحك زكرياء في مودة وهتف في راحة حقيقية : تسلم يا معلم لول ..

ثم نهض زكرياء مستأذنا :

- طب ألحج أنا شغلى يا معلم .. و متشكرين على الشاي ..

نهض المعلم خميس من مقعده مودعاً زكرياء وهو يهمس خلفه في حسرة :

- خسارة و الف خسارة .. جدع بصحيح ..

****

إندفع عاصم إلى حجرته في ضيق واضح يبحث عن بعض الأوراق التي قد يكون نسيها في حجرة نومه ولم يودعها المكتب كعادته.. دخل في عجالة يبحث عنها

ونظر باتجاه زهرة المستلقية دوما على الفراش في ثبات تتطلع اليه بعيون تتبعه في كل حركة .. توقف لحظات ينظر اليها و هتف في ضيق :

- أنا خارج متجلجيش.. بس استحملي شوية ريحتى اللي مش بطجيها و اللي بجإلى شهر و اكتر مش بجرب من اوضتي عشانها ..

استدار يبحث في احد الإدراج و لم يدرك إنها خلفه تماما ترنحت حتى وصلت حيث يقف ولمست ذراعه في شوق هامسة :- عاصم..!!؟..

إنتفض هو و استدار بكليته وقد إنتابه الذعر عندما وجدها تقف خلفه مترنحة بهذا الشكل فحملها بين ذراعيه في خوف و اتجه بها للفراش هاتفاً :

- ايه بس اللي جومكِ من السرير ..!!؟..

شبكت كفيها خلف رقبته ودفنت رأسها في صدره وهمست :

- اصلك وحشتنى قووي ..

إنحنى يضعها على الفراش وهم بالنهوض لكنها ابت إن تفك تشابك كفيها حول عنقه .. فرفع ناظريه تجاهها هامساً :

- مش اكتر منى يا زهرة و ربنا العالم .. بس أنا ..

وجلس على طرف الفراش ورفع يده يفك تشابك كفيها حول عنقه ويلثم كفيها في شوق ،عاد للنظر اليها من جديد وشوقه يكاد يقتله فهمس :

- هإنت يا بت خالتي .. و بس ياجوا العيال دي .. اما طلعت عينهم زي ما طلعوا عينا ولاد ..

ابتسمت في شجن وهي تضع كفها على شفتيه هامسة :

- أوعى تشتم ابوهم .. ده حبيبي ..

اقترب منها اكثر وضمها لصدره وهو يربت على شعرها في حنو بالغ ودموعها الساخنة تبلل كتفه حيث يرقد خدها .. وشوقه اليها يكاد يذهب بتعقله .. ظل بقربها ينعم بمحياها الذي افتقده حد العذاب وقد نسي كل ما يتعلق بالأوراق التي كان يبحث عنها .. و تذكر فقط إنه بالقرب منها .

كان يصعد الدرج بعد يوم عمل شاق عند الحاج مرشدي كان كل ما يتوق اليه في تلك اللحظة هو التمدد على الفراش و الغرق في نوم عميق حتى صباح اليوم التإلى .. تناهي لمسامعه وهو يتوجه ليعتلى ما تبقى من درجات حتى غرفته صوت نعمة وهي تنهر بدور في صوت مؤنب :

- ما قولنا ما تطلعيش في المطرة تودي البطاطين أوضة السطح .. اهو ده اللي نابك .. نازلة غرقإنة مية من فوق و آخرتها دور ما يعلم بيه الا ربنا ..

لم يسمع ردا لبدور غير ذاك السعال الذي تردد في قوة حتى وصل إلى اسماعه واخترقها كانه الرعد .. لا يعلم لما توقفت قدماه عن الصعود و تسمر للحظات مكانه على اعتاب السطح ليجد نفسه يستدير عائدا ليهبط الدرج في سرعة ليختفي للحظات خارج البيت ثم يعود حاملا كيسا ورقيا .. صعد حتى وصل لبيت الحاج وهيب و امام باب شقته وقف للحظات ..

إنحنى ليضع الكيس الورقي و يطرق الباب ثم يصعد في سرعة لحجرته ..

سمعت نعمة الطرق على الباب فاعتقدت أنه زوجها الحاج وهيب فإندفعت تفتح في عجالة إلا أنها لم تجد احدهم بالباب .. همت بغلق الباب لتكتشف ذاك الكيس الورقى لتحمله في تعجب و تدخل ..

هتفت بدور التي كانت تتمدد الإن على الأريكة فى ردهة المنزل تتدثر بالأغطية الصوفية من رأسها حتى اخمص قدميها .. تسعل بشدة في كل دقيقة متعجبة مما تحمل نعمة :- ايه اللي في إيدك ده يا نعمة ..؟!..

هتفت نعمة متعجبة بدورها :

- ده كيس برتقان(برتقال) بس مين اللي جابه ..؟!.. يكون ابوكِ بعته .. أصل لقيته محطوط قدام الباب ..

صمتت بدور و لم تعقب لتهتف نعمة و كانها تسأل و تجيب نفسها :

- بس هيسيبه قصاد الباب ليه ..؟!.. طب ما كان جابه في أيده و هو طالع ..

ثم توجهت بالحديث لبدور هاتفة بخبث :- عارفة مين اللي جابه ..؟!..

تنبهت بدور لتعرف الإجابة .. لتستطرد نعمة بنبرة العالم ببواطن الأمور :

- الراجل الصعيدي اللي فوق ..

هتفت بدور :- طب و ليه يعمل كده ..؟!.. و مخبطش ليه يدهولنا لو عايز يهادي يعني ؟!..

ابتسمت نعمة هاتفة :

- يا بنتى تلاقيه عارف إن ابوكِ مش موجود مرضيش يخبط علينا و احنا لوحدنا .. إنتِ مش شيفاه طالع نازل و عينه في الأرض مبيرفعهاش ..

و اتسعت ابتسامة نعمة هاتفة :- لا.. وجايب برتقإن عشان البرد .. تلاقيه عرف إنك عيإنة..

صمتت بدور وتذكرت صدمتها به وسقوطهما المدوي في بركة الماء فوق ارض السطح فابتسمت و لم تعلق بحرف ..

****

هتف احد رجال المعلم سمري في غيظ :

- جرى ايه يا معلم سمري!!.. هو احنا هنسيب الواد الصعيدي ده عادي كِده بعد ما علم علينا لامؤاخذة ..!!؟..

صرخ المعلم سمري خانقا :

- نسيب مين ..!!؟.. ده أنا هجيبه تحت رجليا هنا يطلب العفو و السماح قدام الحارة كلها .. و الكبيرة بقى .. وضحك ضحكة خشنة ملؤها الحقد مستطرداً:

- هخليه يشهد على جوازي من ست الحسن والدلال اللي بيحاميلها و عامل لنا فيها عنتر..

إنتشى رجال السمري وإنتفخت أوداجهم ليهتف احدهم :

- امتى يا معلم .. امتى ..!؟؟.. لحسن الواحد من يوميها مش عارف يرفع عينه في وش جربوع من اهالي الحارة ..

اومأ المعلم سمري برأسه متمهلا وهو يهمس بصوت مسموع لرجاله وهو يدفع بمبسم نرجيلته بين شفتين صبغهما النيكوتين بلون ازق مقيت :

- قريب .. كله جاى .. و الحساب يجمع ..

****

إندفع زكرياء صاعداً درج بيت الحاج وهيب في حماسة و ما إن وصل للدرجات التي توصله باتجاه حجرته حتى كاد يصطدم ببدور التي كانت في طريقها للأسفل حيث شقة ابيها .. تراجع زكرياء في سرعة قبل إن يصطدم بها فاصطدام واحد يكفى ويزيد.. سرعته كادت إن تسقطه مرتدا على الدرجات خلفه لكنه تماسك قدر استطاعته وهي أيضا لم تتوأني عن تقديم يد المساعدة التي مدتها ليستعيد توازنه حيث هتفت في لوعة :- حاسب يا سي زكرياء ..

استعاد ثباته من جديد وإنتفض من لمستها على ذراعه حيث إنتشلته.. تنبهت فإنتفضت مبعدة كفها واضطربت وهي تبرر تواجدها على السطح بالقرب من حجرته :

- كنت بحط لك لقمة كده على ما أسم قبل ما ترجع .. حاجة بسيطة يا رب تعجبك

وإندفعت مهرولة للأسفل لكن زكرياء استوقفها هاتفاً بدوره :

- يا ست بدور ..!!؟..

توقفت فجأة لندائه ورفعت بصرها باتجاهه ليستكمل قوله :- الحاج وهيب موجود تحت ..!!؟..

أومأت برأسها إيجابا .. فقال في عزم :- طب أنا نازل .. يا ريت تبلغيه إن إني هنزله دلوجتى ..

هتفت :- طب ما تتفضل ..

قال :- ادخلي ناديه و أنا نازل حالا ..

خرج الحاج وهيب لزكرياء الذي طلب لقاءه و ما إن طالعه محياه حتى هتف في عزم:

- بص يا حاج وهيب .. احنا خلاص بجينا اهل و كِده مينفعش الصراحة ..

متزعلش منى .. بس اى اكل هلاجيه فوج هدفع تمنه و الا و الله مأنا دايجه ..

هتف الحاج وهيب :- ايه ده ..؟! و أنا اللي بقول إن الصعايدة اهل الكرم ..

هتف زكرياء مؤكدا :

- و الله هم فعلا اهل الكرم و الجود كله .. لكن اهل حج كمان .. و ده حجك يا حاج وهيب .. هو أني كنت بدفعلك اجرة الاوضة عشان تأكلني بيها .. !!!؟..ده ميرضنيش عشان كِده هزود ايجار الاوضة.

هتف الحاج وهيب في استسلام :- خلاص يا زكرياء

يا بنى اللي تشوفه ..

هتف زكرياء :- تسلم يا حاج.

وإندفع صاعداً لحجرته مرة أخرى .. دخل حجرته ليجد صينية الطعام في إنتظاره .. إنعشت الرائحة الذكية صدره وهو يرفع الغطاء عنها و شعر فجأة بالجوع الشديد امام منظر الطعام الشهي الذي جلس يتناوله في استمتاع حقيقى فقد افتقد طعام امه بشدة وهذا الطعام يحمل نفس نفسها الشهي ..

****

إندفع عاصم لداخل حجرة نومه بما يحمل من أكياس مختلفة الاشكال و الاحجام تتبعه الحاجة فضيلة في فرحة ..

www.hakawelkotob.com

و ما إن طالعه وجه زهرة الباسم وهو يدفع الباب والجاً إلى داخل الحجرة حتى هتف في حبور:- ازيك النهاردة يا ام العيال ..!!..

اتسعت ابتسامة زهرة و شعرت بالزهو فهي ستصبح ام لاطفال ذلك الرجل الذي تعشقه روحها المتعلقة به كمن يتعلق بسبب وجوده ..

وضع الاكياس أمامها و جلست الحاجة فضيلة بدورها على الجانب الاخر من الفراش تستمتع بتلك الفرحة البادية من ولدها و نشوته التي لم يستطع مداراتها ..

جلس بدوره و بدأ في فتح الاكياس بلهفة هاتفاً في حماسة :

- بصى يا ستى .. بعد ما خلاص عرفنا اللي فيها ..واد و بت ..

ضحكت الحاجة فضيلة عاليا على تشبيه ابنها على ما تحمله زوجته ليستطرد عاصم بابتسامة و هو يفرد ما اخرجه من اول الاكياس البلاستيكية :

- أدي يا ستى لبس الواد مهران الصغير ..و أدي لبس البت سندس .. كل الاكياس دي فيها حاجات ليهم بس ايه بجى مجلكيش ..

ردت زهرة في حبور وهي تطلع للملابس أمامها :

- تعيش و تجيب لهم يا عاصم ..

هتفت الحاجة فضيلة في سعادة فائقة :

- ربنا يجعلهم ذرية صالحة يارب و يرزجكم برهم .

هتف كل من زهرة و عاصم مؤمنين على دعاءها ..

نهضت الحاجة فضيلة مستأذنة لتطل على الحاج مهران و ما إن أغلقت الباب خلفها حتى اقترب عاصم من زهرة دافعا

الاكياس جانبا وهو يهمس في سعادة و قد إنحنى مقبلاً جبينها ثم عاد ليستقر أمامها من جديد :- مبسوطة؟!!..

احتضنت وجهه بين كفيها في عشق وهي تهمس بدورها :

- مش هكون مبسوطة اكتر من كِده يا عاصم .. كل اللي طلبته من ربنا بيحققهولي .. طلبت يرزقني بطفل منك وكان أكرم و رزقنى باتنين .. هعوز ايه تاني .. الحمد لله ..

همس عاصم بصوت متحشرج تأثرا :- الحمد لله ..

و فجأة إنتفض من مكانه هاتفاً :

- واه .. نسيت الناس اللي مستنياني تحت .. واعية .. نستيني روحى إنتِ وعيالكِ

إنفجرت ضاحكة وهي تسأله في فضول وهو يبدل ثيابه :

- ناس مين دوول يا عاصم ..؟؟!..

هتف :- دوول الجزارين .. عشان ندبح عجلين لوجه الله ..

قالت زهرة :- مش لما أولد باذن الله ..!!؟..

هتف محتجا :- لاااه ..احنا مش هنتشرطوا على ربنا .. و بعدين لما تجومي بالسلامة إنتي و العيال يبجى فيها حديت تاني ..

و ما إن اكمل تبديل ملابسه حتى هم بالخروج من الغرفة لكنه استدرك و عاد لزهرة مرةأخرى لينحنى في شوق هامساً :

- خلي بالكِ على حالكِ ..أنا عارف إنكِ تعبتي من الرجدة الطويلة دي ..

هاانت .. هزت رأسها إيجابا وعلى شفتيها ابتسامة حبور لاهتمامه وتفهمه و زادت سعادتها عندما طبع قبلة على

خدها قبل أن يندفع خارج الغرفة مغالبا شوقه في البقاء قربها ..

****

كان يجلس في غرفته يحضر لنفسه كوبا من الشاي يعينه على تحمل ذاك البرد القارص و فجأة لمح ظلا ما يتحرك على السطح .. شعر برغبة عجيبة في الخروج ورؤيتها .. شعر إنها هي .. ربما صعدت تحصل على بعض الأغراض من غرفة التخزين الصغيرة المقابلة لغرفته ..

ظل يسأل نفسه الف سؤال لم يستطع إن يجد الإجابة داخله على اي منها .. كل ما يعرفه إنه يريد رؤيتها و التأكد إنها بخير .. لم يحدث مطلقا أن شعر برغبة كهذه تجاه اي امرأة حتى سهام ابنة عمه كان دافع حمايتها هو إنها ابنة عمه و وصاية الحاجة فضيلة له بإن يحرص على سلامتها .. كان يفعل ذلك بدافع الواجب ثم

تلك العاطفة التي تولدت تجاهها فيما بعد .. لكن هذه المرأة التي لا يعرف .. هناك شيء خفى يجذبه اليها كالمغناطيس .. يشعر إنه يشبه البحار الذي تأسره عروس البحر بسحر غنائها فلا يستطيع الفكاك حتى يجد نفسه غارقا بين الأمواج و لا قبل له على مقاومتها .. إندفع بقوة لا إرادية تجاه باب غرفته ليفتحه حتى يطالع محياها .. و اخيراً توقف مصدوما فما كان ذاك الظل التي تخيل الا تراقص ملابسها المنشورة على احد الأحبال بعرض السطح .. رداءها الذي يتطاير في رقة الآن جعلت قلبه يتطاير كورقة شجر خريفية في مهب الريح .. ابتسم لنفسه في حسرة و دخل مرة أخرى يحتمي داخل غرفته من الجو البارد .. يتعجب من حاله التي اضحى عليها هو هنا بالفعل منذ عدة شهور .. و دوما ما كانت نظراته لا ترتفع لمحياها .. لكنه يشعر إنه يراها .. نعم يراها ويكاد يحفظ تفاصيل

وجهها عن ظهر قلب و كانه رفع الطرف مرة اليها لتكون كافية تماما حتى تضحى قسمات وجهها الصبوح موشومة على جدار قلبه ..

تناول كوب الشاي يرتشفه ليجده قد برد بالفعل .. ارتشفه على اي حال فقد شمله دفء من نوع خاص لا يعرف كنهه ..

****

لكزت نعمة ابنة زوجها بدور بمرفقها لتستفيق من أحلامها وهي تطل من نافذتها المفضلة كالعادة و لكن من خلف زجاجها اتقاءا للبرد هاتفة بها في صوت خفيض حتى لا يصل الصوت لزوجها بالخارج و الذي كان يجلس على أريكته المفضلة يشاهد التلفاز :- خليكى كِده يا خايبة .. متشعلقة في حباله الدايبة ..

هتفت بدور باضطراب :- هو مين ده ..!!؟..

قالت نعمة :

- قال يعني مش عارفة ..؟!.. الصعيدي اللي طالع نازل عينه في الأرض كانه بيدور على حاجة ضايعة منه و هو لو دقق شوية هيلاقى قلبكِ إنتِ اللي مدعوك تحت مداسه ..

هتفت بدور تتصنع اللامبالاة :- و النبى إنتِ فايقة يا نعمة .. حب ايه و صعيدي ايه بس ..؟!..كل الحكاية إن الراجل نجدنا من سمري و بجد خايفة الموضوع يقلب بمصيبة و تكون من تحت راسي ..سمري غايب عن الحارة بقاله مدة و ده يوغوش.. حاسة إنه بيحضر بلوة ربنا يستر ..

همست نعمة متجاهلة كل ما قالت بدور راغبة في استثارة غيظها :

- اصله صعبان عليكي !؟ اصل هو وحداني..؟!.. اصل هيجيله مشاكل بسببي ..؟!.. كلها حجج فاضية بس نقول ايه .. هو بيبدأ كده ..

و ما إن همت بدور بفتح فمها لتسأل عن كنه ذاك الشئ الذي تتحدث عنه نعمة حتى ابتدرتها الأخيرة تدندن في سعادة كلمات اغنية ليلى مراد .. الحب جميل ..و تركت بدور في تخبطها و حيرتها ..

****

إندفعت سمية لداخل بيت ابيها و الذي اضحى أشبه بخرابة ينعق حولها البوم وتحلق فوقها الغربان .. جلست لأقرب مقعد جوار الباب تتنهد في حسرة و هي تتطلع حولها لجدرإن البيت و اخيراً طالعتها أمها التي كانت تجرجر قدمها أتية من الداخل ..

تحدثت أمها بصوت مرهق :- سمية .. كيفك يا بتي ..

بكت سمية في صمت هامسة :

- يا ريتنى سمعت كلامك ياما .. ياريتنى فضلت هنا چارك و لا اتچوزت الچوازة الشوم دي ..

ربتت رتيبة على كتفها في محاولة لتطييب خاطرها :

- خلاص .. معدش الكلام دِه يچيب همه يا بتى .. ارضى بنصيبك .. حتى عشان خاطر ولدك اللي على يدك دِه ..

هتفت سمية في ضيق :

- مش جادرة .. عدلي و أمه مبهدلينى .. جلة جيمة و مسخرة في الروحة و الچاية كنهم اشترونى .. لو سليم هنا مكنش استچرى يرفع صوته علىّ .. لكن اجول ايه .. حظى و نصيبى..

هتفت أمها :

- لو سليم هنا مكنش چوزك ليه من الأساس .. و معدش ليكِ غير واد عمك اللي اتچوزتى عدلي عشان تكيديه ...تاريكِ كدتى روحك ..

هتفت سمية :

- ايوه .. عاصم .. هروحله يشوف لى حل مع عدلي واد محروس .. أنا خلاص مبجتش جادرة عليه و على أمه .. أنا بت غسان الهواري .. يتعمل فيا كِده .. !!..

و بدأت في النواح من جديد...

****

أسرعت بدور لتضع شالها على كتفها مندفعة تهبط درجات سلم بيتهم في عجالة لتصبح خارجه في ثوان معدودة متجهة بذعر لتشتري ذاك الدواء لأبيها الذي فاجأته نوبة من نوبات مرضه التي تدخله في شبه اغماءة لا يبدأ الاستفاقة منها الا بعد تناوله الدواء الذي تحث السير لتبتاعه بإنفاس لاهثة و خطوات متعثرة..

عادت في عجالة و ما إن همت بالولوج لبيتها حتى اعترض طريقها رجال المعلم سمري الذي كان يقف في

الزاوية يتطلع لرجاله وهم يحاصرونها وهي لا تستطيع الفكاك منهم لتسرع بالدواء لابيها ..

سار المعلم سمري بخطوات متمهلة حتى وصل للحلقة المتمثلة في رجاله وضحك بخشونة ضحكة مستفزة اثارت اشمئزازها وهو يهمس بالقرب منها :

- خلاص .. معدش بخطرك يا جميل .. برضاكِ او غصب عنكِ هتبقى حرم المعلم السمري ..

و زاد صوته فحيحا و هو يهمس متطلعاً اليها برغبة شديدة .. و الليلة ..كانت بدور تقف لا حول لها ولا قوة .. تتطلع اليها الاعين المحيطة بها في الحارة غير قادرين على التدخل و الزود عنها و معاداة المعلم سمري و رجاله ..فما كان منها الا إعمال العقل و الحيلة فهتفت متصنعة الموافقة :

- و ماله يا معلم .. هو أنا أطول ..بس سبني اطلع لابويا بالدوا بتاعه و يبقى الكلام بين الرجالة مش في الشارع و على عينك يا تاجر كده ..

إنفجر ضاحكاً باستهزاء :- لاااا .. الكلام ده مبقاش ياكل معايا يا حلوة ..

و جذب من كفها دواء ابيها و دفع به لأحد رجاله هاتفاً :

- اطلع بالدوا ده للحاج وهيب .. و قوله.. بنته بدور ..عروسة المعلم سمري .. عنده معززة مكرمة و لما يفوق كِده و يقوم بالسلامة يبقى يحصلنا عشان نكتب الكتاب و نعلى الجواب ..

وما إن إنتهي من كلماته التي جمدت بدور مكانها غير مدركة لما يحدث .. مذهوله لما يقوم به المعلم سمري و ما وصل اليه من جنون .. هل وصل به الامر لاختطافها هكذا

على أعين الأشهاد و أمام كل من بالحارة حتى يتزوجها غصبا .. و رغما عن ارادتها ..!!؟؟..

استفاقت من ذهولها على كفه التي إندفعت قابضة على ساعدها جاذبة إياها خلفه كالذبيحة لتصرخ هي مستنجدة بمن حولها و لا مجير ..

على اعتاب الحارة استشعر المعلم خميس اللول صاحب مقهي الشمندورة بعض من توتر في قلب الحارة حيث الأحداث التي لا تصل إليه في أطرافها الا متأخرة نوعا ما فدفع بأحد رجاله ليستطلع له الأمر وقد صدق حدسه عندما جاءه رجله يلهث هاتفاً:

- إلحق يا معلم لول .. السمري لامم رجالته و بيسحب بدور بنت الحاج وهيب من قدام بيت ابوها و عايز يكتب عليها بالعافية و ابوها تعبإن فوق بيموت عنده الأزمة و محدش ادخل ينجدها من ايده ..

إنتفض المعلم خميس ما إن سمع ما يحدث ليهب هو ورجاله صارخاً :

- و الله ما نبقى رجالة لما الحريم يستنجدوا و ما يلاقوا اللي ينجدهم من أيدين واحد زي سمري ده ..

و ما إن وضع المعلم لول اول خطوة لقدمه خارج مقهاه و خلفه رجاله مدججين بالعصى و الأسلحة البيضاء حتى ظهر زكرياء متجها إلى مدخل المقهي وما إن رأى المعلم اللول و رجاله على هذه الحالة من التأهب حتى هتف مستفسراً في تعجب :

- چرى ايه يا معلم .. خير ..؟!.. رايح برچالتك على فين ..؟!..

إندفع احد الرجال ليقص على زكرياء ما يحدث لينتفض قبل أن يكمل الرجل حكايته منتشلا احدي العصى من كف احد رجال المعلم خميس و قد إندفع لقلب

الحارة بأقصى قوته و قد ابصر من موضعه كف السمري وهي تكبل ساعد بدور جاذباً إياها خلفه في مهانة ..

لم يشعر إلا وهو يطيح ذراع السمري القابضة على بدور بعصاه صارخاً في غضب هادر:- هي حَصلَت يا خسيس ..؟!..

ما إن تدخل زكرياء وكسر القيد الذي كان يكبل معصمها حتى إندفعت في ذعر لمدخل بيتها تحتمي من السمري ورجاله و قد أغلقت بابه خشية إن يصل اليها احدهم.. ألتقطت إنفاسها في تلاحق وهي لا تصدق أنها نجت من بين يدي هذا الحقير .. ونظرت من خلال شراعة الباب لما يحدث بالخارج تتابع تلك المعركة التي يدور رحاها بين زكرياء و قد إنضم إليه رجال المعلم خميس اللول وبين رجال السمري...

تدخل المعلم خميس هاتفاً بصوت جهورى في المتقاتلين يحثهم على وقف التناحر فأشار المعلم سمري لرجاله بالتراجع و كذلك فعل زكرياء و رجال المعلم خميس والذي هتف مستنكرا :

- دي أصول يا معلم سمري ..!!؟.. من امتى بنات الناس بيتعمل معاها كده ..!؟

هتف سمري مستنكرا بدوره :

- لما يبقوا بنات ناس بصحيح و مش بيلوعوا اللي طلبهم في الحلال على سنة الله و رسوله و عشان أحميها من كلام الناس عليها من ساعة ما الصعيدي ده .. و أشار على زكرياء مشمئزا و مستطرداً .. جه و سكن في البيت عندهم و الناس لسنتها مبتبطلش .. و دي بت حتتي وتهمني ..

ما إن إنتهي السمري من كلماته المسمومة حتى إندفع اليه زكرياء في غيظ بعصاه ينوى تجديد الصراع و التهجم

عليه من جديد بغية خلع لسإنه النجس من منبته لما تفوه به في حق سمعة بدور و شرفها .. و قال صارخاً و المعلم لول يحول بينه و بين الوصول لعنق السمري ليزهق روحه :

-دي اشرف منك و من اهلك كلهم يا نجس.. و إنطج كلمة تإنية في حجها عشان يبجى اخر يوم في عمرك النهاردة ..

إنفجر السمري ضاحكا في سخرية :

- معلش.. متخدوش على كلامه.. عايز يعمل فيها سبع الرجال قدام المحروسة .. مش عيب .بس مش مع السمري يا واد ..عشان السمري لما يحط عينه على حاجة هيخدها غصب عن عين التخين .. وورينى بقى يا حيلتها هتمنعني ازاى ..؟!..

هتف زكرياء في ثورة :

- ورينى إنت هتچوزها ازاى ..؟!.. دي مرتى(زوجتى)

..سامع يا سمري .. مرتى ..

لا يعرف زكرياء ما الذي دفعه لينطق بها كاذبا بهذا الشكل و على مسمع ومرأى من الحارة كلها .. كان يصرخ بها مؤكدا .. و كانما يؤكدها لنفسه .. يصرخ بها و هو لا يطيق إن يسترجع مشهد السمري منذ لحظات وهو قابض على ذراعها بهذه المهانة جاذباً أياها خلفه .. لا يطيق أن يفكر أنها يمكن أن تصبح ملك لغيره .. لا يعرف متى ادرك كل تلك المشاعر المتضاربة ووجودها مختزنة داخله لكن هاهي إنتفضت حية من أعماقه متى استشعر إنها ستذهب عنه بعيدا بغير رجعة ..

هو لا يدرك ما الدافع .. كل ما يدركه إنه كان على استعداد لقطع يد سمري التي تجرأت و لمستها .. لا يدرك ما معنى ذلك .. كل ما يدركه أنه يشعر إنها مسؤولة منه

و تخصه و إن اى سوء تتعرض له يسوؤه بشكل ما لا يدرك كنهه .. لكن يستشعره وبقوة...يوما ما كان له حبيبة لم يستطع البوح بحبها و لا استطاع نيلها رغم إنه كان احق الناس بها الآن .. لا و ألف لا .. لن يقف مكتوف الايدي و هي تضيع امام عينيه .. لن يقف مكبلا لا يحارب من اجل الاحتفاظ بها .. ستكون له .. و لن تكون لغيره ابدا.. فقد اكتفى من خساراته القلبية و ما عاد قادر على تحمل المزيد مهما كلفه الامر...

.....

ظهر صوت الحاج وهيب ضعيفا و قد سار لقلب الحلقة البشرية بمساعدة زوجته و ابنته بدور .. توقف يلتقط إنفاسه و أخيرا هتف على قدر استطاعته :

- يا سمري .. بينا و بينك ربنا في عرض الولايا و بنتى مش ممكن تعمل كده عارف ليه ..!!؟.. عشان مفيش واحدة هتمشى في السر مع جوزها ..

.....

إندفعت الهمهمات المتعجبة من كل صوب وناحية حتى من النوافذ و الشرفات التي كانت تضج بساكنيها ممن استرعى إنتباههم المشهد فوقفوا يتابعونه في فضول ..

شمل الذهول ملامح الجميع حتى أصحاب الشإن إنفسهم ..وكانما الحارة بأسرها ايقنت صدق زكرياء لادعائه إنها زوجته عندما هتف بها الحاج وهيب ..و على الرغم من ذلك فلقد ارتسمت ملامح الدهشة على وجه زكرياء الذي اعتلاه بعض الجروح والخدوش مما ساعده على مداراة مفاجأته بما يدعيه الحاج وهيب .. اما بدور فوقفت لا تحرك ساكنا كل ما جال بخاطرها هو النظر إلى زكرياء و مشاهدة اثار دهشته لتأكيد ابوها بما ادّعاه امام الحارة بأكملها .. كانت عيناها تتعلق به وكانما هو طوّق النجاة الأخير لتصل لشاطئ الامل في رجل حقيقى يعوضها شبابها و يعيد

اليها رغبتها في الحياة بين ذراعيه من جديد .. لقد هتف بها صارخاً .. إنها زوجته .. فهل كان يقصدها بالفعل ..؟؟.. هل هي رغبة حقيقة ظهرت من أعماقه في لحظات فارقة..ام انها شهامة و مروءة يحاول بها إنقاذها من السمري و رجاله .. !!؟..

اما المعلم سمري فقد كانت الصدمة الأكبر من نصيبه فقد وقف مسمرا لا يأتي بأى رد فعلي نظر لرجاله في ذهول غير قادر على التصرف وأخيرا هتف في صرخة غاضبة :

- طب فين قسيمة الجواز ..؟؟.. شكلها تمثيلية ومتفقين عليها سوا..

هتف المعلم خميس بدوره مستفسراً :

- اه يا حاج وهيب صحيح .. فين قسيمة الجواز !؟. طلعها و حطها في عين التخين .

.....

قال المعلم خميس كلمته الأخيرة باستهزاء و هو ينظر إلى السمري الذي احتقن وجهه غضبا و حقدا .. تحدث الحاج وهيب في هدوء واثق مؤكدا :

- قسيمة الجواز موجودة .. بس احنا لسه كاتبين الكتاب امبارح .. و هي بتاخد وقت على بال ما تطلع .. بس الشيخ حسنين المأذون موجود و نسأله ..

لم يكذب السمري خبرا و لم ييأس ليدفع بأحد رجاله على دراجته البخارية ليحضر الشيخ حسنين من بيته الذي يقع على بعد حارتين ..ليعود في لمح البصر مؤكدا أن الشيخ حسنين ليس في داره .. ليهتف سمري حانقاً من جديد :

.....

- و لما إنتوا كتبتوا الكتاب كنتوا ناوين تقولوا امتى إن شاء الله... لما تجيبوا اول عيل ..!!؟... ثم استدرك شامتا :

.....

-و لا ده أنا افتكرت صحيح .. العروسة ملهاش في الخلفة ..

هنا لم يطق زكرياء الوقوف ساكنا و القيام بدور المتفرج و هذا الاحمق يهين من هي زوجته على الأقل امام الناس .. فإندفع كالإعصار ليسقط على وجه سمري بكف يده جعله يترنح متأوها كثور يخور و قد إنبثقت الدماء من شفتيه .. كان دوي الصفعة كقنبلة بقلب الحارة عم بعدها الصمت الرهيب.

كان الجميع يتوقع هجوما شرسا من سمري و رجاله و الذين تأهبوا بالفعل للفتك بزكرياء الا إن سمري مسح فمه المدمم بسطح كفه في استهانة و أشار لرجاله بالتراجع و نظر لزكرياء في غل و حقد لثانيتين و أخيرا إندفع مغادراً يتبعه رجاله في صمت قطعه المعلم خميس هاتفاً في سعادة :

- امبارح إنكتب الكتاب يبقى النهاردة احلى فرح و احلى زفة اسكندرأني للصعيدي المجدع وعروسته و كله تحية من المعلم خميس اللول ..

وهتف في رجاله ليبدأوا في تحضيرات الزفاف الذي سيقام في قلب الحارة وعلى مسمع و مرأى من سمري الذي كان الحقد الأعمى قد وصل به للذروة ونساء الحارة تودعه بالزغاريد المنطلقة من كل صوب و جهة تشفيا ..

.....

أما العروسان فيبدو إن كل منهما كان في واد .. فالعروس إندفعت لتصعد درجات منزل ابيها باكية بعد إهانة سمري لها .. اما زكرياء فوقف لا يعرف ما عليه فعله ..فها هو يجد نفسه عريسا بالصدفة ..

****

هتف عاصم حانقاً في غضب مكتوم و هو يزرع الردهة الطويلة ذهابا و إيابا وأمه الحاجة فضيلة تحاول تهدأته :

.....

- ايه الوجت دِه كله..؟!.. ايه اللي بيُحصل .. مش يفهمونا ..؟!

قالت الحاجة فضيلة بهدوء حاولت به مداراة قلقها على زهرة :

.....

- اتصبر يا ولدي .. دلوجت الداكتور يخرج يجول ايه في ..

و بالفعل ما إن إنتهت كلماتها حتى فتح الطبيب باب غرفة الولادة متطلعاً لعاصم الذي إندفع اليه كالمجنون يسأله في لهفة :

- ايه يا داكتور ..؟!.. مش خير إن شاء الله .؟!..

هز الطبيب راسه بألية متحدثا بنبرة عملية باردة :

- خير باذن الله يا عاصم بيه .. بس أنا لازم اخد توقيع حضرتك على بعض الأوراق عشان المدام لازم لها عملية قيصرية ..

.....

هتف عاصم في ذعر بينما شهقت الحاجة فضيلة في لوعة ..:

- عملية .. ليه ..؟؟.. دي ولادة عاادي ..

.....

تكلم الطبيب :

- المدام حامل في توأم و الأجنة وضعهم مقلوب فلازم عملية قيصرية و الا هايبقى في خطر على حياة الأجنة و الام ..

هتف عاصم في ذعر :- سترك يا رب ..

و اخذ يضرب كفا بكف في قلة حيلة و أخيرا إندفع للطبيب هاتفاً في تأكيد :

- يا داكتور اعمل اللازم .. بس بجول لك ايه .. أنا ميهمنيش حاچة الا مرتى .. المهم هي ..اى حاچة تاني تاجى بعد حياتها سامعنى يا داكتور..؟؟..

.....

ربت الطبيب على ذراع عاصم هاتفاً :

.....

- اطمن يا عاصم بيه .. الام و الأولاد هيكونوا كلهم بخير باذن الله .. بس إنت قول يا رب .. واتفضل نمضى الأوراق .. إندفع خلفه عاصم و ترك خلفه الحاجة فضيلة تتمتم من خلفه بالدعاء الذي لم ينقطع للحظة ...

****

هتف الحاج وهيب مناديا عندما لاح له خيال زكرياء صاعداً حجرته من خلف باب شقته التي تركها مواربا حتى يتسنى له رؤية زكرياء في صعوده .. وقف زكرياء ملبياً و نظراته لم تُرفع على الباب الموارب.

قائلا :- نعم يا حاج وهيب ..

أمره الحاج وهيب :- ادخل يا بنى عايزك ..

.....

دفع زكرياء الباب في هوادة متنحنحا حتى ما إن ادرك إن الطريق خال من النساء الا و تقدم باتجاه الحاج وهيب الذي نهض آمرا بصنع الشاي و تبعه زكرياء إلى غرفة الصالون ..

أغلق الحاج وهيب الباب خلفه و جلس و هو يربت على كتف زكرياء الذي كان يهم بالنهوض تأدبا ليعاود جلوسه من جديد ..

تحدث الحاج وهيب بصوت هادئ قائلا :

- سامحنى يابنى .. مكنش القصد توريطك في جوازة حتى ولو بالكدب .. بس اعمل ايه ؟!..

هم زكرياء بمقاطعته ليوضح إنه بالفعل يطلبها رغبة في ذلك .. و لا شبهة توريط في الامر. لكن الحاج وهيب أشار له بكفه ليصمت مستمعا ليكمل الحاج وهيب بنفس النبرة الهادئة..:

- ما باليد حيلة .. كنت هقول ايه و سمري بيخوض في عرض بنتى قدام الحارة كلها .. والناس بقت نيتها وحشة و محدش هيفسر وقفتك معأنا جدعنة و لوجه اللّه ... أنا عارف إن ملكش ذنب في حاجة و حظك اللي وقفك في طريقنا..وإن ده مكنش في حسبإنك و إنت لسه نازل من بلدكم بتقول يا هاادي و كرم أخلاقك هو اللي خلاك تعلن قدام الناس كلها إنها مراتك عشان تخرسهم .. بس أنا مش طالب حاجة و لا إنت ملزم بحاجة..أناهبعتها عند اهل أمها و أنا هروح أنا ونعمة نقعد في بلدها عند أهلها و أبيع البيت و المحل من سكات و إنت تشوف حالك و قدام الناس و لحد ده ما يحصل تفضل كانها على زمتك ..قلت ايه يابنى ..

.....

هتف زكرياء مؤكدا :

.....

- جلت إنها مرتي جدام الناس كلها يا حاج وهيب و أنا كنت جاصدها وبطلبها تاني .. أنا بطلب يد بتك يا حاج وهيب .. و على سنة الله و رسوله ..و.. قاطع كلامه طرقات على باب الحجرة تعلن وصول الشاي نهض الحاج وهيب ليفتح الباب وقد تهلل وجهه بالبشر لطلب زكرياء ... اشار لبدور التي تحمل صينية الشاي بالدخول ..وما إن همت بوضع الصينية على الطاولة امام زكرياء و لا قدرة لها على رفع نظراتها تجاهه حتى هتف ابوها لها في فرحة :- قدمي الشاي لعريسك يا بدور ..

.....

إنتفضت هي متطلعة لابيها :

- عريسي .. عريس مين ..!؟.. ما كلنا عارفين اللي فيها يا حاج ..

هتف الأب حإنقاً :- زكرياء طلبك مني و أنا وافقت ..

.....

هتفت بعناد :- بس أنا اللي مش موافقة .. و خلاص قررت اتجوز سمري ..

****

إندفع عاصم من موضعه إلى الفراش المسجاه عليه زهرة ما إن استشعر بوادر استفاقتها .. امسك بكفها بين راحته و هو يهمس باسمها لعلها ترد باسمه أو حتى تفتح عيونها تطمئنه إنها بخير فما عاد يحتمل القلق عليها :

- زهرة .. زهرة .. أنا عاصم .. تنبهت ببطء لاتجاه صوته و ابتسمت في وهن ونادت باسمه في حشرجة واهنة ..ابتسم لها بالمقابل و هو ينحنى يقبل جبينها و يهمس في راحة :- حمدالله على السلامة ..

ترك كفها و إندفع ينادي الطبيب المعالج ليطمئنه على حالها ..

.....

قام الطبيب باللازم و إنصرف مباركا في حبور .. عاد عاصم لموضعه الأول و هو يمسك بكفها محتضناً أياها و بكفه الاخر يملس على شعرها في حنو هامساً :

- اعملى حسابك مفيش عيال تاني .. نظرت له وابتسامة على شفتيها وهمست مستفهمة :- ليه ..!!؟..

همس صادقا :- أنا دمى نشف و اعصابي بَاظت لما الداكتور جال عملية .. لاااه .. لو العيال بياجوا بالمرار ده بلاها .. كفاية علينا اللي ربنا رزج بيه .. مهران وسندس .. ابتسمت وهي تشد على كفه المحتضنة لكفها و تساءلت :

- هم الولاد فين يا عاصم ..!؟..

ربت على رأسها مطمئناً :

- متجلجيش .. زي الفل بس الداكتور جال لازم يتحطوا في الحضانة كام يوم .. وقهقه مستطرداً ..و الحاچة فضيلة من

ساعتها واجفة جصاد الاوضة الجِزار تطل عليهم

خايفة يبدلوهم ..

أمسكت ضحكاتها رغما عنها حتى لا تتألم و اكتفت بابتسامة واسعة طلت على شفتيها في سعادة و هي ترى الابتسامة تعاود ظهورها من جديد على وجه عاصم الذي كان وجهه شاحبا مذعوراً يحاكى وجوه الموتى وهو ينقلها إلى المشفى عندما فاجأتها ألام المخاض.

.....

****

هتفت نعمة في بدور بغيظ :

- إنتِ اتهبلتي و لا حصل ايه في دماغك ..؟!.. مش ده اللي كنتِ هتموتي بس عشان يرفع عينه و يبص لك..جه لحد عندك و طالبك في الحلال و إنت اللي ترفضيه .. ده جنان رسمي ..

.....

هتفت بدور :- برضة لا .. مش هتجوزه و لو حصل ايه ..؟!.. أنا حرة ..

هتفت نعمة :

.....

- لا إنتِ مش حرة .. إنتِ مجنونة اقسم بالله .. هو الراجل الجدع ده يتساب ..

هتفت بدور و الدموع تطفر من عينيها :- ماهو عشان جدع لازم اسيبه ..

همست نعمة :

- لاااا.. كده كتير.. هتجنينى معاكِ .. منين جدع و منين تسيبيه و إنت هتموتى عليه اهو ..؟!.. فزورة دي ..و بعدين الصِوان اللي بينصبه المعلم خميس و رجالته تحت ده هنعمل فيه ايه .؟!.. هنقوله خلاص فضينا الليلة و العروسة رجعت في كلامها.؟!.. .. مش بمزاجك .. ده إنت مراته قدام الناس و متقال إن اتكتب كتابكم .. خلاص اطلعي

قولي الحقيقة عشان الصوان اللي تحت ده يبقى

لدخلتك على سمري يا جدعة ..

هتفت بدور و الدموع تخنق حروفها :

- هو ذنبه ايه يا نعمة .. ذنبه ايه ياخد واحدة هو مش اول

بختها و كمان مبتخلفش و فوق كل ده يبقى من وراها

مشاكل وعداوات .. هو ميستاهلش كل ده .. هو يستاهل

ست البنات حرام يا نعمة اشبكه بيا .. حرام ..

هزت نعمة رأسها في تفهم و ربتت على كتف بدور في حنو

هامسة :

- بس يا بدور اذا كان هو عارف ده كله و راضى ..و ..

قاطعتها بدور هاتفة :

.....

- لاا .. هو كان بيدافع عن سمعتي و شرفي و اضطر يقول

كِده .. و احنا بقى بدل ما نقوله كتر خيرك و

متشكرين و نفضوها .. لا ماسكين فيه و ما صدقنا... مش

هتجوزه يا بدور .. عشان خاطره هو .. عشان مصلحته .. واذا كان على الصِوإن و الناس اللي تحت .. خلاص هو ينزل يقعد مع الرجالة و أنا هظبط نفسي و اقعد مع النسوان فوق .. و بعد ما المولد ده يتفض خلاص .. كل واحد يروح لحاله لكن جواز و مأذون .. لاا ..

ربتت نعمة على كتفها من جديد في تفهم و لم تعقب بحرف بعد ما ايقنت أنها غير قادرة على إقناع بدور بالزواج من زكرياء و خرجت من غرفة بدور لتخبر الحاج وهيب الذي كان ينتظر بفارغ الصبر نتيجة ما توصلت اليه بعد أن أعيته الحيل ليدفعها للقبول بعرض زكرياء الذي لا يُعوض ...وما إن طالعه محياها حتى إندفع اليها متسائلا :-

هاا .. عرفتى تليني دماغها ..

هزت رأسها نافية لكنها همست للحاج وهيب مؤكدة :

- بس مطاوعهاش .. اعمل اللي إنت قلت عليه ..

همس مستفسراً في تردد :- بس مش هايبقى حرام يا نعمة ..!!؟..

أكدت هامسة :- حرام لما تكون عارف و متأكد إنها مش موافقة لكن احلف لك على مصحف و ابصم بالعشرة كمان إنها موافقة و بتكابر..

سأل الحاج وهيب :-فكركِ كِده.. !!؟.. يعني اتوكل على الله ..!؟..

.....

أكدت :- طبعا .. و من غير تأخير..

اومأ برأسه موافقا.. و إندفع ينفذ ما اتفقا عليه من غير تأخير.

****

صدحت الاغاني والإنغام من قلب ذاك الصِوان الذي نصبه المعلم خميس ورجاله في قلب الحارة تحية منه لزفاف زكرياء و بدور و و أخيرا بدأ الجميع في الاستئذان

حتى خلا الصِوان على المعلم خميس و رجاله و الحاج وهيب و زكرياء الذي شكر المعلم خميس لكل ما تكبده في سبيل احياء الليلة و إخراجها بهذا الشكل .. و إندفع زكرياء و معه الحاج وهيب للبيت ..دخل الحاج وهيب لشقته ظنا منه إن زوجته و بدور بالداخل بعد رحيل جميع النساء بالأعلى ..و كذلك زكرياء الذي دلف إلى السطح غير متوقع لوجود احد الا إنه فوجئ بوجود بعض النسوة المقربات لبدور ما إن رأينه حتى إندفعن مغادرات يصحبهمن الغمز و اللمز و الضحكات المستترة ..والمزيد من الزغاريد .. صاحبتهن نعمة في خروجهن و نزلت معهن حتى تترك العروس بصحبة العريس امام النساء ليتم اكتمال المسرحية حتى النهاية ..

.....

وقفت بدور مرتبكة لا تعرف ما عليها فعله هل تبقى قليلا حتى التأكد من رحيل النساء او ترحل الإن وفورا من أمامه.!؟..

فهي المرة الأولى التي تجد نفسها معه وحيدين .. وهي معه وبصحبته تكاد تذوب خجلاً و حياءً ..

.....

تقدم منها في هدوء و كلما تقدم خطوة زاد وجيب قلبها أضعافا حتى توقف أمامها مباشرة و همس في ثبات و بنبرة رجولية تعشقها :- مبرووك ..

رفعت رأسها محاولة تصنع الثبات :- مبرووك على ايه ..!؟..

إنت عارف اللي فيها يا سي زكرياء ..

ابتسم للمرة الأولى منذ وعته عيناها و هو يهمس مؤكدا :

- ما هو عشان أني عارف اللي فيها بجولك مبرووك ..

.....

نظرت اليه مستفسرة في تعجب وابتسامته تزداد اتساعا و تزيده وسامة و محبة إلى قلبها الذي يئن الإن شوقاً يكاد يدميه ..

همس مستطرداً :- أنا جلتها جدام الناس كلها .. و الشادر اللي تحت دِه كان لفرحنا .. الجواز اصله الاشهار مش ورجة .. و الناس كلها عرفت خلاص إنك مرتي .. عشان كِده بجولك مبروك .. وهو ده اللي فيها يا مرتي ..

فغرت فاها غير مصدقة ما يقول .. ألهذا طاوعها ابوها و تركها تقول ما تريد ..؟!..

هتفت متحدية أياه :- برضك لا .. مفيش كتاب اتكتب .. و لا ورق رسمي يقول إني مراتك .. يبقى لا و الف لا ..

ابتسم وهو يقترب منها مشاكساً :- مين جال كِده ..؟!.. أنا و الحاج وهيب كتبنا الكتاب لما الشيخ حسنين كان هنا وكان محضر كل حاجة على الإمضاء و لما دخلت نعمة

تمضيكي في اوضتك و الحريم بره مجدرتيش

تجولي لا .. و مضيتي .. وبكده بجيتي مرتي رسمي...

شهقت وهي تبتعد عنه متقهقرة للخلف في ذعر غير مصدقة

إنها بالفعل أضحت زوجته

لكنها استعادت ثباتها فجاة وهي تهتف :- الجوازة باطلة

لأنها مش بموافقتي ..

جذبها زكرياء اليه مشاغبا :- طب و اللي يخليكي توافجي

..؟!..

شهقت وهي ترى نفسها مصطدمة بصدره الصلب.. نظرت اليه

في صدمة غير مصدقة ما يحدث معها .. البارحة كانت

تتمنى إن يتطلع فقط اليها و يرفع نظراته المسبلة دوما تجاه

الأرض ناحيتها ولو للحظة و اليوم هاهي بين أحضانه ينظر

اليها ملأ العين ويشاكسها بتلك النظرات التي غابت فيهما

كما يغيب قمر خلف الغيوم ..

.....

إنتفض كلاهما و ابتعدت هي عنه عندما أتاهما صوت نعمة من الدور السفلى تنادي بدور التي ما إن سمعت النداء حتى إندفعت ملبية و كانه جاءها نجدة من السماء ليبعدها عن طوفإن المشاعر الذي كانت تعيشه مع ذاك الصعيدي الذي يدفعها للجنون ..

هبطت في عجالة حتى ما إن طالعتها نعمة حتى دفعت اليها بصينية طعام ممتلئة و مغطاه هتفت بها وهي تغمز لها ضاحكة :- خدي ياختي عشاكم ..

تناولت بدور الصينية في صمت وهي لم تستفيق بعد من صدمة ما حدث بالأعلى وصعدت بها في تردد وقدماها تترنح .. و أخيرا ما إن دلفت لمدخل السطح حتى تركت الصينية ارضا هاتفة في عجالة :- عشاك يا سي زكرياء ..

و إندفعت تهبط الدرج في سرعة و كان الشياطين تتعقبها وضحكاته الخشنة تتبعها و كل ما يجول بخاطرها

إن لا قبل لها لمواجهة ذاك الرجل الذي تملك قلبها منذ طالعته عينيها

****

.....

www.hakawelkotob.com

-٤-

هتف الحاج مهران في فرحة غامرة مكبرا و عاصم يضع طفليه بين ذراعيه في فخر :- الله اكبر .. الله اكبر .. ربنا يحفظهم و يحميهم يا رب و يجعلهم الذرية الصالحة باذنه ..

هتف الحاج مهران بسعادة :- سمتهم ايه يا عاصم .. !!؟..

ابتسم عاصم هاتفاً بفخر :- مهران و سندس .

إنتشى الجد في سعادة هاتفاً :

- رب يبارك فيك يا عاصم .. سميته على اسمى يا ولدي ..

هتف عاصم و هو ينحنى يقبل رأس ابيه :

.....

- هو في أغلى من اسمك يا حاج مهران .. طب ده يا ريته يطلع نصك يا حاج..

إنحنى الجد مبتسما لأحفاده مقبلاً لرؤسهم الصغيرة هاتفاً :

.....

- هايطلع احسن منى كمان .. و البنية هاتطلع ست البنات كلهم لامها .. بلغها سلأمي يا عاصم .. لو أجدر مكنتش اتأخر اروح اطمن عليها .. دي الغالية ام الغاليين ..

هتف عاصم مشاكساً :- واه .. شكلى طلعت من الحسبة يا حاج .. !!؟..

نظر الحاج مهران لولده عاصم في محبة خالصة و هو يهتف :

- يااعاصم .. غلاوتك عندى متتجدرش ..

.....

و أعاد النظر إلى احفاده بين ذراعيه من جديد و همس في راحة :

- دلوجت اموت و أنا مش ناجصني حاجة في الدنيا ..

إنتفض عاصم هاتفاً :

.....

- طولة العمر ليك يا حاج .. ربنا يخليك لينا و تشوف عيال عيالهم..

هتف الحاج مهران ضاحكاً :

- واااه .. عيال عيالهم ..!!.. طب جول اشوف عيالك إنت الباجيين ..

صمت عاصم و لم يعقب حزنا على كلام ابيه فاستشعر الحاج مهران ما بولده فهتف مازحاً وهو يرى احفاده و قد بدأوا في الاستعداد للاستيقاظ جوعى :

.....

- خد يا عاصم عيالك .. شكلهم جاعوا.. ربنا يبارك لك في ذرعتك يا ولدي .. وتعيش إنت لما تشوف عيال عيالهم .

إنحنى عاصم من جديد يقبل هامة ابيه و يتناول اطفاله الذين بدأوا في البكاء بالفعل من بين ذراعىّ والده ..

****

.....

صرخت نعمة في بدور وهي توقظها من نومها :-

قومى يا منيلة .. قومى هتفضحينا .. هتفت بدور وهي تعطى لها ظهرها لتعاود النوم مستمتعة بحلم رائع كانت تعيشه لتوها :- أقوم ليه ..؟!.. سبيني يا نعمة ربنا يخليكي ..

هتفت نعمة من جديد :

.....

- بقولك هنتفضح .. النسوان كلها طالعة تبارك لكم إنت وسي زكرياء ..هيشفوكى هنا يا خايبة .. نعمل ايه دلوقتي ..!!؟..

إنتفضت بدور من فراشها وقد ايقنت أن ما اعتقدته حلم لم يكن الا واقع ما حدث بالأمس وما يؤكده الآن هو زغاريد النساء التي يصل اليها صداها من سلم بيتهم الداخلي ..

.....

هبت من الفراش تدور حول نفسها هي ونعمة غير قادرتين على التصرف و أخيرا هتفت هي في عجالة :

- دخليهم من باب الصالون مش من باب الشقة يا نعمة .. و أنا هتسحب و اطلع على فوق و عطليهم شوية و قدميلهم حاجة ماشي ..

.....

أومأت نعمة برأسها موافقة في سرعة وهي تدخل للصالون لتفتح للنساء بابه ليدخلوا منه وما إن استقروا داخله حتى تسحبت بدور في خفة و إندفعت خارج باب الشقة و منه تصعد السلالم في هرولة حتى ما إن وصلت للسطح منقطعة الإنفاس إنفعالا حتى إندفعت تطرق الباب على زكرياء الذي لم يستجب لطرقاتها فهتفت في غيظ :

- يا دي النيلة .. شكل نومك تقيل .. اعمل ايه أنا دلوقتي ..؟!..

.....

دارت حول الغرفة باتجاه نافذتها الجانبية لعلها تجدها مفتوحة أو حتى تستطيع فتحها .. صعدت على الأريكة الموضوعة تحت النافذة و بدأت في معالجة النافذة حتى فُتحت بالفعل .. تنفست الصعداء وهي تضع قدمها على الجانب الداخلى منها و بدأت تدخل بجسدها و ما إن لامست قدمها سطح ما حتى تنفست في راحة و أدخلت باقي جسدها لتلقى به لداخل الغرفة لتسقط مباشرة فوق زكرياء الذي كان غارق في النوم غير مدرك لما يحدث حوله و فجأة إنتفض عندما سقط جسدها عليه ..

شهقت هي في ذعر و حملق هو فيها بتعجب و أخيرا ابتسم.. ثم إنفجر مقهقها وهو يقول :- و الله و جاتلك على الطبطاب يا زكرياء ..

هتفت هي في ذعر مضاعف وهي تراه يحيطها بذراعيه :

- لا .. إنت مش فاهم ..اصل ..

هتف مقهقها :

- ايوه عارف .. اصل الحاچ وهيب جالك روحى إنچرى اطلعى لچوزك ..

هزت رأسها رافضة في عنف هاتفة :- إنت مش فاهم ..

هتف مشاكسا :- حد يجول لچوزه كِده .. بس و ماله ..؟!..

فهميني ..

هتفت وهي تكز على أسنانها غيظا محاولة تحرير نفسها من أسر ذراعيه :

- .. اصل النسوان ..

و هنا ادرك ما كانت تقصده عندما صدحت زغاريد النساء وهن متوجهات للأعلى حيث حجرتهما .. فابتسم مشاكساً :- و ماله .. يشرفوا ..

استطاعت اخيراً تحرير نفسها من قيد ذراعيه و إندفعت مبتعدة وهي تلهث من فرط إنفعالها

وهتفت في غيظ :- يشرفوا و إنت على حالك ده..؟!..

واشارت لهيئته في استحياء .. وهو يقف أمامها عار الصدر لا يرتدي الا بنطال قطني ابيض ..

تناول جلبابه المطروح جانبا وارتداه في سرعة وهو يفتح الباب وعلى وجهه ابتسامة كانت موجهة لها من الأساس و ما إن طالعه فوج النساء يعبر اعتاب السطح حتى اخفض نظراته في مقابلتهن وهو يرد على مباركتهن مندفعا للأسفل ليجلس مع الحاج وهيب حتى رحيلهن ..

****

.....

دق الهاتف تلك الرنات المتتابعة التي تعرفها بخيتة جيدا و تدرك إنها لا تاتى الا من ولدها القريب البعيد الذي طالما يحتل تفكيرها و يحصل على الكثير من دعواتها..

.....

وصلت لاهثة حتى الهاتف لترفعه على عجالة

هاتفة في لهفة :

- ألو .. ايوه .. كيفك يا زكرياء..؟!..

هتف زكرياء على الجانب الاخر :

- الحمدلله ياما بخير.. بخير جووى واشتغلت عند راچل طيب

و في خبر كمان .. يا رب يفرحك ..

هتفت بخيتة بلهفة :- خير يا ولدي .. كل مجايبك زين و

تفرح يا حبة عيني ..

.....

هتف زكرياء قبل أن يفقد شجاعته :- أنا اتجوزت ياما ..

هتفت بخيتة في صدمة :- اتچوزت ..؟!.. ميتا..؟! و مين

العروسة يا زكرياء ..؟!.. زينة يا ولدي ..؟!..

ضحك زكرياء :

.....

- صبركِ عليا يا حاچة هجولك كل حاچة .. ايوه اتچوزت من كام يوم .. و العروسة بت صاحب البيت اللي سكنت فيه .. و ايوه زينة ياما و بت حلال ..

تنهدت بخيتة متحسرة :- ياما كان نفسي اشوفك عريس جار عروستك يا زكرياء ..

تنهد زكرياء بدوره :- النصيب ياما .. النصيب.

هتفت بخيتة تبدل من نبرة صوتها المتحسرة حتى لا تحزنه:

.....

- المهم يا ولدي إنها تبجى بت حلال تسعدك وتجيب لك الخلف الصالح باذن الله ..

ازدرد زكرياء ريقه و لم يعقب .. لكنه هتف في محاولة لإنهاء الحديث عند تلك النقطة :- باذن الله .. دعواتكِ يا حاچة..

هتفت بخيتة :

.....

- دعيالك يا زكرياء .. ربنا يرزجك محبة خلجه و ما يوجعك في ضيجة ابدا يا رب و يمتعني بشوفتك عن جريب ..

هتف زكرياء مؤمنا :- اللهم امين يا حاچة ..

اعادت الحاجة بخيتة سماعة الهاتف مكانها وتنهدت وهي تستدير لتجد كسبانة أمامها تسألها في فضول :

.....

- خير يا خالتي ..!!؟.. التلفون ده من سي زكرياء .. صُح ..!؟..

أومأت بخيتة وهي تجلس على الأريكة المجاورة للهاتف متنهدة لتستجلب المزيد من فضول كسبانة الممزوج بالقلق وهي تهتف :

- طب مش خير .. !!؟.. ريحيني يا خالتي ..

أكدت بخيتة و هي تربت على كف كسبانة الملقى على كتفها :

.....

- خير يا بتي .. زكرياء أتپوز ..

على الرغم من الصدمة التي تلقت بها كسبانة الخبر الا إنها تماسكت ببراعة تحسد عليها وهي تهتف بثبات :- ربنا يهنيه .. سي زكرياء يستاهل كل خير ..

همست بخيتة :

.....

- كان نفسي افرح بشوفته عريس و إنچى له عروسته على حياة عيني.. بس اچول ايه ..؟!.. الحمد لله .. اللي مصبرني إنه اهاا لجى واحدة بت حلال تخلي بالها منيه و تراعيه و أنا مش چاره ..

ربتت كسبانة على كتف الحاجة بخيتة تواسيها و في نفسها تتساءل بحسرة .." و أنا مين يصبرني ..؟!.. مين يصبرني.؟!.."..

وجاءها الجواب في حمزة .. رضيعها الذي جاءها يحبو في سعادة حتى تعلق بجلبابها و ابتسامته تملأ وجهه

..لتلتقطه و تضمه لصدرها و كانها تدفن بضمته

ذاك الألم الذي كان يرتع بصدرها ..

****

.....

دست نعمة نفسها بجوار بدور داخل فراش الأخيرة و هي

تهتف بها في غيظ :

- إنتِ مش هتبطلي عبط بقى و تروحي لجوزك ..!!؟..

نظرت بدور اليها نظرة جانبية و لم ترد لتستطرد نعمة

بغيظ أكبر :

- ما كفياكم لعبة القط و الفأر اللي إنتوا شغالين فيها دي

.. إنت تطلعي تحطي الاكل و تنزلي تجري .. و هو يجي

يسأل عليكي من على الباب ويمشي ..ايه ده ..!!.. إنتِ عايزة

ايه تاني ..!؟ واحد وقف قدام الحارة كلها و قال إنك

مراته و جه طلبك رسمي من ابوكِ و كتب كتابك ..

عايزة ايه بقى .. !!؟..

.....

هتفت بدور حانقة :

.....

- عايزة اصدق يا نعمة ..عايزة اتاكد إنه مطلبنيش جدعنة أو عشان كلمة قالها مقدرش يرجع فيها ..

هتفت نعمة :

- و الله إنتوا هتجنونى .. بعد ده كله وعايزة تتأكدي .. ده أنا لو منكِ امسك فيه بايدي و سنأني هو في رجالة جدعة كِده اليومين دوول ..؟!..

صمتت بدور و لم تعقب بينما تنهدت نعمة في حسرة هاتفة بلهجة صادقة النصيحة :

- بدور.. أنا من ساعة ما دخلت البيت ده و أنا بعتبرك زي اختي الصغيرة .. يمكن عشان لقيت فيكِ صورة منى .. يمكن عشان اتبهدلنا و شوفنا نفس الهم .. و ادينى اهو ربنا جبر بخاطرى و اتجوزت ابوكِ .. لاكبر منى صحيح بس على الأقل مريحنى و مراضينى ..لكن إنت بقى ..؟!.. يا

بدور الفرحة عاملة زي الضيف المجنون ..

متسيبهاش تهرب منك قبل ما تخدي حقك منها ..

فرصتك في الفرحة جت لحد عندك امسكي فيها و تبتي ..

همست بدور :- عندك حق .. بس أنا مش عايزة افرض نفسي عليه يا نعمة .. مش عايزة احس أني حمل هو مكنش مستعد له وفجأة لقاه على كتافه ..

همهمت نعمة متفهمة ثم هتفت في ثقة :- يبقى مفيش غير حل واحد يريحكِ ..

هتفت بدور في لهفة :- ألحقينى بيه ..

.....

قالت نعمة في هدوء :- تطلعي له و تتكلمى معاه و تشوفي اخره ايه .. و يا اما تنهوه الحوار ده و تبقى عرفتي اخرها .. يا اما تبدوه صح و على حق ربنا ..

هتفت بدور مشدوهة :- اطلع أتكلم معاه ..!!؟؟.

.....

أكدت نعمة :

- اه .. و تحطي النقط على الحروف .. لكن اللي بيحصل ده مش صح .. مش يمكن هو برضة بيفكر زيك و فاكر إنك اتغصبتي عليه بسبب قولته إنك مراته و إنك مش عيزاه ..؟!..

تذكرت بدور حوارها مع زكرياء يوم زفافهما على السطح بعد رحيل النساء .. لقد أكدت بالفعل في كلامها معه إنها لا تريده و لا ترغب به كزوج ..

.....

همست داخليا لنفسها .. قد يكون كلام نعمة يحمل الكثير من الحقيقة ..

هتفت نعمة وهي تجذب بدور من الفراش :

- إنت لسه هتسرحي و تفكري .. قومى ياللاه كلميه ..

.....

أومأت بدور برأسها إيجابا و إندفعت خارج حجرتها في أتجاه باب الشقة الا إن أوقفتها نعمة ضاحكة :- يخيبك .. هاتطلعى للراجل بهدومك دي و حافية كمان ..

تنبهت بدور لملاحظة نعمة فعادت ادراجها من جديد لغرفتها و ارتدت عباءتها وتوجهت بألية تجاه باب الشقة .. و استدارت وهي على أعتابه مترددة و قد قررت العودة في قرارها الا إن نعمة كانت لها بالمرصاد ودفعت بها على اعتاب الشقة بالفعل في اتجاه الدرج المؤدي لحجرة زكرياء ..

همست بدور في اضطراب :- طب ابقى طلي عليا ..

أمسكت نعمة قهقهاتها :

- أطل ايه ..؟!.. لاا .. أنا داخلة أنام .. لو اتصبحت بطلتك البهية الصبح هعرف إن الموضوع خلص على كِده.. و لو ملقتكيش .. و قهقهت كاتمة فمها بكفها مستطردة ..

يبقى صبحية مباركة يا قمر و استنى صينية

فطورك يا عروسة ..

ودفعت نعمة ببدور لأول درجات السلم و عادت مسرعة ادراجها تغلق باب شقة الحاج وهيب تاركة بدور مترنحة لا تستطيع إن تخطو باتجاه الأعلى حيث امل تتمنى تحقيقه و ما بين عودة لا تستطيع إتيإن خطوة تجاهها ..

****

دخل عاصم غرفة ابيه الحاج مهران يتفقده فاذا بالحاج مهران يهتف ما إن طالعه عاصم يفتح بابه :- عاااصم .. فيك الخير يا ولدي .. تعال عايزك ..

دخل عاصم مغلقا الباب خلفه مندفعا يقبل هامة ابيه هاتفاً :- خير يا حاج ..

ابتسم الحاج مهران قائلا :- بجولك ايه ..؟!.. أنا عايز اتسبح (استحم) ..

هتف عاصم باسما :- و ماله ننادم على الحاجة فضيلة .. ما إنت يا حاج مبترضاش الا بيها ..

.....

ابتسم الحاج مهران مؤكدا :- صُح .. بس أنا عايزك إنت اللي تسبحنى النوبة دي ..

هتف عاصم متحمسا :- يا سلام .. تأمر يا حاج .. و بدأ في خلع جلبابه و عباءته وعمامته و ألقى بهم بعيدا و إندفع للحمام يحضر المغطس بدرجة حرارة مياه مناسبة ثم يعود ادراجه لأبيه هاتفاً :

- بس أنا مليش صالح لو الحاجة فضيلة خدت على خاطرها .. أنا بجولك اهاا ..

اتسعت ابتسامة الحاج مهران هاتفاً :

- لاه ملكش صالح إنت .. فضيلة عتفرح للي يريحني..

.....

حمل عاصم ابيه بين ذراعيه بعد إن ساعده في خلع ملابسه و ارقده في المغطس الممتلئ حتى منتصفه بالماء ..

.....

همس الحاج مهران متنهدا :- متشال .. وشايل و متشال ..

هتف عاصم :- بتجول حاجة يابوى .. !!؟..

همس الحاج مهران :- سلامتك يا ولدي .. بتعجب على حال البنى ادم ..

جذب عاصم احد المقاعد من احد الأركان و جلس عليه ملتصقا بالمغطس ليبدأ في فرك جسد ابيه برفق ..

استطرد الحاج مهران هاتفاً :- اوعاك يا عاصم يا ولدي تتغر بجوتك و لا مالك و لا صحتك .. كله زايل في لحظة .. لحظة تفرج بين الصحة و المرض و لحظة تفرج بين الفَجْر و الغنا .. و لحظة تفرج بين الحياة و الموت ..

توقفت يد عاصم عن عملها و تنهد بقلب منقبض ولم يعقب .. ثم عاودت كفه عملها من جديد تزرع جسد ابيه ..

.....

هتف الحاج مهران بعد فترة من الصمت مازحاً :-

عارف يا عاصم .. امك دي تربية يدي ..

رفع كفيه امام ناظريه من ماء المغطس مستطرداً ..

فضيلة دي ارضي اللي عمرها ما خيبت و طرحها دايما كان على هواي ..

ابتسم عاصم في محبة .. ليكمل الحاج مهران مشاكساً :-

خلى بالك عليها يا عاصم

.....

هتف عاصم محتجا :- واااه .. بتوصينى على أمي يا حاج .. دي فوج راس الكل ..

إنفجر الحاج مهران مقهقها و سعل قليلا و أخيرا هتف و هو يدفع كتف عاصم بكفه مازحاً :

- يا غشيييم .. أنا بوصيك على ارضك إنت .. زهرة بت خالتك .. خلى بالك منيها .. اللي يحبه ربه يا عاصم يرزجه مرة (ست) زينة تعينه على حاله و دنيته ..

.....

مرتك ارضك يا عاصم .. بدرت فيها المحبة

هاتطرح محبة و عشج .. بدرت فيها جلة جيمة ..

و صمت الحاج مهران ليتعجله عاصم هاتفاً بمشاكسة:-

عاتطرح ايه ..؟!..

.....

إنفجر الحاج مهران ضاحكاً :- هاتطرح علجم و حنضل على دماغ صاحبها ..

إنفجر عاصم بدوره ضاحكاً على تعليق ابيه و أخيرا إنتهى .. فعاد به محمولا لسريره من جديد و ساعده على ارتداء ملابس نظيفة و سحب عاصم الغطاء على جسده يدثره و ابيه يتمتم ببعض من ايات الذكر الحكيم..

إنحنى عاصم يقبل جبين والده و يندفع حاملا ملابسه مغلقا الإضاءة و الباب خلفه تاركا ابيه يغط في نوم عميق ..

****

.....

تقدمت بدور تعبر عتبة باب السطح الخشبية بعد أن جاهدت حتى تستطيع صعود درجات السلم الفاصلة بين شقة ابيها و تلك العتبة ..

وضعت أولى خطواتها وهي تضم شالها الأسود فوق عباءتها السماوية لعلها تلتمس منه بعض من عون يساعدها على أداء ما جاءت من اجله ..

توقفت قدمها و لم تتقدم خطوة تقف مشدوهة أمام خياله الورع و همسات صلاته التي تراه يؤديها الآن موليا ظهره لها .. تقدمت في وجل لتقف قربه تراقب سجوده و ركوعه و صوته الهامس أحيانا و المرتفع في بعض المقاطع أحيانا أخرى ..

دابت في ظل التفاصيل التي كانت تحيطه بهالة ما لا تدرك ماهيتها و أخيرا إنتفضت

.....

عندما تناهى لمسامعها تحية إنهائه الصلاة .. دفعت نفسها دفعا لتنحني قليلا واضعة كفها على كتفه هامسة بصوت متحشرج مضطرب:- حرما يا سي زكرياء ..

لم يفاجأ بوجودها و كانه كان على علم بتواجدها من البداية .. رد هامساً :

- جمعا باذن الله ..

نهض في هدوء يجمع مصلاه و يضعها بقدسية على الأريكة الوحيدة بالسطح .. لم ينظر اليها حتى .. هكذا هتفت لنفسها .. لما يصعب عليها الامر ..!؟؟.. كادت تصرخ في وجهه متسائلة .. الا إنها تماسكت واستطاعت بالكاد تحريك قدميها للوصول لتلك الأريكة و الجلوس عليها لعلها تستعيد بعض من ثباتها و جزء من رباطة جأشها التي ذهبت ادراج الريح ما إن طالعت محياه ..كان هو يقف بالقرب من احد أسوار السطح الخالي نائيا بنفسه عن تلك

الجالسة على الأريكة والتي تحتلها بمحياها ..

هتف في نفسه حانقاً :- عليك أن تعيد صلاة العشاء من جديد يا زكرياء ..

فما إن شعر بقدمها تطأ ارض السطح و راح خشوعه و تركيزه في خبر كان .. رائحة عطرها أسكرته و خطواتها المتثاقلة خلفه كانت كانما تخطوها على جدران قلبه .. لما لا تفهم إنه يريدها ..!!.. لقد صرخ بها امام الحارة بأسرها .. ماذا تريد اكثر ..!!؟..

.....

لم يعد يستطيع أن يقف مكتوف الايدي وهي هنا .. لما جاءت من الأساس .. لما لا تتركه لحاله طالما إنها لا ترتضيه زوجا لها ..!!؟..

احترق الدم بعروقه و لم يعد يحتمل المزيد من ذاك القهر .. إندفع إلى مجلسها وجذبها صارخاً :

.....

- جوليها دلوجت .. جوليها وإنت ِطاالة في عيني.. جولي مش ريداك .. جولي أني مش الراچل اللي ..

رفعت كفها امام فمه الثائر بالكلمات و المتفجر بها كبركان يلقى حممه لتهمس وعيونها تلتمع بدمع محبوس :

- إنت سيد الرجالة .. بس أنا عايزة اطمن يا سي زكرياء .. اصل مش أنا اللي يتعمل عشانها كل ده ..؟!..ليه يا سي زكرياء .. ليه ..؟!..

.....

رفع كفه بعد إن هدأت نفسه قليلا لجوابها وامسك بكفها الموضوعة بقرب فمه ليخفضها و هو لايزل ممسكاً بها هامساً بتعجب:- ايه هو اللي ليه ..؟!..

هتفت هي و قد بدأت عيونها تزرف دمعها بسخاء :

.....

- ليه عملت كل ده عشان واحدة منتش أول بختها ..

و عارف إنها .. و صمتت قليلا تزدرد لعابها بحسرة مستطردة ..

إنك مش هتشوف معاها الخلفة اللي اكيد هاتشتاق لها ..

ليه يا سي زكرياء ..؟!.. لو عشان كلمة اتربطت بيها قلتها

ساعة جدعنة قدام الناس او كتب الكتاب اللي إنكتب

.. أنا بحلك من الاتنين .. منتش مجبر .. إنت ..

.....

هتف فيها صارخاً :

- أنا رايدك و كل اللي جلتيه ميهمنيش .. عايزة تعرفى

ليه ..؟!.. مفهاش ليه يا بت الحاج وهيب .. ربك مجلب

الجلوب .. أنا محدش غصبني يوم ما جلت إنك مرتي جدام

الكل .. أنا مش عيل صغير عشان اجول كلام و أندم عليه

.. دي كلمة طلعت من جلبي جبل لساني .. سامعة .. إنت

بجى اللي ليه ..؟!..

.....

نظرت مستفسرة بأعين فاض منها الدمع ليمد كفه ماسحا دمعها هامساً :

- ليه مستجلة بحالك يا بت الراچل الطيب ..؟!.. إنتِ موعياش لروحكِ..

لف كفيه حول مؤخرة رأسها ليزرع جبينها بصدره هامساً :

.....

- أنا لما شفت السمري بيتچرأ عليكى .. اقسم بالله كان هاين عليا ادفنه مُطرحه و لا يلمس طرف توبك .. و بعد دِه كله .. تجوليلي ليه .. عشان إنتِ حلالي .. عشان أنا رايدك بجلبى جبل عيونى .. عشان .. إنتِ بدور ..

كانت المرة الأولى التي ينطق بها اسمها مجردا .. المرة الأولى التي تسمع اسمها منغما من بين شفتيه ...و المرة الأولى التي تعشق فيها ذاك الاسم .. رفعت رأسها من على صدره تشهق باكية لا تكاد تصدق إنه يريدها حقا .. اخفض راسه لتقارب مسامعها هامساً :

.....

- ايوه أنا مش اول بختك بس ده لا بيدي و لا بيدك يا بت الناس ..امر اللّه ..

.....

مبتخلفيش .!؟.. ربك اداكِ علمه ..!!.. كله بمشيئته ..

ثم ازداد ضمًّا لها وهمسه يزداد حميمية :

- و مشيئته اللي علجت روحي بيكِ من غير ما أني أكون داري و لا واعي إنكِ بجيتي غالية عندى اكتر من روحي نفسها .. شملهما الصمت لحظات و فجأة إنتفضت بدور شاهقة وهي تجد نفسها محمولة بين ذراعيه فهتفت مذعورة :

- في ايه يا سي زكرياء ..!؟؟..

هتف مشاكساً :- مفيش يا بت الناس .. أنا بضمن بس إنكِ متطلعيش تپري على تحت زي كل مرة ..

إنفجرت ضاحكة وهي تتعلق برقبته هامسة:

.....

- هو حد يلاقي زيك يا سي زكرياء ويطلع يجرى و لاه المفروض يتعلق برقبته و ميسبوش ابدا .

.....

هتف زكرياء ساخراً :- في واحدة غشيمة كانت بتعمل كِده ..

قهقهت بدور :- لا .. خلاص .. الغشيمة عقلت و متبتة بأيديها و سنانها ..

وشدت وثاق ذراعيها حول رقبته في تملك ..

ليهتف زكرياء في نشوة وهو يتجه لغرفته :

- واااه .. و الله ودعواتكِ صدجت يا حاچة بخيتة..!!..

لتعلو وتيرة قهقهاتها و هو يغلق خلفهما باب غرفته .. غرفتهما ..

****

.....

دخل عاصم حجرته فنهضت زهرة من فراشها تاركة توأمها الذي راح في نوم عميق بعد إطعامهما ... تنبهت لحال عاصم و ملابسه التي يحملها على كتفه فتعجبت متسائلة:

.....

- ايه يا عاصم .. ليه شايل لبسك كِده على كتافك .. إنت جاى منين ..؟!..

رد عليها بنبرة تائهة و عقل شارد :- كنت عند أبوى .. بسبحه ..

ابتسمت في مودة وهي تربت على كتفه بعد إن جلس في إرهاق على طرف الفراش :

- ربنا يديك الصحة و تخدمه و يديله طولة العمر يا رب ..

.....

ابتسم هو ابتسامة باهتة لم تصل ابدا لعمق عينيه فاستشعرت زهرة إن هناك خطب ما فإنحنت تربت من جديد على ظهره هامسة :- خير يا عاصم .. في حاجة ..؟!..

هز راسه في تردد هامساً :- مش عارف .. بس جلبي مجبوض الليلة دي ..

شعرت بحاله المضطرب فضمت راسه لصدرها و همست :

.....

- ربنا يريح قلبك .. خير يا عاصم ..بص قوم خد دش و اقرى قرآن و بجد هاتبقى زي الفل ..

أومأ برأسه متفقا معها و نهض في تكاسل متوجها للحمام وهي تشعر بقلق بالغ على حاله توجهت لتفتح أحد الأدراج تخرج له ملابس نظيفة ليرتديها ليتناولها منها قبل إن يغلق باب الحمام في هدوء مبتسما ابتسامة باهتة و هو يهمس :

- تسلميلى يا ارضي ..

لم تدرك ما كان يعنيه .. و لم تتوقف عنده طويلا فما كان يشغل بالها من الأساس هو حاله التي جاء بها من غرفة ابيه .. دارت رأسها و لم تستطع التوصل لسبب منطقي قد تدفع عاصم لما هو عليه من تيه لكنها أكدت لنفسها ربما رغبة في طمأنة حالها

.....

بأنه سيكون افضل بعض حمام دافئ يعيد اليه هدوء أعصابه ..

خرج عاصم من الحمام ليجدها على حال لم تخفى عليه من الاضطراب فتقدم اليها في ثبات ليؤكد لها إنه افضل حتى لا يزيد من حيرتها و قلقها عليه .. إنحنى يقبل رأسها و يتجه ناحية باب الغرفة .. فهتفت زهرة في تعجب :

- مش هاتيجى تنام يا عاصم ..!!؟.. شكلك تعبإن .. و الولاد هوديهم أوضتهم..

هز رأسه نافيا و معترضاً على اقتراحها :- لاه .. خليهم چارك .. أنا مش هبيت هنا الليلة دي ..

لمح الاستفسار في نظراتها فهتف مفسرا :- هبات چار ابويا ..

و خرج من الغرفة تاركا إياها و قد ازداد قلقها أضعافا مضاعفة ..

****

هتفت نعمة صباحا منادية على بدور من خارج شقة ابيها لتنتفض مندفعة اليها هابطة الدرج حتى تلاقيها و ما إن طالعتها بدور حتى همست نعمة متسائلة في خبث ماجن :- هااا ايه الاخبار ..؟!..

لم تعقب بدور بل خفضت رأسها في الأرض حياءاً و اكتسى وجهها بحمرة محببة .. فإنفجرت نعمة ضاحكة وهي تدفع بصينية طعام مغطاة باتجاه بدور هاتفة :

- طب خدي يا عروسة .. صينية فطوركم اهي .. و ألحق أفطر ابوكِ ..

تناولت بدور الصينية في سعادة و اتجهت بها لأعلى و ما إن صعدت اول درجة حتى وقفت للحظة و استدارت باتجاه نعمة هاتفة :- نعمة.!!.. تنبهت نعمة قبل إن تغلق الباب فعادت لتشرعه من جديد مستفسرة لتستطرد بدور في امتنان:

- ربنا يسعدك .. لو ليا اخت مكنتش عملت اللي عملتيه معايا ..

ابتسمت نعمة و لم تعقب بحرف واحد لكن تلك الدموع التي ترقرقت بمآقيها كانت اكثر من كافية للرد على ما قالته بدور ..

أغلقت نعمة الباب و اتجهت بدور للأعلى و ما إن دفعت الباب لتدخل بالصينية حتى فاجأها زكرياء مازحاً وهو يأسر ظهرها لصدره .. شهقت فزعة الا إنها تمسكت بصينية الطعام في ثبات تحسد عليه و إنفجر هو ضاحكاً و لم يفلتها ..

هتفت معاتبة :- كِده برضك يا سي زكرياء .. كنت هوقع صينية الاكل من ايدي ..

همس زكرياء مغازلا :- فداكِ ميت صينية ..

.....

فك أسرها لتضع الطعام فوق الطبلية ويجلسا متجاورين وما إن رفعت الغطاء حتى هتف زكرياء بسعادة :- حمام محشي.. و الله زمان .

قهقهت بدور :- اومال ايه..؟! مش عريس ..

هتف زكرياء في سعادة وهي يتناول الطعام في شهية :

- كتر خيرها الست نعمة و الله .. ربنا يبارك فيها ..

ابتسمت بدور في تأكيد ليستطرد :

- بس بجولك ايه ..؟!.. اليومين دوول هعديها عشان إنتِ لسه عروسة لكن اكل تاني ياجينا من تحت .. لاه .. مش هاكل الا من يدك و من حر مإلى .. مفهوم يا بدور ..؟!..

.....

أومأت برأسها إيجابا و هي تضع بعض من طعام في فمه ليستقبله منتشياً و يرفع كفه ليطعمها بالمثل لكنها ترفض معترضة :- كل إنت يا سي زكرياء ..

.....

هتف متعجباً :- هو إنتِ مش عايزة تديني الثواب و لا ايه ..؟!..

سألت بدهشة :- ثواب ايه ..؟!..

قال و ابتسامة تطل على شفتيه وهو يضع بعض من طعام في فمها :

- هو إنت متعرفيش إن الراجل لما يوكل مرته بيده ياخد ثواب ..!!

هتفت بدور :

- لا معرفش .. بس اذا كان كده بقى .. لا ده أنا اسيب ايدي ووكلني للصبح ..

.....

إنفجر ضاحكاً :- و أنا اكل بأيه ..؟!..

قهقهت بالمثل ليستطرد مازحاً :- شوية لدنيتنا و شوية لاخترنا يا بدور..

.....

إندفعت ترد عليه مازحة بدورها :- ماشي .. الحق عليا .. كنت عايزة اضمن لك الجنة ..

نظر اليها في عشق هامساً :- الجنة دخلتها امبارح على يدكِ يا بدور ..

احمرت خجلاً و طأطأت رأسها و ابتسامة ناعمة تكلل ثغرها و نظرة عاشقة تطل من عينيها ..

****

مرت الليلة بسلام و خرج عاصم بعد تردد لمباشرة مصالحه و لكن قبل إن ينتصف النهار لاح سعيد في استراحة الاسطبل مندفعا مما جعل عاصم ينتفض في تساؤل :

- خبر ايه يا سعيد .. الحاج مهران بخير ..؟!!..

التقط سعيد أنفاسه المتلاحقة في صعوبة مؤكدا حدس عاصم بإن الامر يخص أبيه :

.....

- الحج طالبك ضرورى يا عاصم بيه و جإلى ياجى لو في يده ايه ..

إندفع عاصم في عجالة صاعداً سيارته التي لا يستخدمها الا للضرورة متوجها إلى سرايّ الهواري ووصل في اقل من دقائق مندفعا إلى حجرة ابيه .. منذ البارحة و هو منقبض الصدر يشعر بثقل غريب يخيم على نفسه ..

.....

دفع باب حجرة ابيه في قلق لكنه تنهد في راحة عندما طالعه ابوه في تمام الصحة .. حتى إنه بدا له كما لو لم يكن مريضا قط ..

هتف عاصم في قلق :- خير يا حاج ..؟؟..

أشار الحاج مهران للفراغ المجاور له في الفراش ليجلس عليه عاصم :

- تعال يا ولدي..

.....

جلس عاصم حيث اشار ابيه وقد وصل به القلق مبلغا عظيما .. همس الحاج مهران و قد بدا صوته متحشرجا من اثر السعال الذي يلازمه :

- اسمع يا عاصم.. لليوم ده ربيتك يا ولدي .. شيع لسهام اختك عايز اشوفها وكمان بلغ الحاجة فضيلة و زهرة إني عايزهم .. و متجلجهمش .. اما إنت يا عاصم .. ربنا يعينك يا ولدي على حملك .. دير بالك على اختك و امك دوول أمانة في رجبتك يا عاصم .. مرتك و عيالك دول ارضك و ذرعتك .. حاجى عليهم من الزمن وربنا يكرمك فيهم يا ولدي .. اهلك ياعاصم .. اهلك لتهلك .. دوول عزوتك وناسك .. اتجى الله فيهم يا ولدي و في صغيرهم جبل كبيرهم .. و في أفجرهم جَبل أغناهم

تحشرج صوت عاصم هاتفاً :

- ايه لزمته الحديت ده يا بوي دلوجت ..؟!..

هتف الحاج مهران واهنا :- دِه هو وجته .. اسمع بس .. الدورج الأخير دِه .. وأشار لأحد ادراج خزانة الملابس القابعة في ركن الغرفة الأيمن مستطرداً و هو يجذب مفتاح معلق برقبته .. ده مفتاحه يا عاصم فيه كل الاوراج اللي تخصنى .. هتحتاچها

سعل الحاج مهران مما دفع عاصم للإسراع خارج الغرفة صارخاً في سعيد :

- جوام .. ارمح چيب الداكتور ..

هتف الحاج مهران بصوت بدأت تخبو نبراته:

- لااه .. داكتور ايه .. هو في داكتور عايمنع جضا ربنا .. اسمع يا عاصم ..

إندفع عاصم من جديد لأطراف فراش ابيه ممسكاً بكفه يكاد يموت قهرا و عجزا امام ابيه الذي يخبو لون

الحياة من وجهه تدريجيا غير قادر على التصرف حيال ذلك .. ليستطرد الحاج مهران لاهثاً :

.....

- معيزش صراخ و عويل .. معيزش عزا و لا صوان .. كل اللي كان هايتعمل فلوسه خرجها على روحي صدجة يا عاصم .. ادفني جار أبوي و أخوي غسان .. عشان اجوله إني رديت حج ولده زكرياء .. اما ولده سليم فربنا يهديه و يسامحه ..

شهق الحاج مهران .

و بدأت أنفاسه تتلاحق مما دفع عاصم ليهتف صارخاً :

- حاج .. ياحاج ..

و خرج ليكمل صراخه لسعيد على الرغم من علمه إنه لم يعد بعد .. الداكتور فين يا واد .. إندفعت الحاجة فضيلة من الخارج على صوت صرخات عاصم مذعورة و بالمثل

هرولت زهرة في قلق من حجرتها حيث كانت تطعم صغارها ..

.....

تجمع الكل امام باب غرفة الحاج مهران .. و إندفعوا داخلها مذعورين لرؤية الحاج مهران بتلك الحالة و الذي همس :- وينها سهام .. شيعولها ..

إندفعت الحاجة فضيلة لام سعيد هاتفة :

- سيبي اللي وراكِ و هاتي سهام في يدك و تعالي چري ..

إندفعت ام سعيد تنفذ في عجالة و دون إبطاء و عادت الحاجة فضيلة تقف مشدوهة على باب غرفة رفيق عمرها لا تستطيع الا إن تذرف دمعا لا يبذل الا لعزيز غالي ..

أشار الحاج مهران لها فاقتربت و أمر الجميع لتركهما وحيدين ولكن قبل أن تخرج زهرة ناداها لتقترب و دموعها تغرق وجهها غير قادرة على التفوه بكلمة فهمس لها :

.....

- زهرة يا بتى .. خلى بالك على عاصم ..متسبيش يده مهما حُصل و خليكِ چاره..

ربنا مايفرجكم ابدا ..

ربت على ظاهر كفها و تركه لتندفع زهرة خارجا و شهقاتها تسبقها .. و هي تغلق الباب خلفها تاركة الحاجة فضيلة تجلس على احد المقاعد بجوار فراش الحاج مهران .. لكنها إنتقلت ما إن أُغلق الباب لتجلس على طرف الفراش مقابلة له .. تجود بدمعها العزيز .. همست الحاجة فضيلة شاهقة:

- متسبنيش يا مهران .. ده أني عايشة على حسك ..

.....

ربت الحاج مهران على كفها مطمئناً :- مش هسيبك يا فضيلة .. هكون دايما چنبك وحواليكِ ..

شهقت الحاجة فضيلة من جديد :- راضي عني يا مهران .. ؟!!..

.....

همس بوهن متزايد :- واه يا حبة جلبي .. راضي دي كلمة جليلة ..

و بدأ في السعال من جديد مما دفع الحاجة فضيلة لتفتح الباب تستدعي عاصم مذعورة لتندفع معه سهام من باب حجرة ابيها و قد وصلت لتوها في حالة إنهيار تام و خلفها حسام زوجها .. بكت في أحضان ابيها غير قادرة على رفع رأسها و الاستماع لما يقوله بصوته الواهن.. دفعوا بالجميع خارجا عندما وصل الطبيب أخيرا .. و الذي أقر بضرورة نقل الحاج مهران للمشفى فى التو ..

الا إن الحاج مهران رفض هاتفاً :- لااه .. عموت على فرشتي ..

.. الا إن عاصم لم يعبء بمطلب ابيه و طلب سيارة اسعاف لنقله فقد استشعر إن الحالة اخطر من اى مرة مضت..لذا اتفق مع الطبيب على ذلك ..و ما إن عاد للغرفة التي كان

بابها مواربا حتى سمع ابيه يرتل بعض من ايات الذكر الحكيم بصوت هامس مضطرب النبرات: ﴿وسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْارَبَّهُمْ إلى الْجَنَّةِزُمَرًاۖحَتَّىٰ إذَاجَاءُوهَا وَفُتِحَتْأَبْوَابُهَاوَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ.﴾.

.....

و أخيرا صمت الهمس و سكن الجسد و مال عاصم على الباب يستمد منه قوة كاناحوج ما يكون اليها ..

****

هتف الحاج مرشدي عندما طالعه محيا زكرياء قادما إلى المحل بعد إنقضى الثلاث اياما لاولى فى زواجه فى اجازة منحها لهما إن علم بزفافه:

- مبروك ياعريس .. الف مبروك ياصعيدي ..

ابتسم زكرياء رابتاً على صدره هاتفاً في سعادة :

- يبارك فيك ياحاج مرشدي .. ربنايخليك لينا ..

.....

هتف احد زملاء زكرياء فى العمل مستعجبا :-

لكن اتجوزت فجأة كده يازكرياء .. مش غريبة دي؟!....

ده احناحتى مسمعناش إنك خاطباو حتى حاطط عينك على واحدة ..

هتف الحاج مرشدي فى سخرية :

- ماهو كِد هي ابني .. الجواز ده زي القضا المستعجل لاتعرفي جي امتى ولا ازاي.

إنفجر جميع صبيان المعلم مرشدي ضاحكين على تعليقه الساخر وكان من بينهم زكرياء الذي خاطبه المعلم مستطردا في مساخره :

- بس قولي يازكرياء .. فتحت البرميل من فوق ولا من تحت ..؟!.

تعجب زكرياء للسؤال :- برميل ايه لامؤاخذة ياحاج ..؟!..

.....

إنفجر الجميع ضاحكين على جهل زكرياء بمصطلحات الحاج مرشدي و فلسفته الحياتية ليستطرد الحاج مرشدي من بين قهقهاته :

- برميل الزفت ياغشيم .. ماهو الجواز عامل زي برميل الزفت على وشه شوية عسل والباقي قطران لامؤاخذة .. فَلَو إنت فتحته من فوق اهو طلت لك لحستين عسل قبل ماتدوق المر ياخفيف ولوفتحته من تحت يبقى وقع الزفت على دماغك الكريمة ..

إنفجر زكرياء ومن معه مقهقهين حتى اجاب زكرياء باسما :

- لاه .. طلت لحستين عسل يامعلم ..

هتف الحاج مرشدي :- طب اشكر ربك .. وبوس ايدك وش وضهر ..

.....

هتف زكرياء :- شكرينه وحمدينه ياحاج .. كل مپايبه خير ..

.....

هتف الحاج مرشدي وقد استعاد وقاره :

- الحمدلله .. ربنا يهنيكي ابني .. والف مبرووك ..

ثم هتف آمرا زكرياء :-قرب ..

اقترب زكرياء كماأمره الحاج مرشدي ليودع فجأة فى كفه حفنة من النقود هامساً :

- ده نقوط جوازك .. عشان تفرح العروسة ..

هتف زكرياء محتجا:- ده كتير ياحاج ..

هتف الحاج مرشدي فيه ليوقف سيل اعتراضاته :

- إنت هتكسف ايدي ولا ايه .. خد وبلاش غلبة .. وشيلهم من سكات ربنا يباركلك فيهم ..

.....

هدأ زكرياء ووضع المال في جيب جلبابه وهمس في امتنان :

- ربنا يبارك لنا في عمرك ياحاج ..

ربت الحاج مرشدي على كتف زكرياء في محبة واشارله :

.....

- ياالله .. روح شوف شغلك .. وخف على نفسك ياعريس ..

ابتسم زكرياء وهو يندفع لشكائر الإسمنت من الخارج يحملها بكل همة ويضعهاحيث مكانها في داخل المحل ..

****

دخل عاصم السرايّ متجهما يملؤه حزن العالم على رحيل والده الغالي ..كان يسير في تؤدة تحمله قدماه بالكاد وما إن اقترب من الباب حتى سمع صراخ و عويل فإندفع بكل عنف لداخل السرايّ ليرى من تجرأ وخالف وصية ابيه .. وصل لقاعات الحريم فدخل هاتفاً بصوت كالرعد اهتزت له الأركان و إنتفضت له النساء :

- جلنا مفيش لا صراخ و لا عويل .. و اللي چاية و فاكرة صراخها و عويلها دِه الواچب .. بناجصه الواچب دِه .. اللي هاتجعد .. تجعد من غير حس يا اما تفارجنا بالمعروف ..

ساد الصمت بعد كلمات عاصم الهادرة .. و إندفع لأعلى في غضب عارم و بالفعل نهضت بعض النساء تستأذن للرحيل ..

.....

إندفعت زهرة خلفه .. لتراه يدخل غرفتهما و يدفع الباب بعنف خلفه .. دخلت في هدوء لتجده يتناول بعض من ملابسه و يندفع ليغادر الغرفة من جديد ..

ثلاثة أيام مرت منذ وفاة الحاج مهران لم تنظر فيها لوجهه او حتى تلمح عيناه و كانما يهرب بهما بعيدا لا قبل له بمواجهة عينيها حتى إنه لم يعد ينام في فراشه بل اتخذ من حجرة ابيه ملاذ له .. يلجأ اليه بعد إن ينتهي من مهام العزاء في استراحة الاسطبلات و يختفى بداخلها حتى صباح اليوم التالى ..

.....

تنهدت في حزن على حاله و حال البيت الذي عمه الحزن وعششت عليه الكآبة منذ رحيل الحاج مهران .. دمعت عيناها لذكراه و ترحمت عليه بصوت عال ..

.....

****

دق زكرياء باب غرفته لتفتح بدور في لهفة لرؤيته وعادت من جديد مسرعة امام الموقد.. ليهتف زكرياء :

- ايه الروايح الجامدة دي ..؟!.. هتغدينا ايه يا بدر البدور ..

إنفجرت ضاحكة لذاك الدلال المحبب لقلبها وهتفت متعجبة لاعجابه برائحة الطعام :

- ده برنجان (باذنجان) يا سي زكرياء ...

هتف ممتنا :- و ماله .. رضا .. من يدكِ هايبجى شهد ..

ابتسمت لمغازلته ووضعت الطعام على الطبلية و بدأوا في تناوله بشهية..

.....

و أخيرا هتف متذكرًا :- اه صحيح .. خدي ..

.....

و اخرج من جيب جلبابه بعض النقود ووضعهم أمامها على الطبلية ..

هتفت في سعادة :- ايه ده كله يا سي زكرياء!!؟ ماشاء الله ..

هتف زكرياء فرحا :- ده نجوط الحاج مرشدي .

لما عرف أني اتچوزت .. عطاهملي و جالى ابسط العروسة ..

إنفجرت بدور ضاحكة و سعيدة تدعو للحاج مرشدي بدوام الصحة و طول العمر ثم تهمس في دلال :- عارف يا سي زكرياء .. !!..

تنبه لها بكل حواسه لتستطرد :- أنا فرحتى بإنك هاتفضل معايا بكرة اليوم بطوله .. اكتر من فرحتى بالفلوس و الله ..

.....

لمعت عينا زكرياء ببريق مشاكس وهو يخرج من تحت الطبلية لفافة صغيرة و يقدمها لها هاتفاً :- طب و ايه رايك .. مع زكرياء و لا مع حبيبتك دي ..!!؟..

إنتفضت بفرح وفضول طفلة صغيرة هاتفة :

- ايه ده يا سي زكرياء .. ده أنا مشفتكش داخل بحاجة في ايدك ..

ابتسم لأ نه استطاع تمريرها وهي تعطى له ظهرها تتجه للموقد تنقذ الباذنجان قبل احتراقه فتحتها في لهفة لتصرخ في سعادة :- بسبوسة..!!..

إنفجر ضاحكاً لردة فعلها لتهتف هي في تعجب :- بس ازاي عرفت إني بحبها ..!!.. سألت نعمة ..صح ..!؟..

.....

هز راسه نافيا و لازالت الابتسامة تكلل محياه ثم همس :- إنتِ اللي جولتيلي ..

همت بالاعتراض الا إنه استطرد :

.....

- في يوم كنت راجع من المحل بدرى لمحتك جدام محل الحلويات اللي على طرف الحارة ..وجفت .. خفت لسمري أو حد من رجالته يتعرض لكِ... و سمعتكِ و إنت بتطلبى البسبوسة و خدتيها و مشيتى و أنا وراكِ حارسك وإنتِ مش دريإنة لإنك فتحتى طبج البسبوسة و هاتك يا اكل ..

إنفجرت ضاحكة .. ليعقب هو مازحاً وهو يختطف طبق البسبوسة من أمامها و يندفع واقفا و هو يهتف :- دلوجتى نشوف بتحبى مين اكتر.. زكرياء و لا البسبوسة ..!!..

.....

إندفعت بدور تدافع عن محبوبتها تحاول إن تطالها وهو يرفعها عنها لأقصى ما تصله كفه و هو يضحك هاتفاً :- جولي .. زكرياء و لاه البسبوسة ..!!؟..

لتهتف هي محاولة الوصول للطبق و إيجاد حل وسط :- زكرياء بالبسبوسة ..

.....

لينفجر زكرياء ضاحكاً وهو يخفض الطبق لمستوى ناظريها لتلمع عيناها في لهفة ممنية نفسها بتذوق قطعة ومدت كفها تتناول احداها بالفعل وما إن همت بقضمها الا وأدارت كفها التي تمسك بها و تتجه بها ناحية فم زكرياء الذي ادرك إنها تأثره على نفسها و تقدم له يدهاليتناول القضمة الأولى ففعل في محبة و أخيرا عادت بكفها لتضع باقى القطعة كلها في فمها لينفجر زكرياء مقهقها وهو يراها تلعق أصابعها في استمتاع وهمس متحسرا :

- ده شكل اجازة بكرة هاتبجى للبسبوسة و خلاص راحت عليا أنا بجى ..

لتهتف بلهفة وهي تضع طبق حلواها المفضلة جانبا :

- متقلش كده يا سي زكرياء .. طب شايف أنا بحب البسبوسة قد ايه .؟!.. أنا بحبك اكتر بكتيير ..

.....

قهقه زكرياء هاتفاً :- كتر خيرك .. أنا عرفت كِده إنك بتموتى فيا بچد ..

إندفعت بين ذراعيه ضاحكة في سعادة .

****

خرجت تطمئن على صغارها في حجرتهما الخاصة و تتأكد إنهما على خير حال ..قابلت الحاجة فضيلة التي كانت تصعد الدرج بعد رحيل اخر النسوة المعزيات ..

نظرت اليها زهرة في حسرة وقد ارتسم على وجهها تغضنات لم تكن موجودة على وجهها من قبل .. أضحت الحاجة فضيلة عنوان القوة و الصمود امرأة عادية يُظهرها الحزن اكبر بكثير مما هي عليه حقا .. حزنها كبيير.. زهرة تعلم ذلك جيدا .. فحبها للحاج مهران كان كبيرا أيضا .. اشفقت عليها .. فإندفعت زهرة تتلقى كفها ما إن وصلت لاخر درجات السلم لاهثة وسارت تستند عليها حتى وصلت

بها لحجرتها .. مرت على حجرة الحاج مهران في طريقها فتوقفت لحظة تدنى الطرف على مقام حبيبها الذي ما عاد يسكنه ...

.....

همست لزهرة بشجن :- لساته عاصم بيبيت في أوضة الحاج..؟!..

أومأت زهرة إيجابا .. و همست بدورها و قلبها يئن حزنا على حال زوجها و حبيبها:

- هنسيب عاصم كده يا خالتي ..؟!.. أنا خايفة عليه من الكتمة و القهرة اللي ملياه دي ..

ربتت الحاجة فضيلة على كفها مطمئنة و قد وصلت لباب حجرتها وهمست في هدوء مؤكدة :- متجلجيش .. عاصم ولدي شديد ..

أومأت زهرة برأسها إيجابا على الرغم من عدم اقتناعها و قبلت رأس خالتها وتركتها لتعود لصغارها ..

.....

عادت لحجرتها أخيرا تحاول الحصول على قدر من النوم والراحة بعد عناء الأيام الماضية .. لكن من أين تأتي الراحة ..؟!..

وهي تراه لا ينعم بها .. من أين يأتي النوم..؟!!.. و قلقها علي حاله يضج مضجعها ، تقلبت على فراشها لكن هيهات إن يزور النوم جفونها .. ثلاث ليال وهو بعيد .. ثلاث ليال بلا نوم .. ثلاث ليال ممزوجة بالأرق و القلق هي لم تعد تحتمل .. ظلت بعيدة تحترم حزنه و قررت إن تتركه يتصرف كما يحلو له مراعية لظروفه النفسية الصعبة .. لكنها لن تظل بعيدة للأبد .. لن تتركه وحيدا غارق في حزنه .. فليكن ما يكون ..

.....

هكذا هتفت وهي تندفع من فراشها وتخرج من غرفتها في هدوء و حرص وتتسلل لغرفة الحاج مهران و تفتح الباب في حذر وتدلف للداخل و تغلق الباب خلفها .. رأته على ضوء

خافت صادر من باب الحمام الجانبي على اطراف الغرفة كان دوما ما يتركه الحاج مهران رحمه اللّه مضاءً ..

كان يتكوم كجنين على اطراف الفراش يحتضن في تشبث وسادة كان دوما ما يرتكن عليها ابيه عند جلوسه في ساعات استيقاظه..

دمعت عيناها لمرآه بهذا الشكل .. تحركت في بطء حتى أصبحت على الجانب الاخر من الفراش وما إن وضعت جسدها عليه حتى اصدر صريرا فتنبه عاصم لكنه لم يحرك ساكنا بل همس بحسم :- روحي يا زهرة من هنا ..أنا زين ..

لم تجبه بل اقتربت اكثر حتى أصبحت تلتصق بظهره الذي يوليه أياها ووضعت كفها على ذراعه هامسة بأسمه بنبرة مستجدية رغبة في الاطمئنإن عليه :

- عااصم ..؟!!..

همس من جديد بحسم اقل :- أنا زين .. روحي اللّه يخليكِ ..

جذبت ذراعه ليواجهها فلم يعترض واستدار بكليته اليها فتشجعت و جذبت برفق الوسادة من بين ذراعيه ووضعتها جانبا ..و أخيرا ضمت رأسه لصدرها و همست :

.....

- ابكي يا عاصم .. ابكي ..

تنهد بعمق وهمس بين أحضانها :- أنا شَديد يا زهرة .. أنا شَديد ..

احنت رأسها لتقبل هامته التي بين ذراعيها في حنو و بدأت تهدهده في وداعة لتستشعر شهقاته التي يحاول كتمإنها في أحضانها لتعتصره إلى صدرها اكثر وتحيطه بذراعيها كانما بفعلتها تطرد اشباح الحزن بعيدا .. بكت تشاطره ألمه الذي تستشعره يلهب صدرها و يعذب روحها .. لا

تعلم كم ظلا على حالهما .. لكن كل ما تعرفه

إنه غفا أخيرا كالطفل بين ذراعيها ..

****

.....

www.hakawelkotob.com

-٥-

جلست بخيتة في استكانة تمسك بصينية عليها بعض الحبوب تنظفها وتخلصها من شوائبها و كسبانة بجوارها تطعم حمزة الذي بدأ النوم يداعب جفونه فيدعك احدى عينيه بظاهر كفه و يتثاءب في نعاس واضح .. ضحكت بخيتة لمظهره الناعس فتركت صينية الحبوب جانبا و تناولت حمزة تهدهده وقد لاحظت شرود كسبانة على غير المعتاد فهمست متسائلة :

- مالك يا بنتي ..!!.. شكلك مش بعادة .. في حاجة شغلاكي ..!!؟.

.....

تنهدت كسبانة في سأم :

.....

- لااه مفيش يا خالتي.. بس إنتِ عارفة إن أمي و اخوالي مجاطعيني من يوم اللي حُصل بسبب سليم ..و جال أنا لطخت سمعتهم في الوحل .. يعني أنا لو مطاوعتش سليم كان هايعمل فيهم و يسوى واحنا غلابة و ملناش حد يا خالتي .. كنت هجوله لااه ازاي ..؟!.. و احنا ملناش حد يجف لسليم بعد موت ابويا ..و الله يا خالتي لولا عاصم بيه و سي زكرياء لكانوا جتلونى من زمن ... و اهو أمي جايبة لى عريس من طرف خلأني .. و يا اوافج عليه ليجطعوني العمر كله ..

سألت بخيتة في فضول :

.....

- و إنت رأيك ايه يا بتي ..؟!.. هاتجبلي العريس اللي جيبينه دِه !!.

اجابت كسبانة :

.....

- و الله يا خالتي ما عارفة اجبل و لا لاه .. خايفة يعمل لى البحر طَحينة و يجولى هراعيكِ إنت وولدك و بعد الپواز يجولى اديه لأمك تربيه وأنا مجدرش ابعد عن ولدي و لا ساعة واحدة و أمي معدتش جادرة على تعب العيال كفاية عليها اخواتى اللي لسه صغار ..و لو رفضت.. أمي هتجاطعنى تاني .. معرفاش اعمل ايه و اسوى ايه ..!!؟..

ربتت بخيتة على كتفها متعاطفة وهي تهمس في محاولة لطمإنتها :

.....

- متجلجيش يا بتى .. ليها رب اسمه الكريم .. تتعدل باذنه .. سبيها على الله ..

أومأت كسبانة برأسها موافقة ونظرت لحمزة الذي راح في سبات عميق منذ زمن لتحمله من بين ذراعى بخيتة متوجهة به لغرفتها وفي منتصف طريقها استدارات تسأل بخيتة:

.....

- هو سي زكرياء متصلش يا خالتي ..؟!.. بجاله فترة غايب .. ده الحاج مهران اديله كام يوم متوفي و هو ميعرفش ..!!..

هتفت بخيتة متنهدة :- الغايب حچته معاه يا بتي ..

تابعت خطواتها هاتفة :- صدجتي يا خالتي الغايب حچته معاه .. و هو حچته شديدة .. عريس ماشاء الله .. ربنا يهنيه ..

.....

دخلت كسبانة الغرفة لتتطلع بخيتة للباب المفتوح حيث غابت وهي تتحسر في سرها .. خَسارة يا بتي .. و الف خَسارة ..بس النصيب بجي ..

****

تسللت زهرة بحذر من جانب عاصم الذي غاب في سبات عميق و إندفعت لحجرة اطفالها عندما تناهى لمسامعها صوتهما يشق صمت الليل ببكائهما .. ظلت بقربهما حتى

غابت هي أيضا في النوم ولم تستوعب أين هي بالضبط حتى فتحت عيونها تستطلع ما حولها لتجد اطفالها على حالهما .. كانت سندس مستيقظة تلهو بصوتها المحبب بينما مهران لا زال يغط في نومه ..

تسللت زهرة من جديد بغية التأكد إن عاصم لازال نائما و لم يستيقظ بعد .. إنه بحاجة للراحة و النوم بعد ثلاث ليال من الحزن و الأرق لم يذق فيهما للراحة سبيل ..

هبطت الدرج في تكاسل فهي بدورها لم تنعم بالراحة لكن ما يعنيها إن عاصم بخير ..دخلت المطبخ تعد فطورا شهيا تقدمه له ما إن يستيقظ .. حملت صينية الطعام وصعدت بها لحجرة ابيه حيث ينام .. ببطء شديد فتحت الباب .. كانت في سبيلها لإغلاقه من جديد عندما اعتقدت إنه لايزل نائماً لكنه هتف بها دون إن يوجه بصره للباب :- أنا فوجت يا زهرة تعالي ..

دخلت بحملها ووضعته على الطرف الاخر من الفراش

عندما استدار لها بكليته :

- صباح الخير ..

.....

ابتسمت في حنو :- صباح النور .. احلى فطور لعيونك ..

هتف رافضا :- ماليش نَفس يا زهرة ..

استدارت زهرة لتجلس قبالته هامسة وهي تضع كفها على جانب وجهه الذي تطاولت لحيته بشكل واضح :

- مينفعش كده يا عاصم.. إنت مدقتش الزاد و منزلش جوفك الا المية ..

جذبت الصينية و مدت كفها تستقطع لقيمة تضعها بفمه ليعترضها هو بكفه هامساً :

- و اللّه ما جادر .. حاسس إن چوفى كنه چمر ..

دمعت عيناها وهي تهمس :- و اللّه ما يرضى حد اللي بتعمله ده و لا عمي اللّه يرحمه يرضى بكده ..

.....

تنهد عاصم في شجن عند ذكر ابيه واشفاقا على حالها الملتاع مد كفه في هدوء وتناول كوب اللبن من على الصينية و بدأ في شربه ببطء مما دفعها لتمسح دموعها وتبتسم مشجعة و هي تضع اللقيمة التي لاتزال في كفها في فمه ..

تناول ما استطاع بفضل تشجيعها .. و ابتسمت وهي ترفع صينية الطعام من أمامه و تضعها في احد جوانب الغرفة .. وما إن هم بالنهوض حتى هتفت مازحة :

- على فين ..؟!..

و إندفعت تجلسه مرة أخرى على اطراف الفراش هامسة :- عيالك نفسهم يشفوك ..

همس في محبة :- وحشونى بجد هاتيهم ..

.....

أشارت لذقنه النامية هاتفة :- بدقنك دي ..؟!..لا

.. لازم نتظبط الأول وأخرجت من خلف ظهرها عدة الحلاقة

.. وهي تهتف في مرح :- اسمح لي اشلفطك بقى ..

اتسعت ابتسامته وهتف :- شلفطي زي ما إنت عايزة .. بس

اياكِ وشنبي ده أنا بربي فيه من عمرك ..

إنفجرت ضاحكة :- ليه هو إنت شنبك طلع و إنت عندك

سبع سنين .. !!؟..

ابتسم لمزاحها مؤكدا :

- ااه .. سلو عيلتنا ..رجالة من يومنا .. اعترضي لو تجدري.

.....

بدأت في وضع منشفة حول رقبته و وزعت معجون الحلاقة

على ذقنه ووجنتيه و بدأت في استخدام الشفرة في حذر

هامسة بمحبة مازحة :

- أنا أقول اللي أنا عيزاه دلوقتي لإن رقبة حضرتك تحت

ايدي.. اعترض إنت بقى..؟!

.....

همس بعشق و امتنإن وعيونه تأسر عيونها :- زهرة ..؟!.. تسلميلي ..

كان يعلم إنها تفعل المستحيل لتخرجه من حالة الحزن التي تسيطر عليه على الرغم من حزنها الذي لا يقل شدة لأنها ليست فقط حزينة على وفاة أبيه لكن حزنها مضاعفا بسبب حاله التي لن يخرجه منها إلا هي.. و لقد نجحت إلى حد كبير ..

.....

دمعت عيناها لكلمته رغم بساطتها وإنحنت تقبل جبينه في سعادة .. ليهتف هو في مزاح:- خلصي بجي و إنچزي .. تاريكِ حلاج غشيم..

اتفجرت ضاحكة :- بقى كِده ..!! ماشي .. مسحت ما تبقى من معجون الحلاقة عن وجهه لتهتف في مرح :

- نعيما يا فندم.. اول مرة بس مجأنا .. بعد كده الدفع مقدماً ..

.....

همس مشاكساً :- جال مجدما .. إنت اخرك بيضتين و جرجوشة (عيش ناشف) زي الحلاجين اللي كانواعلى الپسر زمان ..

إنفجرت ضاحكة :- دي اخرتها ..على العموم أنا خدت اجرتى خلاص ..

.....

نظر إليها فاستطردت .. كفاية عليا ضحتك اللي رجعت تنور وشك تاني يا عاصم .. ربنا ما يغيبها ابدا ..

جذبها اليه يضمها في عشق و يطبع على جبينها قبلة طوويلة أودعها كل محبته وامتنإنه ..

****

خرج نبيل من احد المحلات التجارية يتنهد في تعب واضح هاتفاً :

- كفاية كده يا ندى .. مبقتش قاادر خلاص ..

.....

هتفت ندى حانقة :- كفاية ايه ..؟!.. هو احنا لحقنا .. لسه بدري ..

هتف نبيل معترضاً :

.....

- ايه .. لسه بدري ..؟!. طب امشي قدامي .. ده احنا لفينا فوق الخمسين محل لحد دلوقتي .. يا بنتى إنت رايحة باااريس يعني ارض الحب .. هاا الحب ..ورفع يده متضرعا للسماء مازحاً ..يا رب تفهم ..

قهقهت وهي تجذبه من كفه المعلقة :

- لا .. مش فاهمة .. اللي فهماه دلوقتي حاجة واحدة.. لسه مخلصتش شرا كل اللي أنا عوزاه ..

أشار نبيل إلى الطريق أمامها هاتفاً :

- حااضر يا فندم .. بس ممكن اكل .. عاادي بنى آدم و لازم ياخد طاقة عشان يقدر على الأشغال الشاقة دي ..

.....

أكدت ضاحكة :- اذا كان على الاكل .. ماشى..

و أنا اللي عزماك كمان ..

.....

قال نبيل مدعيا الفرحة :- لا .. روحى يا شيخة ربنا يعمر بيتك ..

جلسا أخيرا على احدى طاولات مطعم راق

و هو يتنهد في راحة :

- أخيرا .. مش مصدق نفسي .. هو ده بقى اللي بيسموه شوبنج ..؟!..

ابتسمت ندى :- ايوووه حضرتك ..

استطرد :- و المفروض إنه متعة و كده .. أُمال العقاب يبقى ايه ..؟؟!..

أكدت ندى متذمرة :- حد يقول على الشوبنج عقاب .. ده اكبر متعة في الدنيا ..

.....

اقترب نبيل منها مشاكساً :- معلومة خاطئة و وجب عليا التصحيح من فضلك ..

.....

همست باسمة :- تصحيح ايه ..!!؟..

همس بعشق :- اكبر متعة في الدنيا .. هي القرب منكِ ..

ثم زفر حانقاً فجأة .. هو احنا امتى هانكتب الكتاب ..!؟..

إنفجرت ضاحكة لتحوله المفاجئ .. وهتفت مؤكدة :

- ما إنت عارف يا نبيل .. ماما ..

قاطعها بغيظ :- ايوه عارف، ماما عايزة كتب الكتاب قبل الفرح بيوم ..و طبعا عمي كتر خيره واقف في صفها كأني مش بن عمك من أساسه و بتعامل زي الغريب ..

همست متنهدة في محاولة لامتصاص غضبه المتصاعد من ذاك الموضوع الذي لطالما كان موضع لمناقشاتهما المحتدة و لعلمها إنه على حق في مطلبه :

.....

- معلش يا نبيل .. عشان خاطري .. إنت عارف بابا بيحاول يريح ماما بالذات الفترة الأخيرة لما عرف بتعب قلبها .. كفاية عليها احساسها بالزعل أني هسافر و اسبها كمان كام شهر ..

تنهد نبيل متفهما :

- خلاص .. حصل خير .. بس القصد يا ندى أني احس أني خارج معاكي و إنت مراتي و بكلمك براحتى وبزورك في البيت براحتي .. مش مجرد خطيب و خطيبة.. على العموم .. اهي هانت .. كام شهر ونكتب الكتاب وساعتها يمكن اخطفك ويشوفوا مين بقى اللي يحضر لهم الفرح؟ .

.....

علت ضحكاتها على كلماته المتوعدة الممزوجة بالمزاح.. لينظر هو لضحكاتها الندية فيهمس بغيظ :- منك لله يا طنط هتلر ..

سألته في تعجب :- بتقول حاجة ..!!؟..

.....

أكد مازحاً :- لا خاالص .. بدعي من كل قلبي لعمي و طنط .. ربنا يكرمهم ..

نظرت اليه نظرة كلها ريبة .. ليستطرد مؤكدا:- اكيد طبعا .. مش جابوكي ليا ..

لتبتسم في خجل مصدقة ادعاءه ...

****

نادت نعمة بصوت عال :- يا للاه الغدا يا حاج وهيب ..

.....

نهض الحاج وهيب جاذباً خلفه زكرياء مشجعا:- يا اللاه يا زكرياء يا بنى ..و لا هاتعمل فيها مكسوف .. ده إنت خلاص بقيت واحد مننا ..

ابتسم زكرياء لبدور وهو يجلس للطبيلة وقد مرت أمامه لتساعد نعمة في جلب باقى الصحون .. تساءل الحاج وهيب :

.....

- بص بقى يا زكرياء يا بنى .. النهاردة ايه في أيام ربنا ..؟!..

أكد زكرياء :- الجمعة يا حاج.. استطرد الحاج وهيب :

- تماام .. يبقى الجمعة من كل أسبوع هنستناك إنت ومراتك على الغدا ..

اعترض زكرياء :- بس يا حاج..

.....

قاطعه الحاج وهيب :- مفيش بس .. جرى ايه يا زكرياء .. هو أنا مليش حق في مضايفة بنتى و جوزها يوم في الأسبوع و لا ايه .. !!؟...

أكد زكرياء :- لاه .. حبك يا حاج .. هو حد يجدر يجول غير كِده ..

هتف الحاج وهيب :- خلاص .. يبقى هنستناكم كل جمعة باذن الله ..

.....

هتف زكرياء :- تعيش يا حاج و يجعله عامر دايما بحس صحابه ..

امن الجميع خلف زكرياء .. و طلت الابتسامة على وجه بدور في سعادة لاقتراح ابيها و سعادتها الكبرى جاءت من موافقة زكرياء ..

.....

إنتهى الطعام .. وتوجه زكرياء و الحاج وهيب للصالون تاركي النسوة يجهزن الشاي بينما تحدث الحاج وهيب بنبرة هادئة :

- بص يا زكرياء يا بنى .. إنت عارف إن معندىش غير بدور .. هي اللي طلعت بيها من الدنيا .. و كل همي هو سعادتها و راحتها .. و الحمد لله ربنا كرمها بيك ..و بقيت في معزتها بالظبط و ربنا العالم ..

هتف زكرياء :- صادق يا حاج ..

.....

استطرد الحاج وهيب :- عشان كده يا بنى أنا هطلب منك طلب و يا ريت متردنيش.

هتف زكرياء بصدق :- على رجبتي يا حاج وهيب ..

ربت الحاج وهيب على كتف زكرياء ممتنا ثم هتف :

.....

- الشقة اللي قدامنا على طول دي شقة ام بدور .. لما اتجوزت نعمة محبتش تدخل على شقة المرحومة و جبتها الشقة دي ومن يومها و هي مقفولة بعفشها .. يا ريت إنت وبدور تنزلوا فيها بدل الاوضة الضيقة اللي فوق .. اهو توسعوا على نفسكم شوية ..

صمت زكرياء للحظات و لم يعقب على الرغم من شعوره بالضيق .. و تمالك نفسه أخيرا و قال في هدوء :

- يا حاج وهيب .. طلبك على عيني و راسي .. بس معلش .. اعفينى .. أنا عايش في المكان اللي أجدر ادفع أجرته و اللي

مرتي لازماً تلازمني فيه .. و يوم ما اجدر ادفع ايجار الشجة .. أنا اللي هتلاجيني بطلبها منيك يا حاج ..

.....

صمت الحاج وهيب للحظات وقد ادرك إن زكرياء لن يغير رأيه مهما حدث .. و إن رأسه الصعيدية اليابسة لن تتزحزح عن موقفها لذا تنهد في قبول هاتفاً :

- خلاص يابنى اللي يريحك .. لله الامر من قبل و من بعد ..

أنهى زكرياء الشاي و استأذن في عجالة لتلحقه بدور مسرعة لتجده يهبط الدرج لخارج البيت فتهتف في تساؤل :- هو إنت مش طالع تستريح يا سي زكرياء ..؟!..

هتف في اختصار :- لاااه ..

هتفت مستفسرة وهي تندفع خلفه :- اومال رايح على فين ..؟!.

.....

كانت وصلت لمدخل البيت راكضة ليستدير لها في سرعة هاتفاً بحنق :

.....

- مبحبش اللي يجولى رايح فين و جاى منين .. أنا اروح مُطرح ما أني عاوز في الوجت اللي أني عاوزه .. محدش شريكي ..

طأطأت رأسها في استكانة وما إن إنهي كلماته الجافة حتى رفعتها تتطلع اليه وهي تومئ بالإيجاب ثم تندفع للأعلى صاعدة الدرج في عجالة حتى لا تخزلها دموعها وتنحدر أمامه .. وهي لا تدرك جريرتها ..

****

هتف حسام مشفقاً :

.....

- مش كفياكي كِده يا سهام .. عيونك دبلوا من البكا ..و الله الحاج مهران الله يرحمه ما يرضى باللي بتعمليه دِه..

هتفت من بين شهقاتها :- مش بخطري يا حسام .. و الله ما جادرة ..

جلس بالقرب منها يحاوط كتفيها بذراعه محاولا تهدأتها :

.....

- استهدي بالله .. و جومى اغسلى وشك .. و ادعيله بالرحمة هو دِه اللي محتاجه الحاج دلوجت .. الدعا مش البكا .. و بعدين مش صعبإن عليكِ باسل اللي مهملاه طايح في الدار مرمى على كل يد شوية و محروم منيكِ .. طب مصعبش عليكِ أبو باسل و هو مش عارف ياكل لجمة طايبة (جميلة) من يد غير يدك ..

إنحنى يلثم جبينها و اذ فجأة تهب رائحة كريهة على غير إنتظار .. فينتفض حسام مشمئزا :- واااه .. ايه الريحة العفشة دي ..؟!.

لتنفجر سهام مقهقهة و هي تشير إلى الأسفل تحت اقدام حسام حيث ظهر باسل فجأة من تحت الفراش و على ما يبدو .. فإن باسل لم يدخر جهدا في تلويث حفاضه والذي نهض وابتسامة بريئة على شفتيه يترنح في مشيته من ثقل حفاضه الزاخر مما دفع حسام ليصرخ هاتفاً عندما اقترب

باسل منه :- لاه ..و ينهض مندفعا خارج الغرفة تاركا سهام غارقة في ضحكاتها على مظهر كل منهما و خاصة إندفاع حسام خارج الغرفة و باسل يترنح في عدوه خلفه بحفاضه معتقدا إنها لعبة و إن ابيه يلهو معه وباسل يحاولان يمسك به ..

****

سار زكرياء متوجها صوب مقهى المعلم خميس وجالت عيناه في ارجاء الحارة التي يشملها الهدوء النسبي في مثل تلك الساعة من بعد ظهيرة يوم الجمعة .. وقعت عيناه على رجل يجلس في سكينة خلف طاولة خشبية موضوع عليها عدة بطيخات ويضلل عليهم بقطعة عريضة من الخيش المندى بالماء مرفوع على عدة أعمدة خشبية رفيعة بالكاد تحمل تلك القطعة الندية من الخيش المهلهل و التي يحتمى بها بقرب بطيخاته من حرارة الشمس ولهيبها ..

وبدأ ينادي بصوت جهوري لا يتسق ابدا مع مظهر الرجل الجسدي الذي يشبه احد أعواد البوص ..

حاد زكرياء عن الرجل بعينيه موجها ناظريه صوب المقهى الذي اصبح قاب قوسين او ادنى فاذا به يسمع عقيرة الرجل ترتفع بالصياح .. ليعود زكرياء ادراجه ينظر ما الامر .. فاذا به أحد رجال السمري يتطفل على الرجل ويحاول الحصول على احدي البطيخات هبة بلا ثمن .. ليصرخ الرجل مستغيثا من السمري و رجاله ..

إندفع زكرياء حيث الرجل الضعيف المقاوم لبطش رجل السمري ليقف بينهما محاولا الزود عنه ..هتف زكرياء في نبرة مهددة لرجل السمري :

- عايز البطيخة تدفع تمنها هي مش تكية ..

.....

دفع حينش رجل السمري زكرياء في كتفه هاتفاً بصوت جهوري :

.....

- و إنت ايه دخلك .. بايع و شاري .. مدخل نفسك بينهم ليه يا سبع البرمبة..!!؟..

هتف زكرياء مزمجراً :- لما تبجى شارى بالادب نبجى نبيعولك .. غير كِده شطبنا .. و لما الراچل الطيب دِه .. و اشار زكرياء لبائع البطيخ العم طايع .

مستطرداً .. يأذن لك تدفع تمنها وتتكل بالمعروف .. هتف حينش بصوت أجش مهددا - و إن معملتش كده .. هاتعملى ايه يا حيلتها ..!!؟..

إندفع زكرياء باتجاه الرجل في ثورة :- هنأدبك زي ما أدبنا معلمك جبل سابج ..

.....

ظهر المعلم خميس فجأة و خلفه رجاله ليصرخ بصوت جهوري ليتوقف العراك قبل أن يبدأ :

.....

- اياك يا حينش .. لو ايدك اتمدت على زكرياء هاتتقطع .. زكرياء يتعد من رجالتي .. أنا عارف إنه يقدر يقوم بعشرة من عينتك بس ما يرضنيش يوسخ ايده ..

وتوجه لزكرياء بالحديث :- عندى أنا دي يا زكرياء ..غلطة و مش هتتكرر تاني ..

و أدار رأسه باتجاه حينش متسائلا :- و لا ايه يا حينش .. ؟؟؟!!...

زمجر حينش في غضب مكبوت و عيون حمراء.. ضاغطا على كفيه المضمومتين في حنق وهو ينظر لزكرياء نظرات تكاد تقتله ..و فجأة إندفع من امام الجميع مبتعداً.. هتف المعلم خميس ساخراً :

- على فين .؟!.. طب و البطيخة .. تعال خدها أنا عازمك عليها إنت ومعلمك .. اهو تطروا على قلبكم في الحر ده ..

.....

إنفجر الجميع مقهقهين لسخرية المعلم خميس اللول على حينش الذراع اليمنى للسمري ..ليخرج طايع بائع البطيخ من خلف نصبته مجرجرا قدمه المصابة خلفه محاولا الوصول لموقع زكرياء وسط الجمع .. حتى ما وصله استند على ذراع زكرياء الذي تلقفه في سرعة هاتفاً:- على مهلك يا عم ..

ابتسم طايع في ضعف :- طايع.. اسمى طايع يا بني ..

.....

وخزة نكأت قلب زكرياء للحظات من لفظة ابني التي خرجت خالصة المحبة تحمل فخرا و اعتزازا حلم بهما زكرياء طوال عمره .. ابتسم زكرياء في مودة :

- على مهلك يا عم طايع ..ربنا يديك الصحة ..

أسنده زكرياء حتى عاد لمجلسه خلف نصبة البطيخ و ربت على كتفه في حنو :

.....

- اي حد يضايجك يا عم طايع .. نادم و جول يا زكرياء .. هتلاجينى جمبك طوإلى اخد لك حجك منيه..

ابتسم طايع :- تسلم لى .. بس خد بالك من نفسك .. سمري نابه ازرق و مش هيسكت .. و ابتسم في حسرة كستطردا.. اسألني أنا ..

.....

..جلس المعلم خميس ينفس دخان نرجيلته على احدى كراسي مقهاه الجانبية متطلعاً من مكانه لطايع و زكرياء .. و الذي يراه الآن متوجها صوبه..

جلس زكرياء متنهدا في ضيق ليربت المعلم خميس على كتفه في فخر :

- وحش بصحيح!!.. بس خايف عليك يا صاحبي..

هتف زكرياء :- هو إنت هتجول نفس جولة عم طايع .. ..؟؟!

.....

أومأ المعلم خميس و دخإن نرجيلته الذي يعبق الجو براحته المميزة يحجب رؤية ملامح وجهه للحظات قبل إن يهمس متحسرا :

- طايع عنده حق .. لأنه عارف مين هو السمري.. طايع اللي إنت شايفه دلوقتي ده .. الأعرج اللي مش قادر حتى يدافع عن نفسه كان يقفل حارة زي حارتنا دي .. بس القوى في اللي أقوى منه .. و ..

قاطعه زكرياء مستفسراً في ضيق :

- إنت عايز تجول يا معلم خميس إن طايع ده بجى أعرج بسبب السمري ..؟!!..

اومأ المعلم خميس مؤكدا :

- ايوه .. طايع ده كان راجل حقاني زيك كده .. بس ايه فايدة الحق من غير قوة تحميه ..

.....

هتف زكرياء :- و إنت كنت فين يا معلم خميس من سمري و رجالته والراجل بيتبهدل كِده ؟!

تنهد المعلم خميس هاتفاً :

- يا صاحبى السمري ده تِعبإن لدغته و القبر .. تعرف لو بيعمل اللي بيعمله في عز النهار كنت تلاقى اللي بيوقف له و أنا اولهم .. لكن ده يعمل العملة في الدرا من غير ما حد يدرى و كلنا بنبقى عارفين اللي عمل كده مين .. بس اثبت ..ساعتها لا مين شاف و لا مين دري .. و الخوف بيخرس الكل ..

عشان كده يا صعيدي بقولك خد بالك .. سمري غاطس عن الحارة بقاله كام يوم .. وده ميطمنش ..و خصوصى إنه مقربلكش من يوم اللي حصل مع جماعتك.. غيبته دي وراها مصيبة ..مش هيظهر الا لما ريحيتها تفوح ..ربنا يستر.

.....

تنهد زكرياء و هو يرتشف من كوب الشاي الذي وضعه صبي المقهى على طاولتهما وعيونه كلها ترتكز على ذاك الرجل الطيب المدعو عم طايع ..

.....

هم زكرياء بالرحيل مستأذنا المعلم خميس الذي حاول أن يبقيه معه لكنه تعلل برغبته في الراحة من اجل العمل لليوم التالي .. خطوات وسمع زكرياء العم طايع يناديه فاتجه صوبه :- خير يا عم طايع .. ؟!!..

جذب طايع احدى بطيخاته وشقها بسكينه المميزة التي لا تغادر كفه مقدمها لزكرياء الذي هتف :- واه ..ليه بس كِده يا راچل يا طيب؟!!..

هتف طايع نافيا ما جال بخاطر زكرياء :

- لا يا بني.. أوعى تفهم إنها رد لمعروفك معايا .. ابدا لا سمح الله .. دي هدية .. و النبي قبل الهدية يا زكرياء يا بني ..

.....

ابتسم زكرياء في مودة :- هدية مجبولة يا عم طايع .. تسلم ..

و مد زكرياء يده ليحمل البطيخة متوجها إلى داره حيث تلك التي تركها تداري دمعها عن عينيه ..وصل لأعتاب السطح وما إن دلف للداخل حتى رآها تقف مستندة بمرفقيها على السور تتطلع إلى الحارة من عليائها و لم تفطن لوجوده بعد .. يبدو إنها نظرت للتو فهي لم تره يدخل من باب البيت او حتى تلمحه عندما اقترب .. او إنها قد رأته بالفعل لكنها تتصنع العكس تماما كنوع من إنواع إظهار الحنق و الضيق ..

تنحنح بصوت مسموع حتى تنتبه .. بالفعل استدارت في بطء لمكان وقوفه وتقدمت منه تحمل عنه البطيخة التي يحملها لكنه ابعدها عنها لأنها اثقل من إن تحملها بمفردها فاتجه بها لداخل الغرفة ليضعها جانبا ..

هتف آمرا :- جطعي البطيخة نصين و إنزلى بنص لبيت ابوكي و تعالي حضريلنا العشا بالنص التاني .. على بال ما أغير و اصلي العشا ..

لم تتفوه بحرف واحد بل نفذت في التو ولم ترفع حتى عيونها لملاقاة نظراته التي تتفحصها ... فعلت كما أمر و أعدت العشاء و جلست تنتظر إن يفرغ من صلاته ..

جلس في هدوء ولا يعرف لما أصبحت عادة أن يرفع كفه اليها ليطعمها أولى اللقيمات لكنها نحت راسها عن كفه جانبا ..

.....

توقفت يده معلقة في اتجاه فمها .. هتف في ضيق متعجبا:

- بجى إنتِ اللي زعلانة ؟!..

دمعت عيناها :

.....

- أنا مش زعلانة إنك زعقت فيا يا سي زكرياء و سمعتني كلام ضايقني .. أنا اللي زعلني بجد إني مش عارفة أنا عملت ايه لكل ده !!؟..

هتف في حنق :

- مش عارفة ..!؟؟.. اذا كان إنتِ اللي جايلة لابوكِ ..و إنتِ اللي طلبتى منيه يكلمني عشان عارفة أني مبجدرش ارفض له طلبه ..بس دي بالذات لاااه ..

نظرت اليه بنظرات متعجبة لا تع على ماذا يتكلم لتهمس :

.....

- أنا مش عارفة إنت بتتكلم عن ايه يا سي زكرياء .. !!؟..و رحمة أمي ما كلمت ابويا و لا طلبت منه حاجة ..

هتف زكرياء منتفضاً من مكانه في غضب عماه عن ادراك الصدق في حديثها :

.....

- اهاااا چبتى المفيد .. امك .. و شجة امك ..اللي ابوكِ عايزنا ننزل نعيش فيها ونسيب الاوضة..

نهضت بدورها تقف أمامه وهو يهمس كازً على اسنانه :

- اذا كان اوضتي و عيشتي مش على هواكِ يا بت الناس .. جبلتي ليه بيها من الأول .. أنا مغشتكيش ولا جلت هعيشك في جصور و لا ..

.....

وضعت كفها على شفتيه معترضة على استطراده بكلمات تؤلم قلبها بقدر ألم كرامته الذي تستشعره فى كل حرف ينطق به ..

همست و دموعها تغطى وجنتيها :

- سي زكرياء ..!؟؟.. و غلاوتك عندى .. واللي جمعنا من غير ميعاد وجعل لى نصيب فيك و في قلبك .. أنا ما قلت لأبويا كلمة عن شقة أمي .. عارف ليه ..!!؟.. عشان أنا راضية .. راضية ابقى معاك في اي مكان .. و بحمده و

بشكر فضله إنه جمعني بيك .. ابويا قال كده من عشمه و عشان يريحنى ..ميعرفش إن راحتي معاك فين ما تكون .. متقلقش يا سي زكرياء .. كرامتك متصإنة و هيبتك محفوظة ..

.....

و إندفعت من أمامه لداخل الحجرة تسبقها شهقاتها المتعالية و التي كتمتها طويلا ..وقف زكرياء بلا حراك .. يشعر إنه تسرع في اتهامها بما ظنه .. شعر بالندم يتخلله و يعربد بكل خلية من خلاياه و هو يقف كالمسمار لا يأتي بأى رد فعل ..

أخيرا تحرك في ضيق باتجاه سُوَر السطح يستند عليه متنهدا في ألم و يضربه بقبضته في ضيق حقيقي منع صدره من التقاط إنفاسه بشكل طبيعي .. استغفر اللّه .. واستدار عائدا للحجرة التي غابت فيها .. طل منها ليجدها تجلس على طرف فراشهما الضيق يهتز كتفاها دلالة على إنها

لاتزال منخرطة في بكائها .. تنهد مقتربا منها و إنحنى اليها يقبل هامتها فهدأت شهقاتها وبدأت في مسح عيونها مد كفه اليها يلتقط كفها يجذبها لأحضانه ويحيطها بذراعيه في شوق ..

لحظات مرت و هي تتنهد بين ذراعيه و أخيرا همس مشاغبا :

- احنا مش هنتعشوا .. !!؟..

رفعت نظراتها لتتطلع اليه بابتسامة موافقة بإيماءة من رأسها :- و ماله نتعشوا ..

ضم كفها و جذبها خلفه حيث الطبلية المنصوبة على السطح بطعام العشاء الذي لم يمس .. جلسا متقابلين فرفع اللقيمة الأولى كالعادة لفمها فألتهمتها في سرعة مما فجر ضحاتهما...

****

أنصت زكرياء لصوت الرنين المتواصل في تلك الكابينة التليفونية التي يقف فيها منتظرا امه ترفع السماعة على الطرف الاخر .. همس بضيق .. خير .. خبر ايه ياما ..بجالي مرتين اتصل ومحدش يرد .. ليه تجلجيني بس ..؟!.. كاد إن يضع السماعة في يأس من إن ترد إحداهن .. امه او كسبانة زوجة أخيه الى إن جاءه صوت كسبانة أخيرا و هي تلتقط إنفاسها لاهثة :- ألو .. ألووو ..

أعاد السماعة مرة أخرى على أذنه متنهدا في راحة :- ألو .. كيفك يا مرت أخوي .. ايه عاملة ..؟!؟ و كيفه حمزة ..؟!.. تمام ..

هتفت كسبانة في فرحة :- الحمد لله .. كلنا بخير يا سي زكرياء ..

.....

هتف زكرياء مستفسراً :

.....

- اومال وينها أمي ..؟!طلبتكم مرتين جبل

سابج محدش كان بيرد .. هي زينة يا مرت أخوي ..؟!..

أكدت كسبانة في عجالة :- و الله خالتي بخير متجلجش .. بس .. اصل احنا كنا ..كان صوتها مترددا لا تعلم هل تخبره بنبأ وفاة الحج مهران ام لا ..؟!..

استرعى التوتر و القلق البادي في نبرة صوت كسبانة إنتباهه و اثار قلقه في المقابل ليهتف في نفاذ صبر :- خبر ايه ..؟!.. ايه في يا مرت أخوي جولى و ريحى بإلى ..؟!..

هتفت و ما بيدها حيلة :- اصل الحاج مهران تعيش إنت من شهر و زيادة ..وخالتي بخيتة بتروح السرايا كل فترة اهو تاخد بحس الحاجة فضيلة ..

.....

صمت و طال صمته حتى ظنت إنه أغلق الهاتف و خاصة عندما هتفت باسمه عدة مرات دون إجابة و أخيرا أجاب بصوت متحشرج :

.....

- طب اجفلي يا مرت أخوي دلوجت و هبجى أكلمكم تاني ..

أغلق الهاتف بيد مرتعشة وخرج يسير باتجاه بيت الحاج وهيب في ألية و كل ما يجول بخاطره و يرتسم امام ناظريه هو ذاك اليوم الذي استدعاه فيه الحاج مهران لغرفته بعد كشف عاصم لهويته الحقيقية امام جميع الهوارية .. كان ذاك اليوم هو يوم تحول حقيقي في علاقته بعمه مهران الذي دوما كان يعيش في برجه العال خاصة بعد مرضه و لم يكن يراه الا فيما ندر .. يومها رأى عمه الذي تمنى أن يعيش في كنفه العمر بطوله ..ظل يتذكر الحوار بينهما طوال الطريق ليعود بالذاكرة لتلك اللحظة التي ارتسمت امام ناظريه طوال مشواره ..

هتف الحاج مهران بصوت يملؤه المودة و المحبة الخالصة :

- جرب يا زكرياء ..

سار زكرياء باتجاه فراش عمه ووقف عندما وصل لحافته ..

أشار الحاج مهران لعاصم بطرف خفى ليغادر الغرفة فأطاع عاصم سريعا و ابتسامة تعلو شفتيه وهو يغلق الباب خلفه ..أشار الحاج مهران للفراغ المقابل له على الفراش رابتاً عليه بكفه :

- اجعد هنا يا زكرياء..

.....

نظر زكرياء للمكان المشار اليه من الفراش غير مصدق على إنه سيكون بهذا القرب من الحاج مهران بذات نفسه .. عمه الذي لم يجرؤ على الاقتراب منه طيلة حياته .. سيكون منه بهذا القرب الحميمى ..

أمره الحاج مهران بنبرة هادئة و كانه يدرك ما يعتمل بنفسه :

- اجعد يا ولدي ..

.....

كانت كلمة ولدي تلك هي دوما كلمة السر لدك حصون الثبات داخل زكرياء ليجلس في التو و هو يتجنب التطلع لعينى عمه النافذة النظرة حتى أعماق نفسه ..

.....

ربت الحاج مهران على كف زكرياء القريبة من كفه فتطلع زكرياء إلى تلك الكف الحانية و نفسه تمور بالعديد من المشاعر لم يستطع إن يضعها كلها حيّز التنفيذ الا واحدا غلبه لينحنى فيلثم كف عمه المتغضنة و هو يحبس دموعا تمنعه رجولته و ادعاءه الثبات الإذعان لها حتى تنسدل في حرية ..

لم يجذب الحاج مهران كفه من بين كفى زكرياء و لكنه رفع كفه الاخرى ليربت على رأس زكرياء المنحن في حنو هامساً :

- سامحنى يا زكرياء .. سامحنى يا ولدي ..

.....

رفع زكرياء رأسه مقابلا نظرات عمه المحملة بالندم و الإحساس العميق بالذنب هاتفا في ذهول:- واه يا حاج مهران .. أسامحك..؟؟..

ابتسم الحاج مهران هاتفاً بنبرة مازحة:- جولى يا عمي ..أنا اخو ابوك يا واد ...

ابتسم زكرياء بالمقابل ليستطرد الحاج مهران و سعاله يقاطع كلماته في بعض الأحيان :

- ايوه تسامحنى يا زكرياء .. عشان كنت عارف إن حجك تتربى وسط الهوارية واحد منيهم لكنى سكت و كتمت الحج دِه .. بس غصب عنى يا ولدي يوم ما امك جابتك و هملتك أمإنة عندى ابوك معترفش بيك لكن أنا كنت متوكد إنك ولده ..جلت استنى لما يشد عودك و ساعتها اجدر اجف جدام الهوارية كلاتهم بالورج اللي معايا

لكن المرض رجدنى و مجدرتش اجف جصادهم و عاصم كان لساته عود أخضر ميجدرش عليهم و على جبروتهم ..

هتف زكرياء :- كل حاچة و ليها أوإنها يا عمي .. كل شي بأوإن ..

اومأ الحاج مهران :

- صدجت يا ولدي .. صدجت .. اهم حاچة عِندى دلوجت إنك خدت حجك و الناس كلاتها مش الهوارية بس عرفوا إنت مين و تبجى واد مين ..

و ربت على كتف زكرياء في فخر :- إنت زكرياء واد غسإن صادج الهواري ..

.....

أعاد زكرياء رفع كف الحاج مهران ليقبلها في امتنإن و محبة ..ليهمس الحاج مهران :

.....

- جوم يا زكرياء يا ولدي .. جوم و ارفع راسك وسط الخلج كلاتها ...

نهض زكرياء و إنحنى باتجاه رأس عمه ليقبل هامته في إجلال و اكبار .. ويخرج من الغرفة و قد امتلأت نفسه محبة لهذا الرجل ..دمعت عيناه و هو يتذكر ذاك الحوار الذي دار بينه و بين عمه الفقيد الغالي ..

وصل بيت الحاج وهيب ليدخل مترنحا لا يدرى من حاله شيء .. كان نبأ وفاة عمه مهران قاصما .. أتى على كل ما لديه من قدرة على التحمل او حتى الادعاء بها ..لقد مات ابوه الثاني دون أن يودعه .. مات الأول غسان الهواري و لم يكن يجرؤ على إظهار حزن الألم على فراق ابيه ..غاب ابوه وما كان له الحق في أن يقف مع الرجال ليأخذ بعزائه كولده سليم .. كان يبكى أبيه و يبكى حاله و سره الذي رحل مع رحيله .. و الآن رحل ابوه الثاني في غيبته و

غربته و تلك التوهة التي فرضها على نفسه .. رحل عمه الذي لولاه لظل كما كان دوما زوزور الذي تربى في كنف الهوارية و الذي ظل عمره بالكامل لا ينطق حرفا خوفا من بطشهم .. رحل عمه و ما كان يقف في ظهر عاصم يعضده و يشد من ازره و يكون له دوما الأخ الذي تمنى بديلا عن سليم ..

.....

وصل زكرياء لغرفته و دفع بابها ليطالعه محيا بدور الصبوح الذي تغيرت ملامحها فجأة ما إن رأته بهذه الحال .. هتفت صارخة في لوعة و هي تندفع اليه تسند ذاك الجسد المترنح :

- سي زكرياء ..؟!.. مالك يا خويا .. !!؟..

اتكأ عليها حتى وصل لطرف الفراش فألقى بنفسه عليه هامساً :

- متجلجيش .. هنام شوية و هبجى كويس ..

.....

تمدد في وهن .. و راح فجأة في نوم عميق ظلت هي على حالها لا تدرى ما عليها فعله إن جسده يشتعل بالحمى .. و بدأ يهزي بكلمات غير مفهومة و يهتف بأسماء أشخاص لا تعرفهم ..كان يهتف باسمها في بعض الأحيإن ..فتنتفض تضمه بذراعيها معتقدة إنه استفاق و يناديها الا إنها تكتشف إنه لازال غارق في هذينه ...

إندفعت تهبط الدرج تطرق باب شقة ابيها في لوعة .. فتحت نعمة في تعجب :

- خير يا بدور .. جرى ايه .؟!..

هتفت بدور و هي تشير للأعلى :

- ألحقينى يا نعمة .. سي زكرياء قايد نار فوق و مش عارفة اعمل ايه ..؟!.. صحى ابويا يتصرف يجيب حكيم من اي حتة .. الراجل تعبان قووي ..

هدأتها نعمة :

- حاضر هدخل اصحيه اهو .. اهدي بس تلاقيه

وقف في الشمس زيادة حبتين

.....

إنت مش بتقولي المعلم مرشدي بقى بياخده معاه في طلعاته على العمارات اللي بيبنيها ..يبقى اكيد هو كده زي ما بقولك ..

إندفعت نعمة توقظ الحاج وهيب الذي إندفع بدوره يبحث عن طبيب في تلك الساعة المتأخرة .. عادت بدور لحجرتها بجانب زكرياء حتى يعود ابوها بالطبيب .. ظلت بجواره و قد اصبح من شدة الحمى كانه غارق في بركة ماء ..

احضرت منشفة نظيفة بللتها بالماء الفاتر وبدأت بالمسح بها على جبينه و جانبي وجهه الذي خالطت سمرته حمرة من شدة حرارة جسده الذي اصبح ينتفض في تلك اللحظة مما دفعها لتحتضن راسه في لوعة باكية على حاله التي جاء بها من الخارج .. إنه بالفعل اصبح الذراع اليمنى للحاج

مرشدي يأتمنه على الكثير و يأخذه دوما معه في جولاته حول مواقع البناء المختلفة ..لكن أي شمس تلك التي تؤثر فيه بهذا الشكل ..؟!.. فعلى حد علمها الشمس في الصعيد حارقة كانها فوق الرؤوس و هو تربى هناك و نشأ حيث لهيب الشمس في أشهر الصيف امر اعتيادي كالتنفس ..

اخرجها نداء ابيها من شرودها وخواطرها لتندفع تفتح باب الحجرة على مصرعيه ليدخل الطبيب و الحاج وهيب معه و تنتحى هي خارج الغرفة تقف على أعتابها في إنتظار الفرج من اللّه تفرك كفها في توتر حتى إنتهي الطبيب من فحصه لزكرياء ..

تحدث الطبيب بلهجة مطمئنة :

.....

- متقلقوش .. حاجة بسيطة .. الأهم الاعتناء بمواعيد الدوا و الغذا ..

.....

أومأت بدور برأسها إيجابا و تبع الحاج وهيب الطبيب و غادر مؤكدا إنه سيبتاع الدواء و يعود سريعا .. دخلت بدور تجلس على الأرض بجوار زكرياء المسجى على الفراش .. لازالت تتأكله الحمى ولازال هزيإنه في زروته وكذلك نداءاته لا تنقطع ..استمرت في ترطيب جبينه و وجهه بمنشفتها المنداه حتى تنخفض الحرارة و تدعه الحمى ينام في سلام دون مزيد من تلك التأوهات التي يطلقها فتخلع قلبها من منبته هلعا على حاله .. عاد من جديد لنداءته و زاد فضولها لتعلم من هؤلاء الذين يحتلون عقله و باله حتى يهذي بهم .. من عاصم ..؟.. من هو الحاج مهران ..؟.. والاهم .. من هي سهاام ..؟؟..

****

هتفت الحاجة فضيلة في سهام الشاردة حتى إنها لم تنتبه لابنها الذي يناديها في إصرار :

.....

- سهاااام ..؟!.. ولدك بينادم عليكى .. ايه مسمعاش دي كله .. ؟!.

إنتفضت سهام من شرودها هاتفة :

- ايه .. خير.. ايه فيه يا باسل ..؟!.. روح ألعب في الچنينة ياللاه ..

جذبته جدته لأحضانها هاتفة :- تعال يا ولدي .. سيبك من أمك دي.. اللي ما عارفة مالها من ساعة ما چت ..؟!..

.....

هتفت سهام بحنق :- هيكون مالي ياما ..؟!.. ما أنا زينة اهاا ..

هتفت الحاجة فضيلة و هي تحتضن باسل تهدهده حتى ينام :

- سهاام .. ايه في ..؟!.. إنت متخانجة مع چوزك و لا ايه ..؟!..

.....

هتفت سهام :- لاه ياما .. مش متخإنجين بس .. أصل أنا كنت عند الداكتورة..

هتفت فضيلة في جزع :- داكتورة ..؟!.. ليه؟!..

هتفت سهام مؤكدة :- متخافيشي.. إني بخير. بس الحكاية إني جلجت على حالي جلت اروح اطمن ..

سألت فضيلة مستفسرة :- تطمني على ايه بالظبط ؟!..

همست سهام :- اطمن على الحمل .. أنا ..

.....

هتفت أمها في فرحة :- إنتِ حامل يا سهام .. يا..

قاطعتها سهام في ضيق :

- لااه .. مش حامل .. يااريت .. أنا رحت عشان اعرف ليه محصلش حمل لحد دلوجت .. أهو باسل داخل على التلت سنين و نفسي أني و حسام نجيب له اخ أو أخت .. اديكِ شايفة ياما متعلج كيف بولاد عاصم .. ده الْيَوْمَ اللي مبجيش فيه هنا السرايا بيبهدلني هناك بكا و نواح عشان

ياجى .. و اهاا على يدك كان خارب الدنيا لما

لجى ولاد خاله نايمين و زهرة معاهم فوج ..

سألت فضيلة في قلق :- طب و الداكتورة جالت لك ايه ..؟!..

أكدت سهام :

.....

- جالت لي كله تمام و متجلجيش مسألة وجت مش اكتر و اسلمها لله ..

هتفت فضيلة :- و نعم بالله .. صح .. سلميها لله ..

رددت سهام بتضرع :- الأمر لله .. يااارب.

****

ثلاث ليال مرت .. يستفيق زكرياء لبعض الوقت و يعاود الغوص في الحمى والهذيان من جديد .. و بدور جالسة على ارض الغرفة بجوار فراشه لا تغادر موضعها ابدا تمده ببعض الماء عندما يهتف بطلبه ما بين نومه و صحوه .. تحاول قدر

استطاعتها إطعامه لكنه يرفض و يعاود النوم من جديد و كأنه مهربه من امر ما لا تدركه ..

.....

استيقظ زكرياء يتلفت حوله و كانه عائد من ارض بعيدة بعد غربة طويلة و أخيرا وقعت عيناه على بدور التي كانت رأسها تتكئ على مرفقها المسند على حافة الفراش بجوار كتفه كانت نائمة موضعها على الأرض لم تتمدد حتى .. نظر اليها باشفاق على حالها و هي في هذا الوضع لاجله .. وضع كفه على رأسها يملس شعرها فإنتفضت في ذعر هاتفة باسمه :- سي زكرياء ..؟؟..

تنبهت لإفاقته فابتسمت في سعادة مندفعة لاحتضان راسه بين ذراعيها :

- حمد الله على السلامة.. كده كنت هتموتنى من خوفى عليك..

.....

ربت زكرياء على ذراعها المحيطة به في محبة

هامساً :- بعد الشر عليكِ ..

قبلت رأسه و تركته مندفعة تشعل الموقد و تدفع على احد عيونه المشتعلة بقدر به بعض الحساء المعد مسبقا استعدادا لافاقته ..

وضعت صحن الحساء على حجرها و اعتدل هو قليلا حتى يستطيع تناول طعامه .. بدأت تطعمه في حبور لشفاءه مشاكسة :- عارف إنت بقالك كام ليلة راقد ..؟!..

رفع رأسه بنظرات متسائلة لتستطرد هي :

- تلت ليالي بحالهم و إنت محموم و على حال لا تسر عدو ولا حبيب ..

.....

إندهش مكررا :- تلت ليالي ..؟!.. طب و الشغل و الحاج مرشدي ..؟!..

.....

أكدت هي :- اطمن .. بعت يسأل عليك ابويا و عرف إنك تعباان و راقد .. قاله لما يقوم بالسلامة يبقى يرجع الشغل .. ربنا يبارك له..

همس زكرياء :- و يبارك للحاج وهيب تعبناه معأنا و كلفناه اكيد ..

هتفت بدور بابتسامة :- تعبك راحة يا سي زكرياء .. المهم إنك قمت لنا بالسلامة ..

إنتهى زكرياء من تناول الطعام و نهض من فراشه ليشعر ببعض الدوار لرقدته الطويلة

هتفت بدور بلوعة :- هتقوم ليه ..؟!.. خليك مرتاح و أنا اجيب لك اللي إنت عاوزه لحد عندك ..

.....

ابتسم زكرياء و اتكئ عليها مطمئناً :- أنا بجيت زين متجلجيش .. أنا عايز اجعد بره شوية ..

.....

أحاطت بدور جذعه بذراعها و هي تقول :- من عنايا

.. أخرجك بره بس أخاف تستهوى يا سي زكرياء ..

ابتسم زكرياء و نظر اليها من عليائه :- لاه متخفيش .. مش هستهوى ..

اجلسته على الأريكة الملاصقة لباب الغرفة و امعانا في الحفاظ على شفاءه المستجد وضعت شالها على كتفه تدثره به ..

امسك بأحدي كفيها يرفعه ليلثمه في محبة خالصة هامساً في امتنإن :

- ربنا يخليكِ ليا .. إني مش عارف من غيرك كنت هعمل ايه..؟!

.....

هتفت مشاكسة :

.....

- كنت هتعمل ايه يعني ..؟!.. كنت زمانك قاعد مرتاح كافى خيرك شرك من الحكايات اللي جرتها عليك البت بدور دي..

إنفجر زكرياء ضاحكاً .. و مال هامساً بالقرب من اذنها :

- البت بدور دي ..اللي هي البت الجمر بت الحاج وهيب ..؟!..

كان دورها لتتعإلى قهقهاتها :- قمر ايه بس.!!؟ أمر بالستر ..

ابتسم جاذباً أياها لأحضانه مدثرها معه تحت شالها هامساً :- شكلك عتغيرى منيها .. دي بدر البدور ..

.....

استكانت في أحضانه تتلمس دفء الأمان الذي تحيا بأنفاسه .. و لم تجده الا وهي بين ذراعيه.. مد كفه بطول ظهرها يمسده في رفق .. كان يعلم أنها نامت الثلاث ليال الماضية تحت أقدامه مستنده برأسها على طرف الفراش و لم تتمدد بجواره لضيقه و لتدعه له ينام فيه دون

مشاركته لها.. ثلاث ليال كانت بالتأكيد مرهقة لها جدا و رغم ذلك لم تتذمر او تشتكي بل قابلته بكل فرح حين استيقاظه و كأنه ما نام مغيبا ثلاث ليال ذاقت هي فيهم وحدها مرارة الخوف و تجرعت القلق و الهم على حاله ..

تأوهت بلطف عندما مست اطراف أصابعه موضع الألم في ظهرها فإنحنى يقبل هامتها التي تلامس ذقنه و همس في عشق :- بدور..!!.. تنبهت و رفعت ناظريها ملبية .. فاستطرد في محبة .. جهزي حالك عشان ننزل الشجة اللي تحت ..

نظرت اليه في دهشة هاتفة :- شقة ايه يا سي زكرياء ..؟!..

رد مبتسما :- شجة أمك يا بدور ..!؟.. نضفيها و روجيها و ننجل فيها باذن الله ..

.....

إنتفضت في فرح غير مصدقة :- صحيح يا سي زكرياء ..!!؟..

اومأ براسه مؤكدا :- ايووه .. شدي حيلك و ربنا يعينا على إيجارها .. إنت مش لساتك شايلة نجوط الحاج مرشدي اللي عطتهولك !؟.

أكدت في سرعة :- اه .. لسه معايا ..

.....

هتف :- طب زين .. و أعادها لأحضانه من جديد هامساً بمزاح:

- المهم بدر البدور تكون مبسوطة و تفضل تحبني زي البسبوسة.

قهقهت وهي تزرع رأسها باحضانه اكثر :

- مبسوطة دي كلمة قليلة عليا قووي يا سي زكرياء ..وعلى فكرة بقى .. بحبكِ اكتر من البسبوسة بكتير ..

.....

ضحك زكرياء هاتفاً :- و الله و ايامك هتيجى

ملزجة كيف العسل يا زكرياء ..

ضحكت وهي تتعلق برقيته تذيقه حلاوة الشهد...

****

.....

www.hakawelkotob.com

-٦-

رن جرس الهاتف في غرفة مكتب عاصم عدة مرات و لم يُجب احدهم و لكن لحسن الحظ دخل عاصم الغرفة لأداء بعض الاعمال ليلحق بالهاتف قبل إن ينقطع رنينه هاتفا في لهفة لمعرفة كنه المتصل لأن رنين الهاتف دال على إن المكالمة من محافظة أخرى و ليست مكالمة محلية :- ألووو..

صوت صمت وتنهد على الطرف الاخر و اخيراً هتف المتصل:

- البقاء لله يا عاصم..

جلس عاصم على كرسي مكتبه يلتقط الصوت في شك هاتفا :

.....

- سبحإن من له الدوام .. بس مين ..؟!.. و صمت للحظات هاتفا بلهفة :

- .. زكرياءاا..؟!..

رد صاحب الصوت بنبرة متحشرجة :

- آه يا واد عمي .. زكرياء .. زكرياء اللي عينه منيك في الأرض و مش عارف يجول ايه و لا يسوى كيف ..؟!..وجت ما كان لازماً يبجى في ضهرك كان لساته تايه عن الدنيا .. تايه حتى عن حاله يا واد ابوى ..

هتف عاصم متنهداً :

- عارف يا زكرياء .. عارف .. بس متحملش روحك أكتر من طاجتها .. مش ناوى تجولى فينك..؟!....و منتش ناوي ترچع برضك .. ؟!..

.....

هتف زكرياء :- ارچع فين يا عاصم ..!!!.. معدش ينفع ..مش هاينفع ارچع الا لما ألاجى روحى .. و بعدين أنا اتچوزت ..

.....

هتف عاصم :-اتچوزت ..؟!.. اتچوزت مين؟!..

قال زكرياء :- اتچوزت بت صاحب البيت اللي سكنت فيه ..

راچل طيب و بته عايزة تعيش.. أهو تعيني على حالي ..

أكد عاصم :- خير ما فعلت .. ربنا يچمعنا بيكم على خير

وتاجونا عن جريب ..

هتف زكرياء في شوق غير راغب في إنهاء الحوار مع بن عمه

و صديقه الوحيد :

- و إنت يا عاصم .. كيفك ..؟!.. أحوالك عال ..؟!..

.....

أكد عاصم :- الحمد لله يا زكرياء .. ربنا رزجنى بواد و

بت .. مهران و سندس ..عمرهم ست شهور تجريبا..

هتف زكرياء مهللا :

- الله اكبر .. ربنا يبارك لك فيهم و يچعلهم من الصالحين

يا رب ..

هتف عاصم :- يااارب ..

.....

عم الصمت قليلا ليهتف زكرياء مودعاً :

- اشوفك على خير يا واد عمي ..مش هوصيك على أمي و مرت أخوي وولده .. عارف إن حملك زاد يا عاصم .. بس إنت كدها .. سامحنى يا واد عمي .. مش بيدي غربتى و لا بيدي رجوعى ..

.....

هتف عاصم في نبرة تحمل الكثير من الحزن على حال زكرياء :

- ربنا يعينك يا زكرياء .. ربنا يعينك يا واد عمي على حالك ..

همس زكرياء في استكانة :-أمين ..

و أغلق كل منهما الهاتف لكن الحوار لم يتوقف فكلاهما أخذ يجادل نفسه ويعنفها من اجل الاخر .. عاصم يؤنب نفسه من اجل بن عمه و غربته اللي فرضها على نفسه

و عدم قدرته على أثنائه عن الرحيل بعيدا عنهم

في ذاك التيه الذي لا يعلم متى سينتهي و هل له نهاية من الأساس ..

كذلك زكرياء ظل يوبخ نفسه على ابتعاده عن عاصم .. ابن العم و الصديق الذي ما حظى بمثيل له طوال حياته .. الذي رد له الحق الضائع .. كان الأولى البقاء بقربه وتدعيمه و مساندته لا الهروب من البلدة بما و من فيها من اجل إثبات الذات و البحث عن الهوية في البعد عنها..

كلاهما كان تائه .. لكن لكل تيه مبرراته ..

****

ناداها زكرياء مؤكدا على مجيئه من عمله هاتفاً باسمها وهو يجلس يلتقط إنفاسه على الأريكة الملاصقة للغرفة :- بدور .. يا بدور..

ردت من داخل الغرفة :- نعم يا سي زكرياء .. أنا جاية اهو..

.....

طلت من الحجرة هاتفة في حبور :- حمدا لله على السلامة يا عيون بدور ..

.....

ابتسم في وجهها لتكمل :- أنا بحضر الغدا اللي بقا عشا ده عشان اتاخرت قووى النهاردة..

دخلت تتابع قدر على النار ليدخل خلفها مجهدا يلقى بجسده المنهك على الفراش هاتفاً :- معلش اعمل ايه ..؟!.. الحاج مرشدي بعد لف طول النهار على العماير و احوالها .. رجعنا المحل نراجع كام طلبية فاتاخرنا ..

نهض متكاسلا يخلع جلبابه ملقياً أياه جانبا و يرتدي اخر منزلي .. و يسبقها للخارج لتتبعه واضعه صحون الطعام على الطبلية ..

جلسا يتناولا الطعام في هدوء .. و ما إن إنتهى حتى عاد لاريكته يجلس على احد أطرافها مستنشقا بعض من الهواء

النقي الخال من ذرات الرمال و مواد البناء المعبق بها جو المواقع التي يرتادها مع الحاج مرشدي ..

.....

جلست بدور و هي تحمل صينية الشاي لتضعها على الأريكة بينهما و تجهز له كوبه الذي لا يستطيبه الا من صنع يديها ..

ارتشف عدة رشفات و تنهد في راحة مما جعل بدور تتشجع هاتفة :

- ألا مقلتليش يا سي زكرياء .. مين عاصم و الحاج مهران دوول!!؟..

ارتجفت يد زكرياء الممسكة بكوب الشاي و رغم محاولته السيطرة على ثباته و قد نجح في ذلك لحد كبير الا إن بدور لاحظت تلك الاهتزازة اللحظية التي إنتهت سريعا .. لم يعقب فاستطردت :

.....

- اصلك أيام تعبك الله لا يعيدها ..كنت و إنت محموم قاعد تخترف بأسماء منهم عاصم و تقوله سامحني .. و بعدها الحاج مهران ده و برضك تقوله سامحني .. يسمحوك على ايه ..!؟..

كانت ملامح زكرياء مبهمة بالنسبة لها لم تعرف هل ما تخبره به يغضبه ام لا يمثل بالنسبة له فارقا .. هي كل ما لاحظته تلك الاهتزازة التي تؤكد إن الامر يعنيه لحد كبير..

همس زكرياء :- دوول اكتر ناس عزاز على جلبى يا بدور .. اكتر ناس لما كان المفروض ابجى وسطيهم وجت ما احتاچونى كنت أني بعيد جووى عنيهم .. تايه و لسه مش عارف لى بر .. و لا لاجيلى مرسي ..

وضع زكرياء كوبه و نهض متوجها للسور مستندا عليه محاولا الا ينكئ جروح لم تندمل بعد .. لكن يبدو إن

بدور قد سيطر عليها الفصول بشكل كلى و لن تتركه لحاله ..و كان على حق حينما تبعته لتجاوره في وقفته هامسة :- طب و مين سهام ..؟!..

لاحت منه نظرة الى بدور أيقن من خلالها أسباب سؤالها .. ابتسم في تفهم قائلا :

- دي بت عمي يا بدور .. تربية يدي من وهي بت تلت سنين ..الحاجة فضيلة أمها و ام عاصم .. ومرت عمي الحاج مهران .. مكنتش بتستأمن حد عليها غيرى ..

و ابتسم متذكرًا و مكررا كلمات الحاجة فضيلة :"خلى بالك منها يا زرزور .. اوعالها يا زرزور .."...

هتفت بدور متسائلة في تعجب :- زرزور ..؟!

.....

اومأ زكرياء بالإيجاب هامساً :- دي حكاية طويلة جووى يا بدور .. حكاية بطول عمرى كله .. هبجى احكيهالك بعدين ..

.....

هتفت بدور و نبرة الغيرة تطل جلية من كل حرف من حروف تساؤلها :

- و حلوة على كده سهام دي ..؟..

رفع زكرياء عضديه من على السور و احتضن وجهها بكفيه هامساً :

- زينة لصحابها يا بدور.. هتكلم عن واحدة بجت في عصمة راچل .. أنا اللي تهمني دلوجت هي مرتي .. اللي مشيفش حد في چمالها ..

هتفت في سعادة :- صحيح يا سي زكرياء ..؟؟

.....

أكد مبتسما :- صحيح يا بدور .. أنا بحمد ربنا إنه هداكي ليا .. أنا معرفش كيف كانت هتعدي عليا الأيام دي و إنتِ مش چارى ..؟

.....

ابتسمت و دمعت عيناها و ما إن همت بالرد عليه حتى علت أصوات زغاريد صادحة من مكان ما على اطراف الحارة ..

هتفت في سعادة :- شايف الفال الحلو يا سي زكرياء ..؟!..

إندفعت تحاول بقامتها الضئيلة التطلع من سُوَر السطح العريض إلى الحارة راغبة في معرفة اخر الاخبار و من أين تأتى تلك الزغاريد المجلجلة بالفرحة ..؟!..

.....

شهقت في صدمة عندما وجدت نفسها مرفوعة بعض الشئ عن الأرض لتستطيل قامَتَها فتصبح قادرة على متابعة ما يحدث بالأسفل ..

هتفت و هي تدير رأسها لزكرياء الذي وجدته يحملها من خصرها الذي كبله بذراعيه :

- إنت بتعمل ايه يا سي زكرياء ..؟!..

.....

ابتسم مشاكساً :- بنفرچوكي على اللي بيُحصل تحت ..و مش ببلاش على فكرة .. الحساب يچمع ..

إنفجرت ضاحكة و اعادت رأسها في سعادة تتابع ما يدور من حوار بين جارتين جذبهما صوت الزغاريد المتعالية و التي لم تنقطع ..

لتدرك من خلال حوارهما أسباب تلك الفرحة

.....

لتستدير مرة أخرى لزكرياء هاتفة بملامح متبدلة :- نزلني يا سي زكرياء ..

ابعدها زكرياء عن السور لكنه ظل محتفظ بها بين ذراعيه لتستدير له و ملامحها تشى بخبر ليس سارا على ما يبدو .. سأل في فضول :- خير يا بدور .. مين اللي اتچوز و لا نچح و لا الزغاريد دي سببها ايه ..؟!..

هتفت دون مواربة و هي تلتصق به محتمية:- ده السمري ..؟!..

.....

هتف زكرياء حإنقاً :- ماله البعيد .. جُطع و جُطعت سيرته ..؟؟..

أكملت مرتعشة وهي تتذكر حالها يوم إن حاول ارغامها على الزواج به :

.....

-كتب كتابه على البت صباح بنت الحاج مرعى صاحب البيت اللي جنب قهوة المعلم خميس ..

صمت زكرياء و لم يعقب مما شجع بدور على الاستطراد قائلة :

- بس غريبة .. البت صباح دي كانت متقال عليها من..

طاعها زكرياء مؤنبا :

- خلاص يا بدور بلاه الكلام في سيرة الناس.. دي بجت في عصمة راچل تاني وربنا يعينها عليه ..

ارتجفت وهي بين ذراعيه تحتمى بهما هامسة:

.....

- صدقت يا سي زكرياء .. ربنا يعينها على ما بلاها ..

شعر زكرياء بارتجافاتها فسأل بقلق :

.....

- ايه في يا بدور .. ؟؟..بردتى و لا ايه ..؟.. مالك بترجفى كِده ..؟؟..

تمسكت به هامسة :

- ابدا مفيش يا سي زكرياء.. بس كل اما أفتكر أني كان ممكن ابقى مكان البت صباح جسمى كله بيتنفض ..

صمتت و رفعت رأسها هامسة :

- اكيد أنا عملت حاجة حلوة قووووى في حياتى عشان ربنا يرزقنى بيك ساعتها .. مش عارفة اشكر ربنا عليك ازاى ..؟.. و لا عارفة أرد لك المعروف ده ازاى ..؟..

سأل زكرياء متصنعا الجدية :- صليتي العشا .!

.....

أكدت بإيماءة من رأسها و هي تقسم واضعة سبابتها على شفتيها :

.....

- اه و اللّه يا سي زكرياء .. ده أنا من ساعة ما عرفتك ما فوتش فرض.

ابتسم رغما عنه و جذبها من كفها باتجاه حجرتهما لتصرخ هي متسائلة :

- خبر ايه يا سي زكرياء ..!!؟..

غمز لها بأحدي عينيه عابثاً :- هجولك كيف تردي المعروف ..

إنفجرت ضاحكة و هي تتبعه متعلقة بذراعه هاتفة في مشاكسة :

- و اللّه ما عارفة أودي جمايلك دي كلها فين يا سي زكرياء ...!!؟..

****

.....

دخلت سمية تشهق باكية في لوعة لسرايّ عمها هاتفة في نفاذ صبر :

- وينه واد عمي يشوف لى صرفة مع واد محروس دِه ..؟!..

إنتفض عاصم من مجلسه بقرب أمه الحاجة فضيلة عندما طالعته سمية مندفعة لداخل السرايّ بهذا المظهر الباكي و بيدها ولدها الأكبر ماهر و بطنها ممتدة أمامها بحمل جديد..

هتف عاصم في قلق :- ايه في يا سمية ..؟!.. تعإلى اجعدي بس ..خير ..

سحبت الحاجة فضيلة ماهر لأحضانها مشفقة عليه من عنف أمه الذي جاءت به تلك المسافة من بيتها حتى السرايّ لاهثا خلفها ..

.....

هتفت تندب حظها و هي تجلس في بطء متأوهة بسبب بطنها المنتفخ الذي ينبئ بقرب الولادة :

.....

- آه يا واد عمي .. تعبت خلاص معدتش جادرة شوف لى صرفة مع عدلي .. و مع أمه .. أنا بت غسإن الهواري يُحصل فيا كِده ..؟!.. معايرة بأخوي سليم طول الليل و النهار و إن المفروض احمد ربنا إنه اتجدم لى وأنا ليا اخ هربإن من عملة مهببة وهيبجى سوابج و رد سچون .. و اخر المتمة يضرُبنى..

شهقت الحاجة فضيلة .. و زمجر عاصم هاتفا:

- كيف يضرُبك يعني ..؟!.. هي سايبة؟!..

لكن عاصم تمهل قليلا قبل حكمه متسائلا :

- بس يعني .. إنتِ عملتى ايه عشان توصليه لكِده حاكم أني عارفك..؟!..

.....

أكدت في عجالة :

- معمِلتش حاچة يا واد عمي .. هو اللي في الروحة و الچاية لازماً يضايجني عشان خاطر أمه تتبسط .. ما أني بجيت سلوتهم .. خلاااص معدتش جادرة .. أنا لا طيجاه و لا طايجة عشته .. أني عايزة ا..

هتف عاصم مقاطعا لها هادرا في غضب :

- إنتِ بتجولى ايه ..؟!.. يعني ايه مش طيجاه و مش عيزاه ..؟!.. مش بخطرك .. ولدك دِه مين يربيه و اللي چاى كمان .. فوجى لحالك و أنا هكلمه .. و ربنا يجدم اللي فيه الخير ..

.....

نكست سمية رأسها في استكانة بعد غضبة عاصم و لم تجب على كلامه الأخير الا بايماءة من رأسها توافقه و بكاء في صمت ..

.....

تنهد في إشفاق على حالها فهو يعلم تماما من هي أم عدلي و كيف تُسير عدلي باشارة من إبهامها ولا يطيق إن يرفض لها طلبا لكن في المقابل هو يدرك أيضا من هي سمية ابنة عمه و إنها ليست هينة على ايه حال و بالتأكيد هي لها القسم الأكبر من الاستقزاز و الذي حمل عدلي ليتطاول عليها بالضرب و خاصة و هي بتلك الحالة و على وشك وضع طفله الثاني ..

نهض عاصم هاتفا في تأكيد :- اطمني .. كله هايبجى تمام يا سمية خليكى معأنا إنت و ولدك أتغدوا و هدي حالك و ربنا يجيب الخير باذنه .. سلام عليكم ..

نهض عاصم مغادرا و همست هي وراءه :- تسلم يا واد عمي ..

هنا هتفت الحاجة فضيلة مؤنبة :

.....

- لما إنتِ مش عارفة تاخدي حج و لا باطل من عدلي واد محروس و أمه .. رايحة تجيبى عيال تانية منيه يا خايبة ..؟!..

هتفت سمية في حنق :

- اعمل ايه يا مرت عمي .. أمي جالت لى اربطيه بالعيال يعمل لك حساب جَصاد أمه ..

قهقهت فضيلة هاتفة :- يخيبكم نسوان ناجصة عجل .. عيال ايه اللي تربطه .. طب كانت أمك ربطت ابوكِ بخلفتكم الشينة .. جال اربطيه بالعيال ..!!.. كانت نفعت نفسها ..

صمتت سمية و لم تعقب لتشفق فضيلة على حالها لتربت على كتفها هاتفة بنبرة تحمل رغبة حقيقية في نصحها :

- اسمعي يا سمية ..إنت كيف سهام بتى .. و اللي هجولهولك دِه .. جولته لسهام جبل سابج .. مفيش حاچة

تربط الراجل لمرة(امرأة) الا جلبه .. لكن جولت عيال تربط راجل لمرة مش طايجها و اللّه و لو جابت منيه ميت عيل.. ما هيربطوه ..اربطى چوزك بالطاعة و المحبة يا بتى تلاجيه خاتم في صباعك .. سمعأني يا بت رتيبة ..

.....

اومأت سمية برأسها في تأكيد و فضيلة تنظر اليها متمنية إن تكون سمعت ووعت كلماتها بالفعل ..

****

كان اليوم الأول لهم في شقة أمها التي قرر تأجيرها على الرغم من تأثير ذلك على ميزانيته المحدودة لكنه أشفق على حالها عندما رأها تنام ليالي مرضه بالقرب من فراشه الضيق تاركة له إياه .. قرر أن يمنحها بعض من براح و سعة بديلا عن تلك الغرفة التي بالكاد تحتمل شخص واحد بداخلها...

.....

لقد أكدت عليه بدور أن لا يعود للحجرة عند عودته من عمله و إنها تنتظره في شقتهما بعد إن إنتهت من تجهيزها كما يجب ..

.....

وصل بالفعل لباب الشقة و ادخل المفتاح في بابها الخشبي ذو الضلفتين مما دفعه ليمسك احداها و يدفع الأخرى للداخل حتى يفتح الباب بسهولة ..

دفع الباب ينظر حوله في استحسان و ينادي باسمها :- بدور .. يا بدور ..

لم ترد .. تراها أين ذهبت ..؟؟.. ربما هي بالأعلى نسيت شيء ما بالغرفة فصعدت لاحضاره .. كان في سبيله للباب مرة أخرى

و فجأة قفزت هي من خلفه صارخة في شقاوة :- عليك واحد يا سي زكرياء ..

.....

إنفجر ضاحكاً و هو يتلقفها بين ذراعيه و هتف بها

:- واحد ايه بس اللي عليا ..؟! دِه العفاريت تخاف منى و تچرى ..

.....

نظرت اليه في غيظ وقد ايقنت صدق ما يدعيه عندما لم ينتفض فزعا عندما فاجأته :

- طب كده .. يعني ايه ؟!.. مبتركبش الهوا يا سي زكرياء .. و أنا اللي قلت هخضه بقى واعمله مفاجأة زي الأفلام ..؟!!..

علت قهقهاته هاتفاً :- بزمتكِ في صعيدي يركب الهوا .. ليه ؟!.. صعيدي ورج ..

ضمها اليه اكثر وهو يهمس في اذنيها :

- اومال لو سمعتى اللي كنت عسمعه و أنا نايم في إسطبلات الخيل ..؟!!.. و لا ندهتك النداهة على شط الثُرعة و عرفتى تنفدي بجلدك منيها.. و لا ..

.....

وضعت كفها على فمه تسكته متعلقة به في رعب

:- خلاص و النبى يا سي زكرياء .. حرمت .. ده أنا اللي اترعبت ..

تعالت ضحكاته من جديد و أخيرا ابعدها عنه قليلا ليطالع مظهرها الجديد على ناظريه ..كانت تبدو في أروع صورة بذاك القميص الحريرى الأحمر الذي يبرز قدها المياس

و يجعلها كتلة من فتنة لا تقاوم ..

شعرت بحرارة نظراته المسلطة عليها فتوهجت وجنتيها خجلاً .. و خاصة عندما همس مبهورا :- ايه الچمال ده يا بدور !!؟..

همست في خجل :- عجبك يا سي زكرياء ..!؟

و طأطأت رأسها هامسة :- ده جابتهولى نعمة

.....

و قبل إن تسمع اعتراضه هتفت مسرعة :

.....

- هي قالت لى أني عروسة و الجواز جه على السريع و متجهزتش زي بقية العرايس يا سي زكرياء ..و لولا كده مكنتش قبلت .. و الله العظيم ده اللي حصل ..

ربت على كتفها يهدئ من روعها :

- تمااام .. و ماله .. حجك برضك .. عروسة و لازماً تفرحى ..

واتسعت ابتسامته و زادت مشاكسة وهو يهمس وهو يجذبها لأحضانه :

- بس و الله كتر خيرها الست نعمة .. و إنت احلى عروسة يا جمر..

.....

تملصت من بين ذراعيه في شقاوة و إندفعت باتجاه حجرة نومهما الجديدة و التي لم يراها بعد هاتفة :- تعال شوف و قولى رأيك ..

.....

فتحت باب الغرفة على مصرعيه ليتوجه زكرياء اليها في ترقب و ما إن طالع الغرفة حتى هتف في إنبهار :-

واه يا بدور .. دِه إنتِ خلتيها و لا الجصر ..

و كان على حق .. فلقد تبدلت الغرفة تماما بعد أن زينت أنحاءها بما توفر لديها من ستائر و ازهار جافة و فرشت على السرير شرشيف حريرى كان المفضل لأمها وظلت هي محتفظة به حتى جاءت اللحظة الأنسب لتضعه مرة أخرى على فراشها ..

كانت غرفة مريحة للنفس .. هي المكان الأمثل ليستلقى فيه صانعا عالم لنفسه بعيد عن صخب العالم المحيط .. هي تلك الملاذ الذي سيلجأ اليه دوما ليحتمى فيه بين أحضان تلك الرائعة هناك من ذكريات جارحة ودنيا يصعب التكيف مع تقلباتها العوجاء ..ابتسم في سعادة و استدار مسرعا ليغلق باب الغرفة و يعاود النظر اليها بنظرات عابثة

و هو يقترب منها في تحفز حتى اختطفها بين ذراعيه من جديد ..

همست في خجل :- عجبتك الشقة يا سي زكرياء ..؟؟..

أومأ في تأكيد هامساً بدوره و هو يبحث عن عمق عينيها يتطلع إلى تلك الروح الشفافة التي ما خلقت إلا لتهدهد نفسه الجريحة :- عجبتنى جووى .. و اللي عاجبنى اكتر صاحبة الشقة ..

رفعت رأسها هاتفة بسذاجة :- أمي ..؟؟..

.....

لم يستطع زكرياء تمالك نفسه لينفجر في قهقهات متتابعة أورثته دمعا مترقرقا في حدقتيه .. جلس على اطراف الفراش يتنهد بعد تلك النوبة من الضحك ليهتف ساعلا:

- ايوه امك يا بدور .. الله يرحمها .. خلفت اكتر واحدة غشيمة في الدنيا كلها

.....

كانت تقف كالتلميذ البليد تعلو التكشيرة ملامحها الطفولية و هي لا تعرف ماذا فعلت ليسخر منها.. جذبها اليه لتسقط بين ذراعيه فيتلقفها هامساً في عشق :

- بس بتها الغشيمة دي هي في كفة و الدنيا كلها في كفة ..

.....

كانت كلماته كافية و كفيلة تماما ليتبدل مزاجها للنقيض وهي تبتسم في سعادة مطوقة عنقه بذراعيها ..

****

هتف سعيد مندفعا خلف عاصم الذي توقف ليرى ما يريد غفيره هاتفا :

- خير يا سعيد .. ايه فى .؟!..

هتف سعيد محرجا :- مَعلش يا عاصم بيه ..!!.. بس هو طلب خصوصى ....

.....

هتف عاصم وهو يضع كفه في جيب جلبابه:- ايه يا سعيد .. عايز فلوس ..؟!..

.....

رفض سعيد مؤكدا : - لااه يا عاصم بيه .. خيرك مغرجنا .. بس يعني .. أني كنت عايز استأذنك فى حاچة كِده ..

هتف عاصم بنزق :- ما تنطج يا سعيد نشفت ريجى .. ايه فى ..؟!..

استشعر سعيد نفاذ صبر عاصم فهتف فى عجالة:

- اصلك أنا نويت اتچوز يا عاصم بيه و كنت بستأذنك فى الاوضة بتاعت سي زكرياء اللي فى الچنينة.. ؟!..

صمت عاصم للحظة و اخيراً هتف مقهقها :- عايز تتچوز يا سعيد ..؟!..

هتف سعيد مؤكدا :- دِه بعد إذن چنابك ..

ليربت عاصم على كتفه مشجعا :

.....

- و ماله .. اتچوز و اتبسط .. والأوضة بتاعتك من دلوجت و لو عايز تبنى چنبها أوضة تإنية أو حتى توسعها .. و ماله .. اطلب اللي إنت عاوزه .. واعتبره نجوطك يا عريس ..

هتف سعيد فى فرحة :- تسلم يا عاصم بيه .. ربنا يخليك لينا ..

هتف عاصم ضاحكا :

- واه .. كل ده عشان الأوضة و لا عشان الچواز يا فجرى .. ؟!..

هتف سعيد ضاحكا :- التنين يا بيه ..

قهقه عاصم هاتفا :- مااشى يا حزين .. و نجيت العروسة .. و لا لسه .. ؟!..

.....

أكد سعيد منتشيا :- نجيتها .. نچاة بت عم عمرإن البجال اللي على اول البلد ..

ربت عاصم على كتفه من جديد :

.....

- تمااام .. عم عمران راچل طيب .. و بته زينة ..

ألف مبروك يا سعيد .. ربنا يتمم بخير و اى حاچة تعوزها اطلبها و ميهمكش..

هتف سعيد ممتناً :

- ربنا يبارك لنا فى عمرك يا عاصم بيه .. و أني اهاا مش عفوت البوابة واصل .. بدل ما أني كنت رايح چاى على دارنا فى اخر البلد هيبجى بينى و بين الأوضة اللي هبيت فيها خطوتين ..

.....

قهقه عاصم هاتفا فى عبث :- برضك مش هتفوت البوابة .. ؟!.. دي العروسة هتنسيك بوابة السرايا و صحابها كمان ..

نكس سعيد رأسه فى احراج يرتسم على وجهه ابتسامة خجلى .. ليربت عاصم على كتفه فى قوة هاتفا فى مرح :- و ماله .. اتچوز و اتهنى يا واد ..

.....

حرج ابو البوابة .. و قهقه فى سعادة و سعيد منتشيا لموافقة سيده على ما كان يتمناه منذ رحيل زكرياء عن السرايّ ..

****

وصل لمدخل الحارة المعتمة الساكنة تماما في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل .. كان مرهقا بحق فاليوم كان شاقا و طويلا بشكل غير مسبوق و قد ظل مع الحاج مرشدي لتلك الساعة حتى أنهى العمل و رحل كل منهما ..

خطواته كانت بطيئة رتيبة .. تعكس مدى تعبه ورغبته الملحة في الراحة لساعات طويلة ..بالكاد وصل ساحبا قدميه حتى مشارف مقهي الحاج خميس اللول وكل ما يدور بخلده مدي القلق الذي يعترى بدور في تلك الساعة .. فهو كان يتاخر في بعض الأحيإن .. لكن لم يتأخر ابدا لمثل ذاك الوقت المتأخر..

توقف فجأة عندما لاحظ حركة غير اعتيادية في مثل ذاك الوقت امام مقهى المعلم خميس تنحى جانبا في بطء و اختبئ في سلاسة حتى لا يشعر أحدا بوجوده ..

.....

هتف في نفسه ." دوول رجالة السمري .. بيعملوا ايه هنا .. و خصوصي جنب جهوة المعلم خميس .. ؟!.."

رأى على ضوء مصباح احد أعمدة الأنارة الخافتة ..رجال السمري يخرجون من احد الأركان المظلمة يحملون بعض الزجاجات البلاستيكية و التي على ما يبدو تحمل مادة حارقة بدأوا بنشرها و رشها في الأركان الثلاثة للمقهي هنا لم يستطع الوقوف متفرجا

فإندفع من ركنه الذي كان يختبئ فيه صارخاً بصوت كالرعد :

- إنت بتعمل ايه منك ليه؟!!..

.....

كانت صرخته مباغتة لهم بالفعل فلقد فراثنإن هاربين بينما الثالث تشجع ليهاجمه واشتبك بالفعل مع زكرياء و دارت بينهما معركة طاحنة جعلت زكرياء يندفع لينزع سكين العم طايع المغروسة ببطن احدي البطيخات مهددا بها الخصم الذي يصارعه ولكن على حين غرة ظهر احد الرجلين الفارين من خلف زكرياء و باغته بضربة قوية من عصاه على رأسه مما دفع زكرياء ليترنح متأوها وممسكاً برأسه المصاب تحت عمامته البيضاء التي بدأ الدم يصبغها بلون احمر قإن ..

إندفع رجال السمري هاربين عندما بدأت أصوات الشجار ترتفع وتجذب المصلين الذين بدأوا يفدون لصلاة الفجر في الجامع الكبير على مدخل الحارة و لكن في غمرة الاحداث ظهر ظل ما تقدم بجوار جسد زكرياء المصاب و المطروح ارضا ليلتقط سكين العم طايع ..

بدأ المصلون القادمون من قلب الحارة يمرون بشادر العم طايع و مقهي المعلم خميس ليلتفت احدهم صارخاً في الظلام لرؤية جسد زكرياء مضرج في دمائه و مقهي المعلم خميس الذي أُضرم فيه النار و التي ألقيت شرارتها من قِبل نفس الشبح الذي حمل سكين العم طايع و اختفى..

****

صرخت بدور عندما رأت من شرفة شقتها زكرياء يسنده رجال من الحارة حتى يدخل بيت الحاج وهيب .. فتحت الباب و إندفعت على صرخاتها نعمة و الحاج وهيب الذي كان يتحضر للنزول لفتح بقالته ..

.....

ما إن رآها زكرياء و هي تقف على اعتاب الشقة حتى هتف فيها بكل ما استطاع من قوة :- خُشي جوه ..

.....

إندفعت للداخل مرغمة تتدارى عن اعين الرجال الذين كانوا برفقة زكرياء يساعدونه على الصعود للشقة بعد عودته من المستوصف الطبي في اخر الشارع الرئيسي و رأسه تلفه الضمادات الطبية اثر الجرح الذي تعرض له من جراء ما حدث امام مقهي المعلم خميس ..

هتف زكرياء للرجال شاكرا وهو يستند على باب شقته :

- تسلموا يا رجالة ربنا يخليكم ..

.....

رد الرجال السلام و بدأوا في الرحيل و ما إن اختفوا على الدرج حتى اسند الحاج وهيب زكرياء لداخل شقته و تبعته نعمة تسأل بفضول عما حدث ..

ما إن جلس زكرياء على الأريكة القريبة من الباب حتى أعقبه الحاج وهيب و نعمة وظهرت بدور مسرعة من الداخل ما إن ايقنت رحيل الرجال ..و قد هتفت في لوعة :

- خير يا سي زكرياء ..ايه اللي حصل..!!..

.....

قال زكرياء بلهجة واهنة :

- ابدا .. اتاخرت امبارح في الشغل مع الحچ مرشدي لجرب الفچر و أنا داخل الحارة لجيت تلاتة من رچالة السمري عايزين يولعوا في جهوة المعلم خميس ..

.....

صرخت نعمة و بدور في صوت واحد :- يا مصيبتى ..

و أكملت بدور :- ده كان الحارة كلها ولعت ..

رد زكرياء :

- ما أنا لما وجفت لهم خدونى على خوانة و واحد منيهم ضربنى على راسي .. و الحمد لله چت سليمة .. و الجهوة اهي لحجوها و خصوصى إن صبى المعلم خميس كان لساته جافلها على روحه جوه و نايم .. كان هيروح فيها الواد الغلبإن .. الحمد لله ..

هتف الجميع :- الحمد لله ..

.....

و استطرد الحاج وهيب :

- بس خلى بالك على نفسك يا زكرياء إنت كل شوية ربنا يوقفك في طريق السمري عشان توقف له مصيبة من مصايبه اللي بيعملها .. و هو مش هايسكت على كده كتير .. ربنا يسترها

هتف زكرياء في صوت واهن :

- ربك الحافظ يا حاج .. هي بتاجى معايا كِده .. لا أنا جاصده و لا يهمنى في حاجة .. ربنا يكفينا شره ..

هتف الحاج وهيب :- امين يا بنى ..

و نهض و تبعته نعمة للعودة لشقتهما و قبل إن يغادر هتف الحاج وهيب :

- لو عوزتوا حاجة نادوا و احنا معاكم .. ربنا يشفيك يا زكرياء ..

هتف زكرياء :- تسلم يا حاج و تعيش ..

أغلقت بدور باب شقتها خلف ابيها و زوجته و استدارت عائدة لزكرياء .. تناولت كفه تجذبه في صمت حت ينهض لتسنده حتى يتمدد على فراشه .. شملهما الصمت حتى سحبت الغطاء على جسده المسجى على الفراش ..

همت بالرحيل ليمسك هو كفها لتستدير له و عيونها تملأها نظرات مضطربة و خائفة همس زكرياء :-مالك يا بدور .. ايه فيه ؟!..

همست مجيبة :- مفيش يا سي زكرياء .. قلبى مقبوض .. هموت من خوفى عليك و كلام ابويا رعبنى اكتر..

ابتسم محاولا بث الطمإنينة في نفسها :- متخفيش .. عمر الشجى بجى ..

ثم أشار للجانب الاخر من الفراش قائلا :- ياللاه تعالي اجعدي چارى لحد لما إنعس..

.....

استدارت و اتخذت مكانها بجواره ليمد كفه محتضناً كفها ليلثمه ثم يرفعه واضعا أياه على جبينه المعصوب.. و لم تمر دقائق حتى كان يغط في نوم عميق ..

رفعت كفها عن جبينه ببطء و تنهدت في قلق و إنسحبت من الغرفة في هدوء تعد له ما تستطع ويجود به مطبخها ليتناوله عند استيقاظه استغرقها الوقت في الاعداد و التجهيز حتى سمعته ينادي من الداخل طالبا لكوب من الماء ناولته إياه و قد تناهي لمسامعها عدة طرقات متتابعة قُرعت على باب الشقة لتندفع بدور تفتح و هي تحكم وضع غطاء رأسها حول رقبتها و ما إن اشرعت الباب حتى هتف المعلم خميس منكس الرأس :

.....

- سلام عليكم يا ست بدور .. زكرياء صاحى؟!!..لو مش صاحى .. اجيله وقت تاني اطمن عليه ..

أكدت بدور :

.....

- اه يا معلم .. هو صاحى ..اتفضل .. و اشارت إلى حجرة النوم مستطردة .. بس هو مريح شوية الخبطة اللي على دماغه عملاله صداع بعيد عنك ..

ما إن هم المعلم خميس بالاتجاه للغرفة هاتفاً في استئذإن :- يا رب .. يا ساتر ..

حتى وجد زكرياء يقف على اعتاب الغرفة يخرج له حتى إندفع المعلم خميس تجاهه مسندا إياه حتى الأريكة ..

.....

هتف المعلم خميس في عتاب :- ايه اللي قومك بس من فرشتك ما أنا كنت داخل لك!؟..

ربت زكرياء على فخذه ممتنا :- الجومة ليك يا معلم خميس ..

تنحنح خميس :- و الله أنا ما عارف أرد لك جميلك اللي عملته ده ازاى ..!؟..

.....

هتف زكرياء عاتبا :- جَميل ايه بس يا معلم!!؟..

مفيش بناتنا الكلام دِه .. المهم جولى صبيك اللي كان جوه الجهوة بخير..!!؟..

أكد خميس :- اه الحمد لله .. لولاك لكانت القهوة دي كوم تراب ..و الواد ده راح فيها ..تسلم يا صعيدي .. القهوة دي كل راس مالي .. و تقولى مش جميل ..!!؟.. ده إنت لحقت رقبتى .. و شوف كام بيت كان هايتقطع عيشهم لو القهوة دي حصلها حاجة ..!!؟..

أكد زكرياء :- متجلش كِده .. لولا ربنا .. أنا مكنتش الا سبب و ربنا بعتنى في الوجت المناسب .. كلنا أسباب يا راچل يا طيب ..

نهض المعلم خميس هاتفاً بنبرة ممتنة :

.....

- أنا هقوم دلوقتي عشان اسيبك تستريح وأمإنة عليك لو احتجتوا اى حاجة .. نادي علي اى عيل في الحارة ينادينى او ينادي حد من صبيأني هنكون عندك في ساعتها

هتف زكرياء :- تسلم يا معلم .. كلك واچب ..

.....

خرج المعلم خميس وهو يقسم على زكرياء الا ينهض خلفه مودعاً و يعود ليرتاح في حجرته من جديد ..

عادت بدور من الداخل بعد إن تأكدت من رحيل المعلم خميس إنحنت تقبل راس زكرياء هامسة :- ترجع أوضة النوم يا سي زكرياء.؟!..

جذبها من يدها لتندفع جالسة بالقرب منه على الأريكة هامساً في غيظ :

- و لما إنتِ واعية إنها أوضة النوم .. مدخلة لى الراچل فيها ليه..؟!..

.....

همست محاولة تبرير فعلتها :

- مكنتش عيزاك تقوم من مكانك و إنت لسه تعبإن وتجيله ..

.....

هتف محاولا السيطرة على ألم رأسه :

-أجي إن شالله زاحف و لا تدخلى راچل غريب أوضة نومك .. أفرض كنت حاطة حاجة ليكى كِده و لا سايبة حاجة ليكِ هنا و لا هنا يبجى ايه الحال وجتها ..؟!..

صمتت و لم تعقب بعد إن ألجمها بحجته بينما استطرد هو هاتفاً :

- جومى جيبيلى دوا راسي ..وچعها بيزيد ..

إنتفضت في عجالة تحضر له قرص الدواء المسكن لألم رأسه .. قذفه في جوفه برشفة ماء و نهض متوجها للغرفة دون إن ينتبه اليها..

.....

وقفت لا تدرى ما عليها فعله .. هي لم يخطر على بالها ما ذكره للتو .. لكن على قدر حنقها من غضبه و ثورته المحكومة بمرضه .. على قدر فرحتها الطاغية بغيرته عليها .. إنه يغار.. و كم أسعدها ذلك حد الابتسام ببلاهة و التوجه خلفه تتأكد إنه على ما يرام و إن الدواء قد بدأ مفعوله و سكن من ألم رأسه المصابة ..

فتحت الباب في حذر و دلفت للغرفة على اطراف أصابعها لعله راح في النوم و هي لا تريد إن تقلق منامه .. اقتربت تسحب الغطاء المنحسرعلى جسده و تستدير حول الفراش لتجلس على الجانب الاخر تجاوره متطلعة لملامحه الخشنة المتجهمة .. إنه لا يتجهم بهذا الشكل وهو نائم!؟.. دوما ما كانت ملامحه مستكينة و وديعة وهو يغط في نومه.. لطالما راقبته و حفظت ملامحه على ظهر قلب .. نقشتها على جدار الروح .. وكانها ما رأت من الرجال غيره و لا اقترنت

قبله .. هو رجلها الأول و الأخير ..قبله ما كان رجال .. و بعده ما عادت ترى إلاه يستحق لقب رجل و عن جدارة .. إنتهى عصر الرجال عندما دخل لحياتها ليصبح هو الملك الأوحد لتلك المملكة التي ما عادت تعنى لها شيء و ما عادت تحمل الا مدلول واحد هو .. زكرياء ..

تنهدت في هيام وهي تسند ذقنها على باطن كفها و هي غارقة في تأمل ملامحه التي بدأت تستكين و تعود لطبيعتها .. و بعد إن كان حاجباه المقوسان على شكل هلالين أشد تقوسا بدأ كل منهما يرتخى لتختفى تلك التكشيرة التي كانت تكلل مفرق حاجبيه .. و يفتح عيونه في بطء متطلع إلى تلك الهائمة فيه..

.....

ابتسم رغما عنه عندما طالعته ملامح وجه بدور ولم يستطع إن يستمر في تزمره منها..دوما كانت قادرة على جلب الضحكة إلى شفتيه و العفو واللين لقلبه .. فمهما

ارتكبت من أخطاء .. هي .. و ستظل هي .. مصدر سعادته .. و منبت سروره ..

هتف لها ساخراً وهو يراها تحملق فيه بهذا الشكل :- خدتى الصورة و لا لسه!؟..

إنتفضت من شرودها و اتسعت ابتسامتها متسائلة :

- لسه زعلان مني يا سي زكرياء!؟..

همس مشاكساً :- جربي ..

اقتربت ليهمس في عشق :- حد يزعل من روحه .. يا غشيمة ..

.....

دمعت عيناها وهي تتمدد تريح رأسها على صدره وهي تبتهل إلى اللّه الا يحرمها من هذا الرجل الذي تعشقه اكثر من روحها ذاتها.

****

.....

إنتفض كل من زكرياء و بدور من فراشهما

صباح احد الأيام لتندفع بدور وهي لاتزل غمامة النوم تؤثر على استيعابها نحو باب شقتهما .. لتفتح نعمة باب شقتها في نفس اللحظة و ملامح الفزع مرسومة على ملامحها هتفت بدور في ذعر :

- ايه الصويت والصريخ ده .. هو في ايه على الصبح كِده..؟!

ردت نعمة :- و النبى ما أنا عارفة ..ربنا يسترها ..

.....

عادت كل منهما لداخل شقتها تحاول معرفة ما يحدث من خلال متابعة ما يجري من شرفات المنزل .. سألت زكرياء في فضول عندما وجدته يدخل من الشرفة لتوه :

- خير يا سي زكرياء ..؟!..

شرد زكرياء هاتفاً :- و الله ما عارف يا بدور إن كان خير و لا شر..

.....

هتفت و الفضول يقتلها :

- ليه !!.. في ايه في الحارة .. و الصويت ده كله ليه ..!؟..

نظر زكرياء اليها في قلق هاتفاً :- السمري اتجتل ..

لتهتف هي صارخة :- ايه ..!؟.. أتقتل ..!!؟إنت متأكد يا سي زكرياء ..!؟..

.....

قال زكرياء :- و الله ده اللي بيجولوه في الحارة.. الله يرحمه بجى ..

هتفت متسائلة في فضول :- مين اللي عملها!؟.. مسكوه ..!؟..

هتف زكرياء :

- مسكوا مين يا بدور.. دوول لسه عارفين إنه مجتول ساعة ما سمعتى الصراخ .. ايه ..!؟.. الجاتل هايجعد چاره مستنى الحكومة تجبض عليه ..!!؟..

.....

دق باب الشقة بطرقات متتابعة قلقة مما دفع زكرياء ليشير اليها لتستتر و يفتح الباب ليجد المعلم خميس هاتفاً قبل حتى إلقاء السلام :

- شفت اللي حصل يا زكرياء ..؟؟. السمري أتقتل امبارح بالليل ..

.....

هز زكرياء رأسه مؤكدا :- اه .. اللّه يرحمه .. أنا جمت على صوت الصراخ ..

هتف المعلم خميس ناصحا :- زكرياء ..بقولك ايه ..!!..

قال زكرياء :- خير يا معلم .. !!؟..

هتف المعلم خميس :- أنا قلبى مش مطمن .. بص .. من الاخر كده إنت لازم تختفى لك شوية لحد لما الليلة دي تنتهي ..

تعجب زكرياء :- ليه ..؟!.. أنا مليش صالح بالحكاية دي ..

هتف المعلم خميس بنفاذ صبر :

.....

- اسمع بقى يا أخى .. إنت هتكون واحد من المشتبه فيهم اكيد لإنك اكتر واحد عمل معاه مشاكل و قلق.. و الكل هايشهد بكده .. و ده مش في صالحك .. الحكومة على وصول .. إنجز و ابعد ..

هتف زكرياء برفض :- أنا معملِتش حاچة عشان اهرب زي المچرمين .. أنا هجعد لا رايح و لا چاى و اللي عِنده حاچة يثبتها..

إندفعت بدور في تلك اللحظة من خلف باب الغرفة الذي كانت تسترق السمع من خلفه هاتفة في لوعة :- خلينا نمشى يا سي زكرياء ..نروح مطرح ما نروح ..بس

صرخ زكرياء مقاطعا توسلاتها أمرا :- خُشى جوه ..

إنتبهت لغلطتها الفادحة و حمدت اللّه إنها كانت تضع عليها غطاء رأسها وشالها على كتفها و اللذإن وضعتهما عندما كانت تهم بالخروج للشرفة لتستطلع الاخبار..

تنحنح المعلم خميس محرجا :

- طب إنزل أنا للقهوة و أنا تحت امرك يا زكرياء و فكر بسرعة في اللي قلت لك عليه ..و لو غيرت رأيك ..أبعت لى .. و أنا معاك ..

خرج المعلم خميس ليكون خروجه إيذأنا بغضب هادر منه حيث إندفع تجاهها يمسك بذراعها يهزها بعنف هاتفاً :- إنتِ ..

قاطعته و الدموع تندفع من عينيها :- أنا خايفة عليك .. مش هقدر استحمل يخدوك قصاد عينى و أنا عارفة إنك برئ ..

رغم غضبه الهادر لمخالفتها أوامره و إندفاعها امام المعلم خميس بهذا الشكل الا إنه كان يقدر قلقها و ذعرها بعد ما سمعت ما قاله خميس لتوه ..

.....

جذبها لأحضانه لتنفجر في نوبة من البكاء العاصف .. اعتصرها بين ذراعيه هامساً في محاولة لطمإنتها :- متخفيش ..أنا معملتش حاچة ..و ربك هو المطلع ..

كان يطمئنها و لكن سمة قلق يتسلل الآن إلى أعماقه و يحتلها كبقعة حبر تنتشر على صفحة بيضاء و خاصة عندما تعالت أبواق سيارات الشرطة تنعق عند مدخل الحارة ..

****

وقف كل من وكيل النيابة و الضابط المكلف على رأس جثة السمري و التي كانت ملقاة على بطنها و قد طُعنت عدة طعنات من الخلف إندفع على اثرها القتيل ساقطا على مجوعة من الارجيلات و كؤوس الشراب و التي كانت تُعلن إن هذا المكان ما هو الا وكر كان يمارس فيه السمري و رجاله ما يحلو لهم من أنواع الفحش والرذيلة ..

هتف وكيل النيابة مؤكدا :-واضح إن القاتل إنتظر لما القتيل يعمل دماغ تقيلة من السم اللي كانوا بيشربوه ده عشان ميبقاش عنده قدرة يقاومه ..

أكد الضابط :- الواضح كده يا فندم ..

سأل وكيل النيابة و هو يجول بنظراته في المكان الذي اكتظ برجال المعمل الجنائى المختصين بجمع الأدلة و رفع البصمات :

- اخبار التحريات ايه يا حضرة الظابط ..؟!..

هتف الضابط :

.....

- التحريات السريعة اللي عملتها قبل وصول حضرتك بتأكد إن المجنى عليه كان ليه أعداء كتير و مكنش محبوب في وسط الحارة .. بس من اكتر المشتبهين فيهم واد صعيدي لسه جاى الحارة من سنة كده .. عمل اكتر من

خناقة مع السمري و كانت في الأساس بسبب

واحدة تبقى مرات الواد ده دلوقتي ..

همهم وكيل النيابة :- طب هاتولى الواد ده ..

اومأ الضابط إيجابا ومع إنصرافه إندفع احد رجال المعمل الجنائى بكيس بلاستيكى محكم الغلق في اتجاه وكيل النيابة هاتفاً :- وجدنا سلاح الجريمة يا فندم ..

.....

برقت عينا وكيل النيابة في حبور و هو ينظر إلى تلك الأداة الحادة الملوثة بدماء المجنى عليه .. كانت سكين قاطع مقبضه معقوف بشكل مميز ..و التي لم تكن الا سكين العم طايع ..بائع البطيخ

****

هتفت بدور في لوعة :

- عشان خاطرى يا سي زكرياء اسمع كلام المعلم خميس و اهرب من هنا ..

.....

و أمسكت بعضده متوسلة و الدموع تغرق وجهها :

- طب بلاش عشان خاطرى .. عشان خاطر امك الغلبانة اللي مستحملة غربتك عنها و بتستنى تسمع صوتك عشان تطمن عليك .. حرام عليك يا سي زكرياء تسمع عنك مصيبة زي دي ..

.....

هتف زكرياء :- بس أني معملتش مصايب ..ربنا عالم أني برئ من التهمة دي ..

هتفت بدور مصرة :- ربنا عالم .. لكن الحكومة لاا.. مش هيسيبوك .. إنت اللي قصادهم .. و كمان مستنيهم لحد لما ييجوا يخدوك .. و حلنى بقى اما يثبتوا إنك مش اللي عملها ..

هتف زكرياء في حنق :- لو هربت يبجى بثبت التهمة على نفسي ..ما هو طالما برئ اهرب ليه ..؟!..

.....

هتفت بدور في المقابل :- لو مهربتش هيثبتوها عليك يا سي زكرياء و هاترجع تقول يا ريت اللي جرى ما كان ..

.....

تنهد زكرياء في ضيق و شيء في صدره يخبره إنها على حق تماما في كل حرف .. و تنبه عندما هتفت من جديد :

- هو إنت هتختفى العمر كله يعني .. لا .. هم يومين بس تدارى فيهم لحد ما الحكومة تمسك اللي عملها ساعتها لما تظهر محدش يبقى ليه عندك حاجة .. قلت ايه ..؟؟..

إنهت كلامها و هي تربت على كتفه في تشجيع و قد لاقت كلماتها الأخيرة صدي مرحب بعقله جعله يتنهد من جديد و أخيرا ينهض متأهبا .. لتسأله هاتفة :

- على فين ؟..

.....

رايح للمعلم خميس مطرح ما اتفجنا نتجابل لو غيرت رأيي .. و على جولك .. هم بس يعرفوا مين اللي عملها هبجى أنا في السليم و ارچع رافع راسي و محدش ليه عِندى حاچة .

هللت بدور :- ايوه كده .. هو ده الكلام يا سي زكرياء .. متنزلش من الحارة .. اطلع السطح و عدي الكام سطح دول لحد سطح بيت المعلم خميس و اخرج من الباب الورأني لبيته اللي يخرجك على الحارة اللي ورأنا ..

هز رأسه موافقا و نظر اليها متأثرا :

- يعز عليّ افوتك لحالك و أنا معرفش هرچع ميتا ..

تمالكت نفسها حتى لا تحمله همها و همست:- متقلقش عليا يا سي زكرياء .. أنا معايا ابويا و نعمة .. ربنا معاك ..

.....

هم بفتح الباب ليندفع للسطح منفذا لما اتفقا عليه .. لكنها هتفت في لوعة باكية :

.....

www.hakawelkotob.com

- سي زكرياء ..؟!.. و إندفعت نحوه ما إن استدار ملبياً نداءها لتلتقطها أحضانه تبكى بحسرة و حزن لا يوصف على فراقه ..

اعتصرها بعشق بين ذراعيه و قبل جبينها هامساً بنبرة متحشرجة :

- مكتوب عليا يا بدور افارج كل اللي بعزهم في حياتى ..بس فراجك إنت غير .. ده إنتِ اللي كنت مهونة عليا ..

قبل جبينها من جديد .. و تنهد وهو يبعدها قصرا عن أحضانه رغما عنه و عنها..

.....

و إندفع يصعد الدرج إلى السطح و ما إن وصل لاعتابه حتى التفت خلفه ينظر اليها وهي تقف على مدخل شقتهما تنظر اليه مودعة بدموع حارقة تلهب وجنتيها و أخيرا هتفت قبل إن يتوارى عن إنظارها :- سي زكرياء ...لا اله الا الله..

ليهتف مجيباً :- سيدنا محمد رسول الله ..

.....

ثم يندفع لداخل السطح ليبدأ رحلة جديدة لا يعلم إلى أين ستأخذه ..

****

كان زكرياء يهم بفتح باب شقته استعداداً للذهاب لعمله و ما إن إنفرج الباب حتى ظهر أمامه عدد من العساكر يتبعهم ضابط هتف ما إن رأه بلهجة أمرة :- إنت زكرياء الهواري ؟؟!

.....

أكد زكرياء في ثبات على الرغم من القلق الذي يتأكله :

- ايوه يا بيه .. خير ..؟!..

لم يعبء الضابط بإجابة سؤال زكرياء و إنما امر عساكره في صوت حازم :

- هاتووه..

.....

إندفع العساكر لتنفيذ الامر لتندفع بدور من الداخل و نعمة من الجانب الاخر والتي خرجت ما إن سمعت تلك الجلبة على الباب لتصرخ بدور بحرقة :

- ليه ..؟!.. سي زكرياء معملش حاجة.. وخدينه ليه ..؟!..

إنتفضت بدور مستيقظة من ذاك الكابوس الذي يلازمها في نومها المحموم منذ اللحظة التي جاء فيها الضابط و عساكره لباب شقتها بحثا و تنقيبا عن زكرياء في البيت بأكمله بعد رحيله .. ولم يتركوا شبرا واحدا يحتمل وجوده فيه دون تفتيش ..

إندفعت نعمة تحتضن بدور و تعطى لها كوب من الماء ..شربت بدور عدة رشفات بعد إصرار من نعمة و إنفجرت باكية فجأة في أحضانها و قد ظهر الحاج وهيب على

اعتاب حجرة بدور في شقته بعد إن اصر على عدم تركها و حيدة في شقتها و هتف عندما رأى بدور تبكى بحرقة :

- متقلقيش يا بنتى .. و الله هايخرج منها هو برئ ومعملش حاجة ..

هتفت بدور في لوعة و هي تترك أحضان نعمة مندفعة باتجاه ابيها :

.....

- اه و النبى يابا .. ده زكرياء بن ناس ملوش في الكلام ده .. ده من عيلة كبيرة قووى في الصعيد ..

هتف ابوها متسائلا :- هو حكى لك ..!!؟..

هتفت هي متسائلة بدورها :- لهو إنت كنت تعرف يابا ..!؟..

هتف ابوها متعجباً منها :- طبعا عارف هو أنا كنت هجوزه بنتى من غير ما اعرف اصله و فصله و اسأل عليه كمان ..

هو فعلا بن ناس يا بنتى .. و ميعملش العملة السودا دي .. ربنا يسترها و يخرج منها على خير ..

وإندفع الحاج وهيب للخارج ليستطلع الاخبار و هي تؤمن من خلفه ...

****

.....

www.hakawelkotob.com

-٧-

إنتفض زكرياء في مكانه الذي لم يبرحه منذ اكثر من نصف ساعة عندما هتف المعلم خميس باسمه متوجها اليه بكليته :

- معلم خميس ..؟!.. ده أني جلت إنك مش چاى ..

هتف المعلم خميس لاهثاً :

- لاا.. مش جاى ازاى ..؟!.. بس إنت عارف كله دلوقت محطوط تحت عين الحكومة فماصدقت عرفت إنفذ و أجيلك .. بص و ركز معايا بسرعة عشان مفيش وقت .. إنت لازم تسيب القاهرة النهاردة من غير تأخير ..

هتف زكرياء مستنكرا :

.....

- هروح فين يا معلم؟!؟.. ده أنا جلت هتلاجيلى اى حتة ادارى فيها يومين لحد لما الموال ده يُخلص ..

.....

www.hakawelkotob.com

هز المعلم خميس رأسه رافضا :- يا ريت كان ينفع .. أنا معرفش حد ثقة هنا استأمنه عليك لكن اسكندرية ..

هتف زكرياء بتعجب :- اسكنَدرية ..؟!..

أكد المعلم خميس :- ايوه .. هتسافر اسكندرية عند ناس معرفة كلمتهم عنك .. ومتقلقش كل حاجة مترتبة هناك .. الواد غندور هيظهرلك في اى لحظة أنا مرسية على الدور كله هيستناك في الموقف هناك ..اول ما يشوفك هيقولك تبع المعلم خميس المرسي ..

قبل إن يتساءل زكرياء أكد خميس :

.....

- ده اسمى الحقيقى و اللي معروف بيه هناك في اسكندرية .. اللول ده شهرتى هنا .. بص إنت بس سلم الواد غندور نفسك و متقلقش .. ده تربيتى ..

هز زكرياء رأسه موافقا ثم أخيرا هتف في امتنإن :

.....

- أني مش عارف أتشكر لك ازاى يا معلم ..؟!..

أني..

هتف المعلم خميس متأثرا :

- إنت بن حلال يا زكرياء و يعلم ربنا أنا بعزك زي اخويا و اكتر خلى بالك على نفسك يا صعيدي .. و اهل بيت الحاج وهيب في عنايا متقلقش ..

مد زكرياء كفه مودعاً و ابتسامة امتنان ترتسم على شفتيه الا إن المعلم خميس جذبه ليعإنقه عناقا حارا رابتاً على كتفه في تشجيع هامساً:

.....

- هتهون يا صعيدي .. و هتخلص على خير و هاترجع و نحكى عنها و نضحك..

أكد زكرياء متأثرا :

- هتهون عشان فيها ناس طيبين زيك يا معلم .. ربنا يبارك لك ..

.....

www.hakawelkotob.com

إندفع المعلم خميس مبتعداً في تأثر هاتفاً :

- أنا اتأخرت قووى .. لازم امشى .. خلى بالك على نفسك و أوعى تتصل بحد هنا .. أوعى يا زكرياء .. في حفظ الله ..

و لوح مودعاً منصرفا على عجالة وسار زكرياء في اتجاه موقف السيارات المتوجهة للإسكندرية .. لكن غصة في حلقه وإنقباض بصدره دفعة دفعا لإحدي كبائن الهاتف لتنقر أصابعه رقم يحفظه عن ظهر قلب فقد تكون المرة الأخيرة التي يستمع فيها لصوتها قبل إن يندفع لوجهته و ينقطع عن كل من يعرفهم ..

إنتظر الرد في وجل لتهتف امه في لهفة :- ولدي ..؟!.. زكرياءاا ..

دمعت عيناه مع أزدياد الغصة بحلقه هاتفاً في صوت يحاول السيطرة على نبراته :

- كيفك ياما ..؟!..

.....

هتفت الام الذي التقطت بحسها و غريزتها التي لا تخطئ خطب ما في نبرات صوت وحيدها :

- أنا زينة يا ولدي طول ما إنت زين و طيب .. ايه فيك يا زكرياء ..؟!..

.....

حاول الابتسام هاتفاً بعكس ما يعتمل به صدره:- زي الفل يا حاجة .. بس ادعيلى...

همست الام و قلقها في ازدياد :

- دعيالك يا زكرياء .. ربنا يحفظك و يريح بالك يا رب ..

هتف زكرياء بزفرة قوية من صدر يحترق :- يااارب ..

****

دوت سرينة عربة الشرطة لتقف امام السرايّ ليهب عاصم متعجباً :

- ايه فيه ..؟!.. ايه اللي بيجرى بره ..؟!..

.....

إندفع سعيد في عجالة هاتفاً ما إن طالعه عاصم متسائلا :

.....

- عاصم بيه ..؟.. الحَكومة بره وعندها اذن بتفتيش السرايا ..

هتف عاصم مندفعا لباب السرايّ الخارجي :-ليه ..؟.. ايه چرى ..؟.. تفتيش ليه يا حضرة الظابط .. ؟..

هتف الضابط بلهجة رسمية :

- احنا معأنا اذن من النيابة بالتفتيش يا عاصم بيه و كمان طلبينك معأنا ..؟..

هتف عاصم متعجباً :

- أنا تحت امركم .. بس لما اعرف ايه فيه الأول يا حضرة الظابط ؟.

نظر الضابط لبعض الأوراق هاتفاً :

.....

- المفروض الكلام ده تعرفه لما تيجى معايا يا عاصم بيه ..بس أنا هقولك .. ابن عمك ..

.....

قاطعه عاصم هاتفاً :- لجيتوا سليم ..؟!..

هز الضابط رأسه رافضا :- لا يا عاصم بيه .. كلأمي على زكرياء الهواري ..

هتف عاصم مذهولا :- زكرياء ..!!.. زكرياء واد عمي ..!!.. ليه عايزينه .. دِه..

كان دور الضابط ليقاطع عاصم هاتفاً في نفاذ صبر :

- عاصم بيه .. !! زكرياء بن عمك متهم في جريمة قتل و مطلوب ضبطه وإحضاره و في مصر قالبين عليه الدنيا .

هتف عاصم مصدوما :

- جتل ..؟!.. زكرياء يجتل ..!!..لاااه .. اكيد في حاچة غلط يا حضرة الظابط ..

.....

هتف الضابط :

- و الله ده اللي عندى يا عاصم بيه .. تسمحلنا بتفتيش السرايا و كمان تفتيش بيت زكرياء ..

تهكم عاصم :- و يعني فكرك هيكون موجود فيهم يا حضرة الظابط .. اكيد لاه..

اومأ الضابط متفهما :- دي إجراءات و تعليمات بنفذها .. اتفضل ادخل ووسع لنا الطريق عشان نقوم بشغلنا ..

زفر عاصم في ضيق :- اتفضل يا حضرة الظابط شوف شغلك .. و أنا هبلغ الحريم فوج...

إندفعت العساكر بأمر الضابط في كل صوب و اتجاه تبحث عن طريدتها وتوجه عاصم بدوره للدور العلوى للسرايّ ليجمع النساء معا خارج الغرف في احد الأركان بعيدا عن مسار العساكر الذين جابوا السرايّ من شرقها لغربها ..

همست زهرة مذعورة:

- في ايه يا عاصم .. ايه اللي بيجرى ..؟!..

همس عاصم :- بعدين اجولك ..!!؟..

حمد اللّه سرا إن الحاجة فضيلة لم تكن بالسرايّ في تلك اللحظة .. فقد ذهبت كعادتها لزيارة بعض الأقارب .. إندفع لحجرته بعد إن تأكد إن العساكر عادوا للطابق السفلى ووضع عمامته و عباءته السوداء و امسك بعصاه الابنوسية و إندفع للأسفل ليصطحب الضابط إلى بيت زكرياء ..

همست زهرة خلفه في قلق قبل إن يصل للدرج :

- طب .. هو خير يا عاصم ..؟!..

أكد متعجلا :- اه .. خير بإذن اللّه ..

.....

و لكنها ادركت .. إن الامر ابعد ما يكون عن الخير .. و إن هناك حدث جلل اثار قلق عاصم بهذا الشكل ..

****

.....

هتف غندور مرحبا بزكرياء :- اتفضل يا زكرياء .. بيتك و مطرحك ..

دلف زكرياء لشقة واسعة قديمة التأسيس كتب على بابها "بانسيون السعادة "..

ادار زكرياء ناظريه في المكان لتظهر فجأة من الرواق امرأة فى النص الأول من العقد الخامس هاتفة في ترحيب شديد :

- اهلا .. اهلا بريحة الحبايب .. اتفضل يا سي زكرياء .. اتفضل .. مش زكرياء برضة .!!؟؟

.....

أومأ زكرياء برأسه مؤكدا وهو يغض بصرة في تأدب كعادته مرحباًبعد إن عرفه عليها غندور:- اهلا بيكِ يا ست تهاني ..

وقفت خلف طاولة الاستقبال و فتحت دفترها العريض هاتفة :- بطاقتك و بيإنتك يا سي زكرياء .. !؟؟؟..

.....

هم زكرياء بتقديم هويته الشخصية لها الا أن غندور هتف في حنق و هو يجذب هوية زكرياء الشخصية من كفه الممدود بها لتهاني:

- جرى ايه إنت وهي ..؟!.. البطاقة دي هاتفضل معايا .. و إنت يا تهاني البيأنات دي بعدين نتفاهم فيها ..

لاكت تهاني علكتها في بطء و هي تنظر لزكرياء نظرة شاملة و أخيرا هتفت :

.....

- هي الحكاية فيها إن بقى ..؟!؟.. طيب و ماله ..

وتنهدت مستطردة مغلقة دفترها :- طالما من طرف المعلم خميس يبقى استبينا .. نحطه في عنينا من جوة..

هتف غندور مؤكدا :- الراجل أمانة عندك يا تهاني .. كل طلباته أوامر لحد لما نظبط له اموره .. و توجه لزكرياء متحدثا ..

.....

-و ما تخرجش من هنا الا معايا و بمعرفتي ..تمام يا صعيدي ..؟!

هز زكرياء رأسه موافقا :- تمااام .. بس ده كله بكام ..؟!؟.. الحساب يعني ..؟!..

.....

ابتسم غندور هاتفاً و هو يربت على كتف زكرياء :

-الحساب ادفع مقدم يا زكرياء .. المعلم خميس دفعه و قالي ده دين قديم لك عنده و هو بيسدده .. يعني دي حاجة بينكم مليش فيها ..

اومأ زكرياء رأسه موافقا و هو يبتسم ممتنا للمعلم خميس الذي أنقذه من مأزق كبير فما لديه لا يكفى بقاءه في مكان كهذا و طعامه لأكثر من ثلاث ليال ..

إندفعت تهاني هاتفة في زكرياء :- اتفضل يا سي زكرياء .. افرجك اوضتك و اهو ترتاح شوية قبل حصة الغدا ..

.....

سار زكرياء خلفها غاضا بصره على طول الرواق الممتد على جانبيه العديد من الأبواب المغلقة و التي لا يعلم هل هي حجرات فارغة ام يقطنها أناس كل منهم يملك حكاية ما دفعته ليستتر خلف الباب عن اعين البشر .. فتحت تهاني باب احدي الغرف و دخلت تشير بيدها للغرفة في فخر :

- احسن أوضة عندى .. هسيبك تستريح و اي حاجة تحتاجها بس قول يا تهاني هتلاقيها عندك ..

ابتسم زكرياء شاكرا :- ربنا يخليكى يا ست تهاني .. تسلمي..

خرجت تهاني وهي تنظر لزكرياء بنظرة متفحصة تتساءل متعجبة " ماذا فعل يا ترى ذاك الرجل الذي لا يكاد يرفع إنظاره عن الأرض حياءً .. !!؟.."

.....

تنهد زكرياء بعد رحيل تهاني و تمدد على فراشه يسترجع كل ما حدث و صورة واحدة ترتسم امام ناظريه تجعله يلعن الظروف التي فرقتهما .. بدور .. لكم يحتاجها .. يشتاقها .. فوجودها جواره في حد ذاته يخفف عنه الكثير مما يعاني .. نظرتها اليه تزيح عن كاهله هما لا يطيقه .. و تفرش له بابتسامتها و نظراتها الصافية طريقا معبدا من الفرح الخالص.. لكم يشتاقها ..؟!..

****

هتفت بخيتة في هلع :

- ايه في يا عاصم يا ولدي ..؟!.. الحكومة جاية عندنا ليه ..؟!..

طمإنها عاصم :

.....

- متجلجيش يا خالة ..الحَكومة بتفتش على سليم .. دوول حتى فتشوا السرايا..

.....

هتفت كسبانة مستنكرة :- طب و هو إنتوا مالكم و مال سليم .. هتداروه عن الحكومة!!؟.. متچيش .. ده إنتوا اللي طلبينه يا عاصم بيه و مُصلحتكم من مُصلحة الحَكومة!!؟..

تنهد عاصم و قد أيقن أن محاولته في مداراة الحقيقة عن الخالة بخيتة ستصبح امرا صعبا في وجود كسبانة التي تدقق في كل كبيرة و صغيرة ..

أنقذه هتاف احد العساكر للضابط بعد أن تم التفتيش :- ملجيناش حد يا فندم ..

أومأ الضابط لعساكره مشيرا لهم بالإنصراف و تبعه عاصم في هدوء ..

.....

تنهدت بخيتة و هي تشعر إن ثمة امر ما غامض يحدث و لا علم لها به و إن ما يجرى لا علاقة له بسليم و هروبه و

رغبة الشرطة في الإمساك به .. إنقبض صدرها

فهتفت في تضرع :- الستر من عِندك يا رب ..

بينما إندفعت كسبانة خلف عاصم تتوسّله :

- عاصم بيه ..؟!.. حضرتك و أنا نِعرف إن اللي بيحُصل دِه ملوش دعوة بسليم .. جلى رب يريح جلبك .. سي زكرياء بخير ..؟!..

ارتفعت نظرات عاصم التي يغضها ارضا و قال في هدوء :

- ايووه الموضوع مع زكرياء .. زكرياء متهم في جريمة جتل في مصر و الحَكومة بتفتش عنيه ..

.....

ضربت صدرها بكفها هاتفة :- يا واجعة مربربة .. بس سي زكرياء ميعملهاش ..

إنت تصدج يا عاصم بيه ..؟؟!..

هز عاصم رأسه نافيا و أخيرا استأذن منها مسرعا ليلحق بالضابط لاستكمال الإجراءات و همس قبل إن يغادر :

.....

- إياكِ الحاچة بخيتة توعى باللي بيحُصل ..

أنا جلت لك عشان تبجى عارفة و تدارى الحكاية عنيها

لحد ما نشوف هاتُخلص على ايه ..

هزت رأسها متفهمة وعيونها يحتبس فيهما دموع قهر و لوعة .. و لم يكن يدرك كلاهما إن بخيتة سمعت كل ما دار بينهما من حديث بشإن وحيدها و الإن فقط عرفت لما ذاك القلق الذي اعتراها عندما استشعرت الحزن يقطر من صوته يحاول إن يداريه عنها في مكالمته الأخيرة .. تمسكت بالباب مترنحة و هي لا تدرك ما عليها فعله من اجل فلذة كبدها .. و أخيرا هتف صوت الامل بداخلها .. طالما إن الشرطة تبحث عنه فهو لا يزل حرا .. هو بخير.. هو بعيد عن أيديهم .. هي اعلم بولدها .. هي ادرى الناس إنه لا يرتكب مثل تلك الجريمة البشعة .. ليس زكرياء .. لذا هي تدرك براءته و إن اللّه سينجيه و يخفيه عن اعينهم

حتى يقضى امرا كان مفعولا .. سالت الدموع من عينيها هامسة في تضرع :- احفظه بحفظك ياارب ..

****

مرت ثلاث ليال على زكرياء لم يذق فيهم طعما للنوم .. و ما إن يغفل للحظات حتى ينتفض في قوة مصببا عرقا يلتقط إنفاسه بتلاحق يؤكد على عمق الرعب الذي عايشه في كابوسه ذاك الذي لم يفارقه منذ جاء إلى هنا ..

ندرة النوم تهلكه و ما يهلكه اكثر هو تلك المشاهد التي تتراءى له في نعاسه ..

قلقه يتجسد في أمور ترعبه حد اللا معقول .. فتارة يحلم بأمه و هم يجذبوه من أحضانها لحبل المشنقة .. و تارة أخرى يسمع صرخات بدور المستغيثة به وهي تحاول التخلص من ذراعى السمري القابضتين عليها و رقبته تسيل منها الدماء ويضحك بشكل هستيري ..هو يعلم إن كل هذا ما هو الا

نزغ من شيطإن رجيم يريد إحزإنه لذلك لا يجد ما يدفعه الا الصلاة .. فيتوضأ و يصلى لعل صدره المضطرب يهدأ و قلبه الثائر يستكين وعقله الذي يمور بالافكار يستقر ... وساعتها ينام عدة ساعات قبل إن ينهض من جديد لا يغادر غرفته الا للضرورة القصوى و هي الوضوء و الحمام غير ذلك هو قابع فيها يتناول طعامه بين جدرإنها و كانه حبيس قبل إن يرى للسجن أسوارا .. رفع رأسه للسماء الغائمة الملبدة بالغيوم من خلف زجاج النافذة المطلة بشكل جانبي على البحر .. ابتسم عندما تذكر عندما شاهد البحر لأول مرة كيف بدا كالأحمق ..

فلقد هتف في ذهول من روعة ما طالعه و هتف برهبة .. سبحإن اللّه ..

فأخر ما شاهده في النجع كانت تلك الترع و المصارف القديمة التي يشق منها قنوات لرى الأرض الزراعية .. و

هناك النيل و الذي يدعونه البحر في النجع حيث كان يتسلل هاربا مع بعض الأولاد ليتباروا في السباحة في أيام القيظ الشديد .. او لملئ الجرار لأهاليهم في السابق قبل إن تدخل صنابير المياه العذبة لقريتهم الصغيرة ..

هتف في تضرع :- يا رب ..

و اسند جبينه على الزجاج البارد لعله يهدئ من حرارة أفكاره التي تغلى في رأسه كمرجل.. و قلقه على امه و ما قد يستتبعه معرفتها بما يحدث له .. و شوقه لبدور التي لا يعلم الإن كيف حالها .. إنه لم يفارقها يوما منذ أراد اللّه جمعهما على ميثاقه والزواج بها ...

.....

كانت دوما أمنة بين ذراعيه و كان دوما راضيا بين أحضانها الحانية التي عوضته الكثير مما عأني من حرمإن و قسوة .. إنه يفتقدها بشدة .. يفتقد حضورها الأسر المجهض لأحزانه و الداعم للفرحة و الموشح بالبهجة ..

يحتاجها الآن .. في تلك اللحظة التي اصبح فيها العالم كله ضده وهي وحدها التي باستطاعتها دعمه لاخر نبضة بصدرها في تلك المعركة .. يحتاجها حد الوجع .. و يعلم إنها بحاجته و تئن لبعاده و تصرخ شوقاً لمرأه ...هو يعلم بل على يقين إنها كذلك ..إنه يراها الإن بعينى قلبه .. و نور بصيرته.. و هتف في نفسه برغبة قاتلة تمزقه لمرأها .. ليتها هنا ...

****

.....

هتفت نعمة مشفقة :- يا بدور مش كده .. يابنتي كلى حاجة .. الاكل مدخلش جوفك من ليالي ..

هزت بدور رأسها رفضا في وهن :

- مليش نفس يا نعمة .. جوفى نار قايدة و مش هايرتاح لى بال الا لما اعرف ها يحصل ايه لسي زكرياء ..

ربتت نعمة على كتفها متفهمة :

.....

- و اللّه حاسة بيكِ بس و اللّه خير .. اهو المعلم خميس و ابوكِ راحوا يشوفوا مع المحأمي ايه اللي هيحصل بعد ما طلع .. اللي اسمه ايه ده ..اه التقرير بتاع السكينة و البصمات ..

عشان خاطرى كلى عشان لما سي زكرياء يرجع بالسلامة يلاقيكى زي الوردة المفتحة مش دبلانة كده.. همت بدور بالكلام الا إن طرقات الباب قاطعتها لتنتفض هي ونعمة من مكانهما تسابقان الريح لفتحه و معرفة الاخبار ..

وصلت نعمة في البداية وفتحت الباب في لهفة ليطل منه الحاج وهيب منكس الرأس يسنده المعلم خميس وهو ليس باقل منه وجوما ..هتفت بدور متلهفة بأمل و هي تعدل غطاء رأسها عندما شاهدت المعلم خميس يرافق ابيها :

- هااه .. مالكم .. في ايه طمنونى .. براءة مش كده ..؟!..

اصل سي زكرياء ميعملهاش .. و اللّه ما يعملها ..

.....

نظرت لابيها و صرخت :- قول يابا .. أتكلم في ايه .. ؟!..

.....

هز الحاج وهيب رأسه حسرة و ضرب فخذاه بكفيه و هتف بوهن و هو يتوجه لغرفته ساحبا قدماه سحبا :- اللهم لا اعتراض .. اللهم لا اعتراض ..

توجهت بدور للمعلم خميس :- طب قولى إنت يا معلم .. ايه اللي جرى .. هو عشان سي زكرياء هرب يعني ..؟!.. طب يرجع بس يسيبوه..

قرر المعلم خميس إنهاء حيرتها التي تكاد تقتلها ليهتف في دفعة واحدة :

- لقوا بصمات زكرياء على السكين اللي أتقتل بيها سمري ..

.....

مرت لحظات من الصمت القاتل بعد شهقة نعمة المصحوبة بضربة قوية على صدرها ..و لم يقطع ذاك الصمت الذي امتد ..الا صوت ارتطام بدور بالأرض ساقطة فاقدة الوعي ..

****

إندفع عاصم لداخل حجرته في عجالة جعلت زهرة تقفز مجفلة و تسأل في قلق :

- خير يا عاصم .. في ايه ..؟!..

هتف عاصم امرا في ضيق :- حضرى لى الشنطة بسرعة .. أنا مسافر دلوجت ..

ازداد قلقها لتهتف متسائلة من جديد :- طب خير يا عاصم .. طمني .. مسافر ليه ..؟!.. في حاجة جدت ...؟؟..

خرج عاصم و راسه تقطر ماء يجففها في سرعة و يبدأ في تبديل ملابسه :

.....

- أنا مسافر عشان زكرياء .. المحامي اللي بعته يتابع التحجيج بلغنى إن السكين اللي اتجتل بيها الراجل اللي بيتهموا فيه زكرياء طلع عليها بصماته ..

شهقت زهرة في صدمة هاتفة :- بس زكرياء ما يعملهاش يا عاصم ..

أكد عاصم :- ايووه .. ميعملهاش .. و أنا تايه عن واد عمي .. لو سليم كنت جلت يعملها و يعمل اللي أوعر منيها .. لكن زكرياء .. لاااه..

هتفت زهرة و هي تضع له ملابسه في الحقيبة:

- يا ساتر يا رب ..سيرة سليم ده بتعكنني..اهو التاني ده كمان هربان .. و لسه متمسكش ..

.....

أنجز عاصم ارتداء ملابسه و اخرج سلاحه و بعض من نقود من خزانة الملابس ووضعهم في جيب سترته الداخليه أسفل جلبابه .. و أخيرا وضع عمامته و عباءته هاتفاً :

- كان نفسي تاجي معايا .. اهو تزورى الداكتور ناجى .. بس أنا مستعجل و أصلا مش هطول

ربتت على كتفه قائلة :- ميهمكش يا عاصم .. أنا فعلا مش هاينفع اروح الفترة دي عند بابا ..اولا لأنه مشغول بتحضير فرح ندى و نبيل و عشان مسبش خالتي لوحدها .. سافر إنت و أرجع بالف سلامة ..

قبل جبينها على عجالة و تركها مندفعا للزود عن بن عمه .. الذي يعتبره اقرب من اخ له ..

****

.....

إنتفضت تهاني من مجلسها عندما إنتبهت لظابط وبعض العساكر يندفعون لداخل البنسيون ..

استجمعت رباطة جأشها التي فارقتها للحظات وهتفت بترحيب :- اهلا يا باشا شرفتنا

هتف بها الضابط بنزق :

- هاتى بطاقات النزلاء اللي عندك .. إنجزي ..و تعإلى ورايا خبطى على اوضهم ..

حاولت التلكؤ .. لكن هل هناك من مفر ..؟!

هي تعلم ذاك الضابط جيدا .. لن يترك البنسيون حتى يتأكد من هوية كل نزيل و زاد تأكدها وهي تراه يطابق الهويات الشخصية التي سلمته إياها بذاك الدفتر العريض الذي تدون فيه كل ما يخص نزلاءها من معلومات و بيأنات ..

.....

تحركت في آلية تدق الأبواب احدهما تلو الاخر

فيخرج النزلاء للإجابة على أسئلة الضابط .. و ما إن مرت بحجرة زكرياء حتى كادت إن تدع كذبا إنها خالية ..

لكن تكبيرة زكرياء الواضحة في صلاته لم تدع لها خيارا اخر لتفتحها في بطء و دقات قلبها ترتفع للضعف ..

نظر الضابط لذاك الذي يقف بجلبابه الصعيدي يوليه ظهره راكعا .. اضطر الضابط لينتظر لبضع لحظات حتى ينتهي زكرياء من صلاته و ما إن سلم السلام الأخير إيذأنا بذلك حتى إنتفض واقفا و قد شعر بوجود أناس غريبة تقف بترقب خلفه ..

هتف في تعجب :- خير يا ست تهاني ..!!؟..

.....

لم يكن يعلم أن من يقف على يمينها ذاك هو ضابط ...

فلم يكن يرتدي حلته الرسمية

و الذي سأل زكرياء في شك :- اسمك ايه ..!؟

.....

هم زكرياء بالكلام الا إن قاطعته تهاني هاتفة :-

كرم الصعيدي يا باشا .. المعلم كرم عبدالعال الصعيدي .. من أعيان المنيا ..

نظر الضابط لزكرياء في شك ليهتف في تهاني:

- فين بطاقته ده ..؟! و ليه مشفتهاش مع باقى البطايق و لا حتى لقيت اسمه متسجل عندك في الدفتر ..؟!..

أسرعت تهاني متصنعة التيه :- العتب على دماغي يا باشا ..

و أخرجت من جيب مئزرها احدى الهويات الشخصية ناولتها الضابط في ثقة مستطردة:- المعلم ادهالي اول ما وصل .. اصله وصل في قطر الفجر اللي جاى من الصعيد .. و كان تعبان دخلته اوضته يستريح و أنا سُهي عليا يا باشا و دخلت نمت أنا كمان .. و نسيت اسجل البيأنات..

.....

تطلع الضابط إلى البطاقة يقلبها ذات اليمين و ذات الشمال .. و أخيرا أعادها لتهاني و هو يهتف في حنق مندفعا من الحجرة :

- طب متنسيش تاني .. و الا هايبقى فيها مشكلة المرة الجاية .. سمعاني ..

خرج راحلا و خلفه عساكره لتسقط تهاني على اقرب مقعد منهارة ..

.....

خرج غندور من ذاك الرواق الجانبي القصير الذي ينحرف باتجاه المطبخ .. لتنتفض هي من جديد ليطمئنها هاتفاً :

- متخافيش ..ده أنا غندور الرايق اللي يفرفش المضايق ..

إنفجرت ضاحكة لتعليقه و هي تهتف في راحة:

- اه و الله يا غندور .. جيت في وقتك ..ده لولا ما رميت في جيبى بطاقة سي زكرياء الجديدة وأنا ورا الظابط و هو مش واخد باله كنا روحنا في داهية و سي زكرياء أولنا ..

.....

ليتنحنح زكرياء قادما من اخر الرواق و ما إن وصل اليهما حتى ألقى السلام لترد تهاني :- اتفضل يا سي زكرياء .. و الله ده إنت امك داعية لك ..

.....

هتف زكرياء في تأكيد :- صدجتى يا ست تهاني ..

هتف غندور محذرا :

- لاا .. من هنا ورايح مفيش زكرياء ده .. اللي عايش هنا في اسكندرية اسمه ايه .. كرم عبدالعال الصعيدي زكرياء ده تنسوه لحد لما نشوف المعلم خميس و اخر الاخبار اللي جاية من مصر .. و قضيتك و صلت فين يا سي .. كرم .. ؟؟..

طأطأ زكرياء رأسه متنهدا في ضيق :- ربنا يچيب الصالح ...

نهضت تهاني تدون بيانات زكرياء من بطاقته الجديدة و تعود بعد لحظات لتسلمها له ..تناولها زكرياء في هدوء ظاهري و استأذن ليدخل غرفته ..

.....

أغلق عليه بابه و رفع بطاقة الهوية يتطلع اليها في ضيق .. ذاك الوجه وجهه .. لكنه ليس هو .. الاسم ليس اسمه و الهوية ليست هويته .. هتف حإنقاً في نفسه وقد ود لو يصرخ بها من اعلى قمة :

- مكتوب عليك التوهة عن نفسك و عن اسمك يا زكرياء ..

الاولة زرزور .. و معرفلنكش أب يحن عليك و يديك اسمه .. و التانية هربان و ما جادر تنطق بلسانك اسمك .. ميتا ترجع يا زكرياء .. لزكرياء .. ميتا ..!؟؟..

قذف ببطاقة هويته الجديدة بعيدا في غضب هادر .. ووضع رأسه التي تمور بين كفيه

.....

و هو يجلس على طرف فراشه محاولا أن يهدأ .. لكن هيهات .. وكيف له ذلك بعد كل ما يحدث ..!؟.. و كيف له أن

يهدأ و دواءه ليس في متناول يده .. دواءه الذي يسكن ألامه و لو كانت بحجم الكون .. دواءه المدعو .. بدور ..

****

خرج الطبيب من الغرفة في هدوء يخط بقلمه أسماء بعض الادوية و هتف عندما طالعه المعلم خميس و الحاج وهيب الذي هتف في لهفة :

- خير يا دكتور .. طمنا ؟!..

هز الطبيب رأسه في آلية وهو يرفعها عن دفتره الطبي هاتفاً:

.....

- خير.. متقلقوش .. شوية ضعف عام و واضح إنها اتعرضت لضغط شديد او اخبار سيئة اثرت عليها ..

وجذب ورقة وصفته الطبية من دفتره منتزعها و قدمها للمعلم خميس الأقرب له متسائلا :- أنا مش قصدي

التدخل.. بس مين زكرياء اللي المريضة قاعدة تكرر اسمه ده!؟..

صمت الحاج وهيب و لم يعقب الا بهزة رأس متحسرة بينما أجاب المعلم خميس :

- ده جوزها يا دكتور بس مسافر ..

ابتسم الطبيب :- واضح إنها متعلقة بيه قووى.. ربنا يجمعهم على خير ..

هتف الحاج وهيب داعيا :- ياارب ..

.....

بينما اصطحب المعلم خميس الطبيب للخارج خرجت نعمة من غرفة بدور هاتفة في زوجها متسائلة :- هنسيب البت كِده يا حاج وهيب !؟.البت هتروح مننا ..

هتف الحاج وهيب بصوت يملؤه العجز :- و أنا بأيدي ايه بس .. بأيدي ايه ..!؟..

اشفقت عليه نعمة فربتت على كتفه في حنو:

.....

- ربنا يحلها من عنده يا حاج .. قول يا رب ..

هتف الحاج وهيب من أعماق قلبه الذي يئن وجعا على حال ابنته و زوجها بعد إن كان يعتقد إن الدنيا أخيرا ابتسمت لها و إنها تعوضها ذاك الظلم و القهر الذي عاشته مع زوجها الأول الذي أذاقها العذاب ألوان .. لكن يبدو إن ابنته مكتوب عليها ذاك العذاب حتى ولو بشكل مختلف .. فصرخ متضرعا :- يااارب.

****

دقات على باب شقة الحاج وهيب لتندفع نعمة تفتح الباب و هي تعدل من غطاء رأسها بعد إن إنفرج الباب قليلا عن رجل غريب يولى لها ظهره .. لا تعرفه .. فهو ليس من اهل الحارة و لم تراه من قبل لكن حدسها اخبرها إن له علاقة ما بزكرياء فملابسه تدل على اصله الصعيدي هتفت في وجل :- ايوه .. مين ..؟!..

هتف عاصم وهو يستدير نصف استدارة بجسده :-

الحاج وهيب موجود ..؟؟..

أكدت نعمة :- ايوه موجود .. اتفضل ..

.....

أغلقت الباب .. لتعاود فتح باب اخر يُدخله على الصالون ..

همهم مستئذنا و دخل .. خرجت هي في عجالة تدعو زوجها لمقابلة الغريب ..

و ما إن تأكدت إن زوجها دخل له بالفعل حتى إندفعت نحو بدور هاتفة :

- ألحقى يا بدور .. شكل اهل جوزك هلوا بره بعد ما جالهم خبر؟..

هتفت بدور بنبرة تائهة:- اهل جوزي مين..؟؟

هزت نعمة كتفيها :

- مش عارفة .. بس واحد كِده ميتخيرش عن سي زكرياء .. طول بعرض و اخلاق .. بس عليه هيبة ايه .. الله اكبر ..

.....

همت بدور بالكلام الا إن دخول الحاج وهيب اسكتها ليهمس هو مؤكدا صدق حدس نعمة :- قومي يا بدور .. بن عم جوزك بره و عايزك..

نهضت و ارتدت عباءتها و حجابها و دخلت في هدوء ملقية التحية .. نهض عاصم ما إن طالعه محياها ليهتف :

- اهلا بيكِ يا ست بدور.. متجلجيش على زكرياء .. أنا مجوم له محامي كَبيير .. وإن شاء الله خير..

و اخرج عاصم من جيب جلبابه النقود التي كانت بحوذته هاتفاً و هو يضعهم على الطاولة:- اتفضلي دوول ..

نظرت بدور إلى النقود نظرات فارغة بينما هتف الحاج وهيب معترضاً :

.....

- ايه ده يا عاصم بيه ..؟!.. بدور في بيت ابوها و مش محتاجة اي ..

قاطعه عاصم مؤكدا :

.....

- عارف يا حاج وهيب إنها في بيت ابوها بيت الكرم و الخير كله و إنها مش محتاجة حاجة طول ما هي معاك .. بس دِه حجها علينا و حق واد عمي إننا نصون مرته في غيبته .. و اقسم بالله يا حاج الفلوس دي من ماله .. يعني حجها .. و لو هي حابة تاجى معاى البلد تستنى رجعته .. تاجى و نشلوها فوج روسنا معززة مكرمة .. و لو عايزة تجعد معاك هنا .. برضك تحت امرها.

هتف الحاج وهيب في راحة :- عداك العيب يا عاصم بيه .. بن أصول صحيح ..

هتف عاصم :- عشت يا حاج..

.....

ثم اخرج ورقة من حافظته مدها للحاج وهيب مؤكدا :

- دي نمر تليفوناتى كلها .. لو احتجتم اى حاجة او جد اى خبر في موضوع واد عمي .. هتلاجينى هنا عِندك في ساعتها ..

.....

و أخيرا نهض عاصم للمغادرة هاتفاً :- يا دوب ألحج أنا طريجى ..

هتف الحاج وهيب :- ما لسه بدرى يا عاصم بيه .. ملحقتش تقعد و لا عملنا معاك الواجب!؟..

هتف عاصم و هو يتجه للدرج هابطا :- معلش مرة تإنية .. و اى حاچة أني موجود كنى زكرياء بالظبط ..

هز الحاج وهيب راسه موافقا :- شرفتنا يا عاصم بيه ..

.....

هتف عاصم و قد وصل لاخر درجات السلم:- الشرف لينا يا راچل يا طيب .. سلام عليكم ..عاد الحاج وهيب لشقته و ما إن طالعته نعمة حتى هتفت في فخر :

- بجد نسب يشرف ..ولاد أصول صحيح .. واحد غيره كان قال وأنا مإلى ..لكن ده جه و سأل و اطمن عليها كمان ..

همست بدور في نبرة ملؤها حزن العالم :

.....

- قلت لكم إن سي زكرياء بن ناس و اصل و ميعملش العملة السودة اللي تهمينه بيها دي ..ربنا يفك ضيفتك يا سي زكرياء ..

إندفعت نعمة تحتضنها في جزع بعد إن إنفجرت بدور في نوبة من البكاء الهيستيري

.....

على زوجها و قرة عينها الذي غاب عن عينيها و تتمنى لو تقايض سنين العمر مقابل التطلع إلى محياه من جديد ..

****

هتف زكرياء في غندور:- غندور ..؟!.. عايز اشتغل ..

هتف غندور:- تشتغل ..؟!.. استنى بس نشوف حالك هترسي على ايه ..

هتف زكرياء حانقاً :- لاه .. مصبرش .. أنا مش متعود على الخإنجة دي .. وكمان كِده كَتير .. تجلت على المعلم

خميس .. جاعد بلا شغلة و لا مشغلة غير الاكل والنومة .. أنا هنزل اشتغل و لو حُصل ايه ..

هتف غندور:

.....

- طب بس اهدي يا عم الصعيدي.. و اللي إنت عاوزه هعملهولك.. ادينى بس يومين كده ادور لك على شغلإنة تمشى بيها حالك .. لحد ما نشوف المعلم خميس هيقول ايه ..

هتف زكرياء ممتنا :- تسلم يا غندور .. أنا لو مشتغلتش هتچنن و أنا جاعد لحإلى طول النهار و معرفش الحالة ايه في مصر و لا ايه اللي بيحُصل .. و الاتصالات المعلم خميس مإنعها و لولا إن في حد من طرفك بينزل مصر كل أسبوع مكناش عرفنا ايه اللي بيچرى هناك .. ربنا يعديها على خير ..

.....

ربت غندور على كتفه :

.....

- هتخلص على خير يا صاحبى .. متقلقش .. كل تأخيرة و فيها خيرة و اهو البطاقة الجديدة اللي عملناها هاتفرق معاك كتير .. و هتسهل لنا أمور ياما..

نهض غندور يتأهب للرحيل هاتفاً :

- أنا همشى دلوقتي و هغيب لى يومين كده و لو في جديد وصلنى هتلاقينى عندك

و إنت لو عايز تنزل اهو تغير جو شوية ..إنزل .. بس بطاقتك معاك و متبعدش عن هنا.. استبينا (اتفقنا)..

هتف زكرياء في راحة :- استبينا ..و متجلجش لو نزلت مش هبعد .. هروح فين يعني .. اخرتى الجعدة على البحر ..

.....

اتسعت ابتسامة غندور هاتفاً :- عجبك البحر يا صعيدي .. طبعا معندكوش زيه في بلدكم..

.....

هتف زكرياء مازحاً ومتصنعا الغضب من تلميح غندور الذي اعتقد إنه يذكره بردة فعله الأولى عندما رأى البحر ..رفع كفه المضمومة امام وجهه ملوحا بها:

- اه يا خفيف معِندناش .. بس عِندىنا حاجة تإنية تحب تجربها ..!!؟..

إندفع غندور خارجا يهتف بنبرة مازحة :- و على ايه يا بلدينا ..الطيب احسن ..

ابتسم زكرياء و كانت المرة الأولى التي يبتسم فيها منذ وطأت قدماه ارض الإسكندرية..

****

.....

خرج عاصم من عند الحاج وهيب يشعر ببعض الراحة فهو على الأقل قابل اهل بيت زكرياء و اطمئن إنهم بخير وترك لهم ما يحفظهم من شر الحاجة .. توقف عند قهوة المعلم خميس و جلس يتمنى كوب من الشاي يخفف من ألم

رأسه التي تمور بالافكار منذ وطأت قدماه القاهرة و خاصة بعد مقابلة المحام الذي و للأسف أكد على ضعف موقف زكرياء بالقضية خاصة بعد ظهور الدليل الأخير الخاص ببصمات زكرياء على أداة الجريمة ..

تنهد في ضيق وهو يصفق بكفيه مستدعيا صبى المقهي لجلب الشاي فاستدعى نداءه المعلم خميس الذي نهض مستفسراً عن ذاك الصعيدي الغريب الذي يجلس على احدي طاولات مقهاه النائية قليلا عن مرأه ..

تقدم في حذر هاتفاً في تساؤل :- مرحب يا بلدينا .. الأخ غريب مش من هنا ..؟!..

أكد عاصم :- اه .. من الصعيد ..

مد المعلم خميس كفه لتحية عاصم هاتفاً :

- احسن ناس .. و منين في الصعيد ..؟!..

أكد عاصم :- من جنا (قنا) ..

.....

برقت عينا المعلم خميس ليهتف معرفا نفسه :

- اهلا بأهل الصعيد و ناسه .. محسوبك المعلم خميس اللول صاحب القهوة ..

ارتشف عاصم بعضا من كوبه رشفة واحدة و هو يهتف :

.....

-مرحب يا معلم .. وأنا عاصم الهواري ..

تأكد الآن لخميس إن من يجالسه الإن هو احد أقارب زكرياء فهتف متحسرا :

- و الله كان في واحد في الحارة هنا اسمه زكرياء الهواري بس ايه راجل مجدع بصحيح ..

هتف عاصم في دهشة :- إنت تِعرفه ..!!..

هتف خميس :- و مين ميعرفهوش .. كان راجل حقاني و مداين الناس كلها بأخلاقه ..ربنا يمسيه بالخير و يرده سالم ..

همس عاصم لخميس :- إنت تِعرف طريجه يا معلم ..؟!..

.....

هتف خميس متعجباً :- أنا ..؟!.. و أنا هعرف منين ..؟!.. اللي اعرفه إنه هربإن وطالما ممسكتهوش الحكومة يبقى خير ..

طلب عاصم قلم وورقة و كتب عليهم ارقام تليفوناته و قدمها للمعلم خميس هاتفاً :

- دي ارقامي يا معلم خميس لو عرفت او سمعت حاچة عن زكرياء يا ريت تبلغنى

أكد المعلم خميس بصوت عال الغرض منه إسماع بعض العيون التي ترسلها الشرطة للتنصت و الاتيإن بالاخبار عن اى امر يجد:

- طبعا .. اكيد يا عاصم بيه ... اى حاجة جديدة هتوصلنى هبلغك طوالي ..

.....

نهض عاصم راحلا و هو يشعر بعجز لم يشعر به من قبل .. عجز عن مساعدة بن عمه الذي يكن له مشاعر اخوة صادقة ..

****

مرت عدة أشهر منذ عمل زكرياء في الميناء بناء على توصية غندور و اخذ ينقل بعض البضائع الخفيفة هنا وهناك على تلك العربة الحديدية ذات العجلات و التي كان يدفعها محملة بما كانت تجود به بعض المراكب او السفن .. ليذهب بها لاصحابها ..

جاءته الاخبار من القاهرة وعلم بإن بصماته كانت على سكين طايع وسيلة مقتل السمري كانت ليال قاسية تلك التي مضاها بعد معرفته و قد أيقن إن التهمة أصبحت ملتصقة به كالغراء و إنه بهذا الشكل اصبح مطارد بشكل فعلى .. و إنه سيُصبح كرم و سيظل كرم ..و عليه

إن ينسي زكرياء و اسمه و سيرته و كل ما يتعلق به ... لكن بعد عدة أيام من اليأس و الأحباط عاد له الامل من جديد في رحمة ربه و عفوه .. وتيقن إن الفرج قريب طال او قصر الوقت .. فالفرج قريب ..

كان يومه ينتهي مع اخر طلبية يوصلها و يعود لبنسيون تهاني يتناول طعامه و يعود من جديد لينزل عابرا الطريق ليتخذ مجلسه امام البحر يحدثه بالساعات و يرى وجه بدور و ابتسامتها التي يفتقدها حد اللإنهاية بين أمواجه ووجها الصبوح يلوح له عبر الأفق ..ثم يعود ليطرح نفسه على فراشه و يروح في سبات عميق ..

.....

و اليوم لم يكن استثناءً .. فها هو يجلس على الشاطئ الرملى يولى ظهره للعالم ويتطلع لعالمه الذي ينسجه بين طيات البحر و أمواجه الثائرة تارة و الوديعة تارة أخرى ..

إنتفض عندما تناهي لمسامعه تلك الهمهمات الخائفة و صوت الإنين الذي يصله من احد الجوانب ..

نهض في اضطراب ينفض جلبابه و يتطلع حوله في ترقب و أخيرا رأها .. تقف مذعورة تضع كفاها على اذنيها في هلع و تنتفض في رعب .. لمح على بعد خطوات منها ثلاث شباب إندفعوا هاربين و زادوا من سرعة خطواتهم حتى أضحت عدواً عندما ادركوا إن زكرياء يقترب للذود عن الفتاة التي كانوا يحاولون مضايقتها ..

.....

اقترب زكرياء من الفتاة المذعورة في إشفاق وهتف عاليا حتى تسمعه لإنها كانت تصم آذإنها بكفيها عن اى كائن و كذلك بسبب صوت الأمواج العال في تلك اللحظة :

- إنتِ كويسة ..؟.. حد من الشباب دوول ضايجك..؟...

.....

لم ترد الفتاة و كانها لم تسمعه و لا تراه من الأساس بل ظلت على إنتفاضتها و ذعرها و آذانها التي تصمها بكفيها ..

تلفت زكرياء حوله من جديد.. فكر في الاستعانة باحدى النساء لعلها تفهم ما يحدث مع تلك الفتاة و التي لا يطاوعه قلبه لتركها بتلك الحالة ..

عاد ليهتف من جديد بالقرب منها :

.....

- طب جولى بيتك فين وأنا اوصلك لو خايفة ..؟؟..

دقائق مرت و الفتاة على حالها و أخيرا بدأت ارتجافاتها تهدأ و ترفع كفيها عن مسامعها و ترفع رأسها رويدا .. رويدا .. لتلقى بنظرات دامعة لوجه زكرياء القلق

تنهد زكرياء في راحة .. و هتف عارضا عليها:

- تحبى اوصلك ..؟؟.. لو لساتك خايفة الشباب دي يرجعوا تاني ..

.....

هزت رأسها رافضة و اشارت لسيارة كانت تقبع بالقرب .. غادرت في هدوء .. و ظل زكرياء يتابعها من حين لاخر بعد إن عاد لموضعه الأول وما إن تأكد إنها ركبت سيارتها و رحلت ..حتى عاد من جديد لعالمه بين الأمواج ووجه بدور الذي يطالعه مبتسما ينير الأفق الحالك الظلمة في تلك اللحظة ..

****

تساءلت نعمة في حزن :

- و بعدين يا معلم خميس .. ؟؟!.. قدمت له الشاي و هو ينتظر الحاج وهيب في الصالون ليتباحثوا فيما يجب فعله بعد إن تم الحكم على زكرياء غيابيا بالسجن المؤبد لخمسة و عشرين عاما ..

استطردت وهي تجلس متحسرة تعدل حجابها على رأسها :

.....

- هنسيب بدور كده ..؟؟.. ده من ساعة ما عرفت و هي مبتنطقش .. دي بتموت بالراحة ..و ابوها الغلبإن مش عارف يعمل لها ايه ..حتى هو صحته اتاخرت من قهرته عليها ..

تنهد المعلم خميس دون أن يعقب و تناول رشفة من كوب الشاي و أخيرا هتف في حماسة لفكرة مجنونة راودته :

- إنتِ منين يا يا ست نعمة ..؟؟... مش من طنطا برضة..؟؟...

أكدت نعمة بإيماءة من رأسها :- اه يا خويا من طنطا .. ليه ..؟؟.

هتف المعلم خميس باسما :

- مدد يا سيد يا بدوى ..هو مش مولد السيد البدوى قرب ..؟..

أكدت من جديد في تعجب :

- اه يا معلم .. ليه؟؟..نفسك في شوية حُمُّص و مشبك من هناك ..؟!..

اتسعت ابتسامته :- اه يا ريت.. و إنتِ اللي هتجبيهملى بنفسك ..

هتفت في دهشة :- أنا ..؟.. ده أنا بقإلى زمن مرحتش طنطا و لا زرت اخواتى ..

أكد المعلم خميس :- يبقى واجب تروحى تزوريهم قريب .. قريب قووى ..

تعجبت مما يقول و همت بالاستفسار الا إن دخول المعلم وهيب قطع عليها استرسالها

و نهضت مستأذنة لتتركهما و تتوجه لمصاحبة بدور الذي ما عاد يؤنسها الا جلوسها بالقرب من تلك النافذة المطلة على مدخل الحارة يحدوها الامل بظهور زكرياء حتى ولو حلما و في أحضانها يقبع ذاك الجلباب الذي تركه

زكرياء خلفه محمل برائحته التي تحييها و كانت السبب الوحيد في بقاء روحها منتشية مليئة بأمل اللقاء الذي تنتظره

و لم تمل من الإنتظار ..

****

دخل عاصم السرايّ في وجوم لم يكن من عادته الا اذا كان هناك ما يسوء .. إنقبض قلب زهرة لمرآه بهذا الشكل حتى الحاجة فضيلة استشعرت إن وراء تجهم ولدها خبر قاصم للظهر .. لم تجرؤ زهرة على سؤاله و هو يجلس متنهدا في ضيق بينما هتفت الحاجة فضيلة من مجلسها المفضل في صحن السرايّ :

- خير يا عاصم .. ايه فيه ..؟!..

.....

وضع عاصم راسه بين كفيه زافرا في ضيق و أخيرا هتف و هو يمرر أصابعه بشكل مضطرب بين خصلات شعره :

.....

- زكرياء .. أتحكم في جضيته النهاردة .. تأبيدة يا حاچة ..

شهقات الصدمة ارتفعت من صدر كل من زهرة و الحاجة فضيلة ليستطرد عاصم في غضب مكتوم كازا على أسنانه :

- أجول لامه ايه ..؟!.. اجولها ولدك راح .. مكنش بكفاية التوهة اللي كانت مكتوبة عليه جَبل سابج عشان دلوجت تبجى توهة إچبارى .. !!؟..

.....

هتفت الحاجة فضيلة في إشفاق :- حچة يا عاصم ده أمه تروح فيها .. دي عايشة بس عشان توعاله راچع لداره ..

هتف عاصم متحسرا ضاربا كفت بكف :

- ليه بس كِده يا زكرياء .. ليه يا واد عمي .. !؟؟.. ما كنت جاعد وسطينا و جلنا بلاها الروحة و البعاد .. أدي اللي كسبناه .. روحة بلا رچعة .

.....

ربتت زهرة على كتف عاصم الذي كان يستشيط غضبا يكاد يحرق كل من يقترب منه لتهمس في خوف عليه :

- اهدي يا عاصم .. ربنا مش هيسيبه .. ربك عادل .. و اكيد مسير الحقيقة تبإن و عن قريب باذن الله ..

هتف عاصم زافرا في محاولة منه لتهدئة نفسه:

.....

- و نعمة بالله .. صدجتى .. ربنا جادر ينجيه من الهم دِه.. و يرحم امه اللي ملهاش غيره ..

جاءت سندس في تلك اللحظة تجرى مندفعة لأحضان ابيها ليتلقف أياها بين ذراعيه مقبلاً وجنتيها الشهيتإن في محبة همست زهرة في دلال بالقرب من مسامعه محاولة إخراجه من حزنه :- على فكرة .. أنا كده هغير.. و غيرة زهرة وحشة ..

.....

همس عاصم محاولا الابتسام لمجاراتها :- اللي تأمر بيه زهرة كله مااشي ..

همست من جديد مشاغبة :- البوسة لسندس بعشرة لام سندس ..

رد مشاكساً :- عشرة بس .. طب لاحجي إنتِ لو جدعة ..

.....

كادت تنفجر ضاحكة لولا إنها إنتبهت لوجود خالتها فكتمت ضحكاتها و هي تنظر اليه في محبة و قد شعرت بالرضا لإنها استطاعت و لو قليلا إخراجه من تلك الحالة التي كانت تتلبسه بسبب زكرياء ...

****

دخل زكرياء بنسيون تهاني كعادته كل ليلة قبيل العشاء بقليل لتفاجئه تهاني هاتفة :

- سي كرم ..فى ورقة سبهالك غندور .. جه بعد ما إنت نزلت بشوية و قإلى اديهالك ..

.....

اختطف زكرياء الورقة من يدها مندفعا إلى حجرته ليفضها في لهفة فهو يعلم إن بها اخبار جلسة النطق بالحكم في قضيته ..جرت عيناه على السطور و من شدة توتره أعاد قراءتها عدة مرات حتى استوعب أخيرا

ما كان بها من أخبار زادت من همه .. ذهب الامل الأخير في النجاة بغير رجعة ..أصبح التيه إجباريا .. و الوجع إجباريا ..و العذاب الذي يخالطه اعتياديا كالماء و الهواء ..

طبق الورقة بغضب في كفه و اعتصرها كما يعتصر الألم قلبه ..و ألقاها بطول ذراعه و هو يسقط على ركبتيه في يأس .. وضع رأسه بين كفيه .. و لم يستطع إن ينطق لم تكن هناك كلمات تعبر عما يجول بصدره و يرتع بقلبه و يتأكل فكره من ألام و عذابات ..و فجأة وجد نفسه بلا وعى منه يردد دعاء كان دوما ما يردده عندما كانت تضيق به نفسه و لا يجد ملجأ الا إلى اللّه .. دعاء

ردده النبى عليه الصلاة و السلام يوم خروجه من الطائف مخذولا من أهلها .."اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهوإني على النّاس، يا أرحم الرّاحمين، إنت ربّ المستضعفين، وإنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهّمني؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الّذي أشرقت له الظّلمات، وصلح عليه أمر الدّنيا والآخرة من إن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتّى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلّا بك".

ما إن إنتهي من دعائه حتى سالت دموعه أنهارا..وفي خصم تلك المشاعر التي احتلته لم يدرك إن باب غرفته قد دق مرة و لم يسمعه لينفرج الإن قليلا و يدخل احدهم للغرفة ثم يُغلق من جديد ..سمع همسا مرتجفا يهتف باسمه فرفع رأسه يتطلع أمامه في تعجب و إنتفض عندما لامس كتفه

كفا وُضعت عليه هاتفة باسمه من جديد في نبرة اكثر ارتعاشاً.. استدار ليواجهها و قد فغر فاه وجحظت عيناه لمرآها و قد غطى الدمع وجنتيها ..

همست من جديد شاهقة :- سي زكرياء .. أنا هنا .. أنا بدور ..

و إنحنت تجلس قبالته و تمد كفيها تحتضن وجهه بملامحه المشدوهة .. متطلعة إلى تفاصيل ذاك الوجه التي كانت تظن إنها ستموت شوقاً اليها ..

.....

استفاق أخيرا من صدمته على لمساتها الحانية ليجذبها شاهقا إلى أحضانه يعتصرها بين ذراعيه ..هامساً بأسمها في شوق و مرددا أياه في تكرار محموم كانه لا يصدق إنها هاهنا ..

أبعدها قليلا عن أحضانه ليتفحص ملامحها التي أفتقدها حد الجنون .. يستعيد من جديد روعة تلك

www.hakawelkotob.com

الملامح التي أورثته السهد ليال طويلة .. و رافقته دوما في جولاته على الشاطئ .. و عاتبته بتكشيرة طفولية لعدم اهتمامه بصحته في غيابها و واسته دائما و ابدا في حزنه و همه ..

لكم يعشق تلك المرأة و روحها التي تسكنه كروحه ..

همست تخرجه من شروده فيها:

.....

- متزعلش يا سي زكرياء .. ربك موجود و قادر يظهر الحق .. بعد يوم .. بعد سنة .. المهم إنك بخير ومعايا ..

هتف زكرياء و هو يتطلع لعمق عينيها:

- المهم إنكِ مصدجة يا بدور أني برئ ..؟؟..

هتفت في تأكيد :

- طبعا يا سي زكرياء ..ده لو الدنيا كلها قالت إنك تعملها أنا مصدقش ..ازاى أصدقهم .. و اكدب روحى ..؟.. اكدب عنايا ..؟..و اصدق إن الراجل اللي عاشرته و مشفتوش فوت

فرض ربه و خلأني أنا مفتهوش ممكن يعمل كده ..

اكدب الراجل اللي عينه مكنتش بتترفع عن الأرض و اللي مشفتش منه غيرالخير .. و اللي عينى مشفتش في الرجالة قبله و لا بعده.. الراجل اللي قلبى اتخطف اول ما شفته ..اكدب ده كله .. واصدق الناس و كلامها!؟..

تطلع اليها في عشق و احتضن وجهها بين كفيه و قبل جبينها في شوق طاغ و أخيرا جذبها من جديد لأحضانه متنهدا في راحة فما عاد الإن شيئا يعنيه من امر الدنيا .. و قد جاءت اليه .. من تغنيه عن الدنيا و من فيها ..

****

.....

-٨-

هتفت نعمة في سعادة وهي تسأل المعلم خميس ربما للمرة العاشرة على التوالي :

- بس اتأكدت يا معلم إنها وصلت لسي زكرياء و إنهم بخير ..؟!..

هم المعلم خميس بالرد عليها الا إن الحاج وهيب قاطعه هاتفاً في فرحة :

- ما قالك إنها وصلت لجوزها و كله تمام ..

وتوجه الحاج وهيب لخميس ممتنا :

- مش عارفين نتشكر لك ازاى يا معلم ..؟!.. اللي عملته ده جميل في رقبتى ..

.....

هتف خميس لائما :- العفو يا حاج .. ده أنا برد شوية من جمايل زكرياء عليا و على ناس كتير في الحارة .. ربنا يرده سالم باذن الله ..

أمنت نعمة و الحاج وهيب على دعاءه و الذي هتف باسما :

- بس فكرة إن نعمة تروح لاهلها طنطا و معاها بدور دي جامدة قووى يا معلم خميس .. لولاها مكنتش بدور حصلت جوزها.. و فكرة إنها تتوه من نعمة في مولد السيد البدوى و رجالتك يوصلوها لزكرياء .. و الله عفارم عليك يا معلم .. ربنا يبارك لك ..

تنهد خميس هاتفاً :

- و الله يا حاج ربنا اللي ألهم بيها .. مكنش ينفع غير كده .. هو هناك و هي هنا من شهور و أنا عارف إنهم هايقووا بعض وخصوصى بعد الحكم ما صدر على زكرياء ..

و تنهد من جديد هامساً :- الراجل من غير ست بت حلال توقف في ضهره بتضيق بيه الدنيا ..

نظر كل من الحاج وهيب و نعمة احدهما للاخر في تفهم .. فقدا أدركا إن المعلم خميس يقصد بكلماته الأخيرة زوجته الراحلة التي توفيت منذ فترة ليست بالطويلة .. قبل مجئ زكرياء للحارة بأشهر تقريبا .. و ها هو الآن وحيدا مع اطفاله الذين تتولى رعايتهم امه ..

هتف الحاج وهيب ليخرج خميس من صمته و حزنه :

- تعيش و تفتكر يا معلم .. ربنا يرحمها .. و يبعت لك بت الحلال اللي تريح بالك.

.....

نهض المعلم خميس مبدلا نبرة صوته الحزينة باخرى يملؤها الفرح وهو يهتف استعداداً للرحيل :

- المهم دلوقتي إنهم مع بعض .. ربنا يهنيهم و يريح بالهم .. و عقبال ما يرجعوا الحارة رافعين راسهم باذن الله .. أقول أنا

سلام عليكم بقى .. و ادينى طمنتكم عليهم و اى حاجة تحبوا توصلوهالهم أنا في الخدمة ..

هتف الحاج وهيب ممتنا :- ربنا يبارك فيك يا معلم .. و الله لو اخ ما كان عمل اللي عملته مع زكرياء .. ربنا يديك على قد نيتك الطيبة دي ..

ربت المعلم خميس على كتف الحاج وهيب في محبة :- تسلم و تعيش يا حاج ..

و رحل بعد إن نشر الفرحة في بيت الحاج وهيب من جديد ..

.....

****

سارا على الرمال في سعادة تدفعها بدور بقدمها كطفلة صغيرة مشاغبة ويبتسم زكرياء

لعبثها المحبب كما لو كانت ابنته .. كانت تتعلق بذراعه في محبة و فخر و هي تسير بجواره على الشاطئ يتسلل

اليهما صوت ام كلثوم شادياً من احدي المقاهي القريبة .. " و إن مر يوم من غير رؤياك ..ميتحسبش من عمرى .."..

لتعيد بدور الكلمات منغمة بصوتها هامسة بها و هي ترفع نظراتها لزكرياء الذي ابتسم في سعادة وهو ينظر لكفيها المتعلقتين بعضده هاتفاً في مزاح :

- ايه يا بدور .. متعلجة بيا ليه كِده .. مش ههرُب منيكِ ..

.....

هتفت في شك :- لاا يا سي زكرياء .. أنا خايفة عليك من البنات الحلوين دوول اللي كل ما ننزل نتمشى ألاقيهم .. خايفة واحدة فيهم تخطفك منى ..

إنفجر زكرياء ضاحكاً :- أنا محدش يجدر يخطفنى منك يا بدور .. و بعدين أنا مإلى و مال الحريم ..كفاية إنتِ معايا بكل حريم الدنيا.

.....

إنتفخت أوداج بدور في سعادة منتشية لإطرائه

هامسة :

- صحيح يا سي زكرياء .. !!؟..

هز رأسه مؤكدا وهاتفا في تساؤل :

- هو إنت لسه متعرفيش يا بدور أنا بعزك كد ايه ..!؟..

.....

تعلقت بعضده اكثر وهي تهتف :- عارفة يا سي زكرياء ..

بس برضة خايفة ..

و اقتربت لتقبل عضده في الخفاء و كانها تخبئ رأسها فيه

.. شعر زكرياء بقبلتها الدافئة عبر قماش قميصه لينظر

اليها من عليائه و ابتسامة مشاكسة تكلل شفتيه وهمس

:- بتعملى ايه يا بدور ..!؟..

رفعت نظراتها العاشقة لتتلاقى بنظراته المتيمة بها و

بأفعالها العفوية التي تدفعه ليعشقها فوق العشق :

.....

- ابدا يا سي زكرياء .. بحبك بزيادة شوية بس من غير ما حد يدرى .

إنفجر ضاحكاً لتعليقها و أخيرا همس مشاكساً أياها :

- طب ايه رأيكِ نرجع البنسيون و تحبى فيا بزيادة زي ما إنتِ عايزة ..؟!..

.....

احمرت وجنتاها خجلاً و سارا باتجاه البنسيون وهي تخبئ وجهها من جديد في عضده الذي تتعلق به و كانه القشة التي يتعلق بها غريق في وسط موج عاتِ..

****

دخلت سهام للسريّ فى سعادة و قد تركت باسل يلهو مع أبناء خاله مهران و سندس فى الحديقة بالخارج ..

بحثت بناظريها عن أمها لتطالعها تجلس فى سكينة تتمتم ببعض الأذكار و التسبيح محركة احجار مسبحتها فى خشوع ..

.....

اقتربت منها تقبل هامتها هامسة :- كيفك ياما .

ابتسمت الحاجة فضيلة فى سعادة لمرأى ابنتها :- سهام !!..

كيفك يا بتى ..زينة .!؟..

هتفت سهام :- الحمد لله .. كله تمام ..

.....

استشفت الحاجة فضيلة بفراستها محيا سهام السعيد فهتفت

فى فضول :

- بس جوليلى ..!؟.. وعيالك مبسوطة الله اكبر .. خير

..!؟..

ضحكت سهام :- واه ياما .. مفيش حاچة تتخبى عَلَيْكِ ..

صُح مبسوطة.. أصلك لسه چاية من عند الداكتورة و

بشرتني .. أنا حامل ياما ..

احتضنتها الحاجة فضيلة فى سعادة مكبرة .. لتدخل زهرة

هاتفة بمرح :

- لاا أنا كده هغير بجد .. ايه الأحضان دي كلها ..!؟..

.....

www.hakawelkotob.com

هتفت الحاجة فضيلة بفرحة :- اصلك سهام حبلى..

.....

هتفت زهرة و هي تنهض تحتضن سهام بدورها :- الف مبررووووك.. عقبال ما تقوميلنا بالسلامة ... و أنا كمان عندى خبر حلو ..

هتفت سهام :- إنتِ كمان حامل ؟!....

قهقهت زهرة هاتفة :- لاا .. اخوكِ عاصم مش بيفكر يكررها تاني .. اتعقد من بعد ما تعبت فى ولادة سندس و مهران ..

هتفت الحاجة فضيلة :- عندىه حج يا بتى .. ما إنت ولادتك كانت واعرة ..الداكتور جال كنى اسمها ايه ..؟!!..

ابتسمت زهرة مجيبة :- قيصرية يا خالتي .. اسمها قيصرية ..

.....

أكدت الحاجة فضيلة :- ايووه .. هي دي .. ده احنا اترجفنا يوميها ..بس مجلتيش امال ايه الخير الحلو اللي بتجولى عليه ..؟!..

هتفت زهرة في سعادة :- ندى كلمتني النهاردة و قالت لى إنها هي كمان حامل .. الحمد لله ..

هتفت كل من الحاجة فضيلة و سهام بسعادة :- الف مبروك .. لتستطرد سهام في فرحة :

- كِده التهامية هيزيدوا اتنين .. ألجي نفسك يا زهرة و عوضي بتوأم ياللاه ..

لينفجر الجميع ضاحكين مع دخول عاصم فى تلك اللحظة لينضم لمجلسهن وما إن جلس حتى أعلمته الحاجة فضيلة بنبأ حمل سهام ليهتف فى مرح :

.....

- ألف مبرووك .. و الله و التهامية هيزيدوا واحد ..

إنفجرت سهام ضاحكة فى سعادة هاتفة :

.....

- اللّه يبارك فيك يأخوي تسلم .. شدوا حيلكم و حصلونا ..لحسن التهامية بحمل ندى هيزيدوا اتنين ..

قهقه عاصم لمزاح اخته التي إنحنت على أمها تستشيرها فى بعض الأمور فمالت عليه زهرة مشاكسة فى همس :

- و إنت يا عاصم مش عايز تزود الهوارية واحد..؟!!..

استدار اليها مبتسما :

- لاه .. كفاية الحمل اللي فات .. تسع شهور عذاب وولادة واعرة .. ربنا يخليلنا مهران و سندس ..

.....

همست تشاكسه من جديد :- معقووول.. الغول اللي بيتكلم ده ..؟!..

همس فى عشق :

- اه .. هو يا زهرة .. بس ده من خوفه عَلَيْكِ .. على كد ما نفسي أجيب منيكِ عيال يسدوا عين الشمس .. على كد ما

خوفي عليكى مخلينى أفكر ميت مرة جبل ما

نفكروا نچيب عيال تاني ..

تطلعت اليه فى عشق و قلبها يذوب لكلماته الدافئة و لولا وجود اخته و أمه .. لكانت ألقت بروحها بين ذراعيه و لكن عوضا عن ذلك همست فى وله :- بحبك ..

****

.....

تململ زكرياء في منامه قلقا لا يطال النوم جفونه .. لم يكن بامكانه التقلب في ذاك الفراش الضيق حتى لا يوقظ بدور ظنا منه إنها نائمة حتى اثبتت العكس هاتفة :

- مالك يا سي زكرياء .. فيكِ ايه ..؟!..

همس زكرياء متعجباً :- إنتِ لساتك صاحية ؟!.

أومأت برأيها إيجابا و هي تنهض مستندة على مرفقها موجهة نظراتها لوجهه المحبب إلى روحها :- صاحية و حاسة بيك

و إنت قلقإن مش عارفة ليه..؟!..أوعى يكون في حاجة حصلت مع نعمة و لا ابويا من ورا مجيتى هنا ..؟!..

ربت على رأسها مطمئناً :- لاه متخافيش .. محصلش حاجة الحمد لله ..

.....

وجذب رأسها لتستقر على صدره فتتوسده وهي على يقين إن شيء ما يحزنه و لا يريد الإفصاح عنه او ربما لا يستطيع .. لكن هي التي لم تستطع إن تصمت و تتركه بهذه الحالة هامسة و هي تحيط جذعه بذراعها :- طب فيك ايه ..؟!..

همس دون مواربة :

- جلجإن على أمي يا بدور .. مش عارف ايه احوالها .. و لا عاملة ايه بعد ما عرفت اللي چرى معايا ..؟!.. و لا حتى جادر اكلمها و اسمع صوتها و اخليها تطمن علىّ ..شوفى بجالي كد ايه هنا من ساعة اللي حُصل لا كلمتها و لا طمنتها علىّ..

.....

رفعت رأسها من على صدره و ربتت بكفها على جانب وجهه و تطلعت اليه بنظرات كلها عشق و مؤازرة .. تعلم بفطرتها إن إفصاحه لها عن مشاعره و مكنونات نفسه ليس بالأمر العسير على رجل مثله .. إنحنت لتقبل جبينه و أخيرا جذبت رأسه بين ذراعيها ليستكين في أحضانها متنهدا في راحة .. أخذت تهدهده كما تهدد طفلا في المهد حتى علا غطيطه و راح في سبات عميق ..

طوقته اليها اكثر و قبلت هامته و راحت هي الأخرى في دنيا الأحلام ..

****

رن جرس الهاتف فإندفعت كسبانة مدعية الفرحة هاتفة قبل إن تصل إلى موضعه:

-يمكن يكون سي زكرياء ..؟!!..

.....

هتفت بخيبة مؤكدة :- لاااه مش زكرياء ..

.....

نظرت اليها كسبانة بتعجب وهي ترد على الهاتف .. كانت زهرة تتصل للاطمئنان على أحوالهن .. وهل هناك ما يلزم ليقدمه عاصم!!؟.. و خاصة بعد ما كان من امر زكرياء و خاصة مع عدم علم بخيتة بذلك او اعتقادهم إنها لا تعلم من امر ولدها شيء .. أنهت كسبانة مكالمتها مع زهرة و اتجهت حيث تجلس بخيتة واجمة لتجلس بجوارها تطيب خاطرها فهي تعلم إنها حزينة لأجل عدم اتصال زكرياء منذ فترة طويلة .. ربتت على كتفها في شفقة هامسة:

- اكيد يا خالتي حاجة مهمة هي اللي منعت سي زكرياء من إنه يتصل بيكِ ..

.....

هزت بخيتة رأسها موافقة كسبانة الرأي هاتفة في حسرة :

- معلوم يا بتى .. وهو في اكتر من المصيبة اللي هو فيها تخليه ميكلمش امه!!؟...

.....

هتفت كسبانة مدعية الدهشة :

- مصيبة !!؟..مصيبة ايه كفاالله الشر .. ليه بتجولى كِده يا خالة ..!؟..

ربتت بخيتة على فخذها مطمئنة :- أنا عرفت كل حاچة يا بتى .. كله مجدر و مكتوب ..

هتفت كسبانة بدهشة حقيقية هذه المرة :- كل حاچة ..!؟.. كل حاچة ازاى ..!!؟..

سردت لها بخيتة إنها علمت بالأمر أولا عندما جاءت الشرطة لتفتيش البيت و حديث كسبانة مع عاصم و ثانيا عندما وجدت كسبانة تبكي خلسة عندما جاءها خبر الحكم على زكرياء و استطاعت إن تستشف من حديثها مع زهرة في الهاتف ما أكد لها صدق حدسها ..

بكت و بكت ..ثم صلت و دعت بقلب ام مكلومة على فلذة كبدها فرقتهما الظروف عن بعضهما قديما .. و ها هي

الظروف تفرقتهما من جديد .. اما من نهاية لهذا الفراق الاجبارى الاختياري ..؟!!..إنتهت بخيتة من سردها لتشهق كسبانة باكية في لوعة :

- بس سي زكرياء برئ .. وربنا هينچيه باذن اللّه ..

احتضنتها بخيتة في حنإن امومى :

- باذن اللّه يابتى .. باذن اللّه .. هجول ايه بس .. اللهم لا اعتراض .. كله بأمرك يا رب ..

.....

و بدأت في البكاء وهي تتمتم ببعض من الادعية ليحفظ لها اللّه ولدها .. و تقر برؤيته عيناها التي بدأت تذبل من كثرة بكاءها عليه دون إن يدرى مخلوق ..لكن يكفيها ادراك الخالق ..

****

دخل زكرياء البنسيون مجهدا بعد يوم شاق في العمل بالميناء و ما إن وضع قدمه على أولى درجات السلم المؤدية

للطابق الثالث حيث بنسيون السعادة حيث يقطن حتى استقبلت إنفه رائحة لا يخطئها .. لكنه كذب نفسه و أوزع ذلك لاشتهائه طعام امه و كل ما تصنعه امه إنه يشتهي مرأى امه نفسها حتى ولو للحظات صعد يحاول الا يمنى نفسه بما لا يستطع إن يطاله .. و دخل البنسيون ملقياً التحية على الجالسين في تلك الردهة الواسعة في المدخل قبل إن يدلف إلى الرواق الطويل حيث حجرته القابعة في اخره ..

فتح الباب لتفاجئه بدور بوثبة شقية هاتفة في مرح من خلف الباب الذي أغلقه لتوه :

-تعال بسرعة يا سي زكرياء .. اتاخرت النهاردة و أنا مستنياك من بدرى ..

كان ينظر الآن لصحون من الطعام موضوعة على الأرض مغطاه في إنتظاره.. فجذبت هي كفه لتجلسه ارضا و تجلس

جواره رافعة الغطاء عن الصحون ليهتف في فرحة

طفل يجلس امام أصناف متعددة من الحلوى :

- ايه ده يا بدور ..؟!.. ويكة (بامية خضراء).. و فراخ..جبتيهم منين دوول ..؟!..

.....

هتفت في فخر :- جبتهم ده ايه ..؟!.. عملتهم ..

و مدت كفها تنتزع قطعة من الخبز تضعها في البامية و ترفعها لفمه ليتذوقها في حبور و هو يهمهم في استمتاع جعلها تنفجر ضاحكة لتهتف متسائلة :- عجبتك .. !!؟..

ليهتف في استحسان :- مفيش أحلى من كِده ..

ثم هتف مازحاً و هو يراها ترفع لقمة أخرى لفمه :- بس عنك إنتِ بجى .. سبينى اشوف شغلى ..

قهقهت وهي تراه يلتهم الطبق إلتهاما و ما إن اشبع شوقه .. حتى رفع رأسه اليها فوجدها تتطلع اليه في محبة وابتسامة دافئة تكلل شفتيها الشهيتين.. ليسأل مستفسرا :

.....

- بس عرفتي كيف تعملى الويكة ..!!؟؟..

.....

هتفت هي بلهجة كمن قام بمغامرة شيقة يحكى كل تفاصيلها :

- سألت ست تهاني تعرف تعمل أكلات صعيدي .. قالت لى لا .. بس عرفتنى على جارة ليها هنا في العمارة جوزها صعيدي قالت لى دي اكتر اكله بيحبها الصعايدة وعرفتنى اعملها ازاى !؟.. مكدبتش خبر و نزلت عملتها لك ..

نظر اليها في عشق ممزوج بامتنان لتهمس منكسة الرأس خجلى من نظراته العاشقة :

- معلش هي يمكن مش زي بتاعت الحاجة بخيتة .. بس على قدي بقى ..

همس وهو يجذب كفها ليقبل باطنه :

.....

- ما هي عشان على كدك يا بدور طلعت اجمل ويكة دجتها في حياتى .. إنت غالية و جدرك عإلى ..

.....

جذبت كفها من كفه بخجل هاتفة وهي تناوله قطعة من اللحم

- طب كل قبل الاكل ما يبرد.

اومأ برأسه موافقا و بدأ في تناول الطعام بشهية كبيرة و كانما قد حُرم الطعام لسنوات

فهي لم تره ياكل بتلك الشهية منذ زواجهما و لكم كانت سعيدة بذلك فهي استطاعت إلى حد كبير تهدئة حنينه القاتل لأمه و لدياره فمنذ اخبره بشوقه اليها منذ عدة أيام وهي تفكر في طريقة ما تجعله يشعر إنه بجوارها .. قريب منها .. و هداها تفكيرها لهذه الطريقة..

تمدد بعد أن أنهى طعامه و أدي صلاة المغرب .. لتتمدد جواره تحاول التأقلم على هذا الفراش الضيق الذي بالكاد يكفيهما حتى إنها تندرت هاتفة ذات مرة بأن قدمي زكرياء دوما خارجه ..لكنها لم تنتبه لضيق الفراش

الفعلي فحاولت الاستدارة في أريحية لتشهق وهي في سبيلها للسقوط ليجذبها زكرياء في اللحظة الأخيرة قبل إن تسقط على ظهرها

و هو يكتم ضحكاته فهتف هي مبررة بغيظ :

- بتضحك عليا يا سي زكرياء .. طب ماهو السرير ضيق ..

.....

جذبها لأحضانه مشاكساً :- هو في احلى من السرير الضيق ..؟!.. ياغشيمة ..

إنفجرت ضاحكة على تلميحه الفاضح وهو يضمها اليه لتهتف ساخرة :

- اللي يشوف سي زكرياءاللي كان مبيرفعش عينه من الارض يجي يشوفه دلوقتي

قهقه زكرياء :- إنكري ..

.....

هتفت ضاحكة :- لامبنكرش .. ده أناحتى بسأل نفسي .. ده مبصش عليكى ولامرة يبجى خدك علي ايه .. عمياني ..؟!..

إنفجر زكرياء ضاحكاً وهو يومئ برأسه :- مين جال كِده ..!!؟.. لاه بصيت ..

.....

شهقت وابتسامة تعلو شفتيها ليستكمل هو معترفا :- بصيت لما خلاص عرفت إنك هتبجي حلالي ..

همست فى دلال :- ولمابصيت بقى شوفت ايه .!؟

همس وهو يتطلع اليها في عشق :- شفت جدامي جمر الله اكبر ..وجلت لنفسي واه ياواد يازكرياء ده إنت فايتك كتيييير جووى ..

قهقهاتهاصدحت كموسيقى تراقص عليها قلبه و ألقت برأسها على صدره ليستطرد هامساً :- جلتل نفسي الچمال ده

كله هايبجى بتاعك .. وجلبى رفرف من طلتك

بس اومالو ..

صمت فرفعت نظراتها متسائلة بفضول :- اومالو ايه ..!!؟..

.....

همس مشاكساً :- جربي وأنااجولك ..

لم تستطع الالتصاق بصدره وهي تقهقه هاتفة :- يااسرارك

يا سي زكرياء .. !!..

****

.....

دخل عاصم غرفته ليجد زهرة تعد حقيبةسفرها و اط

فالها فبعد يومين بالضبط زفاف

نبيل و ندى اختها .. اقترب منها فى وجل

هامسا بالقرب من مسامعها :

- خلاص هتسافروا و تفتونى ..

نظرت اليه زهرة هامسة :- ايه يا عاصم إنت

مش جاى معأنا و لا غيرت رأيك !!؟..

هتف مؤكدا :- لاه چاى .. بس هوصلك و

ارچع عشان أمي متجعدش لحالها ما إنت

عارفة سهام و چوزها رايحين الفرح و مش

جاعدين عشان حتى اطمن إن سهام ممكن تجعد معاها

هرد يوم الفرح احضر معاكِ و نرچعوا سوا

همست زهرة :- بس ده تعب عليك يا عاصم .

هتف : طب و أنا اعمل ايه ..!؟..هسيب أمي لحالها و لا أسيب

كم إنتم ترچعوا لحالكم .. !؟..

همست فى قلة حيلة :- عندك حق ..أنا لو

مش معايا الولاد كنت رجعت بالعربية و

مكنش فى لزوم تيجى تاخدني ..

اقترب منها ضاما ظهرها لصدره هامسا :

-كيف يعني ..؟!.. حتى ولو كنتِ لحالك كنت

هاجى اخدك برضك ..إنت الغالية يا زهرة و غلاوة العيال

چاية من غلاوة أمهم ..

استدارت لتصبح بين ذراعيه هامسة بمشاكسة:

- أنا بقول نفضى الشنط دي و بلاها سفر .. !!..

قهقه فى سعادة و هو يضمها اليه اكثر هاتفا :

- يووه.. إنت عايزة تعمليلنا موال مع الداكتور

ناچى و مرته .. ده يمكن يفتكروا أني مانعك تروحى فرح

اختك زي ما هي و أمها

محضروش فرحنا ..

هزت رأسها و هي تعلم إنه قد اصاب لحد كبير فى ظنه

خاصة فيما يخص

منيرة أم ندى فبالتأكيد لن تسلم من لسنها..اخرجها من ش

رودها ليهمس فى نبرة جزلة :

-

شفتي الفستإن الچديد اللي جبتهولك عشان تحضرى بيه الـ

فرح .. !!؟..

و فتح احدي ضلف خزانة الملابس ليطالعها فستان باللون ا

لأزرق الغامق .. ضحكت

فى بادئ الامر فماذا تتوقع أن يحضر عاصم غير ألوان غامقة

جدا كالعادة وخاصة

اذا ما كانت ستظهر بها امام الرجال .. اخرجت الفستان من

غلافه البلاستيكي الشفاف و شهقت فى إنبهار .. كان اكث

ر من رائع .. دوما ما كان ذوقه يلائم ذوقها و يلاقى

استحسانها ..

همست بسعادة :- ده حلو قووووى يا عاصم .. تسلم إيدك ..

ابتسم فى حبور :- عچبك صُح

..!؟... لو مش عچبك نغيروه ..

رفضت مؤكدة :-

بالعكس ده حلو قوى ..ده إنت وفرت عليا موضوع النزول ع

شان اجيب حاجة مناسبة

لما أوصل القاهرة وخاصة إني هنشعل مع ندى و كمان الولا

د .. تسلم لى مجيبك يا حبيبى ..

همس مشاكسا :-

كده .. شكر حاف ..ده إنتِ بجيتى بخيلة على فكرة ..؟!

..

اقتربت منه فى شقاوة لترتفع حتى تطال خده لتقبّله فشاك

سها بدوره رافعا نفسه بعيدا عن

قدرتها على الوصول اليه .. قهقهت فألتقطها بين ذراعيه يق

تص من بخلها كيفما شاء

****

إندفعت بدور باتجاه البحر ضاحكة كطفلة صغيرة يتبعها زكرياء و نظراته مسلطة عليها تارة و تجول حوله تارة أخرى تتاكد من خلو المكان من الناس ..

وقفت عندما لامست اطراف اقدامها الموج القادم نحوها لتتقهر إلى الخلف لتصطدم بزكرياء فتنتفض لحظيا ثم تهدأ و تبدأ ابتسامتها في الظهور على وجهها من جديد عندما ادركت إن من يكون خلفها هو زكرياء همست برغبة طفلة :

.....

- والنبى يا سي زكرياء نفسي إنزل البحر .. عشان خاطرى..

هتف زكرياء مزمجرا :

- تنزلى البحر كيف يعني ..؟!.. هاتنزلى بعبايتك و ترجعى تطلعى والعباية ظاهرة جسمك جدام الناس..

صمتت عندما ادركت صحة ما يدعيه و لم تعقب لكنه هتف محاولا إخراجها من صمتها:

.....

- بس ممكن تنزلى رجلك عادي يعني ..اهو تلعبى في المية .. يرضيكِ كِده!؟..

عادت ابتسامتها تقفز على شفتيها من جديد و هي تندفع باتجاه البحر تضع أقدامها في مياهه المالحة و تقفز بشقاوة كلما دفعها الموج الذي يأتي مندفعا ليعانق اقدامها ..رفعت بعض من الماء تدفعه في وجه زكرياء لينتفض جافلا للحظة ثم يبتسم لمزاحها الطفولى الذي لا يمله ..

سألته بصوت مرتفع حتى يصل لمسامعه بين هدير الأمواج :

- بتعرف تعوم يا سي زكرياء..!؟..

أكد بإيماءة من رأسه و هتف مازحاً :

- اه بعرف أعوم .. و بعرف اغرج الناس كمان.. تحبى تجربى .. !!؟..

هتفت في عشق :

.....

- اغرق اكتر من كده .. ده أنا غرقانة لشوشتى يا سي زكرياء .. و النعمة اكتر من كده يبقى افترى ..

قهقه زكرياء لتعليقها على وصف مشاعرها تجاهه .. ليتساءل في دهشة :

.....

- إنت بتچيبى الكلام دِه منين يا بت الحاج وهيب ..؟!..

إنفجرت بدور ضاحكة و هي تستعير كلمته المعهودة لمغازلتها :

- قرب و أنا اقولك ..

ارتفعت قهقهات زكرياء و هو يجذبها لتخرج من البحر ليسير بجوارها شابكا كفه بكفها ..

****

.....

اوصلها عاصم لباب بيت ابيها الدكتور ناجى و الذي هلل فر حا ما إن طالع محياهم

على الباب فتلك هي المرة الاولى التي تزورهم فيها ابنته ال

كبرى منذ تزوجت فى النجع .. كانت سعادته ظاهرة جلية وهو يستقبل زهرة بين ذراعيه و يهيم عشقا بأطفاله ا مهران و سندس

استأذن عاصم بعد الغذاء ليلحق بالطائرة العائدة..

خرجت معه تودعه حتى الباب ليهمس لها : خلى بالك على حالك .. و إنتبهي للعيال .. و أنا يوم الفرح هتلاجينى عِندَك ..

اومأت برأسها ايجابا و هي تتمنى لو يبقى معها لكن ما باليد حيلة .. همست :

-

خلى بالك إنت على نفسك و على خالتي .. و متتأخرش ع لينا ..

ابتسم مؤكداً بأيماءة من رأسه ليخرج مودعا لتهتف فى وجل :- لا إله الا الله ..

ليرد :- سيدنا محمد رسول الله ..

و يرحل مسرعا فهي المرة الاولى التي يبتعد كل منهما عن الاخر اياما .. فمنذ تزوجها و ما عاد له القدرة على فراقها و ما عادت هي تفضل الابتعاد عنه .. عادت للمجلس فى غرفة الصالون حيث كانت ندى تحمل سندس و الدكتور ناجى يـ حمل مهران فى سعادة بالغة بينما مطت منيرة شفتيها فى ازدراء هاتفة :

- الولاد الحمد لله طالعين

شبهك يا زهرة .. مش طالعين لحد فيهم

هتفت زهرة و لم يخفى عليها المعنى المبطن فى كلامها و ا متعاضة وجه ابيها لكنها

اثرت السلامة و ردت فى محاولة لتخفيف حدة كلمات منيرة الجارحة هاتفة :

آه فعلا يا طنط .. سندس شبهي قوى. لكن الصراحـ

ة مهران واخد من عاصم و عمي مهران الله يرحمه ..

هتفت منيرة من جديد بنفس الامتعاض :

بس دي اسأمي يا زهرة ..!؟.. ملقتوش اوحش من كده ..!؟.. ا

سماء قديمة قووى .. مهران وسندس .. !!..صعب خالص على

أطفال الصراحة ..

ازدرد الدكتور ناجى ريقه فى محاولة منه لكبح جماح حـ

نقه وخاصة بسبب مرض منيرة و قلبها العليل و ما قد يحدث

اذا ما اغضبها فى ظل ظروف الزفاف ..

لكن من هتف فى سعادة مجيبا كان ندى :

ليه يا ماما دي اسماء لذيذة قوووى .. كفاية إنها

هي و جوزها اختاروها و عجباهم .. طب ده أنا و نبيل مختاريـ

ن اسماء .. مش هتشوفى وشنا تاني بسببها ..

إنفجر الجميع ضاحكين و لطفت دعابات ندى من كلمات و تلميحات منيرة الغير لائقة بالمرة

****

هتفت تهاني و هي تميل على اذن بدور :

- يابت .. و النعمة أنا قلبى اتفتح لك من يوم ما شفتك داخلة عليا تايهة كده و عينك بدور على سي زكرياء وسط اللي كانوا قاعدين على الكراسي دي ..

هتفت بدور بدورها :

.....

- و الله القلوب عند بعضها يا ست تهاني .. أنا برضك ربنا عوضنى عن نعمة بيكِ..

استطردت تهاني هامسة :

- ما هو عشان كده بكرر تاني اللي قلتهولك قبل كده .. يا بت جوزك صعيدي يعني يحب العزوة و اللمة ..و إنت بتقولى ملكيش في الخلفة .. لازم تعملى حاجة ..

.....

هتفت بدور بنبرة تدل على قلة حيلتها:

- اعمل ايه يعني .. يا ست تهاني ده امر الله و مليش يد فيه ..

هتفت تهاني بإلحاح :- لا .. ليكِ .. لما تبقى قاعدة كِده و متشوفلكيش حل عند دكتور شاطر يعالجك يبقى ليكِ يد .. قاعدة تندبى حظك و بس .. و أنا قلت لك اللي فيها .. في دكتور ايه بقى مقلكيش على شطارته و في العمارة اللي جنبنا على قمة الشارع يعني مش هنروح بعيد ..

هتفت بدور :- طب هقول لسي زكرياء ..

إنتفضت تهاني :- مينفعش يا خايبة .. هتروحى تقوليله هروح لدكتور عشان إنت لو مش واخد بالك من موضوع الخلفة ده إنبهك ليه و أخلى عِندك امل فيه ..

هتفت بدور في حيرة :

.....

- أمال أعمل ايه طيب اروح من غير ما أقوله .. ده كان يدبحنى وملحقش أفكر حتى في العيال و مجايبهم ..

.....

تنهدت تهاني بتفاذ صبر :- يا بنتى و مين هيقوله .. احنا هنروح الصبح و نرجع قبل ما هو يرجع .. و لا من شاف و لا من درى ..

و نشوف الدكتور بس هيقول ايه ..

همست بدور ساهمة :

- هيقول ايه يعني ..هيقول اللي ربنا كتبه عليا .. أنا قعدت مع جوزي الأولأني خمس سنين و ربنا ما أردش و اهو داخلة مع سي زكرياء على السنتين وشوية جواز وربنا برضة ما أردش .. هعترض على حكمه .. الحمد لله على كل حال .. و فضيها سيرة يا ست تهاني ..اللي رايده ربنا يكون..

زفرت تهاني و لم تعقب على ما قالته بدور

.....

****

تم عقد قران نبيل و ندى فى احد المساجد القريبة قبل الزفاف بيوم واحد كما اصرت منيرة .. و بدأت التحضيرات للزفاف .. سبق الجميع إلى القاعة و إنتظرت هي مجئ عاصم .. ارتدت ذاك الفستان الذي أهداه إياها كان تحفة فنية و كانه صنع لأجلها خصيصا اضافت هي بعض الحلى و حجاب فضى رقيق لتصبح فاتنة .. اكملت ارتداء ملابسها بعد إن إنهكها كل من مهران و سندس فى ارتداء ملابسهما .. حمدت اللّه إنهما خلدا للنوم قليلا حتى تستطيع الاعتناء بنفسها ..

اخيراً إنجزت المهمة و ها هو عاصم يدق باب شقة ابيها .. فتحت الباب فى سعادة

ليقف هو مبهورا فى صدمة .. إندفع للداخل لتتراج

ع هي بشكل تلقائي للخلف مفسحة

له الطريق .. نظر لها من قمة رأسها حتى اخمص قدميها و ه

ي كذلك كانت مبهورة .. فعاصم الذي تراه أمامها الآن لي

س عاصم الهواري .. الذي تكسوه الهيبة بجلبابه و

عباءته و عمامته .. بل إنه رجل اخر لا يقل عنه وسامة و ل

كن وسامة عصرية متمثلة فى تلك الحلة باللون الأسود و

رابطة عنق بلون قرمزي فوق قميص ابيض ناصع يعاكس ت

ماما سمرته المحببة .. هتف هو فى عدم تصديق :

- هو دِه الفستان اللي چبتهولك ..؟!..

أكدت بكل ثقة :- ايوه يا عاصم .. هو نفس

الفستإن ..

أمسك كفها ليديرها فى دهشة ممزوجة بإعجاب

يطل من نظراته :

-

بس أنا چايبة أوسع من مجاسك شوية .. ده كنه متفصل ع

ليكى ..

ابتسمت و قد احمرت وجناتها خجلا هامسة فى دلال :

- عاصم .. أنا زدت شوية بعد الولادة يا حبيبى ..

ابتسم عابثا وهو يقترب منها :- لسه جمر ..

ابتسمت فى سعادة هاتفة :-

عاصم هنتأخر كده .. مش ياللاه بينا ..

هتف فى ضيق :-

كيف هتخرجى بالفستان دِه ..!؟..مفيش غيره طيب ..

عبست فى ضيق فهو يعلم تماما إنها لا تملك حاليا غير هذا الفستان الذي أهداه إياها .. و ليس من الجائز أو الم فترض الا تحضر زفاف اختها .. زفر فى ضيق هاتفا :

- امرى لله .. بس بجولك أيه .. مفيش اى حاچة تحطيها على الفستإن .. تداريه شوية ..؟!..

تذكرت إن ندى تملك شالا فضيا يصلح ليُستخدم مع فستانها لتندفع للغرفة باحثة عنه تتمنى إن تكون ندى قد تركته ضمن ملابسها القديمة .. وجدته بالفعل لتتنفس الصعداء و تضعه و هي تخرج لعاصم الذي تنهد فى قلة حيلة هاتفا و هو يرى ذاك الشال يزيد الفستإن و صاحبته فتنة :

-اعملى حسابك مفيش جومة من چارى .. هتفضلى جاعدة طول الفرح .. ماااشى ..؟!..

همست فى عجالة :-

حاضر يا عاصم .. ماشى .. بس ياللاه ..

ابتسم فى مشاكسة و هو يحمل مهران هامساً:

-

بعد كده مفيش فساتين هشتريها الا معاكِ .. عشان تجسيها جدامي ..

إنفجرت ضاحكة على مشاكسته و غيرته المفضوحة .. و كان عند كلمته فما جعلها

تنهض من جواره قط جمعتهما طاولة واحدة مع حسام و سهام والحاج قدرى.. فحمدت اللّه على ذلك فقد كانت افعاله رهيبة دفعت الضحكات لشفتيها ..فقد كان يقف على الطاولة كحارسها الأمين .. ما إن اقترب المصور بكاميراته حتى زجره ليبتعد .. ما إن يقترب أى من الرجال ليلقى التحيـ

ة حتى يزمجر فى غضب و خاصة ذاك الذي هتف باسمها فى سعادة :

-

زهرة ..!؟.. مش معقول ازيك ..!؟.. مد كفه ليلتقط كفها و هي غير مدركة ما

عليها فعله ليندفع عاصم واضعا كفه فى كف ذاك ا لسمج بدل من كف زوجته و التي كانت تمسك ضحكاته ا بالكاد عندما طالعتها الصدمة على وجه رؤوف .. الذي ذ ظر فى تعجب حوله ثم شعر إن هناك تهديد ما وهو ينظر لملامح عاصم التي تخبره ما قد يحدث له اذا فكر فى الاقتراب مرة اخرى ففضل الابتعاد فى سلام .. تحدث عاصم جازا على اسنإنه :- مين الأخ البارد دِه ..!؟.. ردت من بين ضحكاتها :- ده بن خالتي

هتف مزمجراً :- واد مين ..؟!.. و إنت ليكِ

واد خالة غيرى ..؟!..

شعرت بالتهديد فهمست توضح الامر:

- ده يعتبر بن خالتي .. ده بن أخت طنط منيرة ..

همس فى حنق :

طب ماشى .. خلى واد خالتك ده يجرب من هنا و يشوف هيـ

حصل له

أيه .. جال واد خالتي جال ..؟!.. ده شبه زمبلك اللعبة الخر

بان ..

إنفجرت زهرة ضاحكة تحاول مداراة ضحكاتها قدر استطا

عتها عن اعين الناس ..

و نظرت تتطلع حولها تطمئن إن رؤوف بعيدا بما يكفى عن

عاصم حتى لا تُرتكب جريمة هاهنا ..

****

إندفع غندور باتجاه المكان الذي يعمل به زكرياء ليهتف ما طالعه :

- كرم يا صعيدي .. تنبه زكرياء لمن ينادي باسمه الجديد و الذي اصبح معروف به بين عمال الميناء ..

إنتفض زكرياء قلقا فهي المرة الأولى التي يزوره فيها غندور في محل عمله ..لابد إن هناك حدث جلل أتى به لهنا و خاصة إن هناك اتفاق ضمني بينهما بعدم جواز الإشارة لمعرفة احداهما الاخر تحسبًا لأى ظروف..

وصل غندور حيث قابله زكرياء متعجباً ليهتف في قلق :

- خير يا غندور .. مش بعادة ..؟!..

التقط غندور إنفاسه اللاهثة :

.....

- معلش يا صعيدي بس تهاني كلمتنى و قالت لى اجيبك من تحت الأرض .. اصل الست حرمكم ..

.....

هتف زكرياء مذعورا على غير عادته ناطقا باسمها في لوعة :

- ما لها بدور .!؟.. إنطج ..

لم ينتظر زكرياء رد غندور بل ترك كل ما يحمل على عربته و إندفع خارج الميناء ..

قابل غندور احد زملاء زكرياء ليوصيه ببضاعته قبل إن يترك الميناء مغادراً خلف زكرياء الذي سابق الريح مندفعا لبنسيون تهاني حيث ترقد بدور التي لا يعرف حتى هذه اللحظة ما بها ..

****

.....

افتتح العروسإن ندى و نبيل البوفيه و بدأ معازيم الفرح في الالتهاء بالطعام ليهتف نبيل في عبث لعروسه :

- بقولك ايه .. ما تيجى نسيبلهم الفرح ده و نطلع اوضتنا .. و لا من شاف و لا من درى ..!؟..

.....

هتفت ندى مازحة :- يا سلاااام ..أكيد بتهزر صح ..؟!..

جذبها من كفها هامساً :- لا .. مبهزرش .. تعالي .. الباب الخلفي للقاعة اهو .. نطلع و مع السلامة على كده ..

إنفجرت ندى ضاحكة على جنون زوجها هاتفة و هي تجذب كفها من يده :

- كفاية جنان بقى يا نبيل ..إنت عايز الناس تقول علينا ايه.؟!..

.....

هتف في نبرة صريحة :- و لا حاجة ... محدش هياخد باله أصلا .. عم ملهيين في الأكل .. ياللاه بينا ..

و جذب كفها من جديد لتهتف في توسل :- طب يزفونا لاوضتنا يا نبيل .. طب بلاش للاوضة لحد الاسانسير..؟!.. طب ..

.....

هنا قاطعتهما أمها منيرة هاتفة في استهجان:- في ايه يا نبيل .. رايحين فين ..؟..

هتف نبيل و هو ينظر لندى التي كانت تكتم ضحكاتها على منظره العابس :

- أبدا يا طنط مفيش .. كنت بس عايز أكلم ندى في موضوع مهم ..

.....

كزت منيرة على أسنانها هاتفة بغيظ :- موضوع مهم ..؟.. طيب عدوا قدأمي شوفوا الناس اللي خلصت أكل دي و بيسألوا العريس و العروسة راحوا فين ..؟.. بجد .. عيب قووي اللي بتعمله ده يا نبيل ..

كظم نبيل غيظه و خاصة عندما لاحظ نظرات ندى المتوسلة فزفر في ضيق و هو يتبع منيرة وندى متعلقة بذراعه ..لتهمس هي بالقرب من أذنيه بامتنان:

- متشكرة قووي يا نبيل إنك مشدتش مع ماما ..

.....

و ابتسمت بشقاوة مستطردة :-على العموم كله بحسابه ..

هتف نبيل و هو ينظر اليها في مرح مناديا منيرة و التي لم تسمعه لحسن الحظ لتهتف ندى و هي غارقة في ضحكاتها :- بتعمل ايه يا مجنون .. بتنادي ماما ليه ..؟!..

قهقه مشاكسا :- طالما كله بحسابه .. هنادي طنط عشان الحساب يتقل .. إنفجرت ضاحكة غير قادرة على مجاراة جنونه ...

****

دخل زكرياء البنسيون و هو يلتقط انفاسه حتى وصل لغرفته مدفوعا بقوة قلقه و توتره

وما إن هم بالإندفاع لداخل الغرفة المغلقة حتى فُتح بابها و خرجت الست تهاني يتبعها شخص ما يبدو من هيئته إنه طبيب .. اضطربت نظراته و التي وقعت على عينىّ تهاني

الباكية ليهم متسائلا عما يحدث لكن تهاني قاطعته هامسة بنبرة باكية :

.....

- ادخل لها يا سي زكرياء ..

دخل مندفعا لتغلق الباب خلفه و تصطحب الطبيب المغادر ..إنتبه زكرياء على تلك المسجاة على الفراش يعلو جزعها قليلا لتستند بظهرها على وسادة صغيرة خلفها وعيونها مثبتة بنظرات مصدومة على الجدار المقابل حتى إنها لم تنتبه لدخول زكرياء المندفع .. تقدم اليها و مر من أمامها لعلها تنتبه لكن لا فائدة النظرات المسمرة لم تتغير .. اقترب و جلس بجوارها و رفع كفها بين كفيه هامساً باسمها .. تنهد في راحة عندما استجابت لنداءه و توجهت إنظارها تجاهه .. و كيف لا تستجيب و هو ينطق اسمها بمثل هذا الخوف و القلق .. ؟؟..

.....

جذبت كفها من بين كفيه و رفعت ذراعها مشيرة للباب حيث رحلت تهاني و الطبيب منذ لحظات و همست بصدمة :

- شفت الراجل اللي كان هنا قال ايه يا سي زكرياء ..؟!..

ربت زكرياء و قلقه يزداد هامساً :- ايه ..؟!.. جال ايه ..يا روح زكرياء ..؟!..

اشارت لنفسها هامسة بتردد :- أنا ..أنا .. حامل ..

وإنفجرت بشكل مفاجئ في البكاء مرددة بشهقات متقطعة .. أنا حامل يا سي زكرياء .. تصدق ..؟!.. كانت صدمته لا تقل عن صدمتها .. فقد تسمر مدهوشا بدوره ينظر اليها بعدم تصديق و اخيراً جذبها لأحضانه يعتصرها في محبة و يربت على شعرها ويقبل وجهها في سعادة كالمحموم ..سكنت رأسها في صدره للحظات وهو يلتقط إنفاسه هامساً بالحمد و الشكر لله .. مرت عدة دقائق حتى هدأت نفسه

ورفع رأسها عن صدره و احتضن وجهها بين كفيه المرتعشة في عدم تصديق :

- ايوه مصدج يا بدور .. مصدج .. هاتبجى ام .. ربنا لما راد محدش عطل مشيئته .. الحمد ليك و الشكر يا رب ..

قبل جبينها في سعادة و عاد ليدفن وجهها المحبب لروحه بين أحضانه من جديد ويأسر خصرها بذراعيه مهدهدا أياها في حنو حتى راحت في نوم عميق أتى سريعا بعد ذاك الكم من البكاء و النحيب ..

.....

ليدثرها زكرياء جيدا و يخرج ليقابل تهاني التي كانت تجلس كعادتها خلف طاولة الاستقبال و ما إن لمحته قادما حتى هتفت في سعادة :

- الف مبروك يا سي كرم يتربى في عزك إن شاء الله ..

هتف زكرياء شاردا :

.....

-اللّه يبارك فيكِ يا ست تهاني .. الداكتور جال

ايه بالظبط ..؟؟..

هتفت تهاني بدهشة باسم بدور المتفق على استخدامه امام الناس :

- هي رحاب مقلتلكش..؟..

أكد زكرياء :

.....

- لااه .. جالت .. بس أنا عايز اسمع منيكِ .. يمكن يكون جال حاجة معرفهاش ..

قالت تهاني :- و اللّه يا سي كرم قال العادي تتغذى كويس و ترتاح و تبقى تروح لدكتور عشان تتابع معاه الحمل .. بس كده ..

تنهد زكرياء واقفا ليعود ادراجه للغرفة حيث ترقد بدور في وداعة على الفراش ليجلس بجوارها يتفرس في ملامحها الندية و دموعها الجافة على خديها .. إنحنى

ليقبل هامتها في حنو وينهض متوجها للنافذة التي كانت دوما سلوته الوحيدة عندما كان حبيس تلك الغرفة عندما قدم للإسكندرية ..

راحت نظراته تغرق في عمق البحر و هو يفكر هامساً لنفسه :

.....

- چه يا زكرياء الخبر اللي كنت مستنية و نفسك فيه من يوم ما جابلتها .. و حتى بعد ما جالت لك إنها ملهاش في الخلفة كان عشمك بربنا كبير و اهو ماخيبش ظنك يا هواري .. بس چه الخبر و كد فرحتى على كد خوفى .. اللي چاى ده كان واد ولا بت ..

هاياجى باسم مين .. !؟.. شهادة ميلاده هاتنكتب باسم مين يا زكرياء ..!؟.. امه هتكون مين ..!؟.. بدور وهيب و لا رحاب محروس.. و إنت يا زكرياء ابوه .. هايهون عليك تجيده باسم غير اسمك و تنسب ولدك لراجل غيرك

حتى و لو بالاسم بس .. هاترضاها يا زكرياء ..

هتعيشه نفس عذابك الجديم .. عذابك و جهرتك اللي كانوا سبب في توهتك اللي ما عارف ليها نهاية .. واه يا زكرياء .. الحِمل تجل و أنا مش جادر اجول اه ..و استدار متطلعاً لبدور مستطرداً ..بس لازماً تستحمل عشان خاطر الغلابنة دي اللي فاتت ناسها و أهلها حتى اسمها و چات تلاجى چارك الدنيا اللي بتحلم بيها ..

ابتسم عندما سمع همهماتها الناعسة ليغلق ستارة النافذة و يتحرك في حذر حتى لا يوقظها و يدفع نفسه بجوارها داخل الفراش في حرص .. التقط كفها و وضعها تحت خده و أغمض عينيه بعد إن نهل من ملامحها المستكينة ما يكفيه ..ليسبح في دنيا الأحلام..

****

.....

ضحكت بدور عندما ربت زكرياء على بطنها المنتفخ في سعادة و أخيرا اخرج من خلف ظهره لفة صغيرة جعلت عيونها تبرق فرحا قبل حتى إن تفتحها فقد استنتجت ما تحوى و خاصة إن الحمل جعل حاسة الشم عندها في اعلى كفاءة لها .. وهتفت في سعادة :- بسبوسة..؟!..

اومأ زكرياء براسه موافقا و هو يقول :

- جلت أجيبها و امرى لله ما أنا مش عارف لسه بتحبيها و لاه مش طيجاها..؟!!..

ابتسمت في امتنان :

- لا ..الا البسبوسة هفضل احبها على طوول ..بس كنت بتكسف اطلبها منك يا سي زكرياء .. اصل الحال مش ولابد يعني ..

.....

اقترب منها ناظراً إلى عمق عينيها الصافية و همس لها في عتاب :

.....

- ليه كِده يا بدور .. ليه يبجي نفسك في حاچة و متجوليش .. ؟!..

طأطأت راسها في خجل و إحساس الذنب يكتسحها لإنها أخبرته :

- اصل يا سي زكرياء.. يعني .. كنت بخاف اتقل عليك ..

ضمها اليه هامساً :

- طب و هو أني كنت بشتغل ليه شغلنتين في اليوم ..؟!..مش عشان اكفيكى واكفى اللي چاى ..

طأطأت هامتها وهي تضم شفتيها وشعورها بالذنب يغطيها من قمة راسها حتى اخمص قدميها .. و لم تعقب مما دفعه ليرفع ذقنها ليواجهه عينيهاهامساً بلهجة مازحة :

- وبعدين ايه اللي هايحصل بجى لو البسبوسة طلعت للواد .. هايبجى ايه الحال..؟؟!..

شهقت بصدمة مما دفعه للضحك هاتفاً مطمئناً لها :

.....

- روحى كلى البسبوسة ياللاه .. و متعمليش كِده تاني .. لما يكون نفسك في حاچة تجولى طوالى .. تماااام ..

هتفت و هي تلتهم البسبوسة في شهية :- تمام يا سي زكرياء ..

****

إندفع غندور باتجاه مكان عمل زكرياء في الميناء و ما إن رأه زكرياء حتى إنتفض فالمرة الماضية كانت بسبب تعب بدور ما الذي يمكن إن يكون قد حدث دفعه للمجئ .. وصل زكرياء اليه مسرعا في قلق فطمإنه غندور هاتفاً:

- متقلقش ..

جواب من المعلم خميس زفر زكرياء في راحة و اخذ الخطاب و ربت على كتف غندور شاكرا فتركه مستئذنا ورحل لينتحى زكرياء جانبا و يفض الخطاب في لهفة

تجرى عيناه على السطور لعله يستشف منها حال الحارة و ما يحدث في القاهرة و يمكن إن يساعده في حل لغز قضيته .. لكن جاءت السطور لتزيده حملا على حمله ..

فها هو يتلقى نبأ وفاة الحاج وهيب ليتمزق قلبه حزنا و غضبا و قهرا و تفيض روحه اشفاقا على تلك التي تنتظره في غرفتهما لا تعلم من امر أهلها شيئا غير ما ينقله هو اليها .. لكن كيف يخبرها ..؟!.. كيف يقول لها إن ابيها قد رحل دون إن تودعه ..؟!.. دون إن تنعم بقربه تلك الشهور الأخيرة في حياته قبل رحيله الابدي ..؟!..

كيف يمكن إن يكون رسول الحزن لقلبها و هي في تلك الحالة ...؟؟!.. فحملها ضعيف و الطبيب أكد على الراحة و عدم الاتيان بمجهود و البعد عن كل الاخبار او الاحداث الحزينة و التي تمثل ضغطا على أعصابها ..

.....

إنجز عمله بسرعة شديدة يدفعه حزنه على الحاج وهيب لمزيد من العمل لعله يُطفئ ذاك الجمر المشتعل في أعماق قلبه ..و يهدئ و لو قليلا من ثورته على تلك الأوضاع التي فرضت على بدور و عليه فراق الاحبة قسراً

دخل حجرته في البنسيون ليجدها تتمدد على الفراش تملس على بطنها البارز قليلا في فخر

و سعادة و ما إن طالعته حتى نهضت في خفة تستقبله جاذبة أياه للطعام المعد سلفا في إنتظاره كما تعود ..اومأ موافقا و لم ينبس بحرف و لكنه فجأة جذبها بين ذراعيه رابتاً على ظهرها و مقبلاً هامتها في محبة لتهمس هي بشقاوة :

- الاكل هايبرد يا سي زكرياء ..

لم يعبء لاعتراضها و ضمها اليه اكثر كانما يشعر بذنب رهيب على كونه السبب في البعد عن ابيها وفي أحضانه فقط يمكنه التكفير عن ذاك الذنب باشعارها بالامان..

استسلمت هي لتموء كقطة بين ذراعيه .. و فجأة و كما هو الحال دائما تبدل الوضع ليصبح هو المتكوم بين ذراعيها يهرب من نفسه في أحضانها لتهمس هي تستشف ما به دون إن يتكلم :

- مالك يا سي زكرياء..!؟ في حاجة مزعلاك.!؟؟.. طب قول لبدور.. هو احنا لينا مين غير بعض..هاترمى زعلك و ضيقك فين إن مكنش في حضن بدر البدور!!؟..

قبلت رأسه ليرفع نظراته اليها متصنع الجدية:

- ابدا يا بدور .. شوية عوكسات في الميناو مشاكل في الشغل الجديد .. متجلجيش إنتِ بس .. كله هايبجى تماام ..

.....

و حول نبرة صوته للمرح رغما عنه و هو يربت على بطنها في معزة :

- ركزي إنتِ بس مع الواد عتريس ..

هتفت معترضة :- ايه .. عتريس ..!؟...

.....

هتف معترضاً بدوره :- اه .. مش عچبك و لا ايه ..؟!.. خلاص .. سبع الليل .. حلو دِه!؟..

إنفجرت ضاحكة :- سبع مين ..؟!!.. لا يا سي زكرياء أنا مش عايزة ابنى يتعقد من أولها ..أنا هسميه اسم كده حلو و يبقى زي ابوه كده راجل و سيد الرجالة ..

ابتسم زكرياء لها هاتفاً :- هتسميه ايه يا بدر البدور ..!؟؟..

.....

همست في سعادة :- حازم .. هسميه حازم يا سي زكرياء ايه رايك ..!!؟..

هتف زكرياء متصنعاً الضيق :- و اشمعنى الاسم دِه يعني ..؟!..

هتفت مسرعة تبرر :- عشان أمي الله يرحمها كان نفسها تسميني حازم لما عرفت إنها حامل فيا .. و لما جيت بت سمتني بدور..

.....

لانت اسارير زكرياء و هتف في عبث وهو يقترب منها مشاغبا :

- احلى بدور في الدنيا كلها .. جال حازم جال .. الچمال دِه كله و يبجى حازم ..!!؟..

إنفجرت بدور ضاحكة ليضمها اليه مشاكساً أياها هامساً :

.....

- بس ممكن يبجى ام حازم ..

لتطرب هي للقب الجديد فتطوقه بذراعيها

****

جذبته من ذراعه تمدده على الفراش مشفقة عليه من ثقل العمل في مكانين منفصلين من اجل توفير ما يلزمها و يلزم صغيرهما القادم مالت عليه لتمسد أكتافه المرهقة و التي تئن ألماً لتلك الأحمال التي يظل ينقلها طوال النهار و كذا ما بعد العصر في عمله الاخر.. هتف زكرياء و هو

يوليها ظهره الذي أخذت تضغط على فقراته في احتراف يزيل الوجع في لحظات :

- إنتِ مش المتابعة مع دكتورة المستشفى اللي جنبينا المفروض النهاردة يا بدور!؟..

.....

هتفت :- لا يا سي زكرياء.. كمان يومين .. هي قالت لى كده في اخر زيارة .. أنا دخلت التاسع و لازم اروح لها كل أسبوع ..

قال مؤكدا :- طب ابجى فكرينى عشان اروح معاكِ يومها و اظبط الشغل ..

هتفت معترضة:- ما أنا هروح مع ست تهاني و كفاياك إنت تعب الشغل ..

هتف معترضاً بدوره :

- لاه .. هروح معاكِ .. المرتين اللي فاتوا راحت معاكِ الست تهاني كتر خيرها عشان كنت جديد في الشغلانة و

محبتش اخد إجازات من أولها ده أنا ما صدجت ما لجيت الشغل .. لكن دلوجت ممكن عاااادي .. صاحب المحل اطمن لى الحمد لله و بيسيب المحل كله تحت يدي ..

هتفت بنبرة مرهقة :- و مين يعرفك و ميرتحش معاك يا سي زكرياء و يسلم رقبته كلها ليك مش بس حتة محل ...؟!..

استدار زكرياء ليواجهها بعد كلماتها التي تقطر محبة ليجذبها بلطف لأحضانه .. لكنه يستشعر توجعها الذي تحاول إخفائه عنه .. رفع رأسها لينظر لملامحها المتألمة في صمت و أخيرا هتف في لوعة :- بدور .. إنت شكلك تعبإن جووى ..!!..

إنتفض يرتدي جلبابه على عجلة لتهتف هي كازة على أسنإنها ألماً محاولة طمأنته :

- متخفش يا سي زكرياء .. دي مغصة كده و هتروح .. لسه بدرى ..

هتف معترضاً و هو يتجه للباب مناديا تهاني:

- لااه ملساش .. إنتِ في شهرك .. و شكلك ميطمنش .. نروحوا للدكتورة و هي تطمنا ..

إندفعت أهة ألم غصب عنها رغم محاولتها كتمإنها فإندفع مذعوراً باتجاهها .. لتهتف هي و الألم اصبح غير قابل للاحتمال :- ألحقني يا سي زكرياء .. ألحقني ..

****

.....

حكاوي الكتب

-٩-

إنتفض زكرياء على صوت باب غرفة العمليات يُفتح لتطل منه بدور على سرير مدولب مدفوعة خارج الغرفة و بيد احدى الممرضات لفافة صغيرة تحمل فيها طفلهما

حازم .. دفعته الممرضة بين ذراعي زكرياء منتظرة ما يجود به عليها فرحة بقدوم المولود لكنه كان في عالم اخر.. فعيونه تلحق بدور و إلى أين تتجه .. حتى إنه لم ينتبه لكلام الممرضة و لا حتى ألقى نظرة واحدة على ذاك الضيف الجديد الذي أتى للعالم بعد سنوات من الإنتظار و الامل ..

.....

سار يتبع بدور و أوقف السرير ينظر اليها في اضطراب رغبة في التأكد إنها بخير .. نادي باسمها .. لتفتح جفونها المذابلة في إرهاق تبتسم في إعياء هامسة :

- أنا كويسة يا سي زكرياء .. أنا تمام ..

زفر في راحة و إندفع بها الممرضين لداخل القسم النسائي و الذي يمنع على الرجال التواجد بداخله .. فحملت تهاني حازم من بين يدي زكرياء و توجهت به لداخل القسم مؤكدة لزكرياء إنها ستعتنى بهما :

- أنا هبيت معاها جوه و هخلى بالي من حازم متقلقش ..

.....

شكرها زكرياء ممتناً هاتفاً :- تشكرى يا ست تهاني .. و أنا هجعد هنا مش هتحرك .. لو عوزتوا حاچة أني موچود ..

أومأت برأسها و دخلت القسم بجوار بدور و الذي كان عبارة عن عنبر ملئ بالآسرة البيضاء التي تكتظ بالمريضات و ذويهن من النساء أيضا ..

.....

****

هتفت زهرة متصنعة الحنق و هي تخلص ولدها مهران البالغ من العمر عامين من بين كفى باسل الذي يبلغ ضعف عمره تقريبا :

- تعالي بقى يا سهام .. شوفي صرفة في ابنك ده ..

قهقهت سهام ببطنها المنتفخ أمامها هاتفة :

.....

- ماله ولدي .. !!؟..راچل و سيد الرچالة ..

هتفت زهرة من جديد و هي تحمل مهران الباكى بين ذراعيها :

- يعني مش شيفاه و شايفة عمايله .. ميحلالوش الضرب الا في مهران .. لكن سندس .. شغال لها حارس خصوصي.. ده حتى محرم مهران يقرب منها ..

قهقهت سهام من جديد :

.....

- طب و اعمله ايه طييب .. ولدي بتاع حريم ..بس يمكن ربنا يهديه بعد ما ياچيله اخ و لا أخت ..اهو يدور الضرب فيه و يحل عن مهران ...

قهقهت زهرة :

- يا مسهل .. أو يمكن العكس .. اللي جاى يخلص حق مهران من ابنك ..

.....

اومأت سهام برأسها إيجابا هاتفة :- على جولك .. يوضع سره في اضعف خلجه..

هتفت زهرة و هي تعاود النظر لسندس و باسل و اللذإن يلعبان بإنسجام عجيب .. و باسل يتبعها في كل خطواتها حتى إنها إندفعت خارج الحجرة التي كانوا يتجمعون بها في الأعلى امام التلفاز ليخرج وراءها تابعا لها كظلها..

على عكس المعتاد كانت تلك الشرفة البعيدة في اخر الرواق مفتوحة لتدخل بعض من نسمات الهواء في هذا الجو

شديد الحرارة كانت دوما ما تجذب هذه الشرفة فضول مهران و سندس لذا كانت زهرة حريصة على اغلاقها دوما ..

.....

ما إن رأت سندس شرفتها التي يدفعها الفضول لدخولها مفتوحة حتى إندفعت اليها في سعادة .. كانت شرفة واسعة لا يوجد فيها اى نوع من المقاعد أو الطاولات نظرا لعدم استخدامها من الأساس و لكن كان السبب الأساسي لاغلاق زهرة لها هو ذاك الفراغ الواسع الموجود بين سُوَر الشرفة و قاعدته كانت تلك الفجوة يمكن ان تمرر طفلا متوسط الحجم و كان المنظر مغريا من الأعلى لتندفع سندس في شغف لاستطلاعه من خلال تلك الفجوة .. مدت رأسها الصغير و بدأت في دفع جسدها من خلالها حتى اضحى جسدها كله تقريبا في الخارج وما إن كانت على وشك السقوط حتى إندفع تجاهها باسل يمسك بطرف حذائها

ويتشبث بقدمها الصغيرة بين كفيه الصغيرين محاولا جذبها للداخل مرة أخرى ..

صرخ باسل باسمها عدة مرات .. و لكن للأسف لم تصل صرخاته لزهرة أو سهام اللتإن إندمجتا في الحديث دون وعى بغياب سندس و باسل المريب بجاانب صوت التلفاز المرتفع على اغان للأطفال حجبت عنهما نداءات باسل المفزوعة .. لكن من ادرك تلك الصرخات كان عاصم الذي كان يدخل من باب السرايّ متوجها لداخلها فألتقطت أذنه صراخ ابن اخته باسم ابنته بهذا الشكل المذعور ليلتفت حوله مستكشفا من أين تأتى تلك النداءات الملتاعة حتى تنبه اخيراً لمصدرها بالأعلى .. شهق في ذعر عندما رأى جسد ابنته متدل بهذا الشكل ليصرخ هاتفا مستدعيا سعيد الذي حضر شاهقا بدوره عندما لمح سندس على هذا الوضع.. صرخ فيه عاصم أمرا :

.....

- تعال اوجف مكأني عشان لو حصل حاچة لا قدر الله تستلجاها .. و أنا هطلع ألحجها من فوج ..

إندفع عاصم لداخل السرايّ في جنون ملقيا عصاه و عباءته خلفه و مندفعا للطابق الثاني حيث الشرفة والتي وصلها اخيراً وهو يندفع بطول الردهة مارا بالحجرة التي تجمع سهام و زهرة ..و اللتان إنتفضتا ما لمحا عاصم يندفع بهذا الشكل لوجهة غير معلومة بالنسبة لهما و خاصة مع ادراكهما المتأخر لغياب سندس و مهران ..لحقتا به .. ليصل هو و يرى باسل يبكى ممسكا بقدم سندس و معظم جسدها متدلى من ذاك الفراغ و قد بدأت تشعر بالتهديد فأخذت بالبكاء هي الأخرى ..

كادت زهرة تفقد وعيها ذعرا على طفلتها و كذلك سهام التي استندت على الحائط تستمد منه القوة حتى لا تسقط

جراء فزعها بحملها الذي كانت تنوء بثقله قدميها خاصة في تلك اللحظة ..

استطاع عاصم جذب جسد سندس ببطء و اخراجها من ذاك الفراغ في سُوَر الشرفة

و اخيراً ضمها لصدره و هو يحاول ان يهدئ من روعها و خاصة مع ارتفاع وتيرة بكائها

سقطت زهرة على ركبتيها في إعياء بعد إن تأكدت إن ابنتها بخير .. و التي تركت أحضان ابيها مندفعة لتلقى بنفسها بين ذراعى أمها تكمل بكاءها .. استلقتها زهرة بين ذراعيها تضمها بقوة لا تصدق إن ابنتها نجت من موت محقق ..

نهض باسل و هو ينتحب مندفع لأمه متعلقا بعباءتها مداريا وجهه الباكى بين طياتها ليجذبه عاصم اليه رابتا

على ظهره مقبلا إياه حتى كف عن البكاء و بدأ يستعيد هدوءه ..

نهض عاصم في هدوء مخيف ينظر لزهرة و سهام بغضب مكبوت لو إنفجر لأحرق الأخضر و اليابس و اخيراً تركهما و إندفع لحجرته و أغلق بابها خلفه في شكل عاصف .. تاركا كلتاهما تزدرد ريقها في صعوبة من جراء نظراته .. و تنتفض من جراء إغلاق الباب بهذا الشكل ..

****

.....

هتفت تهاني و هي تشير لزكرياء ليأتي في سرعة .. اقترب زكرياء بسرعة هاتفاً في قلق :- خير يا ست تهاني ..؟؟..

.....

أكدت في همس :- تعال .. بدور عيزاك ضرورى ..

هم بأن يسألها كيف يتسنى له الدخول .. فقاطعته هامسة :

.....

- متقلقش .. أنا ظبطت الممرضة المسؤولة عن العنبر بقرشين ..

خش بسرعة و إنجز .. هي في اخر سرير في الاوضة على الشمال .. و أنا هقف هنا اتابع اللي جاي لحسن الدكتور يجي على فجأة ..

.....

أكد زكرياء و إندفع مطأطأ الرأس .. يغض بصره حتى وصل لفراش بدور التي إندفع اليه في لهفة يطوق كفها الممدودة اليه بين كفيه ..

هتف في لهفة مجيبا نداءها:- نعم يا بدور .. إنت كويسة؟؟..

أومأت مؤكدة في وهن :- الحمد لله يا سي زكرياء ..

و نظرت لولدها المسجى بجوارها على الفراش يغط في نوم عميق .. لتهمس بفرحة تحاول إن تدارى بها ذاك التعب الذي يعتريها:

.....

- شفت حازم يا سي زكرياء .. نسخة منك ..

ابتسم زكرياء و القلق يتأكله على محياها الشاحب ليهمس ناهضاً:

- أنا هبعت لك الداكتور يشوفك..

.....

تمسكت اكثر بكفه هاتفة :

- لاا .. خليك معايا يا سي زكرياء الشوية دوول .. متبعدش..

إنحنى زكرياء ملثما جبينها و هو يحاول السيطرة على بريق عينيه الذي يظهر تأثره بمرأها الشاحب ..

لتستطرد هي في عفوية :- مش أنا شفت ابويا يا سي زكرياء ..؟؟!..

إنتفض زكرياء في ذعر حقيقى عندما ذكرت بدور ابيها الحاج وهيب رحمة اللّه عليه ولجمت الصدمة لسإنه لتكمل في تعب متنهدة تلتقط إنفاسها :

.....

- شفته و أنا بولد .. رحت من التعب شوية كِده محستش بروحي .. لقيته جاي ونفسه يشوفني .. و خدني في حضنه.. نفسي اشوفه قووى يا سي زكرياء .. وحشني بجد ..

هتف زكرياء في عجالة :- و لا يتوحشك اليوم يا بدور ..

هتفت فى عدم فهم لتلك الكلمة التي يقولها الصعايدة عادة عند ذكر وحشة الحى للمتوفى درأ للفأل السئ :- يعني ايه ..؟!..

هتف :- يعني إنت لازماً الدكتور يشوفك دلوجت .. و حالا عشان يطمنى عليكِ..

هتفت وهي تحسه على الاقتراب منها جالسا على حافة فراشها :- قرب يا سي زكرياء ..و ابتسمت محاولة مشاكسته :

- عايزة اقولك سر ..

جلس على طرف الفراش مقربا راسه من وجهها لتهمس في عشق :

- أنا بحبكِ قووى يا سي زكرياء .. خدني في حضنك و متفتنيش ..

لم يستطع زكرياء إن يرفض طلبها وهي على هذه الحالة ليرفع الجزء الأعلى من جسدها عن الفراش يضمها لصدره و هو يتنهد في اضطراب و يلف ذراعيه حولها وكانه يحاول إن يتشرب وهنها و وجعها بين أضلعه ليبعده عنها ..

همست بالقرب من مسامعه :

- هاتنساني يا سي زكرياء .. افتكرني .. افتكر بدور ..اللي محبتش حد في الدنيا قدك ..

.....

ارتجف زكرياء لكلماتها يبعدها قليلا عن صدره ناظراً لعينيها ليرى نظرات ذابلة لم يعهدها على محياها .. وضع كفه على الفراش يحاول إرجاعها لوضعها الأول والإسراع

بمناداة الطبيب لتنزلق كفه على لزوجة ما على الشرشيف ليرفع كفه فاغرا فاه لمرأى الدماء تغرقه ليتنبه لتلك البقعة الضخمة حول بدور ..

و قد حجبها الغطاء عن ناظريه ..إنها تنزف و لا احد يدرى .. تركها مندفعا خارج العنبر كالمجنون ينادي على الأطباء ليأتى احدهم لإنقاذها ..اضطرب المشفى لصرخاته .. و بالفعل جاء الطبيب ليؤكد ضرورة نقل بدور لغرفة العمليات من جديد لوقف ذاك النزيف الدامي .. خرجت على نفس السرير الذي دخلت عليه للعنبر منذ ساعات قليلة .. و هي في طريقها لغرفة العمليات هتفت بأقصى صوت استطاعت إخراجه تجاه زكرياء الذي كان يجرى بجوار فراشها المدولب :

- خلي بالك على حازم يا سي زكرياء ..

.....

و إنغلق الباب خلفها ليُترك وحيدا يموت الف مرة خوفا و هلعا عليها .. ليمر الوقت كحد سكين يقتطع من صبره و جلده .. و اخيراً خرج الطبيب من غرفة العمليات منكس الرأس هاتفاً في حزن :

- البقاء لله .. حاولنا نعمل اللي علينا بس دي إرادة ربنا .. شدوا حيلكم..

إنفجرت تهاني شاهقة في بكاء مرير و هي تحتضن حازم بين ذراعيها و بكى غندور بدموع صامتة .. اما زكرياء ..فلم يبكي .. كيف يبكي..؟!.. و يبكي من ..؟!.. يبكيها ام يبكي حاله ..؟!.. فهو قد مات معها .. فاضت روحه مع روحها .. الآن هو يقف بلا روح .. تمثال شمعى لا حياة فيه .. تحرك بآلية باتجاه غرفة العمليات ينظر للجسد المسجى من خلف زجاج الحجرة ثم يدفع الباب ليدخل لا يعرف كيف طاوعته قدماه حتى وصل إلى

الفراش و رفع الشرشيف الأبيض الذي يغطى الوجه الطاهر الذي عشقه دوما .. ربت على خدها و هو يناديها .. لعلها تسمع .. لعلها تستجيب ..

فهي ما تجاهلت نداءً له قط .. و دوما كانت ملبية قبل حتى إن يكمل همسه باسمها ..

لم لا تطيع الإن ..؟!.. لما لا تلبى كما عودته دوما ..؟!..

.....

رفعها اليه يضمها و يعتصرها بين ذراعيه يتمنى لو يعطيها من روحه و يقتسم معها دقات قلبه .. دخل اليه غندور يحاول أن يهدئ من روعه هاتفاً في تجلد :

- وحد الله يا سي كرم .. البقاء لله .. كلنا لها ..

و ربت على كتف زكرياء .. لكنه لم يستجيب..

هتف غندور باكيا :- اذكر الله ..

كررها ثانية صارخاً :- اذكر الله يا سي زكرياء .. اذكر الله ..

.....

www.hakawelkotob.com

تنبه زكرياء فأعاد جسد بدور لموضعه الأول ممددا على الفراش يغطى وجهها ببطئ و هو يهتف بلسإن متلجلج :

- لا إله الا اللّه .. إنا للّه و أنا اليه راجعون ..إنا للّه و إنا اليه راجعون ..إنا للّه و إنا اليه راجعون...

.....

جذبه غندور بعيدا عن الجسد المسجى بضع خطوات لكن زكرياء عاد اليها من جديد رافعا غطاء وجهها ليقبل جبينها القبلة الأخيرة ..و أعاد الغطاء على وجهها من جديد ليتبع غندور لكتابة اعلان الوفاة .. و تصريح الدفن..

و ما إن سأل الطبيب عن اسم المتوفية حتى قاطع زكرياء غندور الذي هم بذكر اسمها المستعار الذي كانت معروفة به منذ أتت للإسكندرية متخفية و هتف بحزم :

- اسمها .. بدور وهيب محمد ..

ليفغر غندور فيه و ينظر إلى زكرياء في صدمة ...

.....

****

ثلاث ليال لم يخاطبها بحرف.. لم ينظر اليها حتى .. هذا كثير .. هي تعلم إنها مخطئة و أنها اهملت في رعاية سندس .. لكن هذا عقاب اكثر من موجع ..و لم يسبق لها إن جربت مرارته .. فهما أبدا لم يفترقا عن بعضهما بهذا الشكل على الرغم إنهما يعيشا في نفس المكان و يبيتا ليلتهما في نفس الغرفة لكنه لا ينطق بحرف و لا يوجه لها حديثا و لا حتى يرد على اي من استفساراتها التي تتحجج بمعرفة إجابتها فقط لتتجاذب معه أطراف الحديث ليعود لطبيعته من جديد ..

لم يعد لديها القدرة لاحتمال هجره اكثر من هذا ..و لا قبل لها لتحمل مثل هذا العذاب ..نهضت عندما شعرت به ينهض من جوارها متوجها للحمام .. إندفعت لمشغل الاغاني

www.hakawelkotob.com

و ما إن شعرت بقرب خروجه حتى ضغطت على ذر التشغيل ليصدح صوت شادية متأسفا:-

معلش النوبة دي عشان خاطري

معلشى .. و سامحني

النوبة دي ..عشان خاطري ..

سامحني ...

لا ينكر إنه تفاجأ بصوت الأغنية الصادحة من جهاز التسجيل عندما خرج متجهما من الحمام و على الرغم من إنه بدأ يستشعر اللين تجاهها داخليا الا إنه لم يظهر ذلك على قسمات وجهه التي ظلت على نفس حالتها من التجهم ..

.....

إندفع يلتقط جلبابه من المشجب لتسرع هي بإحضاره و مساعدته في ارتدائه وهي تنظر اليه في شوق كاد يدفعه ليأخذها بين ذراعيه و خاصة و الاغنية تشدو في عتاب :-

.....

من امتى بخاصمك من امتى

ده الْيَوْمَ في خصامك بسنين ..

ارتدى ملابسه و جلس يرتدي حذاءه و اخيراً توجه للمرآة يضع عمامته و عباءته و هو يراقبها محاولا وأد ابتسامة تحاول القفز على شفتيه و هو يراها تدور حوله في الغرفة محاولة استرضاءه قدر استطاعتها ..

.....

اقتربت منه لتضم ظهره اليها ليتصلب في محاولة للسيطرة على اختلاجة قلبه لقربها القاهر .. همست في شوق باسمه :- عاصم ..

لتستطرد في نبرة معاتبة :- مش كفاية كده .؟!

استدار ليواجهها واضعا كفيه على عضديها هامسا بعتب مماثل :

.....

- إنتِ عارفة يا زهرة لولا ستر ربنا ووجود الواد باسل ماسك في رجل بتك كان ممكن ايه اللي يُحصل ..؟!..كان ..

إنتفضت ..ووضعت كفها على فمه تمنعه من الاسترسال .. شعر هو بارتجافة جسدها تحت كفيه و اخيراً .. إندفعت الدموع من عينيها هاتفة في ذعر :

.....

- متفكرنيش يا عاصم .. أنا من ساعة اللي حصل و أنا مش بنام كل ما اتخيل ايه اللي كان ممكن يحصل ساعتها ..

و شهقت في لوعة فطوقها بذراعيه مشفقا عليها لائما نفسه لقسوته عليها الأيام الماضية و خاصة عندما ادرك قدر تعذيب الذات و لوم النفس الذي عاشته ... قبّل جبينها في محبة هامسا :

.....

- الحمد لله .. حُصل خير ..و العيال كبروا و بجت حركتهم كَتيرة و مش هاتجدري عليهم لوحدك .. البت ابتهال أخت سعيد مش كانت بتاجي أوجات تساعدك .. أنا هخليها تاجي كل يوم ..

رفعت رأسها تطالع عينيه التي اشتاقت لنظراتهما هامسة :

.....

- يعني خلاص مش زعلان مني ..؟!..

همس لها مشاكسا و متغنيا بكلمات الاغنية :

- من امتى بخاصمك من امتى ..؟!.. ده الْيَوْمَ في خصامك بسنين ..

ابتسمت في سعادة هاتفة :- لا ده إنت كنت مركز بقى ..؟!..

قهقه هاتفا :- فكريني أزعل كَتير طالما في كل مرة هتصلحيني كِده ..

إنفجرت ضاحكة و هي تخبئ وجهها في أحضانه منتشية ...

.....

****

لم يستطع احد أن يثنيه عن عزمه في اصطحاب جسد بدور إلى مثواها الأخير و دفنها بجوار والدها الحاج وهيب .. فلم تفلح توسلات تهاني و لا تحذيرات غندور من عواقب تسرعه و دفعه لتعديل رأيه و ظهر تمسكه بكل ما إنتواه مدي صلابة رأسه الصعيدي..حتى إنه كتب شهادة وفاتها باسمها الحقيقى لا بذاك الاسم المستعار الذي كانت معروفة به في الإسكندرية ..

و أخيرا إنصاع غندور لمشيئته فجهز سيارة لنقل زكرياء و طفله و الجثمان للقاهرة حتى تُدفن بجوار ابيها .. فيما اعتبره زكرياء وصيتها الأخيرة غير عابئ بالمخاطر التي تحيق به جراء قراره الصارم .. وصلت السيارة حيث المدافن و كان في استقبالها بعض من رجال و نساء الحارة منهم نعمة بعباءتها السوداء و دموعها الذابلة من البكاء كمدا على

الاب و ابنته الشابة التي لحقت به و التي كانت تعتبرها اخت لها ..

و المعلم خميس اللول الذي ما إن رأى السيارة تقترب حتى إندفع حيث توقفت يفتح الباب يتلقف الطفل من بين يدي زكرياء دافعا به لنعمة التي تلقفته كقطعة غالية لا تقدر بثمن تدسه بين ذراعيها و تضمه لصدرها في لوعة و أخيرا جذب المعلم خميس زكرياء من مقعده هاتفاً به ينبهه و يخرجه من صدمته التي لم يستفق منها بعد:

- وحد الله يا زكرياء..

اومأ زكرياء براسه في تأكيد و هو يهمس بأن لا اله الا الله .. و يخرج من السيارة محاولا التماسك قدر استطاعته وهو يتوجه لمكان الصندوق الخشبي الذي يحمل جثمإنها الطاهر

.....

توجه عدد من الرجال من بينهم عم طايع بائع البطيخ و صبي المعلم خميس و غيرهم لحمل الجثمإن و ما إن تقدموا عدة خطوات من بوابة المدفن حتى ظهرت سرينة سيارة الشرطة تنعق في رتابة ..

خرج الضابط مسرعا من السيارة الميرى التي توقفت بالقرب من مكان وقفة الرجال حاملى النعش و الذي كان يتقدمهم زكرياء واقفا في لامبالاة بوجه جليدي لا يحمل اى رد فعل يذكر و كان الامر لا يعنيه ..

.....

إندفع المعلم خميس من موضعه أسفل النعش متوجها ناحية الضابط و همس بالقرب منه :- يا باشا الموت ليه حرمته .. و الراجل بيدفن مراته .. يعني الرحمة حلوة ..

هتف الضابط :- اللّه يرحمها ..بس أنا بنفذ الحكم الصادر ..

.....

هتف المعلم خميس :- و احنا معترضناش يا باشا ..

ده شغلك .. بس الراجل يدفن مراته و ياخد عزاها تحت عنيكم و يبقى تحت امركم بعد كده ..

تنهد الضابط بعدم اقتناع لكن مع الجو العام الذي عمه الأنين الصادر من جهة النساء و الصمت المطبق من جهة الرجال وافق الضابط بإيماءة من راسه جعلت خميس يهتف له شاكرا و يعود لموضعه الأول حاملا النعش و الضابط يشير لرجاله يمنة و يسارا ليطوقوا المكان خشية هروب زكرياء مرة أخرى ..

تمت صلاة الجنازة على روحها و فُتح النعش الذي يحمل جثمانها .. صرخ زكرياء في الرجال الذين تطوعوا لحملها لمثواها الأخير اشفاقا عليه .. تراجع الجميع لصراخه فما كان له ان يدع رجلا يمس جسدها الطاهر او يحملها حتى ولو جثة بلا روح ..

رفع جثمانها و نزل به حيث مثواها الأخير في ثبات لا يصدق ..

حتى إن بعض الرجال بكوا لصلابته التي كانت مجرد صلابة خارجية .. فمن منهم لم يفقد عزيزا كانت صدمته الأولى لفقده جعلته في مثل حالة زكرياء من الذهول و التيه..

حتى يستفيق على إنهار من الدموع بعد بعض الوقت عندما يبدأ استشعار مرارة الفقد وألمه ، هبط زكرياء تلك السلالم التي توصله لغرف الدفن ليدخل احداها المخصصة للنساء و ينحنى واضعا أياها و ينهض ليغادر لكن قدماه لا تطاوعه و مرأى جسدها يخبره إنها غادرت بغير رجعة .. غادرت و لن ينعم بقربها و حنإنها مرة أخرى ..

وأخيرا طفقت الدموع من عينيه بشهقات لا إرادية تجرح صدره وهي تصعد بلهيب حارق و لم ينتبه الا و صوت ينادي

باسمه دافعا أياه لينهض في تثاقل صاعداً تاركا روحه وقد غادرته للأبد .. هامسا في لوعة :- مع السلامة يا روح زكرياء ..

****

وقف زكرياء في مقدمة ذاك الصِوان الذي شغل عرض الحارة كله امام بيت الحاج وهيب رحمه اللّه يتلقى العزاء في زوجته الراحلة بيد تمتد بآلية و عين تائهة النظرة وقلب فارغ و روح ما عادت تسكنه .. فقد تركها هناك حيث وارى جسدها الطاهر ..

مرت ساعات وفى فيها ضابط تنفيذ الأحكام فيها بوعده و ها هو يتقلب في توتر على كرسيه و ينظر إلى ساعته في ضيق ..

و أخيرا و بعد إن فاض به الكيل نهض ليحيط بزكرياء هو ورجاله ليعلو نحيب النسوة من الشرفات و

النوافذ و هن يتابعن الحدث الجلل و تندفع نعمة هاتفة في زكرياء قبل إن يغيب عن ناظريها :- سي زكرياء .. ؟؟!!..

إلتفت لها و قد تنبه لوجود ولده بين ذراعيها تقدم في بطء باتجاهه و أخذه بين ذراعيه فربما تكون المرة الأخيرة ..يتلمس فيه رائحة امه الغالية و يستودعه اللّه و هو يضعه بين ذراعي نعمة من جديد هامساً :

- اسمه حازم .. الغالية اختارتهوله .. خلي بالك منه يا ست نعمة و عزيه زي ما كنتِ بتعزي امه و چده.. هو أمإنة في رجبتكِ لحد لما ربنا يأذن لى بالفرچ من عِنده.

هتفت بصوت متحشرج اجهده البكاء و النحيب :

.....

- في عينى يا سي زكرياء .. ده من ريحة الغاليين .. متحملش هم و ربك هيهونها.

.....

جذبه العساكر ليدفعوا به للصندوق الخلفى

لسيارة الشرطة ،و المعلم خميس خلفه هاتفاً - هاجيلك

الصبح و معايا اكبر محأمي ..ربنا معاك ..

اومأ زكرياء و لم ينطق بحرف .. فماذا عليه إن يقول ..!!؟..

و لمن ..!؟.. فهو فوض أمره للّه .. و من كانت يبثها نجواه و

شكواه و تهون عليه ظلم العالم و سواده قد رحلت مخلفة

وراءها جسد بلا روح يدعى زكرياء الهواري ..

****

صرخت بخيتة في ذعر منتفضة من نومها :

- ولدي .. زكرياء ولدي ..اطلجوه .. هملوه لحاله..

.....

إنتفضت كسبانة بدورها على تلك الصرخات التي وصل

صداها لغرفتها هي وحمزة الملاصقة لغرفة بخيتة ..

لتنهض مهرولة اليها هاتفة في لوعة :

- خبر ايه يا خالتي ..!!؟.. خير إن شاء اللّه ..!؟..

.....

مدت كسبانة كفها بكوب الماء من الطاولة القريبة باتجاه بخيتة لتشرب منه لعلها تهدأ من ذاك الكابوس الذي يلازمها من ليلتين تقريبا ..تنهدت بخيتة بعد عدة رشفات و هي تعتذر لكسبانة :- جلجتك يا بتي زي كل ليلة ..

همست كسبانة :

- و لا جلج و لا حاچة يا خالتي .. أنا كنت فايجة مع حمزة .. مغلبنى و مرضيش ينام ..

.....

أطل حمزة من خلف الباب الموارب قليلا برأسه مما دفع بخيتة للابتسام و هي تشير اليه بالاقتراب ليتقدم اليها مسرعا لتتلقفه كسبانة بين ذراعيها و تضعه في أحضان بخيتة ..لعلها تلتهي به عن حلمها المتكرر عن زكرياء .. لكن كسبانة نفسها يقتلها الفضول لتعلم ماهية ذاك الحلم ..

.....

فهتفت :- ألا يا خالتي .. فيه ايه المنام اللي عتشوفيه بجالك ليلتين و يجومك من نومتك كِده ..؟!..

تنهدت بخيتة في حزن :- زكرياء يا بتي .. زكرياء في ضيجة كبيرة .. إني حاسة ..

تنهدت كسبانة :

- سي زكرياء بجاله اكتر من سنتين متصلش و لا سمعنا صوته يا خالتي.. دِه معناته إنه بخير .. مش عاصم بيه جالنا كِده ..!!؟.. حتى راح زار اهل بيته و جال لمرته تاجى تجعد معأنا لحد ما ربنا يفرچها عليه .. و اهي من ساعتها لا سألت و لا جالت إنتوا فيين ..؟!..

تنهدت بخيتة :- كل واحد و عذره معاه يا بتى .. محدش عارف هي ايه حالها ..ربنا يفرچها على الكل ..

زفرت كسبانة بضيق و هتفت :- ياارب .. يسهلها على عبيده ..

ثم نهضت حاملة حمزة من بين ذراعي بخيتة و قد راح في نوم عميق هاتفة محاولة إخراجها من حزنها :

- إنتِ بتعمليله إيه الواد دِه عشان ينام .. ده أنا بجإلى ساعتين بنيم فيه و مفيشى فايدة ياجى دجتين بين دراعاتك يا خالتي ينام .. و الله منتش هينة يا بخيتة ..

ابتسمت بخيتة في شجن .. لتربت كسبانة على كتفها في مودة و تنحنى تقبل هامتها هامسة :-نامي يا خالتي .. و باذن الله هنسمع اخبار زينة عن سي زكرياء ..

تمددت بخيتة على فراشها و جذبت على نفسها الغطاء لترحل كسبانة بعد إن أطفأت نور الحجرة تاركة بخيتة تتذكر كيف رأت زكرياء مقيدا بسلاسل من حديد من أطرافه يجتذبها أشخاص مجهولين لا تعرفهم و هو يحاول المقاومة و لم شتات نفسه لكن لا فائدة ترجى فتنهض هاتفة باسمه مذعورة ..

****

وصلت عربة الترحيلات امام السجن لينزل منها المرحلون و منهم زكرياء الذي نظر لبوابة السجن الخشبية الضخمة و التي تنفرج للداخل عبر باب خشبى مستطيل الشكل بالكاد يُمكن شخص بالغ من المرور عبره والتي تعلوها عبارة .. السجن تهذيب وإصلاح .. هل هو فعلا يحتاج لذاك التهذيب و تحتاج نفسه لهذا الإصلاح .. !!؟..

دخل عبر تلك البوابة الصغيرة التي إنحنى قليلا بهامته ليعبرها .. سلم كل ما له علاقة بعالمه الخارجي و استلم بدلة السجن الزرقاء مر بكم من الخطوات و الإجراءات كان يؤديها و هو أشبه بالغافل عما يجرى حوله ..

.....

كان ينفذ الأوامر الملقاة له بألية عجيبة حتى وجد نفسه ملقى في احد العنابر بصحبة الصول جابر كما سمعهم ينادونه .. أشار جابر على أحد الآسرة هاتفاً :

.....

- ده سريرك يا زكرياء..

توجه اليه زكرياء في صمت يضع عليه تلك البطانية الحقيرة التي سلموه أياها .. كان سريره هو السرير الأسفل من ضمن سرير بطابقين كما باقى آسرة العنبر ..

حل الصمت على العنبر ككل حتى رحل الصول جابر .. و ما إن أُغلق الباب .. حتى سادت الهمهمات و الهمسات على ذلك الذي دخل بصحبة الصول جابر و لم ينبس بحرف واحد بل تمدد على فراشه مغمض العينين لا يبالي بما حوله او بمن حوله .. حتى إنه نسي اهم القواعد الواجب اتباعها و هي التعريف عن نفسه و تقديم فروض الولاء و الطاعة لسيد العنبر و مساعديه ..و الذي تقدم منه احدهم هاتفاً بصوت جهورى :

- احنا هنعذرك عشان متعرفش الأصول .. بس لو متعرفهاش .. نعرفهالك ..

فتح زكرياء عينيه عندما تناهى لمسامعه ذاك الصوت القبيح متسائلا بتعجب :

- إنت بتكلمني اني ..؟..

هتف صاحب الصوت الجهوري المدعو سلومة :

.....

- ايه ده ..؟.. الجدع طلع صعيدي ..طب ده المفروض بتفهم الأصول .. و عارف إن كل مكان و له ريسه و لا ايه ..؟..

هتف زكرياء في ضيق :- يعني عايز ايه من الاخر .. أنا مطيجش روحي ..؟؟..

جذب سلومة زكرياء من كتف قميصه هاتفاً :

- لما تكلمنى تقوم تقف و تتكلم بأدب .. و لو متربتش و اتعلمت الادب احنا نعلمهولك ..

دفع زكرياء يد سلومة من على كتفه في حنق و لم يبادله أي رد بل تجاهله تماما وعاد من جديد ليتمدد على فراشه و الذي قبل ان يمسه كان سلومة دافعا أياه من فوقه ليقع

زكرياء من الجانب الاخر وسط الهرج و المرج الذي بدأ يسود داخل العنبر و ضحكات المساجين المتهكمة على سقوطه ..

نهض زكرياء في هدوء مخيف و استدار باتجاه سلومة و ما إن اقترب منه حتى همس و هو يجذب راس سلومة بكفه من خلف عنقه لينطح بها جبينه :

- الادب .. ده اخر حاچة تعرفها يا خفيف عشان تعلمهالي ..

صرخ سلومة متأوها و هي يضع كفيه على رأسه بعد إن نال صدمة قوية من تلك الراس الصعيدية اليابسة .. دفع زكرياء بسلومة بعيدا عن فراشه و عاد ليتمدد عليه من جديد ويط تلك الصرخات المشجعة و التهليل طلبا للمزيد من الشجار لكن كل ذلك إنتهى في لحظة ما إن أشار احد المساجين والذي ما كان الا الذراع الأخرى لكبير العنبر و من يأتمر بأمره الجميع والذي كان يتابع تلك المسرحية

التي دفع سلومة لتمثيلها على زكرياء كما يفعل مع كل مسجون جديد حتى يستشف مدى قوته و مدي إمكانية السيطرة عليه و تطويعه في خدمة طلباته ..

هنا نهض المعلم سيد كبير العنبر متجها نحو سرير زكرياء و الجميع صامتا في ترقب لما سيسفر عنه اللقاء .. هتف المعلم سيد وهو يقف في مواجهة سرير زكرياء :

- مرحب بيك يا زكرياء في عنبر المعلم سيد ..

فتح زكرياء عينيه من جديد ليطالعه جسد ضخم و وجهه اسمر بشارب رفيع لا يتفق إطلاقا و ذاك الوجه او تلك البنية ..هتف حمادة الذراع اليمنى للمعلم سيد معرفا أياه لزكرياء :

- ده المعلم سيد .. كبير العنبر و اللي كلنا هنا تحت طوعه و عايشين من خيره..

نهض زكرياء من فراشه هاتفاً :- اهلا يا معلم سيد ..

سأل المعلم سيد في فضول :- هو إنت هنا بتهمة ايه يا زكرياء ..؟!..

هتف زكرياء في عجالة :- جتل يا معلم سيد ..تأبيدة ..

هتف المعلم سيد مهللاً :- الله اكبر .. تعجبنى يا صعيدي .. اكيد تار ..

هتف زكرياء نافيا :- لااه يا معلم ..و نظر لسلومة الذي كان لايزل يتأوه متألماً واستطرد في ضيق :

.....

- ده واحد كان شايف حاله و حب يعلمنى الادب .. فجلنا نربوه ..

قهقه المعلم سيد منتشياً و هو يربت على كتف زكرياء :

- عفارم عليك يا صعيدي .. دمك حامي صحيح .. تعجبني ..

و نهض هاتفاً في صبيانه :

- العنبر غداه النهاردة على حسابي حلاوة تشريف زكرياء ..

.....

ابتسم زكرياء هاتفاً :

- يا معلم هو الحلاوة دي بتبجى للدخول و لا للخروج بالسلامة ..!!؟..

.....

إنفجر المعلم سيد مقهقها وهاتفاً :- الاتنين يا صعيدي .. خلى المساجين تفرح ..

ابتسم زكرياء و هو يرى الجميع يحييه ويهلل في سعادة .. و لما لا ..!؟.. فهو تميمة سعدهم و التي هبطت عليهم وجعلت المعلم سيد كبير عنبرهم يجود عليهم بخيراته ..

تناول المساجين طعامهم في عنبر المعلم سيد حتى امتلأت بطونهم و حتى الصولات والشاويشية طالهم من النعيم جانب .. فالمعلم سيد كعادته لا ينساهم فهو معروف بكرمه الواسع ...و لما لا ..!؟.. و هو يعد واحد من اكبر مستوردي اللحم المجمد والمُصنع .. كان في الأصل مجرد جزار .. لكن من جراء الصفقات المشبوهة اصبح من اكبر

تجار اللحوم .. و ما أتى به الا احدي تلك الصفقات التي أحكمت الشرطة فيها الأدلة التي تدينه هذه المرة فلم يستطع الإفلات ودفع احد من رجاله لحمل القضية برمتها كعادته في كل قضية سابقة .. هتف المعلم سيد وهو يربت على كتف زكرياء هاتفاً :- استنى بقى لما نتسلطن ..

اخرج من جيبه علبة من السجائر دفع بإحداها لزكرياء الذي فكر إن يرفض بأدب ..لكنه تناول من العلبة سجارة متظاهرا بأنه سيدخنها فيما بعد ووضعها في جيب سترته ليهتف المعلم سيد :- هو فين الواد سنجأ ..!!..

.....

هتف صوت جهورى لشاب في أواخر العشرينات تقريبا من احد الأركان رافعا كفه مؤكدا مكانه :-أني هنا يا معلم ..

أمره المعلم سيد :

.....

- قوم يا واد سمعنا حاجة من اللي بتقرفنا بيهم ..

نوُح يا خويا نوُح ..

إنفجر الجميع ضاحكين ليهتف سنجأ في ضيق و بلهجة صعيدية لا يخالجها الشك دفعت زكرياء للإنتباه للشاب الأسمر متوسط الطول الذي برز من بين المساجين :

- بجى كِده يا معلم .. غنايا بجى نواح .. !!؟..

هتف المعلم سيد من بين قهقهاته :

.....

- خلاص يأخوي هاتعمل لنا فيها فنإن .. غنى من سكات و حاجة فرايحي عشان الراجل اللي لسه مشرفنا جديد ده .. مش عايزين نسود عيشته من أولها ..

هتف زكرياء للشاب الواقف فى ضيق محاولا جبر خاطره :

- غنى اللي إنت عاوزه يا سنجأ .. أني راضى ..

إنفرجت اسارير سنجأ و بدأ يشدو في سعادة و بصوت ساحر:-

.....

فى دايرة الرحلة طرح بينا تخلا

آه يا حبيب عمري وصحبتي وقمري

عيون مره تباعد ..خطاوي مره تعاند

حنين چوأنا يحكي..

.....

وشوج چوأنا يبكي

والدمع ساچية كبت

فى دايرة الرحلة طرق بينا تخلا

ليه يا سنين العمر ترضي لنا بالمر

ده لولا فينا صبر لهإن علينا العمر

فى دايرة الرحلة ايامنا على المولى

رحلة يا رحلة ياصعبة يا سهلة

رحالة خطوتنا فى دايرة الرحلة

فى دايرة الرحلة طرح بينا تخلا

.....

المساجين بما فيهم المعلم سيد كانوا يضحكون على حركات سنجأ التي كان يقلد فيها ذاك المغنى الأسمر المشهور صاحب الاغنية و لم ينتبه احدهم إن تلك الكلمات التي يغنيها سنجأ بذاك الصوت الساحر تنكأ جراح لازالت حية بقلب زكرياء وروحه ..

ساد الصمت للحظات بعد إن أنهى سنجأ شدوه و توجهت كل الوجوة باتجاه زكرياء في إنتظار تقييمه لصوت مطربهم .. تمالك زكرياء شتات نفسه و دفن أحزانه كما اعتاد دوما في أعماق روحه وبصوت مصطنع يغلب عليه نبرة المزاح هتف في سنجأ :- و الله المعلم سيد عِنده حج .. جلبت علينا المواجع يا فجري ..

.....

إنفجر الجميع مقهقهين .. و إنقلب المعلم سيد على ظهره من شدة قهقهاته و هو يرى زمجرة سنجأ المعترضة .. و يربت على كتف زكرياء في حبور ...

.....

****

تسلل ذاك الظل القاتم لداخل الدار على الرغم من وجود الخفيرين اللذإن وضعهما عاصم لحماية دار زكرياء .. و تسحب حتى وصل لحجرة كسبانة في هدوء ليقترب من فراشها وهو يتطلع لجسدها المسجى على الفراش في رغبة هامسا في نفسه :- لساتها حلوة بت الكلاف ..

اقترب من وجهها يتطلع لملامحها الناعسة التي بدأ يتذكرها بعد تلك السنوات لتنتفض هي عندما شعرت بإنفاسه الحارة تضرب عنقها هاتفة و هي تضم غطاء الفراش لجسدها في ذعر :- مين ..؟!.. إنت مين ..؟!

.....

www.hakawelkotob.com

همس و هو يقترب منها :- لحجتي تنسيني .. نسيتي أبو ولدك يا كسبانة ..؟!..

هتفت في ذعر وهو يرفع اللثام عن وجهه لتظهر ملامحه التي تبغضها فتهتف شاهقة باسمه :- سليم ..!!..

إنكمشت من جديد لطرف الفراش غير مصدقة أنه هنا بعد كل تلك السنوات .. بعد أن ظنت أنها تخلصت منه و من كل ما يذكرها به .. لكن هاهو يظهر من جديد ليحيي كل تلك الكوابيس و العذابات التي رأتها بالقرب منه ..

نظر اليها متفرسا فيها من رأسها حتى اخمص قدميها ليزداد أقترابا منها متمتما بصوت تملؤه الرغبة :- لساكِ زي ما إنت .. متغيرتيش .. كني فُتك عشية ..

.....

و دفع كفيه ليقبضا على كتفيها البضتين الا إنها كانت الأسرع حيث إندفعت للجهة الأخرى من الفراش هاربة منه..

لكنه لحقها ليمسك بذراعها واضعا كفه على فمها كاتما صرخاتها التي ما همت باخراجها حتى كانت كفه هي الأسبق لإسكاتها ..جذبها من جديد دافعا إياها على الفراش في قسوة هامسا بصوت يشبه الفحيح :

- إنتِ لساتك مرتي .. و لا نسيتي .. يعني حجى فيكِ هخده.. بخطرك أو بالغصب .. متفرجش معاي.. و إنتِ خابرة كلامي زين .. و لا نسيتي ..؟!..

تذكرت كيف كان يعاملها منذ اللحظة الأولى لزواجهما الذي قبلت به غصبا لتخلص نفسها و اَهلها من بطشه و جبروته ..و تقطعت أنفاسها في ذعر وهي تتذكر كيف كانت تتوسل اليه الا يقربها الا أن تمنعها كان يشعل نار رغبته اكثر لينتهكها في وحشية ثم يلقي بها خارج فراشه كخرقة بالية ..بدأت ترتجف و هو ينحني على وجهها يقترب منها ليلثمها و اخيراً تأتي رحمة اللّه من

السماء في صرخة عاصم الهادرة التي دفعت به بعيدا عنها لتجذب هي غطاء الفراش حول جسدها و تتراجع لأحد أركان الغرفة تنتفض غير مصدقة إنها نجت من بين يديه يكاد دوار رأسها يفقدها وعيها وشعورها القاتل بالغثيان يسيطر عليها بشكل غير طبيعي ..

إندفع عاصم لسليم الذي ارتجف من طلته فقد كان الغول على حق في تلك اللحظة

.....

و الذي قبض على مقدمة جلباب سليم في غضب صارخا فيه وهو يهزه أمرا:

- طلجها .. أرمي اليمين عليها دلوجت ..

لم يكن سليم بقادر حتى على الاعتراض امام مظهر عاصم و غضبه الهادر لذا هتف متوجها بإنظاره نحو كسبانة التي لازالت على ارتجافاتها في ركن الغرفة :

- إنتِ طالج ..

.....

هتف عاصم دون إن يستدير لكسبانة :- سبينا دلوجت لحالنا يا أم حمزة و روحي لولدك..

إندفعت كسبانة لخارج الغرفة مسرعة في اتجاه غرفة بخيتة و التي لحسن الحظ أصرت الليلة الماضية على نوم حمزة بجوارها ..

.....

ما إن خرجت كسبانة و أغلقت الباب خلفها حتى بدأ عاصم في جذب مقدمة جلباب سليم في غضب بركان هادر عاود إطلاق حممه هاتفا :

-اسوى ايه فيك اكتر من رميك بره النچع كيف الكلب الأچرب ..؟!.. اجتلك و اخلص منيك .. و أتعير بيك العمر كله و إنت متستاهلش ..؟!.. اسوى فيك ايه ..؟!.. جولى...

دفع عاصم سليم ليرتطم ظهره بالحائط خلفه ليتأوه في ألم و عاصم يزفر في ضيق ..

.....

و اخيراً ما إن هدأت نفسه حتى عاود النظر لسليم في اشمئزاز من جديد:

- بص .. هي نوبة تاني زي دي تكسر فيها كلمتي .. و اقسم بالله .. ما ليك عِندي لا حج جرابة ولا دم .. و أني بنفسي اللي هبلغ الحَكومة عنيك .. أنا سايبك بخطرى هربإن منيهم بس لو ليا غرض هچيبك تحت رچلى في دجيجة ..و أسلمك ليهم .. و إنت تعرف أني أجدر و هعملها عن جريب لو كسرت كلمتى و نزلت النچع من تاني .. و صرخ اخيراً هاتفا بصوت أشبه بهدير الرعد جعل سليم ينتفض فزعا .. ساااااامع.. !!!!...

ليومئ سليم برأسه مؤكدا في عجالة ليهمس عاصم بالقرب منه :- يبجى تنفذ ..

ليندفع سليم خارج الحجرة و منها لخارج الدار في عجالة .. و كأن شياطين الجحيم تتعقبه ...

.....

تنحنح عاصم وهو يخرج من الحجرة ليقابل كسبانة التي تسترت بعباءتها و غطاء رأسها و بجوارها تجلس بخيتة تحمل حمزة الذي ازدادت وتيرة بكاءه بسبب صوت الشجار .. هتف عاصم غاضا بصره :

- مبروك على الطلاج يا أم حمزة .. خلاص .. إنسيه الموضوع دِه .. و سليم عمره ما هيجربهنا تاني .. بس اللي حُصل ده نخليه بناتنا تمام ..؟!..

هتفت كسبانة مؤكدة :- تمام يا عاصم بيه .. ربنا يبارك لك و يخليك لينا ..

هتف عاصم :

- الشكر لله .. و لخالة بخيتة لولا هي اللي سمعته و شيعتلى واحد من الغفيرين اللي زي جلتهم بره دوول .. محدش عارف سليم بجنانه كان ممكن يسوى ايه ؟!.

استأذن عاصم مغادرا لتندفع كسبانة تحتمي بذراعي بخيتة تشهق باكية بعد كل تلك الأحداث التي مرت بها الليلة ..لتربت بخيتة على رأسها تطيب خاطرها هاتفة :

- أحمدي ربك يا بتى .. لولا ولدك بكى و جمت اجيب له يشرب مكنتش سمعت سليم وهو عِندك..الحمد لله ..

جذبت كسبانة طفلها لأحضانها من بين ذراعي بخيتة تضمه في امتنان و هي لا تصدق أنها تخلصت من الكابوس المسمى سليم .. و أصبحت اخيراً حرة ..

****

.....

كانت فترة الراحة فخرج الجميع إلى فناء السجن مدفوعا برغبة في الحصول على بعض الهواء النقي و الشمس الدافئة بعيد عن جو العنبر الخانق ..

.....

سار زكرياء وحيدا مبتعداً عن تجمعات المساجين المعتادة او حتى جلسات المعلم سيد في مكانه المعتاد و التي غادرها متسللا راغبا في الوحدة و الاختلاء بنفسه قليلا ..

مر أكثر من شهر على مجيئه إلى هنا و لا يعلم متى سيخرج .. شعر بوحشة عجيبة .. فقد مر ذاك الشهر وهو لم يرى ملامحها و لا عادت جواره .. شعر بنفس المشاعر الخانقة التي كانت تعتريه في الإسكندرية قبل قدومها اليه .. لكن الآن .. هو يعلم أنها لن تأتي .. يعلم إنه حتى ولو خرج من هنا .. لن يجدها بإنتظاره .. لن يستمع إلى صوتها يداعب أذنيه عند الاستيقاظ و لا همهماتها بأحضانه في ذاك الفراش الضيق الذي كان يجمعهما متلاحمين .. إنه يفتقدها حد الوجع..

.....

لو يعلم إن سجنه كل تلك المدة كفيل باعادتها لحياته من جديد لهإنت عليه أعوام السجن و لياليه الطويلة ثمنا لمطلب غال كذلك .. لكن هي رحلت .. غادرت بلا عودة .. تذكر كلماتها الأخيرة و التي همست بها قبل أن تختفي خلف باب غرفة العمليات توصيه فيها بابنهما حازم .. دمعت عيناه عندما تذكر ولده الذي لم يتذكر حتى ملامحه .. فما كان هناك وقت ساعتها ليتملى في وجهه الصغير ليحفظ تلك الملامح و لا ينساها ..

.....

ربت سنجأ على كتف زكرياء مخرجا أياه من شروده و أفكاره ليهمس متعاطفا :

- كله هيهون يا زكرياء .. سلمها للمولى ..

همس زكرياء بصوت متحشرج :- و نعم بالله..

هتف زكرياء محاولا الخروج من حزنه :- مجلتليش يا سنجأ إنت منين في الصعيد ..؟!.

.....

هتف سنجأ بلامبالاة :- من كل البلاد يا هواري ..

ابتسم زكرياء متسائلا :- كيف يعني ..؟!..

ابتسم سنجأ ابتسامة محرجة هاتفاً :

- واحد واد حرام .. ميعرفش ابوه ..و امه كانت غازية في الموالد ..هيبجى منين يعني ..؟!..البلد اللي فيها رزجك او حبيبك .. هي بلدك يا هواري ..

.....

ربت زكرياء على كتفه و هو يشعر بألم سنجأ و يستشعر بعضه .. فقد عاش زمن طويل من عمره لا يعرف له أبا و حتى عندما علم لم يجرؤ على البوح باسمه او حتى وضع اسمه العريق خلف اسمه المتواضع فهو ابن بخيتة تلك الفتاة الفقيرة ابنة مراكبى المعدية كيف يمكن أن يقترن اسم ولدها باسم سليل اكبر العائلات ..

.....

هتف زكرياء باسماً :- بس إنت حسك (صوتك)

حلو جووى .. و لا عبد الحليم في زمانه ..

إنفجر سنجأ مهللا في فرحة :- وااه يا واد عمي .. العندليب

نوبة واحدة .. !!؟.. ربنا يچبر بخاطرك يا زكرياء ..

.....

ليستطرد مغيرا الموضوع هاتفاً :- بس معجول يا زكرياء

تهمتك الجتل .. أنا مصدجش.. يعني أني اعملها لكن إنت

لاااه ..

ابتسم زكرياء متسائلا :- يعني إنت على كِده جتلت ..!؟..

أكد سنجأ بنبرة معتزة:

- أيووه .. جتلت چوز أمي المفترى .. جتلت و أنا بدافع عني و

عنيها و هو اللي بداها.. روحت جايب رجبته.. و لا كنت

ههمله لما يجتلنا وهو كان شارب و شادد حيله علينا .. و اهاا

.. خدت فيه سبع سنين اللي ما يسوى دِه عدي منيهم أربع

سنين تجريبا.. و ربنا يسهل علينا الباجى..

.....

ربت زكرياء على كتفه في تعاطف هامساً بنبرة متضرعة :- يااارب ..

****

سافر عاصم للقاهرة مدفوعا باتصال المعلم خميس و الذي اخبره بكل ما حدث مع زكرياء من وفاة زوجته و ظهوره لدفنها و قبض الشرطة عليه لينفذ الحكم الذي صدر ضده غيابيا .. أكد عاصم رغبته في زيارة بن عمه و اصطحاب ولده حازم معه للبلد ليكون تحت رعاية ام زكرياء ..

لم يستطع المعلم خميس إثناءه عن القدوم و ها هو يهل بطلته المميزة يقترب من مقهي المعلم خميس و الذي رحب به هاتفاً :

- مرحب بابن عم الغإلى .. ازيك يا عاصم بيه..؟!..

.....

هتف عاصم وهو يجلس على احد المقاعد يلتقط إنفاسه متعجلا المعلم خميس:

- الحمد لله يا معلم خميس .. بخير بس هم يا معلم .. عايز اروح أزور زكرياء .. و تعالي معايا عشان اخد ولده .. احنا أولى بيه و برايته ..

هتف خميس و هو يشير لصبيه بجلب الشاي:

- اهدي بس و خد نفسك يا عاصم بيه .. أنا المحامي جإلى من كام يوم و هو اللي جاب لى الجواب ده من زكرياء و طلب فيه ابلغك بكل اللي حصل .. بس هو ليه عندك طلبين

هتف عاصم مقاطعا :- طب ما أنا واخد اذن بالزيارة و هشوفه و يجولي اللي هو رايده لو كان لبن العصفور هجبهوله ..

.....

هتف المعلم خميس محرجا :- ما هو ده طلبه الأول ..؟!..

تعجب عاصم مستفسرًا:- طلب ايه ..؟!..

.....

تنحنح خميس محرجا :- الزيارة .. مش عايزك تزوره .. صعبإن عليه نفسه و حاله .. و مش عايزك تشوفه في الموقف ده ..

صمت عاصم للحظات و لم يعقب ليستطرد المعلم خميس :

- و الطلب التاني .. حازم ولده .. مش عايز يتربى في البلد .. عايزه يفضل هنا ..

هنا هتف عاصم حانقاً :

.....

- كيف يعني ..؟!.. يعني نسيب ولدنا يتربى على يد الأغراب و احنا اهله و عزوته ملناش صالح و لا عازة؟!؟!...

هتف المعلم خميس مهدئا عاصم :

- محناش اغراب قووى يا عاصم بيه .. احنا برضة اهل زكرياء و ناسه يوم ما كان عايش وسطينا هنا..

تحرج عاصم هاتفا:- أنا مجصدش يا معلم إنتوا على عينا و راسنا .. بس برضك .. دِه ولدنا..

.....

هتف المعلم خميس وهو يستحث عاصم على ارتشاف الشاي :

- يا عاصم بيه .. هو مش عايز حازم يتربى في البلد و يتعير هناك بأبوه اللي خرج من البلد حالف يرجع لها رافع راسه و في الاخر اتهموه بجريمة معملهاش و يشيله العار ..

زكرياء قالي بالحرف .. قول لعاصم واد عمي لما يجيك إن زكرياء مش عايز ولده يدوق نفس المرار اللي هو داقه بسبب اسم ابوه ..

تنهد عاصم في ضيق ليستطرد خميس :

- معلش يا عاصم بيه .. ما على الرسول الا البلاغ .. و دي طلباته ..و إنت ادرى بزكرياء و نشفيه دماغه ..

هز عاصم رأسه موافقا خميس و أشار على المعلم خميس ليصطحبه حتى نعمة التي أصبحت تقطن بيت الحاج وهيب

وحيدة مع حازم الذي ملأ حياتها بعد أن ظنت إنها أصبحت خاوية لا قيمة لها ..

.....

ليرى عاصم بن زكرياء و يترك له ما يكفى ويفيض من نقود تكفل ليُقدم للطفل افضل رعاية معتصرا قلبه حتى يستطيع أن يتركه و لا يصطحبه معه للنجع تماشيا مع رغبة زكرياء مؤكدا على المعلم خميس الاتصال به اذا ما جدت اى اخبار بخصوص زكرياء ..مع الحرص على إرسال مبلغ مالي كل شهر من اجل رعاية حازم ..

****

.....

-١٠-

إنقلب السجن رأسا على عقب و زادت الهمسات و الهمهمات و ساد جو متلبد بغيوم

قاتمة من الصرامة و الشدة على غير المعتاد فهمس زكرياء للمعلم سيد متسائلا :

- هو في ايه يا معلم ..؟!..

لكز المعلم زكرياء كى يصمت هامساً بحذر:- هقولك بعدين .. اصبر ..

دخل الضابط المسؤول عن السجن و خلفه المأمور الجديد الذي جاء للسجن منقولا من حوإلى أسبوع .. بدأت عملية التفتيش عن اي مخالفات و ممنوعات داخل العنبر ..

.....

حمل الشاوشية و الصولات ما وجدوه داخل العنبر من أمور و أدوات لا تقر لائحة السجن بوجودها داخل العنابر و تحت يد المساجين .. و خرجوا ..

تنفس الجميع الصعداء ليهتف المعلم سيد لزكرياء :

- إنت عارف يا سيدي .. الغربال الجديد له شدة .. و ده المأمور الجديد .. العميد مختار السداوي .. هيقعد كده يقرفنا تفتيش و يعمل حبة إنضباط لحد ما يفك و ياخد على الجو.. و يرتاح و نرتاح احنا كمان ..

اومأ زكرياء برأسه متفهما و قال :- بس المأمور دِه مش زي اللي جبليه على فكرة ..

هتف المعلم سيد :- و حياتك كلهم بيبقوا كده في الأول .. و بعدين خلاص ..

.....

اخرج المعلم سيد من جيبه سيجارة دفع بها لزكرياء هاتفاً :

.....

- امسك .. عفر(دخن) خلينا نعدل الدماغ اللي قلبها بسلامته ..

تناول زكرياء السيجارة و نهض مغادراً لفراشه ووضعها جانبا حتى يجود بها على سنجأ الذي يدخن بشراهة و يعتبر السيجارة هي الهدية الأغلى و الأقرب لقلبه ..

****

اصر مهران وبكى ..ليكون له السبق في رؤية السنة الأولى التي تظهر لتسنيم .. فلطالما دفع به باسل بعيدا عن اخته الوليدة التي كانت توليها أمه الكثير من العناية والاهتمام ..و شعر معها بشعور الأخ الأكبر الذي يجب عليه حماية اخته الصغرى ..

.....

تحايلت سهام على الامر و أرسلت باسل ليحضر لها بعض الأغراض من الداخل لتسمح لمهران برؤية أسناان الصغيرة النامية

.....

و كم إندهش و صفق بكفيه في سعادة و هو يراها تقترب من وجهه تلامسه بكلتا يديها

منغمة هتافها بحروف غير مفهومة في سعادة جعلته ينفجر ضاحكا لتبادله الضحكات في براءة .. و لكن تظهر سندس في الأفق تحاول الاستحواذ على الصغيرة بعيدا عن مهران .. لكن لا يفلح احدهما في جذب إنتباهها فقد حاول باسل حملها فصرخت طالبة البقاء أرضا ليضعها بعد أن سأم من صرخاتها و زجرته أمه .. و كذلك سأمت سندس من صراخ الصغيرة فإنصرفت عنها تلهو بعدد من الأساور البلاستيكية المتعددة الألوان ..التي احضرها لها ابوها ..

زحفت الصغيرة حتى مهران الذي كان يجلس في نهاية الرواق يلعب ببعض قطع مكعبة الشكل يحاول أن يبني بها بيتا .. أتت اليه فجلست بجانبه و هي تحاول هدم ما يبنيه و ما إن تفعل حتى تضحك مقهقهة تنير الضحكات وجهها

البض و خاصة عندما يحاول نهرها و الحفاظ على بيته الوهمي ..

****

إندفع زكرياء كالعادة للوضوء و صلاة العصر و التي تتزامن مع وقت الراحة لكن سنجأ الذي اصبح لا يفارقه تقريبا أمهله هاتفاً :- زكرياء .. على فين ..؟!..

أجاب زكرياء :- على الپامع ألحج صلاة العصر ..

.....

همس سنجأ بتوجس :- بلاش يا زكرياء ..

هتف زكرياء متعجباً :- بلاش ايه يا مخبل .. بلاش نصلوا ..؟!!..

هتف سنجأ :- لاه .. مش الجصد .. بس بلاش دلوجت .. يعني اتأخر شوية كِده .. لحد ما العيال أمات دجون دوول (الملتحين) يخلصوا و بعدين صلى براحتك ..

.....

تعجب زكرياء :- ليه ..؟!.. مالنا بيهم ..؟!!.. هم في حالهم و احنا ف حالنا ..

أكد سنجأ :

- ايووه ما أني عارف .. بس المرة اللي فاتت و أنا مستنيك تخلص صلاة لجيتهم بيتودودوا (يتهامسوا) وهم بيشاورا عليك .. مخبيش عليك خفت .. جلت ابعدك عنيهم.

.....

ابتسم زكرياء و هو يربت على كتف سنجأ ممتناً :- تسلم يا صاحبي .. متجلجش ..هم ايه عازتهم لواحد زي حالاتي .. وهم زكرياء بالتوجه للمسجد غير عابىء بتحذيرات سنجأ الذي هتف رغما عنه :

- طب متروحش و لو على صلاة الجماعة ..

صمت لثوان ثم استطرد متعجلا مخافة إن يعود في كلمته :

- أني هصلي معاك ..

.....

نظر اليه زكرياء في فرحة هاتفاً :- صُح ..؟!.

هتصلي معاي ..؟!..

.....

أومأ سنجأ مؤكدا دون إن يتفوه بحرف مما دفع زكرياء للربت على كتفه في سعادة وهو يقول :- طب خلاص .. هستنى و نصلوا سوا ..

تهلل وجه سنجأ بالبشر عندما استطاع إقناع زكرياء بتأجيل الصلاة قليلا حتى خروج أصحاب الفكر المتطرف خارج المسجد و الذي خاف إن يحتك بهم زكرياء فيسببوا له المتاعب ..

ارتجف جسد سنجأ في رهبة و هو يدخل المسجد ربما للمرة الأولى في حياته مصليا

لا من اجل غاية أخرى كالنوم او استخدام الحمام .. جذبه زكرياء من يده كطفلا مشاكساً يتمنع و لولا وعده لزكرياء ما فكر في الإقدام على تلك الخطوة ..

.....

هتف سنجأ في وجل و بصوت متقطع :- أني .. أني مش طاهر يا زكرياء ..

هتف زكرياء :- و لا أني .. تعالي نتوضوا..

تمنع سنجأ من جديد :- مبعرفش .. و الله يا زكرياء ما أعرف .. و لا اعرف كيف اركعها حتى ..!؟.. و دمعت عيناه ..هامساً :

- واد الغازية مين هيربيه غير ولاد الليل و الهچامين و جطاعين الطرج..و رفع رأسه باتجاه زكرياء هامساً :

- مين من دوول يا زكرياء كان ممكن يعرفني ربنا.!؟...

ربت زكرياء على كتفه مواسيا و همس قائلا:

- و ربنا بعت لك الفرصة اهاا نسبوها و لا نمسك فيها بيدنا و سنأنا ..

.....

ثم غير زكرياء نبرة صوته لنبرة مازحة هاتفاً و هو يدفع رأس سنجأ عاتبا :

.....

- و بعدين هو مين اللي هيعلمك دلوجت .. ده أني الشيخ زكرياء الهواري بجلالة جدره .. شيخ بتأبيدة ..عايز ايه تاني يا واد ..؟!!..

إنفجر سنجأ ضاحكاً و هو يهتف مازحاً مدعيا الإنحناء لتقبيل ظاهر كف زكرياء كما يفعل عادة مع ذوى المقام العالي من المشايخ :

- العفو يا سيدنا .. و احنا كنا نطول

و إندفع كلاهما لمكان الوضوء ليتلقى سنجأ درسه الأول ..

****

.....

على الرغم من احتياطات زكرياء و سنجأ للابتعاد عن أصحاب الفكر المتطرف الا إن الامر لم يكن بهذه السهولة فمن الواضح أنهم عزموا امرهم و استشاروا أميرهم ليندفعوا في خطتهم لاجتذاب زكرياء لصفوفهم .. تارة بدعوته للصلاة التي لاحظوا غيابه عنها و أداءها متأخرا بعض الشئ

مع سنجأ حتى يتجنبهم .. او حتى في أوقات الراحة العادية و التي لا يختلطوا فيها مع احد من خارج جماعتهم .. كانوا يحاولوا فيها بشتى الطرق استمالة زكرياء بطيب الكلام و حلو المعاشرة لكن زكرياء كان دوما لهم بالمرصاد .. لا يريد معاداتهم و لا يريد الإنضمام اليهم .. فهو كل ما كان يرجوه .. إن يُظهر اللّه براءته ليخرج لابنه و يربيه كما يجب ..لكن يبدو إنهم لهم رأيا اخر ..

ففي الصباح سمع الجميع صرخاتهم وهتافهم من خلف أبواب عنابرهم التي خُصصت لهم دون غيرهم ..كانوا يكبرون و يهللون في فرحة .. حتى إن جميع المساجين إندفعوا متزاحمين على أبواب عنابرهم فضولا لمعرفة سر الهتاف والتهليل ..

لحظات و إندفع الصول جابر للعنبرليسأله المعلم سيد في فضول :

.....

- هو في ايه يا حضرة الصول .. العيال دي بتهلل كده ليه!؟..

هتف الصول جابر في ضيق :

.....

- هيكون ليه يا معلم سيد ..!!.مجموعة من زمايلهم بره السجن قتلوا اتنين ظباط النهاردة ..

هم المعلم سيد بالتعليق الا إن إندفاع الضابط و من خلفه المأمور العميد مختار جعلت الصول جابر ينتفض لأداء التحية العسكرية لتبدأ حملة تفتيشية جديدة ..

إنقلب العنبر كالعادة في كل حملة تفتيش رأسا على عقب .. و لم تسفر الحملة الا على سيجارة حشيش وجدها احد العساكر بين طيات فراش زكرياء مخبأة بمهارة ..

ليهتف المأمور :- هاتوه ..

ليغيب زكرياء بعدها عدة أيام خلف قضبإن الحبس الإنفرادي للتأديب ليصله رسالة من خلف بابه مفادها .."إن

لم تكن معنا ..فإنت علينا .. و اتعظ بما يحدث لك الأن ..هذه قرصة أُذن بسيطة .. "...

****

خرج زكرياء من حبسه التأديبي ليهلل كل أصحابه في عنبر المعلم سيد .. و يحتفل كالعادة .. إلى إن استدعاه المأمور من جديد ليتوجس الجميع منتظرين في قلق عودة زكرياء .. دخل زكرياء إلى مكتب المأمور مصحوبا بأحد الشاوشية الذي أدي التحية العسكرية و تركه و إنصرف .. كان المأمور متشاغل ببعض الأوراق الهامة أمامه فلم يرفع راسه حتى يستطلع وجود زكرياء الذي ظل واقفا في إنتظار معرفة سبب الاستدعاء .. طال الصمت ليقطعه المأمور مختار هاتفاً :

.....

- إنت ايه علاقتك بالعيال بتوع الجماعات دوول ..؟!..

أكد زكرياء :- مليش أي صالح بيهم يا بيه ؟!

.....

سأل المأمور متخابثاً :- و لا هم حاولوا يضموك ليهم ..؟!..

صمت زكرياء و لم يعقب .. ليستطرد المأمور :

- واضح إنهم حاولوا فعلا .. و احنا بقى اللي عايزين يبقى بينك و بينهم علاقة و تنضم ليهم كمان ..

هتف زكرياء و هو يحاول إن يكذب ما جال بخاطره :

- حضرتك جصدك يا بيه .. أني ..

أكد المأمور للأسف ما جال بذهن زكرياء و الذي هتف مستنكرا :

.....

- يا باشا أنا لا عايز اعرفهم و لا يعرفوني .. و لا يبجي بينيوبينهم ايحاجة و لا حتى أني أكون عين حضرتك وسطيهم .. لاه .. معملهاش ..

صمت المأمور للحظات ليهمس حانقاً من بين اسنانه :

- مش بمزاجك .. إنت تنفذ و بس ..

.....

هتف زكرياء :

- يا باشا أنا راجل مليش في المشاكل ووجع الراس دِه .. أنا عندى عيل يتيم عايز أربيه .. ايه اللي يدخلنى أني في المواويل دي ..؟؟..

إنفجر المأمور ضاحكاً ضحكة خشنة ساخرة:

- إنت عارف محكوم عليك بأيه ..؟تأبيدة .. خمسة و عشرين سنة هنا مرمى .. ملكش فايدة و لا دية .. و تقولى عيل أربيه .. لهو إنت فاكر إنك خارج بكرة ..؟.. أنا لما بعرض عليك إنك تنضم لهم أنا كده بعرض عليك فرصة عمرك هنا في السجن ..تبقى المخبر بتاعنا وسطيهم و يبقى ليك حصانة و حماية مزدوجة مناعشان تفضل تنقل لنا اخبارهم و منهم طبعا لإنك هاتبقى واحد منهم .. يعني هتعيش هنا في السجن ملك ..و الكل يعملك ألف حساب ..

هتف زكرياء رافضا :- يا بيه اعفينى أنا من الحكاية دي .. و أوعدك لو عرفت حاچة تضر بالسچن و اللي فيه هاچى ابلغ چنابك بس مش عشان اكسب مُصلحة .. لاااه .. عشان دِه الصح يا باشا ..

طرق المأمور على سطح مكتبه في حنق بعد إن أيقن أن زكرياء غير قابل للإقناع و هتف صارخاً ينادي احد الشاوشية ليصطحب زكرياء :

.....

- خد الحيوان ده أرميه في الزنزانة الإنفرادي أسبوع .. يمكن يغير رأيه ..

همس زكرياء متمتما :- لله الامر من قبل و من بعد ..

****

قضى زكرياء الأسبوع الإنفرادي في الزنزانة وحيدا .. كان المأمور يعتقد أنه يعاقب زكرياء بذاك الحبس الذي يُدفع فيه وحيدا بالايام و لم يكن يدرك إن الوحدة بعد

وفاة بدور هي مطلبه الوحيد.. فقد كان يزوره طيفها دوما يحدثه و يستمد منها القوة ليستمر.. كان يؤدي فروضه و ينتظرها .. كان طيفها هو سلواه في عتمة الزنزانة الضيقة.. خرج أخيرا بعد إنقضاء الأسبوع متوقعا إن المأمور قد اخرجه من حساباته هو وتلك الجماعة التي تهدده ..

.....

لكن هيهات .. فما إن خرج و ألتف حوله زملاؤه حتى جاءته الأوامر يوميا بأداء المزيد من الأعمال الشاقة ما بين تنظيف الحمامات تارة .. و المساعدة في اعمال المطبخ تارة .. ظنا من المأمور إن تلك الاعمال المرهقة و المقززة قد تدفع زكرياء ليغير رأيه ويأتيه زاحفا طالبا بنفسه أداء المهمة التي كلفه بها و دون امتيازات حتى فقط إعفاءه من تلك المهام .. لكن ما حدث كان العكس تماما .. فكان زكرياء يؤدي الاعمال طائعا لا يتذمر و لا يشكو .. وهو

يؤكد لنفسه إنها اهون كثيرا من الأزعإن لمطالب المأمور ..

جاءه سنجأ في وسط احدى تلك المهام التي يكلف بها زيادة عن كل المساجين ليقف مترددا فيلاحظه زكرياء و الذي استطاع استقراء القلق البادي على محياه :

- خير يا سنجأ ..؟.. جول وراك ايه ..؟..

همس سنجأ بالقرب من مسامع زكرياء :- ورايا مصيبة كَبيرَة ..

ترك زكرياء تلك الفرشة التي كان يدعك بها أرضية الحمام ليقف منتفضاً :

- خير .. مصيبة ايه اللي عمِلتها ..؟..

همس سنجأ متلفتا حوله :

- وطى صوتك يا زكرياء .. و بعدين المصيبة لسه متعملتش .. المصيبة لسه هاتوجع و ربنا يسترها ..

.....

كز زكرياء على اسنانه هامساً في حنق :- يا واد ما تنطج .. ايه في ..؟!..

.....

همس سنجأ :- الجماعة أياها مش ناوية تچيبها البر ..

استفسر زكرياء :- كيف يعني ..؟!..

همس سنجأ و هو يجذب زكرياء خارج الحمامات ما إن دخل بعض المساجين :

- تعالى بره و أنا اجولك سمعتهم بيجولوا ايه..

هتف زكرياء صارخاً في سنجأ :- يا دي المصيبة .. و مسمعتهمش بيجولوا هايعملوا الوجعة السودة دي ميتا .. ؟!!..

أكد سنجأ بإيماءة سريعة من راسه :- ااه .. جالوا في حصة الراحة ..

.....

هتف زكرياء صارخاً :-يا مخبل .. و احنا في حصة ايه دلوجت .؟!...ما الراحة بدأت من ساعة ما دخلت عليا تبلغني يا فجري ..

و إندفع زكرياء راكضا باتجاه الفناء الذي يملؤه المساجين و استطاع إن يميز بينهم بسهولة أعضاء الجماعة بزيهم الأبيض ..

و استطاع أيضا إن تلتقط عيناه مكان المأمور الذي خرج للمرور و التفتيش كالعادة ..

لمع شيء ما في عيون زكرياء عندما إندفع محاولا اجتياز تلك الحلقة التي كونها أعضاء الجماعة بالاتفاق بينهم في سرعة خاطفة خلف المأمور الذي سبقه ضابط السجن لأداء بعض المهام التي كلفه بها و لم يعد يحيطه اي غطاء امني ..

.....

تم الامر كله في لحظة ليسمع دوى طلقات و صفير العساكر و الشاوشية وتنقلب حصة الراحة إلى هرج و مرج بين صفوف المساجين .. و كل ما استطاع المساجين تمييزه هو دفع العساكر بهم لداخل العنابر للسيطرة على الموقف مع سقوط زكرياء بين يدي المأمور مضرج بدمائه بعد إن تلقى عنه تلك الطعنة النافذة من سلاح ابيض حمله احد أعضاء الجماعة محاولا اغتيال المأمور الوحيد من بين المساجين الذي استطاع الوصول لزكرياء لأنه كان في اثره من الأساس هو سنجأ الذي هتف به زكرياء بوهن :- ولدي ..رجعوه النجع أمي تربيه ..

و اسودت الدنيا امام عينىّ زكرياء ولم يسمع صرخات سنجأ الذي كان ينادي باسمه في لوعة ..

.....

****

.....

نظر زكرياء حوله في ذاك الظلام الدامس الذي بدأت تعتاده عيناه فلم يجد حوله ما يستدل به أين يمكن إن يكون .. لكن فجأة ظهرت أمامه .. إنها هي .. بدور ..

تقف على الجانب الاخر في اشراقة بددت تلك الظلمة الحالكة التي تحيط به كما هي عادتها دوما ... هتف زكرياء في شوق عندما طالعه محياها:

- بدورر .. اتوحشتك جووى ..

هتفت بدورها و ابتسامة تكسو وجهها الصبوح :

- و إنت كمان .. وحشتني قووي يا سي زكرياء ..

.....

اقترب في لهفة ليضمها بين ذراعيه و يُطفئ شوق شهور مضت غابت فيها عنه روحه بغيابها .. لكنها هتفت تستمهله :

- خليك عندك يا سي زكرياء ..

.....

توقف بغتة متعجباً :- ليه يا بدور ..؟!..

قال بلهجة معاتبة :

- ايه يا سي زكرياء .. إنت نسيت وعدك ليا .. نسيت وصيتى ليك ..!!؟.

شمله الصمت للحظات و لم ينطق لتستطرد:

- حازم يا سي زكرياء .. هتفوته لمين ..؟!.. مش وعدتني تخلى بالك منه .!؟.

.....

ارجع له يا سي زكرياء .. ارجع له لو لسه بتعز بدور .. خليك معاه و خليه راجل قد الدنيا ميتخيرش عن ابوه ..

و لوحت بكفها وغابت فجأة مرة أخرى في طيات ذاك الظلام الذي كان يحيطهما ليصرخ هو مناديا باسمها في ترديد محموم لعلها تستجيب و تعود مرة أخرى .. و فجأة بدأت الظلمة تنقشع رويدا رويدا .. و يفتح زكرياء عيونه في وهن متطلعاً حوله في تيه و لم يتناهي لمسامعه الا صوت

رجولي لشخص يرتدي الأبيض.. يهتف باسمه

...وأخيرا اتضحت الصورة كاملة عندما ظهر العميد مختار

في مجال رؤية زكرياء هاتفاً باسمه هو الاخر ..

.....

ليستفيق زكرياء نوبة واحدة و يتذكر كل ما حدث

...حاول إن ينهض في تثاقل الا إن الطبيب حذره :

- لاا .. أوعى تتحرك ده احنا ما صدقنا إنك فوقت .. ايه

ده ..إنت كنت فين يا بنى..؟؟..

ابتسم العميد مختار و كانت المرة الأولى التي يراه فيها

زكرياء يبتسم و هتف مازحاً :

- يعني يا دكتور معرفتش كان فين بعد ده كله..

؟!...كان مع بدور .. اللي بقاله تلت أيام مبينطقش الا

اسمها ..

.....

قهقه طبيب السجن بدوره .. و لم يلتفت زكرياء لمزاحهم بقدر ما لفت إنتباهه الفترة التي غاب فيها عن الوعى هاتفاً بصوت متحشرج واهن :

.....

- أنا بجالي تلت أيام غاايب..؟!..

هز كلاهما رأسه مؤكدا .. و حاول أن يتحرك زكرياء من جديد لكن ألم كتفه اليمنى الذي استشعره عند التحرك جعله يعدل عن المحاولة..

سأل زكرياء موجها حديثه للعميد مختار:- هو ايه اللي حُصل يا باشا..؟؟!..

هتف مختار شارحاً :- العيال بتوع الجماعات كانوا عايزين يقتلوني و لولا تدخلك يا زكرياء كنت رحت فيها فعلا ..

همس زكرياء :- العفو يا باشا .. لولا ربنا .. احنا مپرد أسباب ..

.....

ابتسم مختار من جديد ليهتف متسائلا :- إنت بقى اللي قولى .. إنت عرفت ازاي اللي كانوا ناوينه مع إنك رفضت أصلا تنضم ليهم او توصلنا اخبارهم ..؟!..

قال زكرياء :- الحجيجة يا باشا .. الواد سنپأ زميلى في العنبر هو اللي سمعهم واول ما بلغنى محستش بروحى الا و أنا بپرى إنبهك .. و حُصل اللي حُصل ..

ربت العميد مختار على كتف زكرياء ممتنا و ساد الصمت لحظات ليسأل مختار متعجباً :

- إنت مين بالظبط يا زكرياء ..؟!..أنا بقالي في الداخلية عمر بحاله ..

لا قابلت و لا شفت زيك ..؟!..

.....

ابتسم زكرياء للمرة الأولى هاتفاً :- ليه يا باشا..؟!..عاادي يعني ..

هتف مختار متعجباً :

.....

- ايه هو اللي عادي؟!.. واحد مكانك بعد اللي كنت بعمله فيه .. و القرف اللي قرفتهوله من ساعة ما وصلت و مسكت السجن .. كان اول حاجة قالها لما سمع اللي سمعته من سنجأ .. احسن .. خليهم يقتلوه و يغور ..

صمت زكرياء و لم يعقب .. ليهتف مختار في فضول :

- إنت ايه حكايتك بالظبط يا زكرياء ..؟!..

تنهد زكرياء هاتفاً :

- حكاية طوويلة جووى يا باشا .. و اكيد منتش ناجص جلبإن راس ..

نهض مختار يستعد للرحيل هاتفاً :

.....

- طب أنا ماشى .. مش عشان قلبان الراس .. لكن عشان إنت ترتاح و بكرة باذن الله هكون عندك .. أنا موصى الدكتور عليك .. ولو عوزت اى حاجة اطلبها ..سلام عليكم ..

.....

و اختفى العميد مختار المأمور سريعا خلف باب قريب ليترك زكرياء وحيدا محاولا استعادة حواره مع بدور .. و الذي لم يتذكر منه الا وجهها الصبوح و اسم .. هو ما اصبح يربطهما الان .. حازم ..

****

توطدت العلاقة بين العميد مختار مأمور السجن و زكرياء بسرعة كبيرة .. فبعد

ان سمع المأمور قصة زكرياء و إنقاذه لحياته من موت محقق اصبح على يقين مطلق ببراءة زكرياء من تهمة قتل السمري ..لكن ما الذي يمكن فعله لزكرياء وخاصة بعد تأكيد الحكم بالمؤبد في النقض و الاستئناف وها هو زكرياء اصبح مسجون بشكل مؤكد و رسمي .. اصبح تحت وصايته و لا يمكن إن يقدم له الا حسن المعاملة..

.....

دخل زكرياء مكتب المأمور بعد استدعاءه أياه ليدخل زكرياء و يشير عليه مختار بالجلوس هاتفاً في تعجل :

- بقولك ايه يا زكرياء .. إنت واخد شهادات ايه ..؟!..

ابتسم زكرياء مازحاً :

- الشهادات دي اخر حاچة ممكن تكون معايا يا باشا ..!!؟..

ده أني شهادة ميلادي مكنتش شفتها حتى .. ثم سخر هاتفاً :- يا باشا واحد مكنش يجدر يجول على اسم ابوه .. كان هايعرف يدخل مدارس و لا يعتبها حتى برچليه ..!!؟..

هتف المأمور متعجباً :- بس إنت بتعرف تقرا و تكتب يا زكرياء ...!؟..

أكد زكرياء :

- صُح ياباشا .. اهي دي واحدة من الحسنات اللي عملتها فيا أمي .. لما كنت هربإن مع أمي وچدي بره النچع.. دخلتنى

الكُتاب .. و جعدت فيه لحد ما رجعت بن اتناشر

سنة لأهل ابويا بعد موت جدي أبو أمي .. حفظت فيه قرآن ..

واتعلمت الجراية و الكتابة ..لكن شهادات .. مكنش ينفع

.. ده أني مكنش ليا بطاچة شخصية الا لما واد عمي ربنا

يمسيه بالخير هو اللي عملهالي بعد ما اعترفوا بيا..

.....

تنهد مختار هاتفاً :

- ده إنت حكايتك حكاية .. بس بقولك ايه .. إنت لازم

يكون معاك شهادة .. قهقه زكرياء :- اعمل بيها ايه يا

باشا ..؟!.هو أنا ضامن اخرج من هنا من الأساس

أكد مختار :- هاتخرج يا زكرياء ..خبر ايه ! ده إنت اللي

قايل لى بعضمة لسإنك إنك متأكد من كرم ربنا و إنك

هاتخرج عشان إنت برئ و عشان ابنك اللي مستنيك تربيه

..صح و لا ايه ..؟!..

همس زكرياء متنهدا :- و نعم بالله يا باشا ..

.....

هتف مختار في حماسة :- بص بقى ..أنا هقدم لك على محو الأمية عشان تاخد شهادتها و تعرف تكمل و اجيب لك الكتب و هعرفك على كذا مسجون كده هيفيدوك جامد في المذاكرة .. و الباقى بقى عليك .. هاا .. قلت ايه ..؟!..

ابتسم زكرياء في سعادة :- جلت لا اله الا الله..موافج طبعا حد يرفض طلب العلم ..

هتف مختار منتشياً :- اتفقنا يا صعيدي.؟؟.

و إنفجر ضاحكاً و هو يمازح زكرياء هاتفاً :

- و الله لأفضل وراك يا زكرياء لحد ما تبقى دكتور ..

هتف زكرياء مازحاً و هو يغادر في سعادة :

- اتفقنا يا باشا.. هو أنا اجدر اكسر أوامر الحَكومة .. و الله و هاتبجى داكتور يا زكرياء

..ليعاود العميد مختار قهقهاته ..

.....

****

هتف عاصم و هو يهبط الدرج :- يا ام سعيد !؟.. ظهرت المرأة في ثوإن ملبية :

- نعم يا عاصم بيه ..!؟..

سال عاصم :- حضرتوا الزيارة اللي بنبعتوها لزكرياء كل أسبوع ..!؟..

أكدت المرأة :- أمال ايه يا عاصم بيه .. اساسي .. ده أني ونچاة مرت ولدي واجفين نحضروها من الفچر..

ابتسم عاصم :- تسلمى يا ام سعيد ..

وصل عند مجلس الحاجة فضيلة و التي كانت تتناول فنجان قهوتها في استمتاع لينحنى يقبل جبينها هاتفاً في محبة :

-صباح الخير يا حاچة .. برضك بتشربى جهوة و الداكتور محرچ عليكي عشان ضغطك ميعلاشي..

ابتسمت الحاجة فضيلة :

- صباح السعادة يا نور عينىّ ..جولى بجى مين بياخد على كلام الدكاترة .. !!.. متكليشي .. متشربيشي.. يعني كلنا و شربنا طول عمرنا هايجوا يحرموا الاكل والشرب دلوجت و احنا خلاص بناخد نفسنا من الدنيا ..

هتف عاصم بضيق :- واه يا حاجة .. ليه السيرة دي ع الصبح .. ربنا يبارك لنا ف في عمرك ..

ابتسمت فضيلة لخوف ولدها عليها و هتفت متسائلة :

- هي زهرة لساتها نايمة ..!؟؟..

أكد عاصم :- اه .. العيال طلعوا عينها عشية ..و راس كل واحد فيهم إنشف من الحجر و مرضيش ينام ..

.....

إنفجرت الحاجة فضيلة ضاحكة :- مش جيبينه من بره .. عنلوم عليهم ليه ..!؟..

.....

شاركها عاصم قهقهاتها و استرعى إنتباهه زهرة التي تهم بنزول الدرج و هي تحمل اطفالها .. إندفع يصعد الدرج ليقابلها في منتصف المسافة حاملا عنها سندس هامساً في مشاكسة :- اتوحشتك ..

نظرت اليه نظرة معاتبة و هي تهمس :

- اه صحيح .. بأماره ما قلت لك هنيم الولاد و أجيلك ..

طلعت عينى معاهم و في الاخر ادخل الاقيك بتشخر و في سابع نومة ..

امسك ضحكاته و هو على وشك الوصول لمجلس امه هامساً :- هعوضك ..

.....

هتفت زهرة تتصنع إنها لم تسمع وعده عندما وصلت لمجلس خالتها :

- صباح الخير يا خالتي ..

هتفت فضيلة :

.....

- صباح الخير يا عيون خالتك .. ايه ..؟!..

عذبوكِ العيال دوول .. عاصم جالي.

تنهدت زهرة :- اه و الله .. دماغهم مصفحة و مفيش نوم خاالص ..

إنفجرت فضيلة ضاحكة :- دماغهم مصفحة زي ابوهم ..

همست زهرة بنبرة ساخرة بجوار اذن عاصم :

- يا ريتهم زي ابوهم .. كانوا ناموا و سابوني .. زي كل مرة اروح إنيمهم فيها..

.....

امسك ضحكاته و هو يقذف سندس للهواء متلاعبا بها و معها .. و نظر إلى زهرة نظرة جانبية فهو يعلم إنها على حق .. فمنذ ولادة توأمهما و هي تنشغل معهما وهو مع ازدياد الأشغال هنا وهناك يصل للسرايّ و هو في قمة الإرهاق غير قادر على البقاء معها كما السابق و التمتع بصحبتها ..

.....

ترك سندس من يديه ارضا و التي تذمرت بدورها لأن ابيها كف عن لهوه معها حمل مهران مداعبا لينال نصيبه من مداعبات ابيه .. دقائق و إندفع ناهضاً في تعجل :

- أنا جايم اتسبح و اروح اشوف حالي ..

هتفت امه :- ايه .. مش هاتفطر ..؟؟..

.....

رد عاصم :- حضروا الفطور على بال ما إنزل ..ثم هتف وقد وصل لاعلى الدرج :

- زهررررة .. تعالي اكويلى چلبيتى اللي هرخچ بيها ..

هتفت فضيلة :-جومي يا بتي ورا چوزك ..و العيال معايا متجلجيش عليهم ..

أومأت موافقة وصعدت الدرج خلف عاصم و ما إن همت بفتح الباب حتى فُتح فجأة لتجذبها كفه للداخل ويغلق الباب خلفها ..

اخذها بين ذراعيه هامساً بمشاكسة :

.....

- مش جلت هعوضك .. و أنا بحب اخلص ديوني اول بأول و ميبجاش ليا دين على حد ..

إنفجرت ضاحكة :- يا أبو مهران يا حقاني..

شاركها ضحكاتها و هو يأسرها بين ذراعيه.

.....

****

صرخ سنجأ مهللاً و هو يحتضن زكرياء في سعادة :

- الف مبرووك يا هواري .. و الله و خدت محو الأمية و بجيت من بتوع الشهادات ..

إنفجر زكرياء مقهقها :

- واه .. شهادات مرة واحدة .. دي محو الأمية يا فجرى اومال لو خدت اللي بيجولوا عليها دي ..ال.. داكتورة عاتعمل ايه ..؟!..

قهقه سنجأ :- المهم إنك نجحت ولازماً نهيص النهاردة .. و المعلم سيد ما هيصدج

.....

هتف زكرياء :- خليها علي المرة دي .. أنا جيإلى الزيارة اللي بتاجيني من البلد كل سبوع ..

.....

هتف سنجأ مهللاً من جديد :- اللّه اكبر.. يبجى ظفر(لحوم) للصبح يا هواري ..

قهقه زكرياء و هو يربت على كتفه دافعا أياه في محبة :- ايوه يا فپعإن .. روح چمع الناس عجبال ما اروح استلم الزيارة و اجيكم خلي الناس تاكل و تفرح..

إندفع سنجأ كالريح هاتفاً :- هوا .. ده الكل هياكل و يدعيلك ..

ابتسم زكرياء في أعقاب سنجأ وهو يتوجه لمكتب المأمور محييا ليستلم تلك الزيارة الغذائية التي تأتيه كل أسبوع من النجع ..

تنهد في شوق إلى امه و طعام امه و شكر سرا في امتنان عاصم ابن عمه الذي ما نسيه في مرة قط منذ دخل

السجن منذ اكثر من عامين و لم يخلف موعد إرساله الزيارة في أي وقت و مهما كانت الظروف ..

****

صرخات رجت أركان الحارة و هرج و مرج .. هتفت نعمة متوجسة و هي تندفع للشرفة تستطلع الامر :- ستركِ يا رب ..

أوقفت نعمة احدي السيدات القادمة من أتجاه الصرخات تضرب كف بكف متحسرة لتسألها في فضول :- ايه اللي جرى يا خالة..؟!.. مين اللي بيصرخ كِده ..؟!..

هتفت السيدة المسنة في حزن :

.....

- دي البت صباح بت مرعي .. الواد حينش جوزها رمى عليها مية نار و جرى ..

هتفت نعمة متعجبة :

.....

- هم مش كانوا بيقولوا أطلقت منه ..؟!.. عايز منها ايه بقى ..؟!..

هتفت السيدة :

- لا مطلقهاش .. و الظاهر لما عرف إن مفيش فايدة و هي مش عايزة ترجع له .. راح قال يا تبقى ليا يا متبقاش لغيرى.. حرق وشها منه لله البعيد ..

همت نعمة بالرد لكنها لمحت المعلم خميس يقترب من منزلهما لتشكر السيدة و تدخل لتستقبله على الباب ..

.....

لحظات و ظهر امام عتبته لتبتسم له في سعادة و هو يدخل متمدداً على الأريكة هاتفاً:- ازيك يا نعمة .. حضرتى الغدا يا قمر ..

أكدت باسمة :- اه يا معلم هو أنا اقدر أتأخر .. عارفة إنك راجع تاكل و تأيل(تنام) شوية قبل ما ترجع القهوة تاني

..ألا قولى يا معلم ..ايه اللي هببه حينش ده ..

صحيح رمى مية نار على البت صباح ..؟!..

هتف مؤكدا :- يووه .. دي الدنيا كانت والعة قدام بيت مرعى .. البت كانت خارجة من بيت ابوها راح ده مستنيها و عمل عملته و طلع يجرى .. والبت اهي ربنا ينجيها بقى.؟!..

.....

تحسرت نعمة :- ياما حذرناها من الواد حينش ده .. و ابوها مكنش راضى بيه قبل ما يقول عليها السمري ..و برضة رجعت له تاني ..ربنا يسترها على ولاياه...

ساد الصمت للحظات قبل إن ينهض خميس ليبدل ملابسه ليتوقف أمامها مستفسراً:

- أمي غدتيها ..؟!..و الواد حازم ..؟!..

أكدت من جديد :

- أمال يا معلم .. دي اول واحدة بحط لها تاكل و بأكلها بايدي كمان ..

.....

أنا عارفة إن صحتها على قدها و عشان تاخد دواها

ربنا يشفيها ..وحازم نايم ..يصحى و أكله ..اقترب منها

خميس هامساً :- و الله إنت نعمة يا نعمة ..

.....

توردت خجلاً هامسة :- تسلملي يا معلم ربنا يخليك ليا ..

و دفعت به لحجرتهما هامسة من جديد عندما بدأ في

مغازلتها :

- معلم .. العيال هنا .. ادخل بقى غير هدومك على بال ما

احط الاكل ..

جذبها اليه هامساً من جديد في نبرة مشاغبة قاصدا

تقبيلها:

- طب شفطة عناب صغيرة..!؟..

قهقهت هاتفة :- هو في حد بيحلى قبل الاكل يا معلم ..

!!!...

شاركها قهقهاتها و هو يندفع لغرفته لتبديل ملابسه ..

.....

****

دخل عاصم غرفته ليجدها مظلمة مما يعني أن زهرة قد غطت فى النوم منذ فترة .. ليس من عاداتها إن تنام قبل رجوعه للسرايّ لكن احيأنا يغلبها النوم بسبب صراعها اليومي مع سندس و مهران و قد اضحى كلاهما فى الرابعة من عمره تقريبا ..

تنبه لجسدها الممدد على جانب الفراش الخاص بها دخل الحمام يلقى تعب يومه تحت رذاذ المياه ليخرج ليتمدد على طرفه من الفراش فى هدوء كى لا يوقظها ..

لحظات مرت و اخيراً سمع صوتها هامسا :- عاصم .. إنت صاحي ..؟!..

إنتبه لهمسها ليقترب من جانبها محيطا إياها بذراعه هاتفا فى شوق :

- كنت فاكرك نايمة

همست نافية :- لا مكنتش نايمة .. بس كنت بفكر ..

كانت لاتزل توليه ظهرها فاستدارت بجذعها و نظرت اليه هامسة :- كنت بفكر فيك .. همس بدوره فى سعادة و هو يضمها اليه اكثر :- كيف يعني بتفكري فيا ..؟!..

نظرت إلى عمق عينيه هامسة :

- كنت بفكر فى رد فعلك .. يا ترى هاتعمل ايه ..؟!..

نظر اليها متحيرا :- هعمل ايه فى ايه ؟!..

همست بصوت متردد النبرات :- لما تعرف إن الهوارية هيزيدوا واحد ..

.....

هتف فى سعادة مصححا :- لاااه .. جصدك التهامية .. ما أمي جالتلى على حمل سهام .. ربنا يجومها بالسلامة ..

هتفت و قد استدارت بكليتها تجاهه و أمسكت بكفه تضعها على بطنها :

.....

- لاااا .. الهوارية يا عاصم .. أنا كمان حامل ..

و ابتسمت محاولة تلطيف الأجواء بعد تصريحها الذي على ما يبدو لم يستوعبه عاصم بعد لإنه لم يأتِ بأى رد فعل و هتفت :- و يمكن يكون أتنين.. الله اعلم ..

لازال الصمت هو رد الفعل الوحيد من جانب عاصم و هو يضع يده على بطن زهرة و ينظر اليها شاردا ليهمس اخيراً فى هدوء :- إنتِ متأكدة .. ؟!

.....

اومأت برأسها ايجابا لتؤكد إنها بالفعل حامل و قد تأكدت من ذلك ..

همس فى شرود مجددا :- مبرووك.. و طبع قبلة باهتة على جبينها قبل أن يستدير موليا ظهره لها متصنعا النعاس .. ظلت هي على حالها للحظات متعجبة من ردة فعله لا تعرف ما يجب عليها صنعه فى تلك الحالة .. فدوما كان رد فعل عاصم صريح وواضح .. اما الرفض التام و توضيح ذلك أو

القبول بالأمر فى سعادة و رضا .. اما رد الفعل المتأرجح هذا ما بين الرفض و القبول لا تعرف كيف يمكنها التصرف حياله ..تمددت بدورها مولية ظهرها تفكر .. و اخيراً أنار عقلها خاطر ما قد يكون هو السبب فى رد فعله العجيب .. و تساءلت .. هل يمكنه ان يكون معتقدا فى تعمدها الحمل دون إن تستشيره ..!!..لما لا ..؟!.. و قد يكون هذا السبب هو ما جعله يستقبل الخبر بهذا البرود الذي لم تعهده من قبله ..

استدارت فى هدوء و هي على يقين إنه لم ينم بعد لتقترب من ظهره هامسة بالقرب من أذنه مؤكدة :

- على فكرة يا عاصم .. الحمل حصل من غير تعمد منى .. أنا مكنتش ممكن اقرر حاجة زي دي من وراك .. و من غير علمك أو مشورتك .. دي هدية من ربنا .. تصبح على خير ..

و ابتعدت مرة اخرى لجانبها من الفراش ليتنهد هو فى محاولة للراحة و السكينة ..

بالفعل هذا ما جال بخاطره .. هي لم تستشره فى امر كهذا .. كيف لها ذلك ..؟!.. لقد اعتقد إنها ربما شعرت بالغيرة من سهام ..كمعظم النساء .. و أنها ما إن سمعت بنبأ حملها الثالث حتى أسرعت تقلدها رغبة فى الإنجاب الذي كان يعلم تطلعها اليه فى شوق مرة اخرى .. و تعلم أيضا ممانعته خوفا و رعبا عليها .. الآن .. هو لا يستطيع الاقتراب منها ليطيب خاطرها لردة فعله الباردة لإنه سيؤكد لها صحة معتقدها الذي همست به فى أذنه منذ دقائق و فى نفس اللحظة لا يستطيع إن يتركها تنام هكذا وهي تشعر بالحزن و القهر ..

زفر من جديد و اخيراً نهض من الفراش ينفض جلبابه فى ضيق تاركا الغرفة بأكملها

.....

ظلت تتقلب الليل بطوله على جمر حتى عاد قبيل الفجر فتصنعت النوم عندما شعرت بدخوله الغرفة اقترب منها فى هدوء و إنحنى يقبل جبينها و يملس على بطنها برفق حتى لا يوقظها .. و اخيراً أستدار ليتمدد بجوارها و يغط فى نوم عميق لتبتسم هي وتتبعه لدنيا الأحلام ..

لتنهض على جلبة قادمة من الناحية الخلفية للسراىّ و صوت زغاريد ترتفع هنا و هناك ..أستبشرت خيرا و تجهزت لتندفع فى سرعة لترى ما يحدث بالأسفل ..

ما إن طالعتها خالتها حتى هتفت فى سعادة :- اللّه اكبر .. ربنا يحرسك يا بتي ..

ابتسمت زهرة و هي تقبل رأسها :

- ربنا يخليكى يا خالتي .. بس خير ايه الدوشة دي و الزغاريد دي كلها على الصبح ..؟!.

ابتسمت الحاجة فضيلة فى سعادة :

.....

- يعني منتيش عارفة عاصم .. اول ما عرف بحملك جام من الفپر و چهز الدبايح .. جال لله .. عشان الغلابة تاكل ..فرحان بحملك ..عجبال ما تجوميلنا إنت و سهام بالسلامة ..

همست فى سعادة :- صحيح ..؟!..

اكدت الحاجة فضيلة مقهقهة :- ايووه .. امال دي كله ليه ..؟!.. عشاني ..؟!.. عجبال ما تچيبوا دستة...

ابتسمت زهرة هاتفة :- بس هو يرضى .. و يدينى فرصتي ..

قهقهت فضيلة هاتفة :

- خايف عليكى يا حبيبتى .. اصلك إنتِ حملك واعر ..و ولادتك أوعر .. دِه يوم مهران و سندس و الله كان هيمسك السما بيده من جلجه عَلَيْكِ.

.....

.....

ابتسمت زهرة فى سعادة و لم تعقب ليدخل عاصم منتشيا ينظر اليها فى فرحة و قد ايقنت من نظراته إنه يطيب بخاطرها بعد ما فعله بالامس ..

اتسعت ابتسامتها و هي تتطلع اليه مؤكدة إنها قبلت منه اعتذاره العملي كالعادة ..

****

دخلت نعمة تحمل حازم البالغ من العمر ثلاث سنوات تقريبا إلى حجرة المشفى القابعة بها صباح بعد إن نجت من فعلة حينش الحقيرة .. ابتسمت عندما طالعها مرأى نعمة وحازم على ذراعها هاتفة في سعادة :- اهلا يا نعمة .. و الله فيكِ الخير

و جاية تطلي عليا ..

.....

هتفت نعمة و هي تجلس على الكرسي الملاصق للفراش و تضع حازم على فخذها:

.....

- الله ..هو مش احنا جيران وولاد حتة واحدة و لا ايه ..؟.. ربنا يشفيكِ ويجازي اللي كان السبب ..

بكت صباح في لوعة و هي تحكم غطاء رأسها حول رقبتها و جانب وجهها المصاب

حتى لا يظهر ذاك الجزء المشوه من رقبتها و اعلى صدغها فعلى الرغم من إنها استطاعت إن تضع حقيبتها في مقابل وجهها تتفادي ما ألقاه حينش من مادة حارقة باتجاهها الا إنها وصلت لما أسفل اذنها اليمنى وجانب وجهها و اعلى الرقبة ..

.....

لحظات مضت من الصمت حتى تمالكت صباح نفسها و نظرت إلى حازم هاتفة بصوت متأثر :- هو ده بن بدور ..؟.. الله أكبر عليه يشبها كتير ..

.....

ابتسمت نعمة و هي تقبل رأس حازم القابعة في وداعة بأحضانها :- اه .. هو يا حبة عينىّ .. بن زكرياء و بدور الله يرحمها ..

إنفجرت صباح باكية بشكل مباغت جفل منه حازم و تعجبت له نعمة التي همست بتعاطف :- خلاص بقى يا صباح .. سلمى امرك لله .. ده ربك قدر و ستر ..

هتفت صباح في لوعة و بنبرة تحمل الكثير من الشعور بالذنب :

- أنا السبب ده ذنب ربنا بيعاقبني باللي حصل لى ده .. أنا عارفة ..

.....

هتفت نعمة مستفسرة:- ذنب ايه بعد الشر !؟.استهدي بالله كده ..

استطردت صباح كانها لم تسمع نعمة و كانها تلقى بحمل ظل لسنين جاثم على صدرها :

.....

- حينش هو السبب .. منه لله ..بعد كتب كتابى على السمري بليلتين ..يوم ما حصلت الحريقة في قهوة المعلم خميس و لقوا زكرياء سايح في دمه .. لقيت حينش جايلى بيت ابويا و بيدينى كيس سلمهولي بسرعة و قإلى ده أمإنة عندك لحد ما اطلبه ..طبعا كنت خايفة حد يشوفنا خدت منه الكيس و وأنا بخبيته زي ما قإلى فتحت الكيس اشوف فيه ايه اتسرعت و قفلته بسرعة .. لقيت سكينة عم طايع بتاع البطيخ ..

.....

شهقت نعمة و قد استنتجت الباقي و لكنها لم تقاطع صباح التي أكملت مأخوذة بالراحة التي غمرتها جراء اعترافها :

- قبل ما يتقتل السمري بكام ساعة .. عدا عليا حينش و خد الكيس .. خفت و قلت له هاتعمل بيها ايه السكينة دي ..!!؟.. قإلى إنت مش هتكونى لغيرى و لو

حصل ايه ..؟!.. و خد الكيس و اختفى .. و صحينا على الصريخ و خبر موت السمري مقتول في شقة الإنس بتاعته..بعد فترة كده و لما اطمن حينش إن زكرياء لبس القضية و هرب كمان ..ظهر و أتقدم لي .. و اتجوزنا .. و كانوا اسود سنتين

في حياتى كلها ..و أدي اخرتها ..منه لله ..مش هرتاح الا لما اشوفه متعلق في حبل المشنقة ..

.....

بكت نعمة بفرحة غير مصدقة هاتفة :- إنت لازماً تشهدي بالكلام ده عشان زكرياء يخرج منها .. عشان خاطر ابنه و تكفرى عن اللي عملتيه فيهم ..

ترددت صباح :- بس أنا خايفة يا نعمة .. دوول حتى لسه ممسكهوش حنيش ..

هتفت نعمة مشجعة :

.....

- خايفة من ايه ..!؟.. محدش هيعرف الكلام اللي إنتِ قولتيهولى ده ..و متعرفيش حد بيه الا لما يمسكوه .. ساعتها تبقى اطمنتي إنه ميتعرضلكيش تاني و تبقى إنتقمتي منه على اللي عمله فيكِ و رجعتى لابن بدور حقه بخروج ابوه بالسلامة ..

هتفت صباح :- طب خلاص .. على قولك استنى لما يتمسك عشان اضمن إنه ميخرجش منها الا على المشنقة .. بس إنت أوعى تجيبى سيرة و الكلام يتنطور..

أكدت نعمة بثقة :- و لا هفتح بقى لمخلوق ..

كلتاهما كانت تعتقد إن كلامهما لا يسمعه احد غيرهما و لم تكن تعي اي منهما إن هناك من كان يسترق السمع على عتبة باب حجرة صباح دون ان يلحظه احد..

****

.....

.....

www.hakawelkotob.com

-١١-

نادت بخيتة بصوت عالي :- كسبانة .. إنت فين يا بت ..؟!..

إندفعت كسبانة ملبية النداء هاتفة :

- أنا هو يا خالتي .. خيير ..؟!.. احضرلك الفطور..

دعكت بخيتة عيونها بألم منذ مرضهما الأخير :

- اه .. اعمليلي أحلى فطور النهاردة .. أنا چعانة جووى ..

هتفت كسبانة متعجبة :- مش بعادة يا خالتي.. ايه اللي فاتح نفسك جووى كِده النهاردة ..!!..

هتفت بخيتة في سعادة :- اصلك شوفته يا بت .. شوفته ..؟!..

سألت كسبانة :- هو مين يا خالتي ..؟!..

.....

هتفت بخيتة :- هيكون مين يا مخبلة..!معلوم مين .. زكرياء ولدي ..

همست كسبانة :- ما هو عادي يا خالتي ما إنت ليلاتى بتشوفيه و تصحى باكية و هو اللي حُصل لعنيكِ دِه من شوية ..!؟..

أكدت بخيتة :- لاااه .. مش زي كل نوبة يا بتى .. النوبة دي غير .. زكرياء طالع باذن الله ..

هتفت كسبانة في سعادة :- سي زكرياء راجع على هنا ..!؟..

هتفت بخيتة :- زكرياء مش راجع على هنا تاني يا بتى الا لما يلاجى زكرياء ..

تعجبت كسبانة :- ايه الخربطة دي يا خالتي.. مين اللي يلاجى مين ..!؟..

.....

قهقهت بخيتة :- متخديش ف بالك .. اجرى ياللاه .. أنا چعت ..

إنتفضت كسبانة مسرعة :- اهاا حاضر .. من عنايا ..

****

.....

تسلل ذلك الظل من احدي العطفات الضيقة بقلب الحارة بتلك الساعة المتأخرة من الليل

بعد إن أغلق المعلم خميس مقهاه و عم الهدوء ارجاء الحارة الا من نباح بعض الكلاب .. ظهر حينش في مقابلة ذاك الشبح الذي جاء يعرج على تلك القدم المصابة مستندا على الحائط خلفه ..

هتف حينش متعجلا :- عايز ايه يا طايع و سر ايه اللي إنكشف ده اللي باعت تقول عليه..؟! ..

هتف طايع في سخرية :- سر سكينتى و موت السمري .. أقول كمان .. و لا كفاية كده ..؟!..

هتف حينش قابضا بكفيه بتلابيب سترة طايع المهترئة :- قصدك ايه ..؟!.. إنطق دغرى.

همس طايع :- مراتك .. فتشت السر كله .. و هتبلغ النيابة عشان تطلع نفسها من القضية و تلبسك البدلة الحمرا .. دي حالفة لتنتقم منك على اللي عملته فيها .. وتشفى غليلها و هي شيفاك بتتطوح على حبل المشنقة ..

دفع حينش بطايع في غضب و اضطراب واضح هامساً بغل :

- بت ال.. هي اللي جنت على روحها .. مااشي يا صباح ..

و عاد ليمسك بعنق طايع الا ان طايع هدأه هاتفاً :

- أنا راجلك و خدامك .. و لو كنت عايز اسكت بعد ما سمعت اللي سمعته منها كنت سكت و مقلتلكش بس قلت لازم اقولك عشان تخلص منها قبل ما تفتح بقها .. بس أنا مش طالب كتير ..يعني كلك نظر .. تعويض بسيط عن

رجلى اللي راحت بسببك إنت و رجالة السمري .. و

ساعتها مش هتلاقينى في الحارة لا أنا و لا بنتى ..

دفعه حينش من جديد هاتفاً :

- اللي إنت عايزه هيجيلك بس مشفش وشك تاني هنا و الا

هتكون محصل السمري و.. بنتك ..

و ابتسم ابتسامة صفراء ممجوجة مستطرداً

هتكون من نصيبي .. سامعني ..؟؟.. اومأ طايع بالإيجاب

دون ان ينطق بحرف واحد و هو يرى حينش يغادر في سرعة

متخفيا قبل إن يبدأ المواظبون على صلاة الفجر في التوافد

..

****

تعالت الهتافات و التهليلات داخل عنبر المعلم سيد و

الذي استضاف العديد من المساجين من العنابر الأخرى

للاحتفال بخروج سنجأ .. كان الجميع متجمعين حول تلك

الوليمة التي اصر المعلم سيد كعادته على تحضيرها بمناسبة و بدون مناسبة ..بالاشتراك مع زيارة زكرياء الأسبوعية الثمينة التي تأتيه من النجع بشكل منتظم لم يخلف موعده و التي دوما تكون محملة بما لذ و طاب من المأكولات و المخبوزات الصعيدية ..

هتف الجميع بعد الإنتهاء من القضاء على الوليمة و الاسترخاء باسم سنجأ داعيينه للغناء و التفريح عنهم بصوته الساحر و خاصة إنهم سيحرموا منه قريبا جداا ..

وقف سنجأ وسطهم و بدأ التشجيع و التهليل باسمه فأبتسم و حياهم و بدأ يشدو باستمتاع كعادته :

-

.....

چدع بلا چاه مرسي الهموم چلبه

دايما يجول الآه والذنب مش ذنبه

ده أنا لو شكيت وبكيت چبل الحديد هيدوب

الأوله غربتي.. والتانية المكتوب

چرحي الچديم يا غريب أنا كنت راضي به

چرحي الچديد يا حكيم زود لهاليبه

يا أهل العرب والطرب العدل مين سيده

سيده ويا للعچب وطى وباس ايده

ساد الصمت و سنجأ يغنى و يسحرهم وكان على رؤسهم الطير .. كان يغنى و كان كل منهم يعتبر إن الكلام موجه له شخصيا حتى زكرياء شعر بمعنى كل كلمة في الاغنية و كانها تصف حاله بكل تفاصيله و دمعت عيناه عندما تذكر بدور .. و أيامه معها و ذكرياته التي يسكنها و تسكنه ..

.....

و ما إن إنتهى سنجأ حتى هتف الجميع منتشين رغبة في المزيد فظل سنجأ يشدو ويشدو حتى هتف زكرياء عند إنتهاء اخر أغإنيه :

.....

- و اللّه الواحد فرحإن إن إنت خارچ يا سنچأ ..

هتف سنجأ في سعادة :- تسلم يا صاحبي ..

شاكسه زكرياء على مسمع من الجميع مستطرداً :

- إنت فاكر إن أني فرحان عشان إنت هتسيب السچن و كِده .. لااه .. عشان احنا هنترحموا من وصلة النكد اللي بتسمعهلنا يا فجري ..

إنفجر الجميع مقهقهين و اولهم المعلم سيد الذي كان هذا دوما رأيه فيما يغنيه سنجأ ..

هتف سنجأ حانقاً :- بجى كِده يا هواري ..؟!

.....

نهض زكرياء متوجها اليه و طوق سنجأ محتضناً أياه

في محبة رابتاً على كتفه في قوة هامساً :- تخرچ بالسلامة

يا يونس .. روحة بلا رچعة ..

.....

نظر سنجأ اليه متعجباً :- يونس ..!!؟.. اول مرة تنادينى

باسمي مع إنك تِعرفه من زمن..!؟..

همس زكرياء :- عشان خلاص .. إنت خارچ .. إنسي سنچأ و

أيامه .. و متبجاش غير يونس .. و أوعى تغيب عن اسمك

تاني .. اسمك هو إنت يا يونس ..

اومأ يونس متفهما ليربت زكرياء على كتفه و ينتحى به

جانبا هامساً له :

- إنت هاتخرچ من هنا على النچع ..

هتف يونس متعجباً :- نچع الصالح بلدكم !؟

اومأ زكرياء بالإيجاب مستطرداً :

.....

- ايوه إنت مينفعشى ترچع للى كنت فيه .. شغل الموالد و البلطچة ..أنا بعت لعاصم واد عمي و جلتله عليك .. و هو عِمل اللازم وبنى لك أوضة چار دارى ..و هيخليك تراعى ارضى و يديك نصيبك على كد تعبك ..

إندفع يونس متأثرا يحاول تقبيل يد زكرياء الذي جذبها بعيدا في ضيق هاتفاً :

- واه .. بتعمل ايه يا حزين ..؟!..

هتف يونس بصوت متحشرج :

- أچولك ايه يا زكرياء ..؟!.. و أرد لك چمايلك دي كلها كيف ..؟!.. و الله يا هواري .. التلت سنين اللي فاتوا من ساعة ما وعيت لك داخل علينا العنبر و عرفتك و أنا حاسس إن السچن معدش سچن بوچودك.. هونت عليا كَتيير جووى يا واد عمي ..

.....

ابتسم زكرياء في محبة صادقة :- ربنا يهونها علينا كلنا يا يونس ..

.....

هتف يونس بصدق :- ياارب .. و ألاجيك محصلني باذن الله ..

همس زكرياء بقلب واجف و روح متضرعة:- يااارب ..

****

كانت صباح نائمة في سكون على فراشها تغط في نوم عميق بفعل تلك العقاقير التي تتناولها لتسكن ألمها لذا لم تتنبه لذاك الشبح الذي تسلل فاتحا باب غرفتها في حذر و أغلقه خلفه ليقترب منها في حرص شديد أين يضع خطواته حتى لا يوقظها فتلك هي الفرصة الوحيدة الباقية له للخلاص منها قبل إن تتفوه بكلمة واحدة وتضع حبل المشنقة حول رقبته ..

.....

وصل لفراشها و اقترب من حافته ..إنحنى و هو يتناول من على طرف الفراش وسادة ليضعها على وجه صباح بغرض خنقها و قطع الإنفاس عن رئتيها لترحل في هدوء .. و بالفعل رفع الوسادة و ما إن هم بوضعها على وجهها حتى سطع نور الغرفة ووجد نفسه في لحظات محاطا بالعديد من العساكر و ضباط الشرطة مشهرى السلاح في وجهه .. و عرف انها النهاية و لا سبيل للمقاومة فإنصاع لاوامر الضابط مستسلما ..

****

هتفت كسبانة متسائلة في ضيق و هي تضع طينية الطعام امام بخيتة :

- هو الراجل اللي بره دِه هايجعد على طول هنا ..صُح يا خالتي؟!..

.....

.....

هتفت بخيتة :

- جصدك مين .. يونس.؟!..اه هيجعد معأنا .. مسمعتيش عاصم بيه و هو بيجول إنه من طرف زكرياء و عايزه يراعى ارضه .. ما إنتِ كنتِ حاضرة و واعية للحديت ..؟!.. بس ليه يعني السؤالات دي ..؟!.. الراجل من ساعة ما چه و هو زي النسمة مبنسمعلوش حس ..

هتفت كسبانة بغيظ :- نسمة ..؟!.. چولى وچع راس ..طول اليوم غناوي لما خلاص هطفش منيه ..

إنفجرت بخيتة ضاحكة :

- و الله إنتِ فجرية ..الراچل مش عاچبك عشان حسه حلو و جاعد يغنى طول اليوم .. !!؟..

.....

هتفت كسبانة معترضة :

- لاه مش بس كِده يا خالتي .. أنا كل ما اعرف إنه جتال جتلة و رد سچون جتتى بتتلبش .. و احنا اتنين ولايا لحالنا

.. كمان حمزة أتعود عليه جووى و على طوول وياه

.. وكل ما ادور عليه ألاجيه عِندىه ..

هتفت بخيتة مؤكدة :- طب و هو لو راجل عفش يا كسبانة يا بتي كان زكرياء چابه على هنا و هو واعى لكل اللي جولتيه دِه ..

هتفت كسبانة مترددة لا تدرى بما تجيب:- معرفاش بجى يا خالتي ..

و إندفعت تحضر الطعام لذاك الذي تسمع همهمات غناءه من نافذة مطبخها التي تُفتح على براح الأرض التي يملكها زكرياء و الذي يتولى الاشراف عنها يونس.. او سنجأ سابقا ..

****

.....

واااه .. اجول بووه ويجولوا الحاچة فضيلة اتچننت..؟!..

صرخت الحاجة فضيلة فى أحفادها .. وهم يتقافزون حولها

فى مرح وشقاوة .. صرخاتها استدعت ضحكات سهام وزهرة الجالستإن أمامها .. غير قادرات على التدخل لإنقاذها من عبث أطفالهما .. لتعاود الصراخ من جديد .. ولكن فى سهام وزهرة هذه المرة ..:

- كل واحدة تحوش عيالها .. أنا مش جادرة عليهم .. ولا كل واحدة فيكم فالحة تخلف بس.. ايه داخلين مسابجة!!؟..

إنفجرت كل من زهرة وسهام ضاحكتين.. وبطن كل منهما المنتفخة فى شهورها الاخيرة تهتز بشدة ..

واعادت الحاجة فضيلة هتافها فى الاطفال :

- هات يا واد السبحة .. ابعدي يا بت عن المصلاية.. ثم توجهت بحديثها لزهرة وسهام فى نفاذ صبر :

- بالكم ..؟!.. أنا سيبهالكم إنتوا وعيالكم الجرود دوول وجايمة.. اما أروح اجعد مع الحاج مهران شوية .. بدل جعدتكم اللي تتعب دي ..

وحملت مسبحتها ومصحفها وتحركت فى تثاقل بحكم سنها وتوجهت للدرج تعتليه.. ونظرات سهام وزهرة تتبعها.. حتى ما إن ابتعدت سألت سهام فى حزن :

- هي لساتها يا زهرة .. بتجعد فى أوضة ابويا الله يرحمه .. وتكلمه كنه عايش؟!!..

هزت زهرة رأسها ايجابا وهي تقول :

- آه يا سهام .. احنا على طول مش حابين تفضل لوحدها.. وبنحاول أنا وعاصم نقعد معاها .. بس اديكي شوفتى .. بتتحجج بشقاوة العيال عشان تقعد لوحدها فى أوضة عمي الله يرحمه.... برغم إن روحها فيهم.. بس ... هنعمل ايه ..؟!!.. من يوم ما عمي أتوفى .. وهي مش مصدقة إنه غاب

عنها.. دي أنا بسمعها بتحكيله كل حاجة بتحصل فى السرايا.. كانه سامعها وبيرد عليها .. ومرة دخلت عليها وهي على حالتها دي .. زعقت فيا .. وقالت لي .. محدش يخش عليها هي والحج الا لما يستأذن..

دمعت عينا سهام وهي تهمس :- يا حبيبتي ياما..

طال الصمت حزنا على حال الحاجة فضيلة الا أن هتفت زهرة محاولة اخراج سهام من حالة حزنها على امها .. فهمست بصوت يغلّفه المرح :

- شوفيلك حل فى باسل ابنك ده!!؟.. شايفة بيعمل ايه ..!؟..

إنتبهت سهام عند ذكر اسم باسل ولدها .. لتنفجر ضاحكة على افعال ابنها .. وهو يهتف فى ابنة خاله سندس صارخا :

- تعالي هنا يا بت يا اللي اسمك اوله ذى أخره إنتِ...

تحركت سندس والتي كانت تشبه زهرة لحد كبير ناحية باسل الذي يكبرها بحوالى عامين .. لتقول فى براءة .. وهي تخرج لسانها فى حرف السين .. فيبدو كثاء :

- نعم يا باثل..

هتف باسل مغتاظا :- إنتِ هاتعرفي ميتا تنطجي اسمي صُح!؟..

لتأخذ سندس جانباوتبكى وحيدة .. وهنا يتدخل مهران الصغير دفاعا عن توأمته سندس. :

- إنت بتكلمها كده ليه !؟ عارف يا باسل لو ضايجتها تاني .. هزعلك ..!؟..

لينفجر باسل ضاحكا .. وهو يقول ساخرا :

- طب ابجى وريني .. هتزعلني كيف ..؟!..

كانت كل من زهرة وسهام تشهد هذا الحوار .. تداريان ضحكاتهما .. لتهمس سهام :- ولدي باسل طالع لخاله .. هواري أصيل .. ولا حاجة بتهمه ..

لتنفجر زهرة ضاحكة :

- إنت هتقوليلى..كلهم هوارية حتى مهران سبحان الله كأني شايفة فيه عمي .. عقل وقوة مع بعض ..

هتف مهران مقتربا من امه متسائلا فى حنق:

- هي بنتك الهبلة دي بتسمع كلام باسل ليه و مبتجلوش لاه..؟!.. طلعة لمين دي!!؟..

لتهتف زهرة ضاحكة :- طالعة لامها يا حبيبى

لتقهقه سهام فى المقابل .... التي بادرها مهران متسائلا:

- هي فين تسنيم يا عمتي .. مش بتاجي معاكي ليه ..؟!..

لتجيب سهام متحدثة عن طفلتها التي تصغر مهران بحوالي عامين وهي تنظر لزهرة :

- تسنيم روحها فى جدها جدري .. مش بتفارجه لا فى صحيان ولا فى نوم .. وهو روحه فيها .. تجعد تحت رجله تنفذ له طلباته وهو يحفظها قرآن ..سبحإن اللّه ..مش عارفة البت دي جايبة التجوى دي منين !!؟..

لتنفجر زهرة ضاحكة بدورها .. لتسألها سهام مستفسرة :

- جوليلى ..مفيش اي اخبار .. عن ندى ونبيل ..؟!؟.. أنا بطلت اسأل حسام من زمن..

لتؤمى زهرة برأسها نفياً :

- للاسف يا سهام مفيش.. اهو شوفى بقالهم أكتر من خمس سنين متجوزين .. وربنا مأردش باولاد .. ندى قالت لى فى اخر مكالمة بنَا .. إنها رايحة لدكتور جديد .. وَيَا رب يكون فى ايده الشفا ..دعواتك ..

لتهتف سهام فى صدق :- يااارب.

لتستطرد سهام متسائلة :- طب و زكرياء ..!!؟.. برضك لِسَّه مخرجش من السجن ..!!.. ولا بعت لعاصم يشوفه ...!!..ده أمه الحاجة بخيتة تلاجيها هتموت عليه .

هزت زهرة رأسها نفياً وهي تعقب قائلة :

- كسبانة بتقول إنه بيكلم أمه على فترات بعيدة .. وأهي البت كسبانة طلعت جدعة وبتراعيها و قاعدة مبسوطة معاها هي وابنها.. حد يقول كده بزمتك .. زكرياء ينسجن و اخوه سليم اللي يستاهل الشنق ميتمسكش لحد دلوقتي ..!؟..

ما إن همت سهام بإجابة زهرة حتى صمتت فجأة وإنتبه الجميع وقطعوا استرسال حديثهم .. وخاصة زهرة التي ارتسم على وجهها الوجوم .. عندما دخلت سمية باكية كعادتها يتبعها طفلاها صارخة :

- وينه واد عمي!!؟؟ .. يشوفلي صرفة مع عدلي بن محروس..

هتفت سهام فى نبرة من اعتاد على هذا المشهد :

- خير يا سمية .. ايه حُصل تاني ..!!؟

صرخت سمية :

- خلاص مجدراش استحمله.. لا هو ولا أمه..اللّه يرحمك ياما جالتلي بلاش.. وأنا اللي ركبت راسي واتجوزته بن أمه ده.

دخل عاصم فى تلك اللحظة هاتفاً بغضب فى سمية :

- كيف تجولي على چوزك كده .. !!؟.. چوزك سيد الرچالة ..

إنتفضت فى صدمة لظهور عاصم المفاجئ لكنها استطردت باكية:

- ماهو يا واد عمي .. أصله عمره ما عمل لى خاطر .. وعلى طول جالل من جيمتى ..

رق عاصم لبكاءها فهتف :- خلاص يا سمية بس إنتِ برضك راعى إنه چوزك وأبو عيالك

هنا هتفت زهرة :- أه .. عاصم ..ألحقني..

إندفع عاصم باتجاهها هاتفاً :- ايه خير .. نطلع على المستشفى..

استندت عليه ناهضة :- لا .. عايزة استريح فوق شوية ..

مصمصت سمية شفتاها وجذبت اطفالها خارجا وهي تلقى التحية بحقد .. بينما إنفجرت سهام ضاحكة وهي تلقى التحية هي الاخرى راحلة ترى زهرة تتكئ على عاصم فى دلال صاعدا الدرج.. وفى اعلى الدرج عندما تاكد عاصم من رحيل اخته وابنة عمه حملها بين ذراعيه فى سعادة على الرغم من علمه إن زهرة بصحة جيدة ولا تعأني أيه آلام سار متخطياً تلك الردهة وهو ينظر اليها مشاكساً.. وما إن وصل بها امام غرفتهما حتى همس بإذنها :

-إنت مش هتبطلى عمايلك دي كل اما تشوفى سمية ..؟!

هتفت كطفلة مشاغبة :- لا .. مش هبطل .

إنفجر ضاحكا أمرا :- طب .. افتحي الباب..

لتهلل هي كطفلة صغيرة :- لا .. خليني كده شوية..

فتتعالي قهقهاته..وهو يقول :- وماله .. خليكي

لتهمس وهي تتعلق برقبته وتشبك كفيها خلف عنقه..

متصنعة العتاب :

- ايه خلاص .. تقلت عليك أنا واللي فى بطني..؟!..

همس بشوق على مسامعها :- ولو مية سنة يا زهرة ..

مدت كفها لتدير مقبض الباب .. ونظراتها متعلقة به وهي

تهمس بشوق :

- وااه .. بحبك يا واد خالتي ..

لينفجر ضاحكا وهو يدفع الباب بقدمه..ليدلفا للغرفة ..

فتمد كفها تغلق الباب

****

مر الكثير من الوقت تمنى إن يلمح طيفها حتى لكن ضنت عليه به منذ اخر مره زارته فيها يوم إصابته فداءًللعميد مختار .. من يومها لم يرها و لا زاره طيفها مما أورثه الكثير من الحزن و الضيق فزيارتها له حتى وإن كانت حلما تخفف عنه الكثير وتزيح عن كاهله بعض مما يكابد من مرارة شوقه اليها ..

و اليوم هو الاستثناء فها هي تطل عليه بوجهها الصبوح هاتفة بسعادة :

- سي زكرياء!؟؟..وحشتني قووي ..

هتف في شوق:

- واه يا بدور مش كد ما اتوحشتك .. غبتي عليا جووي..

.....

ابتسمت في خجل كعادتها وهمست :- أنا جاية أبشرك ..

همس زكرياء متسائلا :- طول عمرك وش السعد .. بس تبشريني بإيه ..!؟..

.....

هنا اختفت بدور عندما علا صوت مفاتيح ضخمة تفتح باب العنبر في عجالة ليظهر الصول جابر ذو البطن المنتفخ هاتفاً في لهفة:- زكرياء .. يا زكرياء ..؟!..

إنتفض زكرياء من نومه ملتفتا للصول جابر هاتفاً :- خير يا حضرة الصول ..!!..

أجاب جابر :- سيادة المأمور طالبك بسرعة هم معايا ..

إندفع زكرياء خارج العنبر و الصول جابر في أعقابه و ما إن وصل لمكتب المأمور حتى استأذن و دخل ليندفع العميد مختار يحتضنه في تأثر مباغتاً زكرياء الذي وقف متصلبا لا يعرف ما يحدث ..حتى ابتعد العميد مختار عن زكرياء هاتفاً فيه بمحبة :

- إنت كنت بتقولى ايه من ساعة ما عرفتك ..؟!.. مش كنت بتقول هخرج عشان ربنا وحده يعلم أني برئ و عشان ابني اللي محتاج لي .. صح..؟!..

اومأ زكرياء رأسه إيجابا و هو لا يستطيع النطق بحرف واحد ووجيب قلبه يتضاعف ويحاول ان يقنع نفسه إن ما يستنتجه في تلك اللحظة ما هو الا محض امأني و أحلام ..لكن العميد مختار هتف من جديد :

- مبروك يا زكرياء .. مبرررروك .. ظهرت ادلة جديدة في قضيتك و شهود جداد .. و اثبتوا براءتك هي شوية إجراءات كده و تبقى بره السجن ده و تعيش حياتكِ وتربى ابنك ..

كان زكرياء يقف مصدوما غير مصدق ما يهتف به العميد مختار بهذا الحماس ..

هل حقا اثبتوا براءته ..؟!.. هل حقا إنتهى ذاك العذاب وازيح عن كاهله ذلك الظلم؟!.

هل سيعود أخيرا حراً طليقا من جديد...قادر على تربيه ولده و احتضإنه بين ذراعيه متى شاء وليس فقط في تلك

الزيارات المتباعدة التي يحمله فيها المعلم خميس اليه ..؟..اخيراً سيجعله يفتخر باسم ابيه الذي يحمله؟..

لاحظ العميد مختار صمت زكرياء و ملامحه المصدومة فخرج من جديد من خلف مكتبه يربت على كتف زكرياء هاتفاً في تعاطف:- الحمد لله يا زكرياء .. الحمد لله ..

جلس زكرياء على اقرب كرسي و قد بدأت صدمة الخبر تنقشع من امام عينيه ليبكى في صمت و هو يحتضن رأسه المنحنى بين كفيه ..

هتف به العميد مختار :- وحد الله يا زكرياء..ربك عادل و مطلع ..

هتف زكرياء بصوت متحشرج :- و نعم بالله ..و نعم بالله ..

أمره العميد مختار ببهجة :- قوم بقى بلغ زمايلك و احتفلوا لحد ما نشوف الإجراءات و التنفيذ عشان خروجك ..

.....

اومأ زكرياء إيجابا و نهض مغادراً مكتب المأمور و لكن قبل إن يحتفل أو حتى يبلغ أحد من زملائه توجه إلى المسجد و صل عدة ركعات شكرًا للّه .

****

دخلت زهرة غرفة العمليات فقد حدد لها الطبيب موعد الولادة و ها قد جاء اليوم الموعود .. إنتظر عاصم و الحاجة فضيلة بالخارج و قد وصل بهما القلق للذروة .. حاول عاصم السيطرة على أعصابه بلا جدوى لينهض ذارعا الردهة البعيدة عن مجال نظر أمه ذهابا و ايابا .. يتطلع كل لحظة لباب غرفة العمليات لربما يخرج الطبيب فيستقبله في عجالة ليطمئن عليها ..

.....

ظل على حاله حتى اصطدم فجأة بحسام الذي كان قادما مسرعا يبلغهما بنبأ وصول سهام للمشفى فهتف معلنا :

.....

- اختك يا عاصم بتولد فى الاوضة التإنية ..بلغ الحاچة ..

هتف عاصم مزمجرا :- كملت ..

إندفع يبلغ أمه فى حنق :

- سهام بتولد هي التانية.. حسام لسه واصل بيها على هنا ..

ردت الحاجة فضيلة فى هدوء عجيب :- ياللاه على البركة .. خلونا نخلص ..

إنفجر عاصم ضاحكا لرد فعل أمه على الرغم من قلقه هاتفا :

.....

- نخلص من ايه بس يا حاچة .. !؟..

هتفت مؤكدة :- يعني ولادة تاني و مستشفيات تاني .. اهي تبجى بچملت .. هم الأتنين سوا و تخلصوا و نطمنوا عليهم و نخرج بيهم بأذن الله ..

.....

ابتسم عاصم لفكر أمه و اخيراً إنتفض وغابت الابتسامة المؤقتة تلك عن وجهه مندفعا تجاه باب غرفة العمليات الذي فُتح ليخرج الطبيب مبتسما و بجواره الممرضة تحملا طفلا هاتفا :- حمد الله على سلامتها .. والف مبروك ..

سلمت الممرضة عاصم الطفل المدثر هاتفة فى سعادة :- مبروك .. ولد زي القمر .. يتربى في عزكم..

.....

هتف عاصم متسائلا فى لهفة و هو يلتقط طفله من بين ذراعيها :- طب و هي .. أمه .. كيفها ..؟!.. أكدت الممرضة بابتسامة :

- زي الفل .. هانتقلها أوضتها حالا ..

دفع عاصم بحفنة نقود فى كف الممرضة التي طالعتها منتشية فى سعادة .. تهتف بالمباركة من جديد ..

.....

تطلع عاصم للطفل فى سعادة و اخذ يكبر فى أذنيه بهمس و اخيراً وضعه بين ذراعى أمه التي تطلعت اليه بعيون دامعة من الفرحة ليهمس عاصم :

- ماچد الهواري يا حاچة فضيلة ..

ضمت الحاجة فضيلة طفل عاصم لصدرها فى سعادة بلغت الحد و همست :

.....

- ربنا يبارك لك فيه و فى ذريتك يا عاصم و يچعله من الصالحين يااارب .

و استطردت هاتفة بتضرع داعية :- و عجبالك يا سهام يا بتي..

هتف عاصم :- أنا رايح اشوف ايه الأخبار .. و راچع

اكدت الحاجة فضيلة :

- ايوه يا ولدي ..طمني على اختك لحسن جلبي واكلني عليها ..

.....

عاد عاصم من عند سهام ليؤكد إنه مازال أمامها بعض الوقت كما أقر الطبيب .. خرجت زهرة فى تلك اللحظة على سريرها المدولب باتجاه الغرفة ..

.....

وما إن استقرت فيها .. حتى إندفعت الحاجة فضيلة فى اتجاه غرفة سهام .. التي كانت صرخاتها المتألمة تشق الإجواء ..

هتف حسام فى قلق :- مبروك ما چالكم يا حاچة .. و مبروك جومة أم مهران بالسلامة .. عجبال سهام بأذن الله ..

تعالت الصرخات من جديد لتدفع الممرضة بسرير سهام خارج الغرفة فى اتجاه غرفة العمليات ... مر الوقت ببطء قاتل ما بين صرخات سهام المدوية التي كانت ترتفع ما بين دقيقة و اخرى و بين صمت تام استمر لفترة مقلقة ...

أعقبه صرخات من نوع اخر .. صرخات بكاء طفل

إندفع بالفعل يتنفس للمرة الاولى نسيم الحياة..

.....

إندفعت الممرضة باللفافة تحمل الطفل لحسام هاتفة:

- الف مبروك .. عروسة زي القمر .. تتربى فى عزكم .. و

أمها كويسة الحمد لله .. هتخرج دلوجتى ..

كبر حسام فى سعادة و إنتشى و هو يحمل طفلته مكبرا

فى اذنيها كما أكد عليه ابوه الحاج قدرى و اخيراً دفع بها

بين ذراعى جدتها هاتفا فى فخر :

- تسبيح التهامي يا حاجة ..

بكت الحاجة فضيلة من فرحتها وهي تضم حفيدتها

لصدرها فها هي فى يوم واحد تحمل حفيدين جديدين لها

.. و يالها من فرحة كتب لها الله العمر لتعيشها ...

****

استقبلت الحارة زكرياء استقبال الفاتحين و لم يدخر المعلم خميس جهدا في نشر خبر خروج زكرياء مرفوع الرأس يكلل تاج البراءة هامته .. حتى إن زكرياء تفاجئ بتلك الفرقة الموسيقية التي استقبلته على باب الحارة جعلت الجميع يتجمع مباركاً و مهنياً زكرياء بخروجه سالما ..و النساء تلقى بزغاريد الفرحة من النوافذ و الشرفات على طول الطريق حتى بيت المعلم خميس الذي وقفت على أعتابه الخارجية نعمة و هي تحمل حازم في سعادة بالغة في إنتظار قدوم ابيه ..

وقف زكرياء و المعلم خميس امام نعمة وهي تحمل حازم و قد إنفض الجمع وذهب كل حى لحال سبيله .. تسمرت نظرات زكرياء على حازم و نسي تماما إن يلقى التحية على نعمة التي تحمله و التي دمعت عيناها تأثرا و هي تدفع بحازم بين ذراعى أبيه ليستقبله ضاما أياه في شوق

هائل .. ضم ذراعاه حول ولده و اطبقهما عليه في حنين و حنو .. إنه يشبه بدور كثيرا .. إنه قطعة منها .. و كان اللّه عوضه عنها بطفل يحمل الكثير من ملامحها و ابتسم زكرياء في وجه الطفل المندهش لذاك الرجل الذي يحمله و بادله حازم الابتسامة في وداعة جعلت عينا زكرياء تدمع في فرحة

لا يمكن وصفها ..

ربت المعلم خميس على ظهر زكرياء مشيرا اليه بالصعود لداره فإنتبه زكرياء الذي غاب مع حازم عن كل ما و من يحيط به .. حتى إنه إنتبه لنعمة التي لم يلق عليها السلام بعد فهتف محرجا :

- كيفك يا ست نعمة ..!؟.. متأخدنيش .. اتلهيت في..

قاطعته نعمة مقدرة :

.....

- الف حمدالله على سلامتك يا سي زكرياء .. ربنا يخليلك حازم و تشوفه احسن الناس يا رب ..

هتف زكرياء و هو يتطلع لخميس :

- و الله أنا ما عارف أرد لكم جمايلم عليا ازاى ..؟!..

هتف خميس معاتبا :

- خبر ايه يا صعيدي؟!.. هو في جمايل بين الأهل برضة.. ياللاه على فوق تاكل لقمة من ايد نعمة .. وبعدين تروح بيتك .. نعمة خليتهولك زي الفل ..

.....

هتف زكرياء من جديد :- مش بجولك يا معلم مش عارف أرد جمايلكم عليا كيف ..؟!..مبروك على چوازكم .. جت متأخرة .. و ربنا يجمعكم دايما على خير يا رب ..

هتف كل من نعمة و خميس و كلاهما يتطلع للاخر في محبة :-أمين ..

****

.....

استلم زكرياء مفتاح بيت الحاج وهيب من نعمة و سار تلك الخطوات التي تفصله عن بيت المعلم خميس في وجل و هو يضم حازم إلى صدره .. ليوقفه عم طايع بائع البطيخ هاتفا باسمه محاولا الإسراع قدر استطاعته في سيره بقدمه العرجاء .. إنتظره زكرياء حتى وصل اليه ملتقطا إنفاسه في تلاحق ..و اخيراً هتف:

- حمدالله على السلامة يا زكرياء يا بنى .. عارف إنك واخد على خاطرك مني .. عشان كتم الحق و مشهدتش باللي شوفته و أنا نايم في فرشتى يوم ما ضربوك وحرقوا القهوة .. ودمعت عيناه ليستطرد .. غصب عنى يابنى .. أنا مكنتش خايف على نفسي بس بنتى لو جرى لى حاجة من رجالة حنيش .. كان هيجرالها ايه من بعدي .. دي ملهاش غيرى يا زكرياء .. خفت و سكت ..

.....

و عشت بعذاب كتمان الحق سنين .. و لما جت الفرصة و سمعت كلام صباح مع ست نعمة في المستشفى قلت خلاص ربنا بعت لى الطريقة اللي أساعدك بيها ورحت البوليس و قلت على اللي سمعته من صباح و شهدت ست نعمة علشان تأكد كلامي و متقدرش صباح ترجع في كلامها و أنا عملت على حنيش لعبة رسمها البوليس عشان يسمعوا اعترافه و يجروه لقضاه متلبس عند صباح في المستشفى ..

تنهد طايع هامسا ..

- سامحني يا زكرياء .. سامحني يا بني ..

تنهد زكرياء في استكانة هامسا للعم طايع في راحة :

- مسامحك يا عم طايع .. مسامحك و عارف كيف الخوف ممكن يخرس الواحد وميخلهوش ينطج .. مسامحك و ربنا يخليلك بتك .. و تفرح بيها عن جريب ..

.....

ابتسم طايع في سعادة و أومأ برأسه في امتنإن لزكرياء و رحل ليتركه يدخل بيت الحاج وهيب و الذي ادخل مفتاحه في موضعه وفتح باب البيت الخارجي ووقف يتطلع حوله و ينظر إلى كل ركن كان له فيه حكاية مع حبيبة روحه و سارقتها..

وقعت عينه على ذاك الموضع امام البيت حيث يقف و تذكر إنه ها هنا هتف في سمري بإنها زوجته عندما رأه يتجرأ عليها و هناك محل البسبوسة التي كانت تعشقها و التي كانت تشتريها و يتبعها إلى المحل ذهابا و إيابا خوفا عليها من سمري و رجاله ..تنهد و فتح الباب ليتطلع لتلك الدرجات التي كانت تندفع منها واليها صعودا وهبوطا في صحة و عافية .. تذكر وهو يخطو على الدرجات الأولى كيف إنه نهرها ذات مرة معتقدا إنها متأزمة من عيشتهما المتواضعة

و تمنى لو يعود الزمن ليخرس لسإنه عنها و لا ينطق الا بكل ما يسعدها و يجلب الضحكات لا الدمعات لعينيها ..

صعد الدور الأول .. ووصل لشقتهما .. هم بفتح بابها ليتطلع خلفه لباب شقة حماه الحاج وهيب رحمه اللّه .. لتدمع عيناه و هو يرهف السمع كانه يسمع خطواته المتمهلة و سعاله شتاءً .. و نداء الست نعمة على بدور لتحمل النعناع لابيها .. و صوت بدور و ضحكاتها و مشاكساتها لنعمة .. دخل شقته و بدور و التي لم يمكثا بها طويلا بعد إنتقالهما اليها بديلا عن حجرة السطح التي شهدت اجمل لحظاتهما معا ..

.....

وضع زكرياء حازم على اول مقعد و هو يسمي اللّه .. و يرفع أكفه تاليا الفاتحة على أرواح أصحاب البيت الأعزاء ..

.....

ثم إنتبه لحازم الذي كان يتطلع حوله في اهتمام ليهاتفه وهو يحمله على فخذه سائلا أياه :- تعرف أنا مين يا حازم ..؟!..

اومأ الطفل برأسه مؤكدا وهو يهتف في حماسة :- اه .. إنت سكريا (زكرياء)..

إنفجر زكرياء مقهقها :- يا واد جول بابا .. و لا ابويا .. و لا ابووي حتى .. اي حاچة بس اسمعها منيك ..

هز حازم رأسه رافضا مؤكدا على اصله الصعيدي وهو يصر برأس يابس على مناداة زكرياء باسمه مجردا مما دفع زكرياء للاستسلام ليضمه لصدره في شوق و يندفع به لحجرة النوم ليأخذه في فرحة بين أحضانه و يذهب كلاهما في نوم عميق ..

****

.....

خرجت كسبانة تحمل صينية الطعام المجهزة لذا

ك الذي لا ينفك عن الغناء للحظة .. هتفت هامسة فى

ضيق لنفسها .. أين ذهب حمزة!؟ فهو من كان يتعامل معه و

يحضر له الطعام دوما .. حاولت ان تؤخر احضار الطعام حتى

يظهر ولدها .. لكن تأخره زاد عن المفترض و ليس من اللائ

ق تأخير الطعام على الرجل حتى ذاك الوقت و هو يعمل ط

وال النهار في الارض .. لابد و إنه يتضور جوعا فى تلك اللح

ظة ..

.....

وصلت على أطراف الارض المزروعة التي يفصلها عن بيت ز

كرياء خط رفيع من

ارض طينية منبسطة تقف عليها فى ثبات تحمل الصينية ال

عامرة .. لم تناديه .. و لكنه ادرك وجودها فى ثوان و إنت

به لمحياها الشامخ هناك على أطراف الارض تحمل ما جاد

ت به يدها من طعام .. إنه يعترف .. هي طباخة ماهرة .. لم

يعد قادرًا على تذوق

طعام خلاف ما تصنع .. حاول و لم يستطع ..اقلقه هذا .. فد

وما ما يقلقه التعود .. فهو ولد لسيدة مهنتها التنقل فيبقاع ا

لارض طلبا للرزق .. و هو قد تشرب

التنقل مع حليبهاو لم يعتد ان يتكيف على وضع أو يبقى ف

ى مكان .. التعود مهلك .. كرمال متحركة اذا ما غاصت

قدمك فيها ما عاد هناك فكاك .. بل إنك تظل تغوص

حد الغرق ...تقدم منها يحمل عنها صنيتها التي ناءت

بحملها تلك الفترة

فحرّكت كفيها لتوازن ثقلها و تشابكت الأكف بغير قص

د ليجد كفيه فوق كفيها

القابضتين على أطراف الصينية ..لم تنتفض كما توقع بل

وجدها تنظر فى عينيه بشكل مباشر أفزعه و أربكه ...لي

نتفض ه مبعدا كفيه بشكل تلقائي ..

www.hakawelkotob.com

وضعت الصينية أرضا فى هدوء و استدارت لتغادر تار

كة إياه يتخبط فى إنفعالاته و يسترجع نظراتها النارية ..

هل كانت تعتقد إنه فعلها متعمدا ..؟!.. هل تعتقد ذلك ح

قا ..؟!. نظراتها تلك تحمل اتهاما لا يقبله .. إنه لم يفعل ..

و لو فكر إن يفعلها مع نساء الارض جميعا .. فهي لا .. إنها أم

انة حملها له صديقه و صاحبه الأوحد بهذه الحياة .. هل ت

ظن به السوء ..؟!.. هل تعتقد إنه فاعلها ..؟!.. اطلق سباباً ف

ى ضيق و غضب مكتوم .. و نظر لصينية الطعام في

حنق بالرغم من

جوعه القارص الا إنه شعر فجأة إن رغبته فى الطعام قد اخت

فت .. فعاد للعمل من

جديد يحاول إن يفرغ بضربات فأسه الهادرة شحنة الغضب ال

قاهر الذي تملكته لظنها السيء به ..

****

مضت عدة أشهر منذ خروج زكرياء من محبسه و عودته الحارة و لعمله عند الحاج مرشدي الذي استقبله بفرحة و سعادة غامرة فكان زكرياء يستيقظ صباحا ليفطر و حازم و يتركه عند بيت الحاج خميس ليلهو مع أولاده تحت رعاية نعمة ويندفع لعمله حتى المغرب ليعود محملا بالغذاء ليتناوله مع حازم و الذي كان يعتبر هذا عشاءً ..

و ما إن تنتهي صلاة العشاء حتى يندفع كلاهما في أحضان الاخر لينام ملأ جفونه..

جلس زكرياء على مقهي المعلم خميس وقد عرج اليه عند عودته من عمله يلتقط إنفاسه لينضم اليه خميس ما إن رأه موصيا بالشاي هاتفاً :

- سلام عليكم .. ازيك يا زكرياء .. اخبارك ..؟!..

هتف زكرياء :- الحمد لله يا معلم .. تمام ..

همس خميس متعجباً :- أُمال ليه أنا مش حاسس كده..؟!.. في حاجة يا صعيدي .. الشغل عند المعلم مرشدي فيه حاجة ..؟!!..

.....

هز زكرياء رأسه نافيا ..و لم يعقب .. لذا همس خميس من جديد و قد استطاع ثبر أغوار زكرياء :- إنت محتاج ست في حياتك يا زكرياء ..

إنتفض زكرياء هاتفاً :- بعد ام حازم ..؟!.. ده أني اللي تاعبني و مخليني أفكر ارجع اسكندرية هو ..

صمت و لم يُكمل مما دفع خميس ليكمل بدلا منه :

- يا زكرياء هنا و هناك .. إنتِ كنت مع أم حازم ..و الذكريات مبتمتش يا صاحبى أنا عارف وحاسس اللي إنت فيه .. أنا عشت نفس الظروف بعد موت الغالية ام الولاد .. و قلت زيك كده.. لكن مقدرتش .. مفيش راجل مننا هيقدر يعيش وحداني وخصوصي لو عنده ولاد محتاجين

وجود ام معاهم .. و أنا الحمد لله ربنى عوضني بنعمة .. ربنا يعوضك عن ام حازم باللي فيه الخير ليك و لابنك ..

صمت زكرياء للحظات و استطرد في عزم:

- أنا هرجع اسكَندرية يا معلم .. مش جادر افضل هنا .. هرجع و اشوف حالي هناك.. و ربنا يسهلها ..

هتف خميس :

- برضة مصمم على رجوعك إسكندرية ...ده اخر كلام يا صعيدي ..!؟ما تفكر وتخليك معانا .. و حازم يتربى وسطينا مع عيالي ..

هز زكرياء رأسه رافضا :- خلاص يا معلم خميس .. أنا فكرت كَتيير ..و الخيرة فيما اختاره الله .. و اهي كلها بلاد ربنا ..

.....

ربت المعلم خميس على كتفه هاتفاً :- بشوفك يا زكرياء .. ربنا يسهلها لك يا رب ..

نهض زكرياء ليعرج على بيت المعلم خميس ليأخذ حازم و يعودا سويا مثل كل يوم لبيتهما ..و هو لا يعلم هل اتخذ القرار الصحيح بالرجوع للإسكندرية ام تلك توهة جديدة في مشواره الذي لا يعلم متى و أين ينتهي به ..

****

إندفع زكرياء لبنسيون السعادة والذي كان بالنسبة له اسم على مسمى .. فقد عاش فيه

شهور طويلة من السعادة مع بدور و فيه سمع خبر حملها بحازم ..

.....

ما إن دلف لبابه المفتوح كالعادة حتى نظرت تهاني للمندفع للداخل و هو يحمل طفلا صغيرا على كتفه مخفيا ملامحه ..

.....

دارت حول منضدة الاستقبال الطويلة و ما إن طالعها

محيا زكرياء و هو يجول بناظريه في ارجاء المكان ليجده

كما كان لم يتغير ..حتى هتفت في صدمة صارخة :

- سي زكرياءااا .. مش معقول ..!!!..

ابتسم زكرياء في سعادة هاتفاً وهو ينكس نظراته ارضا

كالعادة :

- اه زكرياء الهواري يا ست تهاني .. كيفك و كيف

أحوالكِ..!؟..ده أنا جلت مش هاتفتكريني ..

.....

هتفت مستنكرة :-برضه إنت تتنسي يا سي زكرياء إنت و

بدور الله يرحمها ..

و مصمصت شفتاها تعاطفا و تحسرا و هي تضع كفها على

ذقنها على الفتاة التي ماتت في ريعان شبابها و أخيرا إنتبهت

للطفل الذي يحمله زكرياء لتهمس في توقع :

- هو ده ابنكم حازم .. صح ..!؟..

.....

اومأ زكرياء براسه مؤكدا لتتطلع اليه تهاني في محبة هاتفة في حماس :

- ده حتة من بدور الله يرحمها .. صحيح اللي خلف ممتش

.....

.. و مدت كفيها لزكرياء هامسة :- هاته عنك يا سي زكرياء .. و متخفش .. اه أنا ربنا مرزقنيش بعيال .. بس اعرف فيهم يعني..

ابتسم زكرياء و هو يمد لها حازم الذي تململ في نومه لتضمه إلى صدرها في حنان بالغ و هي تشير لزكرياء ليتبعها ..

سار زكرياء للداخل على طول الرواق حتى هتفت تهاني وهي تدفع باب الغرفة بسعادة:

-اتفضل يا سي زكرياء .. الاوضة بتاعتك .. تصدق .. لسه كان في زبون فيها .. و مشى من يومين كان الاوضة دي بالذات مكتوبالك..

.....

دخل زكرياء ونظراته تتسارع على كل ركن فيها

كان يحمل ذكرى لبدور .. حتى إنه شعر إن رائحة الغرفة

تحمل عبق إنفاسها ..

وضعت تهاني حازم على الفراش و هتفت في زكرياء تخرجه

من شروده :

- هات يا سي زكرياء بطاقتك عشان أسجل البيانات ..

اخرج لها زكرياء هويته الشخصية مقدما أياها لتتناولها

ناظرة اليها في حبور :

- زكرياء الهواري .. أخيرا اسمك الحقيقى .. الله يرحم

كرم الصعيدي .. فااكر ..

ابتسم زكرياء :- الا فاكر .. هو دِه يتنسي ..

اومأت برأسها و تركته هاتفة و هي تهم بغلق الباب

خلفها :

.....

- استريح جنب ابنك لحد الغدا بقى .. حمد الله على السلامة ..ده غندور هايفرح قووووي لما يشوفك ..

ابتسم زكرياء و هو يتذكر ذلك الشاب الاسكندرأني الأسمر الذي كان بمثابة الملاك الحارس له ..

****

.....

دخلت الحاجة فضيلة قاعتها المفضلة صيفا لتجد مهران يـ

قف فى اعتزاز فوق احد

الأرائك يتجه بوجهه صوب القِبلة .. هاتفا بصوت جهورى م

ؤذنا للصلاة ..

هتفت الحاجة فضيلة مقهقهة :

- بتأذن لإيه يا شيخ مهران .. ده حتى الضهر لسه مپاش وجته.!؟..

تنبه لها مهران هاتفا :

-

أنا بچرب صوتى يا ستى عشان آاذن فى الچامع زي سيدنا الشيخ عوض ..

هتفت مبتسمة :

- و ماله .. هو إنت أجل منيها .. ده إنت الشيخ مهران بحاله ..

ابتسم الصبي فى سعادة لفخر جدته .. و التي هتفت به :

-

تعال بجى اجرالي على راسي يا سيدنا الشيخ لچل ما وچع راسي يطيب ..

تمددت الحاجة فضيلة على احد الأرائك ليتخذ مهران موضعه و يجلس بالقرب

من رأسها و يضع كفه الصغيرة على جبينها و يبدأ قراءة ما يحفظ من آيات القرآن

الكريم و التي اجتهدت هي و الحاج قدري ليحفظها مهران .

دخل عاصم فى تلك اللحظة ليجد مهران يقرأ القرآ

ن على رأس جدته المنهك فيبتسم

بحبور و يجلس مستمعا .. فتحت الحاجة فضيلة عينيها لتطا

لع عاصم يجلس يتطلع

لها ولولده فى سعادة .. ليهتف ممازحا ولده :

- ايه يا شيخ مهران ..؟!.. بتعمل ايه ..؟!..

هتف الصبى بتلقائية محببة :

- بجرا لستى

قرإن لجل ما يخف وچع راسها .. هي بتجولي يدي فيها الشفا .

.

قهقه عاصم مؤكدا :

ايوه طبعا .. يدك فيها الخير كله .. و نظر عاصم لامه نظ

رة متخابثة ذات معنى هاتفا :

بس ستك هتخف و تبجى عال لما تبطل تشرب الج

هوة فى الدرا و تخبيها مني .. صُح يا حاچة .. ؟!..

هتفت الحاجة فضيلة بنبرة لامبالية :

اللي يلجى حاچة يبجى يخدها .. أني معرفاش إنت بتتكلم

عن ايه فى الأساس .. اخر

كيس بن إنت خدته.. عايز ايه بجى ..؟!..

هتف عاصم مؤكدا و هو ينهض ليتوجه حيث تتمدد فى ا

سترخاء لينحنى يقبل هامتها هاتفا :-

عايز سلامتك يا حاچة .. و الله ما عايز

غير سلامتك .. ما هو وچع راسك و الدوخة

اللي بتاجيكلك عشان ضغطك العإلى اللي

منتش مرعياه .. عشان خاطري ياما .. خلى

بالك على حالك ..

ابتسمت فى رضا تجاه ولدها و أومأت برأسها مؤكدة

له إنها ستبدل قصارى جهدها

للمحافظة على صحتها التي بدأت تضعف فى الفترة الاخيرة

.. و مدت كفها تبحث عن كف مهران الصغيرة الشافية لتـ

ضعها من جديد على جبينها ..

****

عاد زكرياء لعمله بالميناء بعد توصية من غندور الذي استقبله في حفاوة وسعادة بالغة كان يغادر صباحا تاركاً حازم في صحبة تهاني التي استطاعت كسب ثقته ومحبته في وقت قياسي .. و يعود عند المغرب يتناولا غذاءهما المتأخر لينام حازم بعدها ملأ جفونه و يعاود زكرياء عادته مع البحر و جلوسه على الشاطئ القريب من البنسيون .. يتطلع للبحر الغامق الغامض لساعات و يعود من جديد

لحجرته محتضناً ولده بين ذراعيه .. ليذهب من جراء تعب النهار بطوله إلى اعتاب النوم سريعا ..

و في صباح احد الأيام و بينما هو يدفع أمامه تلك العربة الحديدية ثنائية العجلات و التي يحمل عليها البضائع هنا وهناك .. هتف به احدهم في دهشة و بصوت عال :

- كرم الصعيدي ..؟!..

توقف زكرياء عندما سمع اسمه المعروف به في الإسكندرية و استدار ليطالع صاحب الصوت المألوف له ليهتف بسعادة عندما طالع صاحبه مندفعا اليه في شوق :

- عم بحر.. إنت فين يا راجل يا طيب ..؟!. لفيت عليك المينا كلها اول ما جيت اسكَندرية ..

.....

احتضنه بحر في سعادة هاتفاً :- إنت اللي رحت فين ..؟!.. ما بين يوم و ليلة تختفى كده و محدش يعرف عنك حاجة ..

.....

هز زكرياء رأسه متفهماً :- مَعلش يا عم بحر..

ظروف .. حكاية طوووويلة .. ابجى احكيهالك بعدين ..

هتف بحر مصراً:- لاا .. بعدين ايه ..؟؟.إنت تخلص النقلة

اللي في ايدك دي و تيجى معايا ..

هتف زكرياء :- على فين ..؟..

هتف بحر متعجلا أياه :- خلص بس و إنت تعرف .. إنجز ياللاه

.. و أنا هستناك هنا مش هتعتع من مكاني لحد ما ترجع ..

ابتسم زكرياء و إندفع ينهي عمله ...

****

.....

دخل يونس غرفته الملاصقة لجدار بيت زكرياء مدندنا لحنا شجيا كعادته و هو يعد لنفسه كوب من الشاي ..

كان يغير جلبابه بأخر مريح استعدادا للنوم ..

صب الكوب و بدأ فى ارتشافه باستمتاع و هو يجلس على اع

تاب حجرته يتطلع إلى

السماء الصافية فى تلك الليلة و الممتلئة بالنجوم على غيـ

ر العادة ..

أغمض احدي عينيه و مد راحته يلتقط احدى النجمات

مطبقا عليها كفه في

سعادة و شعر إن تلك النجمة العالية هناك و التي لا يطالها

ا الا فى الخيال كما يفعل

الان ليست الا تلك الناقمة عليه دوما و التي لم يرى ابتسا

متها فى وجهه و لو لمرة

وحيدة .. هو لا يعرف متى شعر بميل قلبه تجاهها و لا برغبـ

ته في القرب منها ..!؟.. لكن فجأة و بلا مقدمات شعر إنه يرـ

يدها و يتمناها كما لم يتمنى امرأة من قبل ..

شعر إن الاستقرار الذي اعتاده فى ارض زكرياء جعل منه إذ

سان جديد .. يونس اخر

بقلب داجن يسهل ترويضه و جعله مناخ صالح للحب

.. و الان هو يحبها .. رغم كل نفورها و تمنعها .. يريدها .. ر

غم نظراتها النارية و تصرفاتها التي تدل على عدم

رغبتها فى تواجده .. الا إنه يهواها.. يكاد يجن .. كيف ح

دث ذلك ..؟!.هل من

الممكن إن نعشق جلادنا ..؟!.. هل من المنطقى إن نقع فى

حب محكوم عليه مسبقا بالسكتة القلبية ..؟!.. تنهد فى

ضيق و نهض يستعد للنوم .. وما إن تمدد فى راحة

حتى سمع صوتها .. ظن إنه يهذي .. ألهذه الدرجة تطارده ح

تى على اعتاب نعاسه ..؟!.. لكن مهلا .. الصوت يبدو حقيق

يا و بدأ بالفعل فى الارتفاع و بدأت تتضح

نبراته ليندفع إلى فأسه و قد استشعر إن فى الامر حدث جا

ل فقرر إن يكون مستعدا و يلوذ عن عرض صاحبه و لو بحيا

ته نفسها ..

تسلل للمطبخ عبر بابه الذي يُفتح للخارج على حجرة الخبيز و هو يحمل فأسه فى

وضع التأهب للهجوم .. بدأ يقترب من داخل الدار و وقف تلك اللحظة يطل على

صحنها الذي رأى فى منتصفه كسبانة و هي تقف فى بسالة تحمى حمزة ولدها خلف ظهرها امام رجل متوسط القامة قوى البنية يتلفح بعباءة سوداء اللون ولا تظهر ملامح وجهه ليونس من موضعه حيث يقف .. هتفت كسبانة فى حزم :

-

مش هتاخد حمزة يا سليم .. ده بعينك .. ده ولدي .. ابوه مات من زمن و إندفن يوم ما اتبرى منيه ومكنش

معترف بيه .. دلوجت چاى تجول ولدي وعاوز تخده م

ن حضني .. على چثتى جبل ما تمس منيه شعرة ..

هتف سليم فى نزق :

ولدي وهاخده و اللي فى وسعك اعمليه .. محدش هايچدر يـ

منعنى ..

هنا تدخل يونس فى ثورة حازما أمره ليظهر فجأة من خلف

سليم الذي إنتفض متراجعا

يحكم لثام وجهه خوفا من التعرف على شخصه و قد باغته

ظهور يونس بهذا الشكل

غير المتوقع :- أني اللي

هجف لك .. و ابجى ورينى هتاخد حمزة كيف ..؟!..

إنفجر سليم ضاحكا فى خشونة تقطر استهزاءً و اخيراً هتـ

ف :- مين بجى دِه يا ست هإنم ..؟!..يا شريفة ..

هو عادي الرچالة بيخطوا الدار بالساهل كِده فى

نص الليل ..؟!..

صرخ فيه يونس زاجرا :

اخرس .. دي اشرف منيك و من عشرة من عينتك .. و لو مخ

رجتش من هنا حالاا .. صدچنى إنت اللي هتخرچ .. بس على

نجالة

.. أنا خريچ سچون .. و چتلت جبل سابج .. و ممكن ارچع السچن

تاني .. بس

المرة دي هاتبچى فيك .. و هكون مبسوط چوووى و أني باخ

د روحك ..

و رفع يونس فأسه بالفعل فى اتجاه سليم

الذي هتف فى حنق :

لم نفسك يا واد إنت .. إنت متعرفش إنت بتكلم مي

ن ..؟!.. أني سليم غسان الهواري

.. ده أني امسحك من على وش الدنيا ..

إنفجر يونس ضاحكا :

بچد ..؟!.. و الله إنت صوت على الفاضى و الدليل مچيتك زي

الحرامية جال عايز

تاخد ولدك .. لو راچل صُح مكنتش تعملها و تاجى فى ذ

صاص الليالي لحرمة بجت غريبة عنيك من ساعة ما طلجت

ها و تتهچم على دارها .. بچد راچل و سيد الرچالة .. على العم

وم أني شيعت لعاصم بيه .. و زمإنه على وصول و إنتوا بجى أ

هل وولاد عّم فى بعضيكم و شوفوا تحلوها كيف الحكاي

ة دي ..

اضطرب محيا سليم ما إن ذكر يونس، عاصم بن عمه ..ويب

دو إنه بدأ يفقد صوابه

بالفعل عندما ابرز طبنجته من صدر جلبابه موجها

إياها فى وجه يونس الذي

ما اهتز للحظة بل دفع نفسه امام كسبانة

و حمزة فى بسالة وشهقات كسبانة تتعالى

في ذعر ...كاد إن يتحكم جنون سليم المعتاد بأفعاله و يـ

ضغط على زناد سلاحه لولا

إن سمع صفيرا مميزا بالخارج ادرك من خلاله إن هناك من

يقترب و عليه الخروج و الرحيل فورا ... وبالفعل ..عاود احـ

كام كوفيته حول ملامح

وجهه يداريها و يندفع فى غضب هادر للخارج متلفتا حوله فـ

ى حذّر قبل إن يختفي

تماما خلف الباب ..

تنهدت كسبانة

فى عدم تصديق إن هذا الكابوس إنتهي على سلام و استدا

رت تجذب

حمزة ولدها لأحضانها وهي تبكى تعتصره بين ذراعيها للتأ

كد إنه لازال معها .. و لم

يجرؤ هذا الوقح المدعو سليم من إنتزاعه من أحضانها ..

استدارت بعد إن هدأت لتشكر يونس الذي كان على استعد

اد للتضحية بحياته فى سبيل إنقاذ طفلها من بين يدي ابيه ا

لحقير لكنها لم تجده فقد شعر بالحرج و هو يراها تقف ه

كذا بملابس نومها الخفيفة فى هذا الجو الحار و بكاءها ا

لذي أدمى قلبه على نجاة

ولدها من بين ذراعى ذاك المتجبر .. مظهرها الناعم و بكا

ءها المفطر للقلب جعل

قلبه يئن ألما و عشقا مما دفعه لينسحب في هدوء مبـ

تعدا وهو يشعر بالرضا التام

إنه وقف كما يجب لحمايتها وولدها ..

****

.....

www.hakawelkotob.com

-١٢-

سار زكرياء بجوار عم بحر لا يعلم إلى أين يتجه و لا إلى أين يأخذه هذا الرجل الذي إنقذه ذات مرة من بين يدي بلطجية الميناء و أصبحا من بعدها صحبة لا يمر يوما دون اى يرى عم بحر و يفطر معه بما تجود به ميزانتيه الضئيلة يومها ..

وصولا لموقع بناء حديث جال فيه زكرياء ببصره ليتذكر أيام قضاها مع الحاج مرشدي في اعمال البناء و المقاولات .. أخيرا وصلا لعشة صغيرة من الخوص و القش نصب فيها عم بحر بعض من أدوات صنع الشاي و القهوة و بعض الأكواب و موقد صغير و عدة كراسي تتوزع هنا وهناك ..

جلس زكرياء على احداها هاتفاً :

.....

- ايه دِه يا عم بحر .. إنت جايبنى المسافة دي كلها عشان نجعد هنا .. طب ما كنا جعدنا على اى جهوة و السلام .. !؟؟...

قهقه بحر هاتفاً :- لا يا كرم .. دي العشة بتاعتي ..

هتف زكرياء :- بتاعتك ..!!؟.. الله اكبر .. دِه إنت عديت يا عم بحر على كِده وبجيت من ذوي الأملاك ..

قهقه بحر من جديد :- يحظك يا كرم ..املاك مرة واحدة .. !!... بس ايه رأيك .!؟..

.....

و أشار الرجل لعشته بفخر كانها قصر منيف ليهتف زكرياء بحماس :

- مفيش احسن من كِده .. ربنا يبارك لك فيها ..

قاطعهما احد العمال المشتغلين بموقع البناء الذي تقع العشة في احد أطرافه طالبا كوبا من الشاي .. ليندفع بحر

مجهزا أياه في سرعة و احتراف ليتناوله العامل و يجلس في أحد الأركان يرتشفه بتلذذ مستمتعاً ..

هتف بحر معاوداً سؤال زكرياء و هو يقدم له كوب من الشاي تحية له :

- مسألتنيش يعني منين العشة و النصبة و أنا كل اللي كان حيلتى باجور و كبيتين زي ما إنت عارف ..

قال زكرياء :- ربك رزاج يا عم بحر .. و رزجه واسع .. بس منين ..!؟.. عشان نريحوك ..

.....

و ابتسم زكرياء .. مما دفع الابتسامات لفم بحر وهو يسرد قصته البسيطة :

- بعد إنت ما اختفيت .. اتلم عليا بلطجية المينا تاني .. غلسات و قلة قيمة زي ما إنت عارف .. كنت بروح لعيالي من غير جنيه في جيبي و أحيأنا العدة مسروقة مني كمان .. قعدت ادعى ربنا و افتكرك و ادعيلك .. و أنا جايلي

إحساس إنك في كرب كبير بس مش عارف ايه هو .. و طلبت من ربنا يردك بالسلامة عشان خاطري وخاطر عيالي ..و اهو ربك استجاب ليا وردك بس قبلها كان باعت لى راجل محترم يعرف ربنا.. الحاج مندور الشامي .. صاحب الموقع ده كله .. راجل معلم كبير في سوق المقاولات .. شاف البلطجية مرة و هم بيبهدلونى في المينا راح رجالته مبهدلنهم و خلصنى من أيديهم و بنى لي النصبة دي جنب الموقع الجديد بتاعه اللي بيبني فيه العمارات دي و من ساعتها و أنا الدنيا ضحكت لى و بقيت زي ما إنت شايف ..

ابتسم زكرياء في حبور :

- ربنا يوسعها عليك كمان و كمان و بدل العشة تبجى جهوة كبيرة و بعدين اللي اسمه ايه ده!! ..اه.. كوفى شوب ..

.....

إنفجر بحر مقهقها و هو يهتف :- مرة واحدة يا كرم ..!!.. طب ده أنا مش عارف إنطقها .. املكها ازاى دي ..؟؟..

ثم استطرد بحر هاتفاً بجدية هذه المرة:- بقولك ايه يا كرم ..!!..

.....

إنتبه زكرياء عندما تبدلت نبرة بحر للجدية ليستطرد الأخير هاتفاً :

- أنا مش عجباني شغلانة المينا دي اللي لسه شغالها .. ايه رأيك اكلم لك شعلان ملاحظ الموقع يشغلك مع العمال هنا دول يوميتهم كويسة .. ايه رايك ..؟..

هتف زكرياء :- هو ينفع ..؟.. لو ينفع .. و ليه لا؟؟... نجرب ..

هتف بحر :- على بركة الله .. أنا هكلمه و اللي فيه الخير يقدمه ربنا ..

.....

رفع زكرياء كوبه يدفع اخر رشفة فيه إلى جوفه قبل ان يستأذن مغادراً ليعود لولده مبكرا ..

****

.....

بالفعل ترك زكرياء عمله في الميناء و التحق بالعمل في مواقع البناء الخاصة بشركة الحاج مندور الشامي تحت إشراف شعلان ملاحظ المواقع ..

عمل زكرياء السابق مع الحاج مرشدي في القاهرة أضاف لزكرياء الكثير من المعرفة و الدراية بأمور المعمار و أسراره لذا استطاع بعد عدة ملاحظات إن يكتشف بعض التلاعب في نسب خلط المواد المستخدمة في البناء مما جعله يتوجس من شعلان و من وراءه ...ظل أسابيع يراقب الموقف ليتأكد كي لا يرمي احد بالباطل حتى جاءت اللحظة الحاسمة و رأى بأم عينه ما كان يقوم به شعلان من مساومات على أسعار الخامات و التي هي في الأساس ليست

الخامات المطلوبة او بالاصح ليست هي الخامات التي تستخدم و يكون جودة البناء بها مطابقا للمواصفات المطلوبة ..

جلس في عشة العم بحر يطلب الشاي و يتنهد غير قادر على المدارة اكثر من ذلك ..

سيجن إن لم يخبر احد ما يشيره كيف يتصرف في مر كهذا و كيف يمكنه توصيل الامر لصاحب الشإن حتى يتصرف بما يراه..

هتف العم بحر و قد استطاع ان يستشف مدي قلق و توتر زكرياء :

- خير يا زكرياء .. مالك مش على بعضك ليه ..؟!..حازم ابنك بخير .. !!؟..

.....

كان زكرياء قد شرح و حكى للعم بحر حكايته كلها و عرف كل تفاصيلها ..

.....

هتف زكرياء نافيا :- .. ولدي بخير الحمد لله ..و

أشار له زكرياء ليقترب و هو يهمس بالقرب منه :- الموضوع يخص العماير دي يا عم بحر ..

زم العم بحر ما بين حاجبيه مستفسراً بتعجب:

- ماله الموقع ..!!؟.. و فيها ايه العمارات .. ما هي زي الفل اهي ..!؟..

حرك زكرياء راسه يمنة و يسارا رافضا وهو يهمس من جديد :

- العماير دي مش مطابجة لمواصفات البناء يا عم بحر .. أنا كنت شغال في الكارده جَبل سابج و عارف أني بجول ايه .. في لعب على تجيل من شعلان بيتم في الخامات بتاعت البنا ..و أنا لازماً أوصل الحكاية دي للحاج مندور ..

شهق بحر في صدمة :

.....

- الحاج مندور ..؟!.. إنت اتجننت يا زكرياء ..

هتوصله ازاي ..؟!ده مش بيجى الا كل فين و فين .. و بعدين

لو شعلإن شم خبر .. الله اعلم هايعمل ايه معاك ..؟؟..

أكتم على الخبر لحد لما نشوف صرفة ..

هتف زكرياء :- بس يا عم بحر ..

قاطعه بحر هاتفاً في تحذير :- يا بنى إنت عايز تربي ابنك

.. خليك في حالك لحد لما نشوف هايجرى ايه ..!!؟؟..

صمت زكرياء على مضض و لم يعقب لكنه اقسم بينه و

بين نفسه إنه لن يصمت على ما يحدث من فساد و تلاعب قد

يكلف العديد من الأسر التي ستسكن تلك الشقق

مستقبلا حياتها ....

****

وقفت تعد الطعام فى المطبخ المطل على الارض و

للعجب لم تسمع صوت ترنيمه و غناه كالعادة .. على الرغم

من انها لم تنم بشكل جيد ليلة أمس بعد ذهاب سليم و احتفاظها بولدها حمزة بفضل يونس الذي استبسل فى الدفاع عنها و حماية ولدها الا إنها شعرت بنشاط عجيب جعلها تنهض باكرا لتعجن و تصنع خبزا و فطيرا طازجا للفطور و الغذاء...

انهت وضع بعض الأرغفة فى ذاك الفرن الطينى فى حجرة الخبيز و دلفت منها للمطبخ و هي تمسح كفاها المتربين بالطحين فى أطراف جلبابها المنزلي لتندفع تتحقق من الطعام الذي كان يغلى فى تلك القدور على الموقد فى احد جوانب المطبخ .. وسرح فكرها فى ذاك الذي كان على استعداد للموت فى سبيل الدفاع عنها وولدها .. هل ظلمته يوم إن ظنت فيه السوء ..؟!.. هل اعتقدت حقا إنه لمجرد كونه من ارباب السوابق و خريج من احد السجون إنه بلا اخلاق أو ضمير ..؟!..

.....

استعادت كلماته فى مواجهة سليم و ابتسمت عندما تذكرت كيف دافع عنها ساعة لمح سليم عن وجود الرجال فى منزلها ما إن طالع محياه .. لقد نهر سليم .. اخرسه و كاد يقتله بالفعل .. هل ظلمته ..؟!.. يبدو إنها فعلت .. فما من شخص لا يحمل شرفا أو مروءة يمكنه إن يقف امام سليم للدفاع عن امرأة ما رأى منها الا السيء من القول و الفعل و حماية لطفل ليس طفله ..

و توردت خداها عندما تذكرت إنها بحثت عنه بعد رحيل سليم و لم تجده و إنتبهت إنها كانت ترتدي احد قمصانها الخفيفة المعدة للنوم لذا فر سريعا ما إن تأكد من رحيل سليم .. لقد ظلمت ذاك الرجل .. ذاك الذي لا ينفك يشدو بصوته الشجى و الذي اعتادته يصل لمسامعها طوال الوقت ..

.....

ابتسمت فى خجل و اعترفت بينها و بين نفسها إن صوته يصل للقلب بالفعل و يسكن فى العمق .. لكن أين ذاك الصوت فى تلك اللحظة .. ؟!.. إنها لا تسمع همهماته المعتادة .. رفعت هامتها قليلا تنظر من تلك النافذة العالية باحثة عنه بعينيها بطول الارض و عرضها فلم تجده .. شعرت بالقلق لا تعرف لما ..!!..

عادت لغرفة الخبيز تطمئن على الأرغفة التي تركتها بداخل الفرن و اخيراً خرجت من الباب تقف على الحافة الفاصلة تلقى بنظراتها هنا و هناك لعلها تلمحه مبتعدا لأطراف الارض البعيدة حيث لا يمكن لصوته الوصول اليها .. ازداد قلقها عندما ادركت إنه غير موجود بالمرة ..

و ادركت .. بل ايقنت إنها ما عادت تشعر بالامان الا بوجوده فى الجوار .. حتى ولو لم تعترف بهذا فى البداية الا إنها تستشعر ذلك بشكل أعمق مما كانت تتخيل .. وخاصة

بعد ما حدث البارحة مع سليم ..طلت مرة أخرى من النافذة تبحث عن ولدها ربما يعلم أين يمكن إن يكون يونس في تلك اللحظة .. لكن حتى حمزة لا تجده بالقرب .. يلعب مع الأولاد على الجانب الاخر من الطريق .. تنهدت .. و ما إن همت بالدخول لتتفقد الطعام حتى لمحته قادم .. ما إن اصبح قبالتها حتى ألقى التحية و عيونه لم تُرفع لمواجهة عيونها .. لم ترد التحية و لا تعلم ما الذي يدفعها للتعامل معه بهذا الشكل حيث هتفت فى حنق :

- كنت وين ..؟!..و كيف تِهمل الارض و ترمح تشوف مزاچك من غير ما تجول .. !!؟.. هي ايه ..؟!. وكالة من غير بواب ..

.....

تنهد فى ضيق لكلماتها و لم يعقب .. ساد الصمت و اخيراً هتف بهدوء :

.....

- أني كنت عند عاصم بيه ..كان لازما يعرف اللي حُصل عشية ..

هتفت تستوضح :- و جال لك ايه ..؟!..

رد فى هدوء :- جال هو هايتصرف .. و نخلو بالنا عشان سليم ممكن يعيدها .. و هايبعت غفير يجعد على الناحية الجبلية للدار ..

هتفت دون تفكير :- غفير ليه ..؟!.. ما إنت كفاية البركة فيك ..

رفع رأسه بشكل لا ارادي فى اتجاهها و نظراته مشدوهة غير مصدقة لما تفوهت به للتو ..ينظر لوجهها الذي اصطبغ بألان الطيف جميعها فى إن واحد لتلك الكلمات التي اطلقتها دون وعى أو تفكير ..

و اخيراً همس فى حبور :- إنتِ شايفة أني كفاية يا أم حمزة .. ؟!..

أرتبكت و تذكرت الطعام الذي تركته على الموقد و خبيزها الذي من الممكن إن يكون تحول لقطع من الفحم فهتفت فى عجالة مندفعة للداخل :- العيش زمانه أتحرج ..

ابتسم فى سعادة يكاد يقفز فرحا و نشوة لمجرد كلمات عفوية خرجت منها تُعلى من قدره و تضعه فى مكانة خاصة بالنسبة لها خلع جلبابه و خاض الارض ممسكا بفأسه و بدأ فى العمل بهمة لم يعهدها بنفسه من قبل .

مرت الساعة أو ربما اكثر قليلا حتى وجدها تعود فى هدوء ..تنادي على حمزة لكنه لم يبالي .. اقتربت بصينية الطعام ووضعتها أمامه و اخيراً ظهر حمزة لينضم اليه جالسا بقربه يتناول طعامه سريعا ليعود للعب من جديد همت بالرحيل عندما هتف

بها حمزة :- ما تجعدي ياما تكليمعانا ..

نظر يونس اليها فوجدها تبتسم .. ربما للمرة الاولى يجدها ترسم اى تعبير على وجهها غير تلك التكشيرة التي كانت تقابله بها دوما ابتسامتها غيرتها تماما .. جعلت منها امرأة اخرى زاد وجيب قلبه لمرأى تلك البسمة النادرة على محياها الصبوح .. حتى إن كفه ارتعشت و هو يتناول احد الأرغفة ليبدأ فى تناول طعامه ..

و لم يع الا وهو يهتف فيها عندما وجدها تهم فعلا بالجلوس معهما :- لاااه ..

إنتفضت متطلعة اليه فى استفسار .. ليكمل و هو يحول بناظريه عنها و يثبتهما بأعجوبة على وجه حمزة مستطردا :

- ميصحش يا حمزة .. الناس الرايحة و الجاية تشوف أمك جاعدة تاكل مع راچل غريب عنيها ..؟!..

.....

تنبهت إنه على حق .. و هم حمزة بالاعتراض هاتفا

إن يونس ليس غريبا .. لكنها قاطعته و هي ترحل هاتفة :

.....

- عمك يونس كلامه صُح... اسمع ليه يا حمزة عشان

تعرف كيف تبجى راچل على حج ..

و رحلت مسرعة بعد إن جعلت يونس ينتفض لكلماتها للمرة

الثانية حتى إنه رفع نظراته لتتبعها بغير قدرة على جذبها

بعيدا عن تلك المرأة التي كلماتها اى كانت نوعها ..

تفعل به الافاعيل .. كلمات قد تدفع به للنار مذنبا أو

تورثه الجنة .

****

جز شعلان على اسنانه في غل عندما تنحى به احد

العمال الذي كان دوما يحاول استرضاءه وكسب وده حتى

ولو على حساب بعض من زملاءه ليخبره بما سمع من الحوار

الذي دار بين زكرياء و بحر منذ قليل و هو يرتشف الشاي في عشة الأخير بالقرب منهما و استراقه السمع لبعض حوارهما و هما لا يدركان و هتف بغيظ :

- طيب يا زكرياء .. لما نشوف اخرتها ايه معاك يا صعيدي .. ووريني هتبلغ الحاج مندور ازاي ..؟!..

ثم عاد يحدث الواشي في حقد هاتفاً :

- شوف بقى .. الواد ده نخلص منه عشان ميقرفناش .. أنا هخطط و إنت وريني همتك في التنفيذ..ده لو عايز تكسب رضايا بصحيح.؟!...

هتف الواشي في تردد :- بس يا ريس شعلان .. أنا ..

هتف شعلان مقاطعا:- إنت ايه ..؟!.. شكلك هتزعلني منك .. و أديك شايف أنا زعلي وحش ازاي..؟!..

.....

اومأ الواشى في إيجاب مضطرب و شعلان يخبره خطته للخلاص من زكرياء .. و ما إن إنتهى حتى دفعه بعيدا هاتفاً به :

- ياللاه روح بقى وورينا شطارتك هتنفذ العملية ازاي ..؟!.. بس بقولك ايه ..؟!.. قضاء و قدر هاا .. مش عايز دم .. مبحبوش .. بيتعب اعصابي..

و قهقه شعلان بصوت جهوري مستفز جعل الواشي يجفل في ذعر وهو يندفع مبتعداً عن ذاك الشيطان و قد ادرك اى فخ أوقع نفسه فيه بحماقاته و رغبته في التسلق والتملق ..

****

لم يكن زكرياء على علم بإن الحاج مندور يبني فيلته بالقرب من ذاك التجمع السكنى لتلك العمائر التي يشرف على بنائها شعلان حتى تم إرساله لموقعها ليشارك باقى العمال في بنائها ..

دخل الى الموقع وتفقد الخامات و اساسات البناء

ليكتشف إن شعلان لم تطل يده تلك الفيلا و خاصة إن لها مهندس مخصوص يشرف على بناءها بخلاف مهندسين الموقع الذين يتعامل معهم شعلان و سمعه ذات مرة يتفق معهم على مخالفة الخامات للمواصفات بفارق في السعر يُقسم على الجميع ..

ارتاح قليلا لإنه يشارك في بناء صرح بأسس سليمة و اخذ يدعو اللّه إن يستطيع مقابلة الحاج مندور في اقرب فرصة حتى يبلغه ما اكتشفه من خراب و فساد ..

.....

كان زكرياء على الثقالة بالدور الثاني من الفيلا عندما سمع احد يناديه من الأسفل طالبا أياه في سرعة ..

استجاب زكرياء للنداء و هو يرى على البعد سيارة فارهة تقترب .. كان قد وصل للمنادي و هتف به لاهثاً :- خير .. ايه في ..!؟..

.....

وقف الرجل مترددا و أخيرا هتف على عجل :- اه ..

أنا كنت نسيت اقولك صحيح .. إن الريس شعلإن كان عايز.. عايز..

و اخذ يدعى النسيان و هو يضرب على جبهته محاولا التذكر و زكرياء يقف في نفاذ صبر منتظرا تذكره .. كانت تلك إشارة من الرجل لصاحبه الذي كان يقف في الأعلى بنفس الطابق الذي كان به زكرياء في الفيلا منذ لحظات يدفع بخبث و دون ان يستشعره احد لعمود من الخشب ليندفع في اتجاه زكرياء الذي نفذ صبره بالفعل و قرر ترك الرجل و العودة لموقعه داخل الفيلا ليفاجأ بذاك العمود المنتصب يهوى في اتجاهه .. و تلمح عيناه سيدة تترجل من السيارة التي توقفت الان بالقرب منه و علم إن تلك السيدة حتما ستصاب بسقوط ذاك العمود كأصابته و ربما اكثر ..

كانت تفصله خطوات بسيطة عن تلك الفتاة التي توليه ظهرها تتطلع للموقع المحيط بالفيلا قبل إن تدخلها ... لذا وجد نفسه دون تفكير يندفع باتجاها يحيطها بذراعيه ويحاول إن يشملها بجسده قدر إمكانه حتى لا تصاب بأذى ليسقط العمود في تلك اللحظة على ظهر و كتف زكرياء الذي تأوه في ألم و هو يرفع رأسه ببطء لتطالعه عينيها الجوزية و نظراتها المذعورة و يسقط أخيرا في بئر من الظلام و رأسه قد سقطت في أحضانها...

****

لا تعرف لما كانت تتحاشاه .. فلم يحدث منذ دفاعه عنها امام سليم ما يعكر الصفو .. لكنها رغم ذاك تتحاشى الخروج له حاملة الطعام كعادتها .. كانت تدفع حمزة بالصينية التي كان ينوء بحملها معظم الوقت ليضعها امام الباب مناديا يونس لحملها بالنيابة عنه .. و

الْيَوْمَ لم يكن استثناءً فبالفعل حملت صينية الغذاء حتى باب حجرة الخبيز التي تطل على الارض و تشترك مع حجرته فى نفس الحائط ليحملها حمزة بضع خطوات و يضعها فى تعب مناديا على يونس الذي لم يرد .. لم تسمع صوت غناءه المعتاد كما تعودت منذ الصباح الباكر وهو يخرج للأرض وتوقعت إنه فى الجانب المتطرف منها لذا لا تسمع له حسا .. لكن استمرار حمزة فى النداء بلا طائل جعلها تخرج من خلف باب الحجرة حيث كانت تنتظر ولدها لتتطلع للأرض تجول بناظريها فى اطرافها لعلها تلمح طيفه هنا أو هناك .. لكن بلا جدوى .. إندفع حمزة فى اتجاه غرفته التي لم يكن يدخلها احدهما .. ليدفع بابها فى هدوء مناديا باسم يونس ليجده بالفعل فى الداخل .. لكن ممددا على فراشه يئن فى ألم و لا يجيب نداءات حمزة المتكررة و الذي شعر بالخوف فإندفع خارجا يخبر

أمه بما رأى من حال يونس لتندفع بلا وعي لداخل الحجرة لتتطل لوجهه الشاحب .. ترددت فيما يجب عليها فعله .. هل تبعث لعاصم تخبره .. أم ماذا ..؟!.. عليها اخباره و عليه التصرف

أرسلت حمزة لعاصم فى السرايّ ليبلغه ما يحدث ..

و اقتربت هي تضع كف مترددة على جبين يونس الذي كان يهذي بكلمات غير مفهومة .. كان جبينه يستعر .. شعرت بالشفقة تجاهه .. و إندفعت خارج حجرته فى إنتظار مجئ عاصم .. لم يمر الكثير حتى عاد حمزة هاتفا :

- عمي عاصم مش موچود مسافر بره البلد

صمتت لثوإن ثم هتفت فيه من جديد :

.....

- طب اچرى على الداكتور و هاته فى يدك وتعالى .. تعرف .؟!.. جوله أنا عمي يبجى عاصم الهواري ..

أكد حمزة :- اه .. اعرف .. و إندفع منفذا مطلب أمه

.....

التي إنتظرت مجئ الطبيب بفارغ الصبر .. لا تعرف لما ذاك القلق الذي يعتريها على يونس .. و تلك المشاعر التي تتسلل لداخلها تسيطر عليها بشكل غريب .. يوم إن غاب شعرت بافتقاد الأمإن و الْيَوْمَ تستشعر احساس اخر من القلق و الخوف من الفقد

اصبح يونس .. بوجوده و صوته الدافئ و غناه و كل ما يخصه يؤثر عليهابشكل ما عجيب .. لم تستشعره من قبل .. يوما ما ظنت إنها تعشق زكرياء لأنها رأت فيه ذاك الرجل الذي إنتظرته طويلا .. الرجل الذي يشعرها بالأمإن الذي افتقدته مع سليم والذي بالطبع لم يكن هو ذاك الرجل الذي يهبها أمأنا حتى ولو زائفا.. الإن مع يونس الامر مختلف.. مختلف بشكل كلى .. يونس ليس فقط ذاك الرجل الذي تمنته بل إنه على العكس تماما مما تمنت .. لكن على الرغم من ذلك وجدت به و معه كل ما كانت

تنتظر و تتمنى .. واعترفت لنفسها أن يونس له مكانة فى قلبها الذي اعتقدت إنه لن يفتح لأي رجل مهما كان .. يونس وحده هو الذي أشعرها إن هذا القلب لازال موجودا و قادر على النبض و قادر على الحياة من جديد ..

إنتفضت عندما حضر الطبيب ملقيا السلام ..دخل لمعاينة يونس حيث كانت تقف خارج غرفته .. ليخرج بعد لحظات هاتفا :

.....

- طبعا لازم الراحة و الغذا الكويس بس الأهم من ده كله إنه يتنقل من الاوضة دي لإن كلها رطوبة .. ضروري ..

اومأت برأسها فى تأكيد وهي لا تدرى ماعليها فعله و تناولت وصفة الدواء من الطبيب الذي ألقى التحية و رحل تاركا إياها فى حيرة ..

.....

أرسلت حمزة ليبتاع الدواء و دخلت تعد له بعض الحساء و مرت على غرفة بخيتة لتقص عليها ما حدث و تستشيرها فى الامر .. لتهتف بخيتة فى تأكيد :

- طب و ماله يا بتي .. مإننجلوه ..

هتفت كسبانة :- فين يا خالتي ..؟!.ننجله فين!؟

أكدت بخيتة :

.....

- الأوضة المجفولة اللي بتطل على الجنينة و ليها باب من بره لحالها .. وضبيها و تبجي اوضته .. الراچل بن حلال و منساش وجفته جصاد سليم .. ده كان هيروح روحه لجل خاطرك ..

تحرجت كسبانة هاتفة :- لجل خاطري ليه ..؟!.. هو بيعمل بوصاية سي زكرياء ....ابتسمت بخيتة فى خبث هاتفة :- طيب ..ما دام إنتِ شايفة كِده ..!!؟..ربنا يشفيه .. و يكتب لكم الخير يا بتى ..

.....

همست كسبانة مؤمنة :- امين ..

و نهضت فى عجالة تخرج من باب الدار الداخلية لتستدير عبر الحديقة وتصعد عدة درجات تفضى لتلك الغرفة التي لم تدخلها من قبل و التي جعلتها بخيتة كمخزن للاشياء الغير مستخدمة .. بدأت فى نقل ما أمكنها نقله و قامت بتنظيفها ونصبت الفراش و وضعت بعض الأشياء الاخرى اللازمة للاستخدام

و اخيراً إندفعت تطمئن على يونس لتساعده فى المجئ للغرفة الجديدة بعيدا عن رطوبة تلك الغرفة التي كان يسكنها .. دخلت غرفته لتجده بدأ يستفيق برغم شحوب وجهه الذي لازال يكلل ملامحه السمراء الرجولية ..

مدت كفها لتضم كفه جاذبة إياه و هي تهتف فى رقة :

- ياللاه يا سي يونس ..شد حيلك معايا ..

.....

إنتفض عندما ضمت كفه بتلك الطريقة الحانية

و جذبها هاتفا فى تعجب بصوت واهن :- على فين.؟!...

.....

ابتسمت فى رقة و عادت تجذب كفه مرة اخرى لينهض فى

تثاقل نظرا لمرضه مشرفا عليها بقامته المتوسطة الطول و

التي أظهرت مدي قصر قامَتَها بالنسبة له مؤكدة :

- حضرنالك أوضة تانية خلاف دي ..

همس متعجبا :- و مالها دي ..؟!.. ما هي زينة اهي...

ابتسمت وهي تسير فى بطء ليسير خلفها متعكزا على

كفها محاولا قدر استطاعته إن لا يثقل عليها رغم شعوره

بالدوار يكتنف رأسه :

- الداكتور جال مينفعش تجعد فيها .. كلها رطوبة ..

توقف للحظات و بدأ يسعل فى شدة أدمت قلبها ..لتهتف :

.....

- اهاااا.. شايف ..لازما تنجل أوضة جديدة بعيد عن الرطوبة .. نضفت لك الاوضة المجفولة على الجنينة .. و هتروح تستريح فيها دلوجت ..

بدأ فى السير من جديد محاولا الاستناد على الحوائط القريبة من خط سيره حتى لا يضطر للارتكان على كفها البضة التي تجعله يشعر بمزيد من الحرارة الحارقة تسري بعروقه .. وصل اخيراً للدرجات حيث الغرفة المعدة لاجله ..

صعدها فى مشقة و اخيراً ألقى بجسده المنهمك من جراء رحلة الإنتقال على الفراش

وقفت هي على اعتاب باب الغرفة هاتفة فى قلق :

- سي يونس .. إنت كويس ..؟!..

.....

أشار اليها بكفه ان لا وانه لا يشعر بإنه على ما يرام .. لتندفع لداخل الغرفة تشرف على محياه المسجى على الفراش هاتفة بنبرة تقطر ذعرا :

- اجيب الداكتور تاني .. !؟..

فتح جفونه فى بطء و ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة و هو يهمس :

- بجيت كويس اول ما طليتى عليا .. كسبانة ..!!...

كانت المرة الاولى التي يهمس فيها باسمها مجردا .. بل باسمها من الأساس فدوما نداءه لها كان .. أم حمزة .. لم تسمع اسمها تنطقه شفتاه من قبل .. مما جعل ارتعاشة خفيفة تسرى فى اطرافها لا تعرف لها سببا و هو يستطرد هامسا :

- تتجوزيني!؟...

.....

لتشهق هي فى صدمة و هي تطل عليه بعيون مفتوحة و فم تغطيه بكفها .. و ما إن استفاقت من صدمتها حتى إندفعت خارج الغرفة تكاد تتعثر فى خطواتها و هي تهبط درجات السلم مندفعة لداخل الدار ..

****

ظهرت له من جديد تبتسم كعادتها لكن هذه المرة الامر مختلف فقد استدارت ورحلت بعيدا و حاول هو النداء عليها لكن صوته حبيس حنجرته لا يفارقها .. استدارت مرة أخرى و غابت بالفعل بعد إن لوحت له من خلف غمام اسود بدا يتحول للرمادي و أخيرا عاد صوته ليهتف باسم واحد :- حاازم ..

.....

إنتفضت هي عندما سمعته يهذي باسم ما فإندفعت لوالدها الذي كان يطالع الجريدة في اخر الجناح الواسع و لم يستمع لهمهمات زكرياء ..

.....

إنتفض والدها مسرعا اليها عندما اشارت نحو زكرياء ليصل لجسد زكرياء المسجى و الذي بدأ يستعيد وعيه أخيرا مكررا النداء باسم ولده الوحيد ..

حاول زكرياء فتح عينيه عدة مرات و لم يستطع من قوة الضوء الضاربة في عمق عينيه .. و أخيرا اعتاد سطوع الضوء ليفتحهما في تمهل متطلعاً حوله ...

زفر الرجل الخمسينى في راحة هاتفاً :- الحمد لله .. أخيرا فوقت .. قلقتنا عليك ..

.....

تطلع زكرياء لملامح الرجل الذي لا يعرفه و لم يسبق له رؤيته ..

همس زكرياء بصوت واهن :- أني فين ..؟!.. و حاول التحرك لكن ذراعه اليسرى وراسه المضمدة اشعرتاه بالالم ..

.....

هتف الرجل :- خليك زي ما إنت بلاش حركة الدكتور قال راحة تاامة ..

أعاد زكرياء السؤال :- أني فين ..؟!..

أجاب الرجل :- إنت هنا في فيلتي .. فيلا الحاج مندور الشامي ..

شهق زكرياء متعجباً متغلبا على ألم رأسه الذي يكتنفه الان :

.....

- هو حضرتك الحاج مندور .. الف حمد وشكر ليك يا رب ..

ابتسم الحاج مندور و لم يعقب ليستطرد زكرياء :

- ده أني كنت بدعى ربنا اجابلك و مكنتش عارف اوصلك كيف ..؟!..

.....

اتسعت ابتسامة الحاج مندور هاتفاً :- و أديك أهو جوه فيلته ..؟!.. نايم في جناح الضيوف.. بس ليه كنت بتدعي تشوفني ..؟!

هتف زكرياء بصوت رتيب واهن :

- يا حاج أني مش هشهد غير بالحج .. ألحج مالك و سمعتك .. إنت راجل زين والكل بيحلف بحياتك بس شعلان ..

.....

هتف مندور متعجباً :- ايه اللي بتقوله ده .؟!و ايه دخل شعلان بيه ..؟!..

استطرد زكرياء :- يا حاج مندور في لعب ياما بيتعمل من ورا ضهرك و مواصفات مش مطابجة و مهندسين مطرمخين على اللي بيحصل عشان بيجبضوا ..

.....

هتف مندور في ضيق :- و أنا ايه اللي يخلينى اصدقك ..؟!.. اه إنت إنقذت بنتي زينة .. و أشار لابنته التي كانت خارج مجال رؤية زكرياء .. ثم استطرد :

- لكن ده مش كفاية إن اصدق المصايب اللي بتقولها دي .. ده إنت لسه جديد عندنا على ما سمعت و شعلإن في الكار ده من زمان و اشتغل مع مقاولين ياما ..هو اه أنا مبرتحلوش بس ده مش معناه إنه حرامي ..

.....

هتف زكرياء :- عِندك حج يا حاج .. اه أني جديد هنا .. لكن منيش جديد على الكار .. أنا اشتغلت مع الحاج مرشدي الضبع في مصر و شربت منه الصنعة و عرفت ايه اللي ينفع و اللي مينفعش ..

و قاطعه مندور هاتفاً :- الحاج مرشدي الضبع؟!.. إنت كنت شغال معاه ..؟!..

.....

أكد زكرياء :- اه .. و جَبل ماجى اسكندرية

كنت عنديه شغال و تجدر تسأله ..

هتف مندور في تعجب :- يااه .. مرشدي ده صاحب عمر بس للأسف اتفرقنا .. هو فضل هناك و أنا جيت على إسكندرية .. فضل هو ف شعل القطاعى و أنا غامرت و بقيت اللي إنت شايفه ده ..ده إنت اللي هتدلني عليه لأنه قفل محله القديم و غير مكانه خاالص و من ساعتها مش قادر أوصله و الدنيا خدت كل واحد في سكة ..

ثم تنهد و هتف أخيرا :- طب يا زكرياء .. أنا عايز أتأكد من اللي بتقوله ده و اسمعه بودنى

مش عايز إنزل الموقع ألاقي كل حاجة تمام و المهندسين مظبطين الدنيا لأن واضح إن في حد بيبلغهم بمجيتي حتى و لو فجأة ..

.....

أكد زكرياء :- خلاص يا حاج سيبها عليا ..و كله على الله في الأول و الاخر ..

هز مندور رأسه متفهماً ليهتف زكرياء محرجا :- طب أنا بجيت كويس يا حاج .. استأذنك اروح .. زمان ولدي لوحديه ..

.....

هتف مندور في لوعة :- ابنك ..؟!..يا زكرياء .. إنت بقالك خمس ليالي غايب عن الدنيا ..فين ابنك ده ..؟!.. و ازاى تسيبه لوحده ..؟!..

بهت زكرياء من الفترة التي غاب فيها عن الوعي و لكن ما افزعه حقا هو حازم .. يا ترى كيف حاله الان مع الست تهاني و التي بدورها لا تعلم أين مكانه ..؟!..

هتف زكرياء :- ولدي في البنسيون اللي أني جاعد فيه بترعاه صاحبته و بتخلى بالها منيه لحد ما ارجع من شغلى .. كتر خيرها ..

.....

هتف مندور :-طيب احنا هنبعت نجبهولك .. بس

هي فين والدته ..؟!..

همس زكرياء بشجن :- اللّه يرحمها ..

.....

تحرج مندور :- اللّه يرحمها ..

ثم استدار مندور هاتفاً :

- أنا هبعت السواق يجيب الولد ..اسمه حازم مش كده ..؟!..

هتف زكرياء رافضا :

- لاه .. ملوش عازة يا حاج مندور .. بس وصلونى لعندىه و

كتر خيركم ..

هتف مندور مؤنباً و هو يستدير ليعود لزكرياء يرجع

كتفيه لموضعهما على الفراش حينما عم بالنهوض متحاملا

على ألام كتفه و رأسه :

.....

- إنت رايح فين ..؟!.. ما قلنا الحركة ممنوعة و خطر عليك دلوقتي .. مفيش روحة في اى حتة و ابنك هيجيلك لحد هنا .. ارتاح بقى ..

.....

عاد زكرياء متمدداً على الفراش و في اثناء ذلك وقعت عيناه على تلك الفتاة التي كانت قابعة في احد أركان الغرفة صامتة تماما لم تنبس بحرف .. تتطلع لما يحدث بعيون متسائلة حيارى ..و تشبك كفيها و تفرك أصابعها في اضطراب ظاهر ..

أشاح زكرياء بنظراته عنها و هو يكتنفه شعور عجيب بانه قابل تلك الفتاة من قبل ولكن لا يعلم أين ..؟!.. او متى حدث ذلك .؟!

إندفع مندور خارج الحجرة ليقوم بما يلزم ليحضر حازم و ما إن رأت ابيها يخطو خارج الغرفة حتى إندفعت بدورها في اضطراب خلفه .. حتى إنها لم تفكر للحظة بان تشكره ..

لكنه لم يهتم كثيرا فهو يدرك تماما تلك الطبقة الواسعة الثراء و كيف يكون ابناءها .. فإنهم يروا إنفسهم فوق البشر جميعا و إن جميع بنى ادم قد خُلقوافقط لخدمتهم ..

****

دخلت الخادمة تحمل صينية الطعام لزكرياء و خلفها كانت تلك الصامتة التي لا تنطق بحرف ترفعا .. و ضعت الخادمة الصينية على تلك الطاولة الصغيرة الموضوعة على الفراش امام زكرياء و رحلت ..

توقع زكرياء إن ترحل معها .. فهي بالنسبة له مجرد شخص غامر بحياته لإنقاذها و عليها شكره و الامتنإن له بطريقتها اى كانت هذه الطريقة حتى و لو فظة ولا تحمل اي ملامح من الذوق المفترض في مثل هذه الحالة .. لكن من هو ليطلب اكثر من ذلك فعليه ان يكون راضيا و ممتنا

لذاك البذخ الذي يعيش فيه و تلك الرفاهية التي ما كان يحلم بها في جناح ملكي كهذا و في فيلا احد أكبر مقاولي الإسكندرية ...

جلست هي كعادتها في ذاك الركن و بدأ الاضطراب المعتاد يسكنها بفرك أصابعها كما اعتادت .. لم يعيرها اهتماما و لا نطق بحرف لكن لا يعلم لما نظراته رغما عنه تحيد باتجاهها ..هناك شيء ما يجذب نظراته اليها و هو القادر دوما على غض بصره ..لكن هناك شيء أقوى من تلك القدرة امام تلك الفتاة .. ربما هو الفضول الذي يدفعه للتفرس فيها رغما عنه لعله يتذكر أين رأها فهو يكاد يقسم إن هذا الوجه قد قابله من قبل لكن لا سبيل للتذكر في اى مكان و ما المناسبة ..إندفع حازم من باب الجناح فيتلك اللحظة هاتفاً ما إن رأى ابيه مندفعا لفراشه :- سكريا.. !!!...

اخرج هتاف حازم زكرياء من شروده ليتلقفه بين ذراعيه .. إندفعت هي ترفع صينية الطعام بعيدا عن الفراش مخافة اسقاطها بسبب إندفاع حازم المحموم تجاه والده .. الا إن زكرياء ترك حازم و إندفع يحمل الصينية في نفس اللحظة التي وضعت كفيها لتحملها بعيدا .. كفيه على كفيها و صينية الطعام بينهما و نظرات مصعوقة من قبلها و نظرات محرجة من قبله .. ثوان مرت بلا رد فعل و فجأة تركت الصينية ليتلقفها هو قبل سقوطها و تندفع خارج الغرفة كالمذعورة التي يتعقبها الشيطان ..

.....

ترك زكرياء صينية الطعام جانبا و أعاد تركيزه على حازم الذي إندفع لأحضانه من جديد معاتبا أياه على غيابه تلك الفترة الماضية و تركه وحيدا و قد بكى كثيرا و لم تستطع الست تهاني إسكاته ليهتف زكرياء مازحاً :

.....

- وهو في راچل يبكى برضك ..؟!..

هتف حازم بنبرة جدية :

- أنا مش راجل على فكرة .. شوف أنا طولى ايه و إنت طولك ايه ..و أشار بكفه مقارنا طوله بطول والده مستطرداً لما ابقى طولك هبقى راجل ..

إنفجر زكرياء ضاحكاً و لم يعلق على منطق ولده غير القابل للمناقشة بل احتضنه في شوق و استدار يحمل صينية الطعام يطعم ولده منها و يتناول طعامه متطلعاً لحازم في سعادة ...

****

.....

إندفع مهران لداخل السرايّ و هو يمسك برأسه متألما صرخ ت الحاجة فضيلة و هي ترى الدماء تلوث جلباب حفيدها مم ا استرعى إنتباه زهرة الذي إندفعت تتأكد من سلامة

ولدها .. رفعت كفه عن الجرح النازف لتتأكد إنه

يحتاج إلى بعض القطب الطبية في

الحال .. اما الحاجة فضيلة فإندفعت تحضر بعض من البن ا

لمحوج الذي تخفيه بعيدا عن كف عاصم حتى لا يتخلص

منه بسبب حبها للقهوة التي ترفع لها ضغط الدم ..

هتفت زهرة بها وهي تهم بوضع البن على جرح مهران :

- لا يا خالتي .. ده محتاج

خياطة ضروري .. أنا هبعت سعيد يجيب الدكتور ..

و بالفعل إندفعت زهرة تطلب الطبيب بينما هتفت الحاجة ف

ضيلة فى ضيق موجهة

كلامها لمهران حفيدها الذي كان يجلس على طرف الأري

كة شاردا لا يبالي:

- مين اللي عِمل فيك كِده يا روح ستك ..؟!..

هتف مهران :- الواد سلامة الصايغ ..

ضربنى بالحچر و چرى .. أغمضت الحاجة فضيلة عيـ

ونها مفكرة بعمق :

-

طب و هو عِمل كده لحاله ..؟!.. عِملت له ايه يا واد الغالي

..؟!..

هتف مهران مدافعا عن نفسه فاشيا سره فيبراءة :

-

هكون عِملت له ايه ..؟!.. أنا خناچتى كانت مع اخوه الجبا

ن اللي مجدرش

علىّ راح باعت لى اخوه الكبير .. راح ضربني على طوول با

لحچر فى راسي وچرى .. هما الاتنين أچبن من بعضيهم عشان

عارفين محدش هايجدر يضربني ..

ابتسمت فضيلة لحفيدها الذي كان يتسم عن اقرانه

بقوة البنيإن و هتفت بفخر وهي تحاول تنظيف الجرح :

-

معلوم .. هو إنت واد مين ..؟.. ده إنت واد عاصم الهواري ..

ثم نظرت فى تخابث و هي تدرك إن فى الامر شئ خفى لا ت

دركه :

-

بس برضك إنت مجلتش .. ايه سبب العركة من الأساس يا

مهران ..؟.

صمت الصغير و انقذه الطبيب الذي استأذن و بدأ فى عم

له و نظف الجرح

وعقمه ثم بدأ فى تقطيبه و الطفل يبدي رباطة جأش تفوق

سنه جعلت الجدة تبتسم

و هي تتذكر ابيه في مثل عمره .. كان نسخة منه فى كل

شئ على الرغم إنه يشبه

لحد اكبر الجد مهران الذي سُمي تيمنا به من الناحية الش

كلية و بعض الصفات .. لكن فيما يخص القوة و ا

لحمية فإنه لا يختلف عن عاصم إطلاقا ..

إندفعت سهام داخل القاعة حتى كادت تصطدم بالطبيب ا

لذي إنهي عمله و كان فى سبيله للرحيل

و هي تجذب خلفها ابنتها تسنيم فى يد و الاخرى تسبيح ذا

ت الاربع سنوات فى اليد

الاخرى .... هتفت فى لوعة ما إن رأت ضمادة مهران التي وض

عها الطبيب على

جرحه :- يا ولدي .. يجطعنى .. بتى السبب ..

هتفت فضيلة و زهرة في آن واحد :-ازاي ..؟!.. كيف..؟!..

نكس مهران رأسه أرضا و صدق حدس الجدة فضيلة فها هو

المستور يظهر عندما إندفعت سهام تحكي بعفوية :

-

تسنيم كانت بتلعب جدام الدار راح الواد البارد بن الصايغ

ضايجها راح مهران ضاربه .. الواد الفجرى راح جاب ا

خوه و راح ضارب مهران بالحچر فى رأسه و طلع يرمح

و الله لما ياچى عاصم و حسام لهيشوفوا اللي ما شافوه ..عيا

ل جليلة الرباية ..

ابتسمت الحاجة فضيلة و هي تربت على كتف مهران هامس

ة فى استحسان :

- جال كنت بتحوش عن بت عمتك يا مهران ..؟!..

هز الصبى رأسه المنكس ببطء .. لتعيد الجدة التربيت عل

ى الكتف الصغير فى سعادة هامسة له :-

چدع ..عفارم عليك .. أوعى تخلى حد يجرب من حاچة تخ

صك ..

رفع الصبي رأسه متعجبا :- تخصني .. ازاى يا ستي ..؟!..

ابتسمت الجدة متناسية سهام و زهرة اللتإن أخذتا فى الحدي

ث فى شأن رجالهما الغائبين :

معلوم يا جلب ستك .. تخصك .. مش بت عمتك .

. يبجى تخصك .. و تدافع عنيها مهما كان جدام مين .. س

معنى يا مهران ..؟!..

همس الصبى محاولا الاستيعاب لكل ما قالته الجدة :-

سامعك يا ستي ..

اقتربت تسنيم بجسدها البض الممتلئ

قليلا فى خجل من مجلس مهران و جلست

بجانب الجدة على استحياء هامسة وهي تشير للجرح برأسه :

-هو بيوچعك يا مهران ..؟!..

هتف الصبي فى تأكيد :-

لاه مش واچعني.. أنا راچل .. و ده خربوش صغير ..

إنفجرت الحاجة فضيلة ضاحكة على رد فعل حفيدها الذ

ي اثلج صدرها ....

****

إندفع حازم لغرفة زكرياء صارخاً في فرحة و كانت زينة في أعقابه تحاول اللحاق به

.....

حتى إنها من شدة إندفاعها لم تستطع ان تمنع نفسها من التوقف قبل ان تصل لاعتاب الغرفة .. كان حازم الان في أحضان زكرياء مدعيا الاختباء منها فابتسم زكرياء لأفعال ولده و تطلع ممن يركض بهذا الشكل ليراها تقف حائرة على اعتاب الباب مضطربة و مترددة هل تدخل ام ترحل .. كانت تلك المرة الأولى التي يراها فيها بعد حادث صينية الطعام الغير مقصودة منه و رد الفعل العجيب منها ..

هتف زكرياء في تأدب :- اتفضلي يا إنسة زينة ..

.....

و كان عرضه هو الدافع الذي كانت بإنتظاره لتدخل الجناح في خطى وئيدة و مترددة ..حتى جلست في ركنها المفضل .. صامتة كعادتها ..

.....

هتف زكرياء معاتباً حازم :- احنا مش جلنا نبجى هاديين يا حازم و منتعبش حد معأنا!!؟..

هتف حازم ممتعضا:- ما أنا مؤدب و هادي أهو .. أنا كنت بلعب مع طنط زينة .. فيها ايه دي!؟؟..

ابتسم زكرياء :- مفيهاش حاچة يا غلباوي بس متتعبهاش معاك ..

تطلع اليها زكرياء ليجدها أخيرا ترفع نظراتها المطرقة دايما إلى الأرض لتتطلع اليه بدورها ..

دخل الحاج مندور في تلك اللحظة ملقياً التحية و مطمئناً على صحة زكرياء ..نظر الحاج مندور لابنته متعجباً عندما وجدها تجلس في هدوء في حضرة زكرياء و ابنه دون ابداء

ذاك الاضطراب المعتاد و فرك أصابعها المتزامن

مع ذاك التوتر ..

.....

كانت بالفعل تجلس هادئة تماما و كانها في حضرته هو ..

فهو الوحيد الذي تكون على طبيعتها معه ..

هتف الحاج مندور :- ها جاهز يا زكرياء للى اتفقنا عليه ..

و لا نأجل الموضوع شوية ؟!.

هتف زكرياء مؤكدا :- لاه نأجل ايه ..؟!.. كيف تأجيل يا

حاج .. ده إنت موجف الشغل من ساعتها في العماير و ده

برضك جوت ناس و اكل عيشها ... الداكتور جال باذن

الله على بكرة بالليل بكتيره هاياجى يطمن على جرح

راسي و يفك الشاش اللي عليها دي هي بس يدي اللي

هتاخد وجت شوية .. بعد بكرة الصبح باذن الله إنزل

الشغل و نفذ اللي اتفجنا عليه يا حاج ..

.....

www.hakawelkotob.com

هز الحاج مندور راسه موافقا :- تمام يا زكرياء و ربنا يعمل اللي فيه الصالح ..

همس زكرياء :- باذن الله ..

نهض الحاج مندور مغادراً :- طيب يا زكرياء نسيبك تستريح و كله على الله ..

استدار الحاج مغادراً و ما إن وصل لاعتاب الباب حتى وجد ابنته لم تتحرك خلفه مسرعة كالمعتاد .. ابتسم في هدوء هاتفاً في محبة :

- زينة .. مش هتعشينا و لا ايه !؟..

إنتفضت زينة عندما إنتبهت لمغادرة و الدها و قد احمرت وجنتاها خجلاً و هي تندفع خلفه مغادرة الغرفة في سرعة كما اعتادت..

.....

ليتبعها زكرياء بنظراته المتمردة على رغبته حتى رحلت .. فتنهد في ضيق و احتضن ابنه بذراعه السليمة إلى صدره .. ليروحا في نوم عميق من جراء الدواء الذي يتناوله ..

****

صرخات أيقظت زكرياء من سباته دافعة أياه للنهوض في عجالة مقاوما ذاك الدوار الذي اكتنف رأسه فجأة عندما نهض مسرعا من نومه ..

إندفع خارج جناحه متتبعا الصرخات المتلاحقة و التي تنبئ بكارثة .. و صَل أخيرا لمكانها و عرف مصدرها و الذي لم يكن الا حازم ..

هتف زكرياء ملتاعاً عندما رأى حازم متعلقا بأحدي أعمدة السلم الداخلي للفيلا على ارتفاع لا يقل عن مترين من

الأرض .. و كانت تقف على مقربة منه زينة .. و التي كانت تقف مصدومة لا تحرك ساكنا و لا تنطق حرفا ..

إندفع زكرياء ليقف أسفل المكان المعلق به حازم هاتفاً به يطمئنه :

- متخافش يا حازم .. متخافش .. أنا اهاا .. سيب يدك ..أنا هتلجفك..

ليصرخ حازم برعب رافضا ترك كفيه و الدفع بنفسه للأسفل ليتلقفه والده ..

هنا ظهرت الخادمة التي كانت تشتري بعض مستلزمات المطبخ لتترك ما بيدها مندفعة لاعلى الدرج محاولة سحب حازم لاعلى لكن حازم لا يعطيها الفرصة لمساعدته خوفا من سقوطه .. حاولت معه كثيرا و زكرياء يكاد يجن بالأسفل لا يستطيع إن يبرح مكانه خوفا من سقوط

حازم المفاجئ .. و الذي حدث بالفعل عندما قلت

قدرة كفيه الصغيرين

على الإمساك و التعلق لفترة طويلة بذاك الافريز الضيق

فهوى صارخاً ليلتقطه زكرياء

بذراعه السليمة مترنحا من الثقل و الألم في نفس ذات

الوقت .. فسقوط حازم قد مس ذراعه المصابة غصبا عنه ..

شهق حازم بين ذراعي والده باكيا .. ضمه زكرياء

اليه متنهدا و زافرا في عدم تصديق إن ابنه بخير و لم يُصِب

بأذى .. و هنا ..وقعت عيناه عليها .. كانت لاتزل على

وقفتها المشدوهة و نظراتها المصدومة ..لا يعرف زكرياء

ما الذي دهاه لحظتها ليندفع اليها و قد وضع حازم ارضا

ليمسك بذراعها و يهزها في عنف صارخاً :

- إنتِ ايه ..؟! الواد كان ممكن يموت جدامكِ و إنت

ولا اى إحساس .. هو احنا رخاص جووى عندىكم كِده ..

يلعن أبو الفلوس اللي تخلي اللي زيك مش هماه

حتى أرواح الناس ..

و دفع بها و ألتقط كف حازم منصرفا في ثورة و قد عقد عزمه على الخروج من هنا

مهما كان .. فلن يأمن على طفله الوحيد مع امرأة مستهترة كتلك الفتاة و التي لم يكن يع إنها بدأت تنتفض و تتشنج ما إن لمس ذراعها في خضم ثورته و لم يدرك إنها الإن

.....

بدأت تبكى بشهقات منتفضة تقطع نياط القلب حتى إن الخادمة إندفعت اليها تحاول تهدأتها لكن لا فائدة ...

****

حكاوي الكتب

-١٣-

بدأ زكرياء في جمع ملابسه و ملابس ولده و هو يقسم إنه لن يبيت في هذه الفيلا بل لن ينتظر فيها لحظة و احدة .. فلقد كاد ان يفقد ولده الوحيد بسبب تلك المدللة التي تتعالى على امثاله حتى انها تترفع عن الحديث اليه و لو ببعض كلمات مجاملة او شكر ..

إنتهى من جمع كل ما له و ألتقط كف حازم و إندفع خارجا من الجناح الجانبى للفيلا و الذي يفتح بباب منفصل على الحديقة و الذي خصص لضيوف الحاج مندور حتى يكون لهم الخصوصية بعيدا عن الفيلا و سكانها وما إن وصل زكرياء لباب الفيلا الخارجي حتى هتفت به الخادمة و التي جاءت مسرعة

تستنجد بأى شخص تجده في طريقها :

- حد يلحقنى .. الست زينة واقعة و قاطعة النفس و جسمها كله بينتفض و مش عارفة أتصرف ..

ترك زكرياء حقيبته في عجالة تاركا كف حازم في يد الخادمة مندفعا لداخل الفيلا

حيث وجدها في نفس المكان الذي تركها به منذ دقائق لكنها متمددة على الأرض تنتفض و هي تضم جسدها في وضع الجنين و تطبق عليه محتضنة نفسها بذراعيها بغرض الحماية .. إنحنى زكرياء باتجاهها هاتفا باسمها في قلق :

- انسة زينة .. انسة زينة ..

.....

لكن لا مجيب .. تطلع حوله في توتر لا يعرف كيفية التصرف يتآكله الذنب لإنه يشعر إن ما يحدث الإن بسبب صراخه في وجهها ..هتف للخادمة التي وصلت في أعقابه مع حازم :- اتصلى بالحاج مندور.. خليه ياچى بسرعة ..

.....

هتفت الخادمة :- الحاج مندور مسافر و هايرجع اخر النهار .. و قال يمكن يبيت ومش هاييجى الا بكرة الصبح..

ضرب زكرياء كفا بكف و هو يرى حالتها تسوء و هو غير قادر على التصرف و أخيرا :- طب تعرفى نمرة داكتور نكلموه ياجى يشوفها..؟!..

أكدت الخادمة الحمقاء :- اه .. الدكتور مؤمن .. هو بيتابعها من فترة و..

.....

قاطعها زكرياء هاتفاً في حنق :- و ساكتة يا حزينة .. ؟!..أجرى كلميه خليه ياجى حالا

أقترب زكرياء منها و هاله وجهها الباكي و جسدها المنتفض حتى و إن خفت حدة إنتفاضاته الا إن مظهرها الآن يدمى القلب.

اقترب منها متحاملا على نفسه حتى يحتمل ألم ذراعه و هو يفك تلك الدعامة التي يتعلق بها ذراعه محمولا و

منجذبا لاعلى إلى رقبته ليدفع به جانبا و يضع يده اليسرى تحت كتفيها و اليد اليمنى يدفع بها متألماً تحت ركبتيها و ينهض دفعة واحدة حاملا أياها و هو يتصبب عرقا من جراء ألم ذراعه الذي بدأ كنيران تنشر بطول كتفه

.....

.. صعد الدرج و وصل للردهة لا يعلم أين حجرتها و أخيرا قطعت الخادمة حيرته هاتفة به :- من هنا يا سي زكرياء .. تبعها زكرياء و هي تعدل الفراش و هو يدخل تلك الغرفة الرحبة ليضعها أخيرا به و هو يكتم ألماً فاق الحد ..

****

رفع زكرياء نظراته لاعلى الدرج الذي يهبطه الطبيب الإن و هو يكلم الخادمة هاتفاً:

- هو ايه اللي حصل بالظبط وصل الحالة لكده ..؟!..

.....

ازدرد زكرياء ريقه فيبدو إن الامر اكثر سوءً مما كان يظن ليستطرد الطبيب :

- واضح إنها اتعرضت لصدمة جامدة ..

.....

هتفت الخادمة :- ايوه .. عندنا ضيوف ابنهم كان هايقع من السلم و هي كانت واقفة و مش عارفة تتصرف ..

سأل الطبيب :- بس ..؟!..

هنا تدخل زكرياء قائلا بعد إن وصل الطبيب بالقرب منه :

- لاه .. أنا زعجت فيها چامد يا داكتور لإنها حتى مصرختش و لا استنچدت بحد يلحج الواد ..

نظر اليه الطبيب في تعجب للحظات و أخيرا ادرك ان زكرياء لا علم له بطبيعة حالة زينة فلم يستطرد في حديثه و إنما هتف في عجالة:

.....

- على العموم بلغوا الحاج مندور يكلمني ضروري اول ما يوصل ..و أنا أديتها مهدئ و إن شاء الله تصحى كويسة ..

.....

اومأ زكرياء موافقا :- باذن الله ..

لم يستطع زكرياء الرحيل و هي بتلك الحالة و خاصة بعد إن تأكد إن الحاج مندور لن يأتي الليلة فوجب عليه البقاء لاي ظرف طارئ ..

دفع بحازم الشبه نائم لجناحهما مؤكدا على الخادمة البقاء معها و إن تناديه اذا ما جد جديد او حدث شيء ما يستدعى وجوده ..

وضع حازم على الفراش و دثره جيدا و هو لا يحتمل ألام كتفه فترنح حتى وصل للحمام

.....

معتقدا إن حمام ساخن على موضع الألم قد يخفف بعض مما يعإن .. لكن هذا لم يحدث ظل الألم على حاله .. بحث في تلك العقاقير التي كان يتناولها ليجد في احداها مسكنا تناول منه حبتين و استلقى محاولا النوم و لو قليلا ..

.....

أغمض عينيه محاولا الوصول لاعتاب النعاس لكن لا فائدة فأمامه تظهر نظراتها المذعورة و جسدها المرتعش و هو يهزها بقوة .. كيف لم يع كل هذا في لحظات غضبه ..؟!.. كيف فاته ذعرها و نظراتها المرتعبة بتلك الطريقة ..؟!..

لقد أعماه غضبه عن ادراك ما كان يجب عليه ادراكه .. و انساه حنقه اقل أصول المفروض .. كيف يمسها من الأساس .. كيف يضع كفه عليها وهي وحيدة و ابيها غير متواجد .. اخذ يزفر في ضيق و هو يشعر بذنب رهيب لإنه تخطى أصول المفروض و الواجب و هذه ليست طبيعته و لم تكن يوما .. ما الذي دفعه لذلك ..؟!.. هو لا يعرف .. لكن كل ما يعرفه .. إن صمتها القاتل و نظراتها المذعورة أحيأنا والمتعالية أحيانا أخرى .. تثير حنقه..و تطلق شياطينه ..

****

دخل عاصم السرايّ مسرعا يصعد للأعلى مناديا زهرة في عجالة .. ظهرت من داخل احدي الغرف تلبى نداءه .. دخلت خلفه الغرفة لتجده يزرعها في غيظ جيئة وذهابا .. هتفت و هي تراه على هذه الحالة :

.....

- خير يا عاصم ..!!.. في حاجة .. شكلك ميطمنش..؟!.. و سعيد لما جالك مذعور الصبح يناديك .. كان عشان ايه ..؟!..

هتف فيها أمرا :- ما دِه اللي هعرفه منيكِ ..ألبسي بسرعة و تعالي معايا ..

لم تجادله بل ذهبت لترتدي ملابسها على عجالة لتقف أمامه في لحظات لتتبعه و هو يضع عباءته على كتفه ..

ركبا السيارة و اتجها كما استنتجت للزائب الخاصة بالهوارية ..و التي تأتيها من حين لآخر لفحص البهائم او تطعيمهم او عند وجود حالة تستدعى تدخلها ...

.....

ما إن ظهر بالسيارة حتى تنحى الجميع جانبا و ما إن ادركوا وجود زهرة معه حتى اختفى الجميع في سرعة تاركي الساحة فارغة ..

هتف عاصم :- تعالي .. لتندفع خلفه و هي لا تدرى من امرها شيئا و لا تدرك لما هي هنا من الأساس حتى دخلت للذريبة و ما إن طالعها المنظر الدامي أمامها حتى شهقت في ذعر .. من الذي يمكن ان يفعل شيئا حقيرا كهذا ..؟!.. عدة رؤوس من الماشية ممدة بلا حراك نظرت لعاصم في صدمة :

- مين اللي عمل كده ..؟!.. دي مش ممكن تكون ماتت بشكل طبيعى ..

هتف عاصم :- ما هو دِه اللي شكيت فيه .. عشان كِده جلت محدش هيأكد شكي الا إنتِ..

.....

مد لها كفه ببعض القفازات التي احضرها من الدكتور البيطري المشرف على الاسطبلات .. و الذي كان من الممكن ان يطلب منه فحص البهائم .. لكنه لم يكن يريد الا رأيا يثق فيه ..رأيها .. بدأت في مباشرة عملها .. و ما إن إنتهت حتى خلعت قفازاتها وهي تتنهد في حسرة مؤكدة صدق شكوكه هاتفة :

- ايوه يا عاصم ..شكك في محله .. البهايم دي مسمومة للأسف .. حسبنا الله و نعم الوكيل ..

جز عاصم على اسنانه هامسا باسم ما لاعنا صاحبه لتهتف زهرة :

- إنتِ عارف مين اللي عملها يا عاصم .. !!.. لازم متسكتش إنتِ عارف ده مخسرك كام راس ..دوول ثروة .. خسارة و الف خسارة ..

.....

.....

أومأ برأسه موافقا إياها و هو يصطحبها للسيارة

ليعودا للسراىّ و هو شارد الفكر مشغول الخاطر.

****

إنتفض زكرياء من فراشه وهو يتحسس موضع حازم فلا

يجده ليتطلع حوله مناديا

و لا مجيب .. خرج مذعوراً للحديقة ينادي بلهفة على ولده

و الذي فجأة اجابه ..

نظر زكرياء للأعلى ليجد ولده يطل عليه من نافذة احدى

الغرف بالأعلى هاتفاً ليسأله في حنق :- إنت بتعمل ايه

عِندك ..؟!..

هتف حازم :- أنا قاعد مع طنط زينة .. مش هي تعبإنة و

لازم اقعد جنبها .. !!..

.....

جز زكرياء على اسنانه في غيظ من تصرفات و لده و التي

ستجبره على الصعود اليه و صرفه عن ازعاجها ..

.....

زفر زكرياء في ضيق و هو يدخل إلى الفيلا مستأذنا صاعداً الدرج في تردد و أخيرا وصل لغرفتها عبر ذاك الرواق المكسو بالسجاد القرمزي .. طرق الباب في اضطراب هاتفاً :- تعالى يا حازم عشان تُفطر ..

إنفرج الباب فجأة عن ولده هاتفاً :- أنا فطرت من بدري مع طنط زينة ..

جفل زكرياء من فتح الباب بغتة و استطاع لوهلة إن يلمح طيفها على الفراش جالسة تتكئ على الوسائد خلف ظهرها و شعرها الكستنائي القصير يحيط بوجهها في براءة لم يستطع الا إن يهتف بصوت متحشرج يملؤه الشعور بالذنب :

- كيفك النهاردة يا إنسة زينة ..؟!..

لم ترد كعادتها .. و لكنه لاحظ انها تؤمى برأسها في إيجاب ..

و فجأة لاحظ زكرياء ما يقوم به حازم فإندفع لداخل الغرفة ملتقطا منه تلك الصينية التي يحاول حملها هاتفاً فيه بضيق :- مالك إنت ومال الصينية .. هاتها و تعال جدأمي سيب طنط زينة تستريح ..

امتعض حازم هاتفاً و هو يندفع لأحضان زينة :- لاااا .. مش هسيب طنط .. هقعد معاها ..

كانت هي صامتة تماما .. و ابتسامة محبة لحازم مرسومة على شفتيها و لم تعترض على قراره بالبقاء معها .. لكن زكرياء كان يشعر بالإحراج يغرقه .. أولا لإنه يقف الإن في اكثر الأماكن خصوصية .. حجرتها و هذا لا يجوز و من دفعه لذلك هو ولده الذي بلغ منه الحنق مبلغا كبيرا جعله يقسم داخليا إن يخرجه معه من غرفتها و لو عنوة ..وليكن ما يكون ..

.....

وضع صينية الطعام على الطاولة الجانبية و اقترب يرفع حازم بيده السليمة الا إن اعتراضات حازم تزايدت وتيرتها و هو يحاول رفعه حتى إنه ضرب ذراعه المصابة بقوة و التي كان الألم قد بدأ يعاودها من جراء إنسحاب تأثير المسكن القوى الذي تناوله الليلة الماضية .. تألم زكرياء بصوت عال هذه المرة و إنحنى تاركا حازم رغما عنه لتنتفض هي في اتجاهه تتأكد إن كل شيء على ما يرام ..

كان الوضع عجيبا .. حازم صامتا من جراء احساسه بارتكابه خطأ فادح في حق والده الذي يتألم الإن منحنى الجذع ممسكاً بذراعه و كتفه المصاب .. و زينة التي إنتفضت من فراشها تقف حائرة لا تعلم ما يجب عليها فعله ..الا إنها وجدت نفسها بلا إرادة منها تربت على كتفه مشيرا اليه بالجلوس ليلتقط إنفاسه ..

كانت إنتفاضة زكرياء لربتها على كتفه اثرا أقوى من اثر الألم الذي يعتمل في كتفه .. لذا نظر اليها متعجباً و لم ينطق بحرف .. قطع ذاك الصمت المحموم دخول الحاج مندور الغرفة هاتفاً في لهفة :- زينة .. إنت كويسة .. طمنيني عليكِ..؟!..

التقط الحاج مندور ابنته بين ذراعيه يقبل جبينها في محبة و هي تربت على كتفه في محاولة منها لطمأنته ..

كان وجود زكرياء و ابنه في غرفة ابنته غريبا و غير مقبول بالطبع .. لذا هتف زكرياء مبررا :

- أنا اسف يا حاج ..حازم كان هنا عند الإنسة زينة و كنت جاى أبعده عنها عشان ميضايجهاش .. اسمحلنا يا حاج نمشوا النهاردة .. و أنا باذن الله من بكرة نازل الشغل عشان نعمل اللي اتفجنا عليه ..

هتف الحاج مندور :- خلاص يا زكرياء .. اللي يريحك... و بكرة زي ما اتفقنا ..

.....

هز زكرياء رأسه موافقا و جذب ولده خلفه و رحل في سرعة خارج غرفتها ..

****

سار زكرياء باتجاه الموقع يبحث بعينيه عن شعلان و ما إن وقعت عيناه عليه حيث توجه نحوه في سرعة ووقف أمامه متحديا .. هتف شعلان ما إن رأى زكرياء متصنعا المحبة :

- حمد الله على السلامة يا زكرياء .. بركة إنك بخير بعد اللي حصل ..

هتف زكرياء بنبرة تحمل المحبة الكاذبة :

- الحمد لله يا ريس .. بجولك ايه .؟!.. أنا كنت عايزك في موضوع كِده ..

.....

تنحى شعلان جانبا ساحبا وراءه زكرياء متصنعا الاهتمام :

- خير يا زكرياء .. خير يا خويا .. و ادخل كفه في جيبه هاتفاً .. عايز فلوس .. رقبتي سدادة .. خير ربنا كتيير ..

ابتسم زكرياء محاولا مداراة نبرته الساخرة:

- ربنا يزيدك يا ريس .. شيلك لعوزة ..اه أنا عايز فلوس بس مش سلف ..

هتف شعلان :- أمال ايه ..؟!.. سلفة قصدك.. ما إنت عارف يا ..

قاطعه زكرياء بحزم :- و لا سلفة ... عايز حجى ..

هتف شعلان مستنكرا :- حقك ..؟؟.. حقك في ايه و لمؤاخذة ..؟!..

.....

ابتسم زكرياء ساخراً :- حجى من النهيبة اللي إنتوا واكلينها لحالكم إنت والباشمهندسين.. و احمد ربك أني مجلتش للحاج مندور لحد دلوجت..

تصنع شعلان الدهشة :

- إنت ايه اللي بتقوله ده يا زكرياء .. احنا مش بتوع الحاجات دي .. حد الله بينا وبين الحرام .. إنت جبت الكلام ده منين ..؟!..

همس زكرياء :

- اجولك جبته منين ..؟!.. اجولك كنت بتتفج مع الباشمهندس على ايه..؟!. وتجابله فين و ازاي ..؟!.. اجولك على الناس اللي بيوردولك الإسمنت المغشوش اللي بتخلطه بالأصلى .. هاا .. اكمل و لا كفاية ..؟!!..

.....

بهت لون شعلان ليكمل زكرياء بغيظ:

.....

- إنت فاكر أني مكنتش واعى لرچلك اللي كان سامعني و أنا بحكى مع عم بحر و جه نجل لك كل كلمة .. بس إنت مصبرتش لحد اما اجيلك و جلت تخلص مني بالحادثة الخايبة اللي كانت هتروح فيها بت الحاج مندور لولا ساتر ربنا وإن أني اللي كنت مجصود .. شوف بجى الكلام ده كله لو راح للحاج مندور هايحصل ايه ..؟!.. و هايتصرف معاك ازاى ..؟!..

اصبح وجه شعلان يحاكي الموتى و جبينه يتصبب عرقا عندما همس بصوت متحشرج:- طب إنت طلباتك ايه ..؟؟..

.....

هنف زكرياء :- متنسونيش معاكم .. جدر إنت حج سكوتي و شوف تاجي كام من اللي نهبتوه من ورا الحاج ..؟؟!..

هتف شعلان :- خلاص .. اتفقنا .. بس أنا اضمن ازاى سكوتك ..؟!..

.....

هتف زكرياء :- مفيش ضامن الا مُصلحتى يا شعلان .. و أنا مُصلحتى معاكم .. وبعدين هو أنا لو عايز أتكلم .. ما أني جعدت أسبوع في بيت الحاج مندور .. مفتحتش بجى و جلت له ليه..؟!.. و اه نصيحة لوجه الله .. متحاولش تخلص مني تاني .. اصلك أني بسبع اروح ..

اومأ شعلان برأسه موافقا و مقتنعا بكلام زكرياء هاتفاً :

.....

- خلاص .. إنت معأنا يا زكرياء .. بس اللي هيسري علينا يسري عليك ..

كان دور زكرياء ليومئ برأسه موافقا و أخيرا يتفقوا على مكان يسلم فيه شعلان لزكرياء نصيبه من العملية الأخيرة و التي ثمنها سكوته ..

خرج الحاج مندور من وراء ذاك الجدار المهجور الذي كان يتحدث عنده زكرياء وشعلان ليتأكد بصدق كل كلمة أبلغه بها زكرياء ..

.....

****

رن الهاتف بتلك الرنة المميزة لأذن بخيتة لتهتف من مكانها فى شوق :

- رد يا واد يا حمزة .. و لا إنتِ يا كسبانة .. ده زكرياء اللي على التليفون ..

.....

إندفع حمزة مجيبا فى لهفة :- ازيك يا عمي

هتف زكرياء :- واه .. كبرت يا حمزة و بجيت بترد على التليفونات كمان .. كيفك وكيف ستك بخيتة.؟!..

هتف حمزة فى سعادة :

- بخير .. نفسنا نشوفوك .. مش هتاجي بجى يا عمي ؟!..

تنهد زكرياء هاتفا :- باذن الله .. فين ستك بخيتة .. نادم لها .. اجرى ..

.....

www.hakawelkotob.com

جذب حمزة الهاتف و سار به فى اتجاه جدته و وضع سماعته فى كفها لتضعها هي فى لهفة على اذنها تطمئن على ولدها الغائب ..

.....

إندفع حمزة خارج الدار ليلعب فصادف يونس جالسا على درجات السلم المفضية لغرفته فهتف فى سعادة :

- أني كلمت عمي زكرياء فى التلفون و جإلى إنه هايجى جريب بأذن الله ..

إنتفض يونس متسائلا :- هو لسه بيتكلم.؟!..

أكد حمزة :- اه .. لسه بيتكلم مع ستى بخيتة

هتف يونس :- طيب اجري .. جول لستك بخيتة متجفلش أنا عاوزه ضروري ..

إندفع حمزة منفذا امر يونس الذي تبعه داخل الدار هاتفا بصوت عال :

- يا رب يا ساتر .

.....

و دخل منكس الرأس حتى وصل لموضع الحاجة

بخيتة التي ردت على سلامه هاتفة:

- ادخل يا بنى .. منتش غريب .. خد .. أهو زكرياء كان لساته بيسأل عنيك ..

ألتقط يونس سماعة الهاتف من بخيتة ليهتف فى لهفة :

- زكرياء ..؟!.. كيفك يا صاحبي ..؟!.. كِده تغيب و تجول عدولي ..؟!..

هتف زكرياء مبررا:- معلش .. الدنيا تلاهي يا يونس .. المهم إنكم كلكم بخير .. و إنت ايه اخبارك .. عجبتك بلدنا ..؟!..

هتف يونس :

.....

- كله تمام يا هواري .. بس بجولك ايه؟!.. أنا عايز اطلب منيك طلب ..

.....

هتف زكرياء :- إنت تأمر يا يونس .. إنت عارف غلاوتك عِندي ..

تلجلج يونس فى حروفه و تردد قليلا قبل إن يهتف بطلبه دفعة واحدة قبل إن يتراجع :- أني طالب يد الست كسبانة .. ايه جولك ؟..

صمت زكرياء قليلا ثم هتف فى سعادة :

- أني ملاجيش أحسن منيك يبجى بن اخويا فى طوعه بس هي الأساس .. كلم أمي و خليها تاخد رأيها و لو كِده عاصم هيجوم بالازم .. على الأجل نجطع السكة على سليم فى إنه يفكر يردها أو يضايجها تاني وهي فى عصمة راچل ..

.....

هتف يونس فى سعادة :- يعني إنت موافج يا زكرياء ..؟!..

.....

أكد زكرياء مقهقها :- ايووه .. أني موافج ياسيدي بس المهم هي توافج .. و بلاش الغنا الفجرى بتاعك لحسن تطفشها ..

قهقه يونس :- بجى كِده .. ماشى يا هواري .. متشكرين ..

قهقه زكرياء و هو ينهي مكالمته مؤكدا ليونس على ضرورة موافقة كسبانة ..والتي كانت فى احد الجوانب تقف تستمع للمكالمة فى وجل و ضربات قلبها تصم اذنيها لا تصدق إنها تمر بتلك المشاعر المضطربة كمعظم الفتيات .. تلك المشاعر التي لم تنعم بها فى ظل ظروف زواجها القهري من سليم و الذي كان اقرب لصفقة بيع و شراء منه زواج مبنى على المحبة كما تستشعر الآن تجاه يونس الذي إندفع لبخيتة كما نصحه زكرياء لتكون همزة الوصل بينهما .. فمنذ ذاك الإعلان عن رغبته فى

الزواج منها داخل غرفته منذ ما يزيد عن الأسبوع و هي كانت حريصة حد الهوس فى الا تراه و لو مصادفة فما كان لها إن تواجهه بعد تصريحه ذاك .. حتى طعامه ودواءه كانت تضعهم على صينية تتسحب و تضعها امام بابه و تطرقه و تندفع مبتعدة .. إنها تذوب خجلا و اضطرابا ما إن تتذكر همسه لها بطلب الزواج غير المتوقع ..

تنبهت لابتسامة بخيتة و هي تتحسس موضع لكفها على كتف يونس رابتة عليه فى سعادة بإنها ستحاول معرفة رأيها فى اقرب فرصة

.....

إندفع يونس فى نشوة خارج الدار لتظهر هي من ركنها الساتر تقترب من بخيتة متصنعة اللامبالاة و عدم المعرفة بالأمر لتهتف بها بخيتة :

- تعالي كسبانة .. كنت فين يا بتي؟..

.....

هتفت كاذبة :- كنت على السُطح بنشر الغسيل ..

خير يا خالتي ..!؟..

ربتت بخيتة على ظهرها هاتفة فى سعادة :- يونس يا بتي ..

طلب يدك من زكرياء .. جلتى ايه .!؟

صمتت و لم تعقب .. تشعر بسعادة يفوق حد تصورها ..

سعادة ألجمتها حتى عن النطق لتهتف بخيتة بابتسامة

متخابثة :- طب على بركة الله .. هجول للچدع إنك

موافجة ..

.....

هتفت كسبانة منتفضة :- أنا مجلتش أني موافجة يا

خالتي ..

هتفت بخيتة مقهقهة :- و مجلتيش إنك رافضة يا عيون

خالتك ..

صمتت كسبانة فى احراج لتستطرد بخيتة ضاحكة:-

يونس ميتعيبش .. بن حلال و رايدك و بيحب ولدك ..

بالك لو سمعتيه و هو بيطلب يدك من زكرياء

كان ملهوف

كيف ..؟!.. و لا لما بيجولى اشوف رأيك ... و الله شاريكِ

عن چد ..

هتفت كسبانة فى لهفة :- صُح يا خالتي .. عن چد رايدني

..؟!..

.....

أكدت بخيتة :- عن چد يا روح خالتك.. رايدك كيف ما

إنت ريداه و اكتر كمان ..

احمرت وجنتا كسبانة و رغم عدم رؤية بخيتة

لذلك الا إنها استشعرته كعادتها هامسة :- و الله رايدك

يا بتى .. و عاشجك ووعيت لعشجه فى كل حرف فى

كلامه كيف ما إن واعياه فى جلبك اللي بيتنفض فى

صدرك دلوجت ..

.....

نهضت كسبانة تحتضن بخيتة فى سعادة مقبلة راسها فى امتنان هامسة :

- ربنا يخليكى ليا يا خالتي .. و الله ربنا عوضني بيكِ عن أمي اللي جاطعتني من زمن ..

ربتت بخيتة على ذراعها هاتفة :- الام متتعوضش يا بتى .. بالك هي لو سمعت بپوازك .. هتكون اول اللي يفرح لك .. هي الام هتعوز ايه غير فرحة عيالها ..!!.. ربنا يتمم لك على خير يا بتى .. بس مجلتليش .. ابلغ يونس بموافجتك .. !؟..

همست كسبانة فى خجل :- بلغيه يا خالتي ..

لتقهقه بخيتة فى سعادة ...

****

اصر الحاج مندور على التواجد لحظة تسلم زكرياء للمبلغ المالي من شعلان نظير سكوته بالطبع كان

يستطيع فضحه في الموقع عندما سمع ما دار بينه و بين زكرياء لكن لطالما كان الحاج مندور يضع سمعته في كفة ميزان الذهب ولا يسمح بإن تطالها اي شائبة او إشاعة مهما كان حجمها .. و ابلاغ الشرطة معناه تحقيقات وبلاغات واشاعات لا تعد و لا تحصى .. لذا قرر التعامل مع اى مشكلة بمجهوده الشخصى وخبرته فقط كما تعامل مع حادثة زكرياء و لم يبلغ الشرطة لأن بها شبهة جنائية .. وهنا فيما يخص مشكلة شعلان .. قرر أيضا عدم ابلاغ الشرطة و الاكتفاء بالتصرف بما يراه مناسبا .. و على الرغم من عدم اتفاق زكرياء معه في الرأي الا إنه لم يستطع معارضته فهو قبل كل شيء صاحب المال و المتصرف الأوحد فيه .. ومن حكم في ماله ما ظلم ..

ظهر زكرياء على ذاك الجانب من الطريق الذي اتفق مع شعلان على التواجد فيه .. ولم تمر لحظات حتى ظهر شعلان

بدوره .. اخرج ظرفا به بعض النقود سلمه لزكرياء الذي ادعى اللهفة و هو يفتحه ليتأكد إن النقود كاملة فيه ..

.....

هنا ظهر الحاج مندور من احد الجوانب التي كان يختفى وراءها .. ليهتف في شعلان معاتباً :- كده برضة يا شعلان ..!!..

بهت شعلان عندما رأى الحاج مندور أمامه يصيح في وجهه معاتباً بهذا الشكل .. ومن وراءه ظهر عدد من الرجال يحيطون به ..

نظر شعلان بصدمة للحاج مندور و زكرياء و كل الرجال الذين يعج بهم المكان .. ليهتف الحاج مندور بصوت جهورى غاضب من جديد :

- أنا استأمنك على مالي و سمعتي و إنت تخوني .. لا عاش و لا كان اللي يخون الحاج مندور الشامي ..

.....

و أشار لرجاله الذين توجهوا لشعلان الذي بدأ يستفيق من صدمته ليصرخ مستنجدا ليظهر مجموعة من الرجال كانوا على ما يبدو في إنتظار إشارة منه ..

و بدأ التلاحم بين المجموعتين ليندفع زكرياء و كل همه الزود عن الحاج مندور وابعاده عن خضم تلك المعركة الضروس التي يدور رحاها بين الفريقين .. و لكن كان زكرياء نفسه مستهدفا ..فقد حاول الدفاع عن نفسه قدر استطاعته و خاصة بتلك الذراع المتألمة و التي لم تشفى بعد .. جاهد حتى يصل للحاج مندور الذي اشتبك بدوره في المعركة فلم يكن رجال شعلان بأقل من قوة او صلابة رجال الحاج مندور بل إنهم فاقوهم عددا ..

.....

كاد زكرياء يصل للحاج مندور و في سبيل ذلك تلقى العديد من الضربات و اللكمات التي اصابت ذراعه الذي وصل به الألم حد اللانهاية .. و ما إن هم بسحب الحاج

مندور بعيدا حتى باغتتهما عصا ضخمة تسقط باتجاههما حاول زكرياء تفاديها لكن الرأمي كان اسرع لتسقط على رأس الحاج مندور و يسقط بين يدي زكرياء مضرج في دمائه ...

****

وقفوا جميعا زكرياء و الطبيب و زينة امام ذاك الحائط الزجاجى لغرفة العناية المركزة

و التي نقل اليها الحاج مندور بعد تلك الحادثة التي كادت تودي بحياته ..

.....

كانت زينة كعادتها صامتة .. مصدومة من مظهر ابيها الشاحب و جسده المعلق بالعديد من الأنابيب الطبية .. بكاءها كان حارا بدموع ملتهبة لكن بلا ادنى صوت يذكر ..

.....

وقف زكرياء بذراعه المصابة و التي اصر الطبيب على وضعها في الجبس لسوء حالتها و لإرغامه على عدم تحريكها حتى تمام الشفاء لا يستطيع ان يبرر لها ما حدث و لا كيف لم يكن بمقدوره الدفاع عن ابيها .. كل ما قاله في محضر الشرطة إن هناك من هاجم سيارة الحاج مندور و هو معه و أرغمهما على الترجل منها بغرض سرقتهما وعندما اعترضا نالهما ما حدث بذراعه و لرأس الحاج مندور و لاز اللصوص بالفرار

.....

هذا ما قاله زكرياء و كان على يقين ان الحاج مندور ما كان ليقل غير ذلك ..

اقترب في إشفاق من تلك الباكية التي تلتصق بزجاج غرفة العناية متطلعة لابيها المسجى بلا حراك في إشفاق و لوعة و همس :- هايبجى بخير صدجيني ..

.....

إنتفضت عندما سمعت صوته الرجولى ينفذ لمسامعها و بدأت تتوتر كعادتها .. و لكن العجيب إنه عندما رفعت نظراتها إلى وجهه تلاقت مع نظراته المتعاطفة مما هدأ من إنفعالها قليلا و بدأ توترها في التراجع و أومأت برأسها موافقة ..قررت هي البقاء بجوار ابيها و فهم زكرياء ذلك ضمنيا .. فقد شارفت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل و هي لم تتحرك للعودة للفيلا .. حمد الله إنه استطاع مكالمة الست تهاني ليخبرها بما حدث و إنه باق بجوار الحاج بدوره و أوصاها خيرا بحازم الذي كان قد نام بالفعل.

جلست على تلك المقاعد امام الغرفة لا قبل لها لتحيد بناظريها عن الزجاج .. عيونها تتعلق به كمن يتعلق بسماء مفتحة أبوابها لحظات استجابة ..

.....

نهض يحضر بعض من ماء و شراب ساخن لأجلها و لأجل ألم رأسه الذي يقهر احتماله و ما إن عاد بحمله حتى رأها قد راحت في نوم عميق ..

وضع الأكواب جانبا و زفر في حنق و هو يرى ما ترتديه .. تلك الجونلة التي بالكاد تصل لركبتيها و سترتها الحريرية التي تظهر ذراعها بأكمله ..

.....

إندفع لتلك الممرضة التي ظهرت عند اخر الرواق ليضع بكفها ورقة مالية و يطلب منها احضار غطاء لاجلها .. استلمه من الممرضة و عاد به ليجدها تضم نفسها بذراعيها شاعرة بالبرودة جراء ما ترتديه .. وضع الغطاء عليها في هدوء لتتململ هي

في وداعة و تتحرك رأسها عن حافة المقعد الذي كان ترتكن عليه لتسقط على كتفها تنبأ بقرب سقوطها او ربما اصطدام رأسها بحافة المقعد المجاور .. وقف حائر لا

يعلم ما عليه فعله و أخيرا سحب عمامته من فوق هامته و إنحنى يضم العمامة يدفعها كوسادة تحت خدها دون إن يمسها .. يدعو اللّه الا تستيقظ لكن ما حدث هو العكس .. فلقد استيقظت فاتحة جفونها في صدمة ناظرة لذاك المنحنى يضع شيء ما تحت رأسها ..تلاقت عيونهما و شعرت بشئ غريب يكتنفها .. شيء اكثر غرابة مما تستطيع وصفه او اسباغ مدلول ما على كنهه .. تنحنح هو في اضطراب و صرف بصره عنها في ثوان جاذباً عيناه عن مجال عينيها المغناطيسي بقوة إرادة لا يستهان بها ..

و نهض مسرعا يبتعد جالسا على أبعد مقعد اما هي فإنتفضت مندفعة باتجاه الحائط الزجاجى لحجرة ابيها ليسقط الغطاء عنها و تقع عمامته على الأرض جوارها بأهمال أورثه الحنق و جعله يجز على اسنانه ندما لأنه وضع عمامته تحت تصرفها لتكون هذه نهايتها .. قرر النهوض في صمت لينتزع عمامته

العزيزة من مكانها الملقاة فيه خلف مكان وقوفها خوفا من عودتها لتدهسها بأقدامها و ما إن هم بإلتقاطها حتى عادت هي لمكانها بظهرها و فجأة .. حدثت الكارثة ..

سقطت هي متعثرة فيه وتألم هو صارخاً بسبب ذراعه و إنقلب الوضع ليصبح كلاهما ارضا .. هو يفترش الأرض و هي بلا حول و لا قوة تجد نفسها في أحضانه جالسة على حجره .. ماذا يحدث ..؟!.. و كيف حدث ..؟!..لا علم لأحدهما بما يجرى .. ولا كيف تم مثل ذلك الوضع الغريب .. !!؟.. وكما أصبحت عادة منذ تقابلا .. لحظات من صمت رهيييب يعقبها صدمة .. ثم إفاقة تاامة يخلفها رد فعل غير طبيعى .. وفي المعتاد من قبلها .. لكن الغريب هذه المرة أن رد الفعل العجيب ذاك كان من جانب زكرياء .. الذي شعر إن تلك المتعالية ذات النظرات العجيبة المتباينة و المتقلبة

كموج البحر .. و التي ترتدي تلك الملابس المتحررة عما اعتاده و تجلس في حجره الآن ما هي الا جمرات من لهب ألقيت عليه فجأة ليكون رده الطبيعي ان يقذفها بعيدا و هذا ما حدث بالضبط ..

لا يعرف كيف تم له ذلك .. لكن كل ما أدركه انه ألقاها عنه مبتعداً كان شياطين الجحيم كلها تلاحقه .. حتى إنه نسي في غمرة الاحداث المتلاحقة التقاط عمامته التي ظلت على حالها ارضا .. حتى إنتشلتها يد رقيقة بأصابع مرتجفة .. تضمها لتتوسدها و هي تشعر بإحساس عجيب و مفتقد منذ امد يغمر روحها و يهدهد ألمها .. رائحته الرجولية المنبعثة من تلك العمامة كانت بمثابة ترياق ما لجلب النوم الهانئ لجفونها التي ما كانت ترى الا كوابيس واقعها .. حتى بعد ما جرى منه .. و دفعه أياها بعيدا عنه بهذا الشكل .. الا إنها لم تستطع ان تتخلى عن

عمامته التي وجدت فيها بعض من شعور قديم مفتقد .. لا قبل لها على ضياعه من جديد ...

****

وصل عاصم و رجاله لذاك المكان المتطرف في اعلى التبة الشرقية من النجع شاهرا سلاحه و إندفع لداخل احدي المغارات الصخرية

هاتفا في حارسها الذي كان غافلا لحسن الحظ :- جوم .. نادم على سيدك سليم ..

إندفع الحارس في ذعر هاتفا و هو يتوجه للداخل مناديا سليم الذي ما كادت تمر اللحظة حتى ظهر أمام عاصم مشهرا سلاحه بدوره هاتفا في دهشة لمرأى عاصم :

- إنتِ كيف وصلت لهنا يا عاصم ..؟!.. و ايه اللي چابك ورايا من الأساس ..؟!..

هتف عاصم بغضب هادر وهو يمسك بتلابيه بقوة :

.....

- يعني منتش عارف ..؟؟.. أني ايه اللي هيجيبنى وراك يعني ..؟!.. عاشپك و مش جادر على بُعدك؟!.. عمايك اللي منتش مبطلها .. و الظاهر كِده مش هتبطلها الا لما إنفذ اللي جلتلك عليه جبل سابج ..

هتف سليم حانقا :- ايه ..؟!.. عملِت ايه ؟!.. ولدي و اتوحشته و رحت اشوفه .. مكفرناش يعني ..

زمجر عاصم هاتفا :- و احنا اخر مرة اتفجنا على ايه يا سليم ..؟!.. مش جلتلك رچلك متعتبش النچع تاني ..؟!.. مش كفاية أني ساكت على سمك للبهايم و حرجك للزرعة إنتِ و رچالتك ..بس شكلك كِده جبت اخرها يا واد عمي ..

هتف سليم في ذعر وهو يزدرد ريقه :- ايه؟!.. ناوى على ايه يا عاصم ..؟!.. ده أني واد عمك برضك ..

هتف عاصم في نفاذ صبر بثورة :- إنت مخلتليش حل تاني .. و دِه أخرى معاك يا سليم ..

و إندفع عاصم من أمامه ليهتف سليم خلفه متسائلا :

- هتبلغ عنى الحَكومة يا عاصم؟!... هتبلغ عن واد عمك.. ؟!..

نظر عاصم و هو يمتطى جواده في ضيق :

-معدش ينفع خلاص يا سليم ..و أني ماشى من هنا .. و خلى حد من رجالتك يتعرض لى أنا ورجالتي .. عشان اطربجها عليك جبل حتى الحَكومة ما توعى تشم خبر ...

و إندفع عاصم و رجاله بالفعل مغادرين ..

و لم يستطع اى من سليم و رجاله إن يحرك ساكنا ليوقف الغول عما عزم أمره عليه.

****

.....

أفاق الحاج مندور أخيرا و للعجب اول من طلب رؤيته لم تكن ابنته كما كان يظن الطبيب بل زكرياء .. و الذي سمح له الطبيب بالدخول للحظات لإن الحالة مازالت غير مستقرة ..

تنحنح زكرياء و هو يتوجه لسرير الحاج مندور ليقف بالقرب منه .. ليشير اليه الحاج مندور بالاقتراب اكثر .. أطاع زكرياء في هدوء و اقترب قدر الإمكان و إنحنى حتى يستمع لما يريد الحاج مندور قوله دون إن يرهقه كما امر الطبيب ..

همس الحاج مندور بصوت متحشرج :- زكرياءا..

إنتبه زكرياء بكامل حواسه مشجعا الحاج على الاستمرار بأماءة من رأسه.. ليستطرد الحاج مندور بصوت متحشرج :- زينة أمانة في رقبتك يا زكرياء .. هي ملهاش حد غيرى و قرايب من بعيد كل همهم هيورثوني امتى ..

.....

هتف زكرياء متعجباً :- في رجبتى أنا يا حاج..؟!..

كيف ..؟!..

اومأ الحاج مندور هامساً بوهن :- ايوه .. محدش غيرك هيعرف ياخد باله منها و يصبر عليها زيك .. و خصوصى في حالتها دي ..

.....

كانت الدهشة هي كل ما اعتلى ملامح زكرياء و عقدت الصدمة لسانه عن اى رد مناسب .. لذا استمر الحاج مندور و هو يزدرد ريقه في صعوبة .. و يغمض جفونه فى محاولة منه ليستمد القوة اللازمة ليكمل ما بدأه :- أنا عايزك تتجوز زينة ..

كانت الصدمة الأكبر الآن على ملامح زكرياء الذي هتف بدهشة :

- اتجوزها !؟.. اتجوزها كيف ..؟!..يا حاج إنت متعرفنيش .. و لا تعرف ايه اللي ورايا .. مش يمكن أكون مش زي ما إنت

واعى .. و مراعيهاش بما يرضى الله و ابجى كل اللي عايزه مالها و بس.. زي باجى جرايبها ..!!؟

.....

ابتسم الحاج مندور في ود لكلمات زكرياء و التي تؤكد إنه رجل اصيل ذو معدن طيب كما كان يعلم و كما أكدت له الظروف ذلك ليهمس :

- يا زكرياء يا بنى .. أنا طول عمرى بخش في صفقات كسبانة .. و ربنا كان بيسلهالي لإنه عارف أني ماشي في طوعه و عمري ما عملت اللي يغضبه .. هاتيجى على جوازة بنتي الغلبانة اللي ملهاش حد و هخسر .. ربنا اكيد رايد لي الخير و رايدهولك .. و قبلنا كلنا رايده للغلبإنة اللي بره دي .. أنا لما سافرت من يومين رحت للحاج مرشدي الضبع ..

تنبه زكرياء بكل حواسه و لم يعقب .. فاستطرد مندور :

.....

- جبت سيرتك في الكلام لقيت الراجل بيقول فيك و في أخلاقك شعر و حكى لى حكايتك كلها من طقطق

لسلام عليكم .. و ازاي هو زعل إنه خسر حد في امانتك بعد ما طلعت من السجن براءة ورجعت اشتغلت عنده .. و بعدها قررت تيجى على هنا

تنهد مندور في محاولة لالتقاط إنفاسه مما دفع زكرياء ليهمس :

- طب ارتاح يا حاج و نكمل بعدين ..

هتف مندور في نزق :

- مفيش بعدين ..؟!.. لازم تعرف كل حاجة عن زينة بما يرضي الله .. وأنا مش عايز حاجة الا إنها تبقى في عصمة راجل يحميها من اللي ممكن يحصل بعد موتى و يصبر عليها عشان عارف حالتها ووضعها ..

هتف زكرياء :- حالة ايه يا حاج بعد الشر .. ماهي زينة و زي الفل ..؟!..

ابتسم مندور :- هي كِده معاك إنت بس ..

فغر زكرياء فاه و لم ينطق.. و شرد قليلا فيما حدث منذ ساعات و كيف عندما هدأ وعاد لموضعه الأول امام الجدار الزجاجى وجدها نائمة تتدثر بالغطاء الذي احضره لها و تحتضن عمامته أسفل خدها في راحة .. ليستكمل مندور بنفس الابتسامة مخرجا أياه من شروده :

.....

- هي مكنتش قابلة تشوف او تسمع جنس راجل غيري .. مكنتش بتطلع بره الفيلا الا معايا و لأماكن محددة و متطرفة بعيد عن الناس .. كل الخدم في الفيلا ستات وبس .. حتى البواب راجل عجوز و بيقعد دايما من بره .. فين و فين لما اتعودت على السواق و بقت تخرج معاه من غيري ..

هتف زكرياء و هو يضيق ما بين حاجبيه في تعجب مستفسراً :

- طب و ليه العجدة دي !!.

.....

هتف مندور بنبرة منكسرة :- زينة من حوالي خمس سنين اتعرضت لحادثة...

و صمت الرجل منكس النظرات و لم يستطع ان يتفوه بكلمة ..

.....

حتى زكرياء صمت بدوره و لم يكن يستطع إن يستنتج حتى نوع تلك الحادثة .. فلم يكن بمقدوره تخيل إن تلك الفتاة قد تعرضت لجريمة وحشية بهذا الشكل ..

طال الصمت و قطعه مندور بعيون دامعة لم يكن من السهل ابدا ألتماعها في احداق ذاك الرجل الذي يرهبه السوق كله و يقيم له الجميع ألف حساب .. لكنه في الأخير أب .. همس مندور بصوت متحشرج :

- ايوه يا بني .. هو زي ما استنتجت كده .. حادثة اعتداء..و طبعا متمسكوش .. وأنا قفلت الليلة عشان سمعة بنتى اللي مكنتش عارف يوميها هتقوم منها و لا لأ .. و

أديك شايف حالتها .. بتتعالج لحد دلوقتي ..

تفتكر دي ممكن اسيبها لمين ..!!.. و لا مين ممكن يقدر يراعيها ..؟!.. ارحم واحد فيهم هيجيب شهادة بحالتها النفسية و يرميها في مصحة عشان يحط ايده على مالها كله .. و يبقى عمل اللي عليه .. عرفت أنا بقول ليه اتجوزها ..؟!.. حتى ولو عايز تتجوز تاني ده حقك .. لكن متسيبهاش يا زكرياء و خليها دايما تحت حمايتك ..

هنا بكى الحاج مندور بالفعل و لم ينبس زكرياء بحرف واحد و نظراته تتأرجح ما بين

ذاك الباكى المسجى على فراشه و تلك التي تقف خلف الحائط الزجاجى تلصق وجهها به كالأطفال و تتابع بنظراتها العجيبة ما يحدث بالداخل بين زكرياء و ابيها الذي هدأ قليلا ليهمس :- زكرياء ..

.....

سلط زكرياء نظراته من جديد على مندور الذي استطرد :

.....

- أنا لما كلمت الدكتور مؤمن بعد الحادثة اللي حصلت معاكم يوم ما أنا كنت غايب .. قالي إن اللي حصل ده خير و أكد لى إن وجودك إنت بالذات و معاك حازم هيخليها تبتدي تتعامل بشكل طبيعي و خاصة أني لاحظت إنها مش بتخاف منك زي باقى الرجالة ..حسيت إنها متقبلة وجودك معانا في الفيلا .. و كمان سامحتك على زعيقك فيها .. و ده مؤشر كويس على حسب كلام الدكتور و مما يكون عامل مساعد كويس في رجوع الكلام ليها ..

إنتفض هنا زكرياء من على طرف فراش الحاج مندور هاتفاً في صدمة :

.....

- هي مبتتكلمش ..!؟..

أكد مندور بتعجب :

- ايوه يا بنى..هي فقدت النطق نتيجة الصدمة بعد الحادثة ..أنا كنت فاكرك عارف

.....

هتف زكرياء بحنق:

- اعرف منين ..؟!.. أنا كنت فاكر .. اجصد إنها .. اصل يعني احنا متكلمناش كتير .. فجلت ..

ابتسم مندور لاضطراب زكرياء :

- أنا افتكرتك عارف او الخدامة قالت لك او حد في الموقع قال لك .. او حتى حازم ابنك .. ما هو اكتر واحد كان بيقعد معاها و بيكلمها بإشارات ايده و كنت بسمعها بتضحك و هي قاعدة معاه ..

.....

كم شعر زكرياء بذنب رهيييب يعتصر كل خلية من خلايا جسده .. رفع نظراته للزجاج

ليطالع وجهها الندى و ملامحها الأكثر براءة من طفلة لم تتخطى العاشرة من عمرها ..

و شعر بالمزيد و المزيد من الذنب الذي أورثه ندم قااتل يجعله يود لو تعود به الساعات لعدة أيام مضت حتى لا

يتفوه بمثل تلك الكلمات الجارحة إلى ألقاها على مسامعها صارخاً بها في وجهها خوفا على ولده ...

هتف مندور ساعلا :- روح يا زكرياء هات المأذون .. اكتبوا الكتاب ..زينة متخرجش من هنا الا وهي مراتك ..

.....

و بدأ يسعل من جديد ليندفع الأطباء للحجرة دافعين زكرياء خارجها في توتر ليشرعوا في إنقاذ المريض .. وجد زكرياء نفسه خارج الغرفة يقف امام الحاجز الزجاجى يتطلع لما يحدث خلفه و بجواره تقف هي في صدمة تتابع ما يحدث لابيها بالداخل .. و قد أشفق عليها من جراء ما تحمله الأيام لها ..

****

تم عقد القران في المشفى بجوار فراش ابيها الذي استطاع الأطباء إنقاذه بأعجوبة

.....

وضع كفه في كف زكرياء و بدأ المأذون بتلاوة الصيغة و من قبلها سؤال العروس بقبولها الزيجة ام رفضها و التي أومأت بالإيجاب من ذاك الركن حيث كانت تقف في احد جوانب الغرفة صامتة كعادتها لكن زكرياء في تلك اللحظة قدر صمتها و بدأ يستوعبه .. .. و إنتهي عقد القران ليخرج الجميع من الغرفة مع استياء الأطباء بسبب سوء حالة المريض و إمكانية تأجيل اى مناسبات حتى يتعافى و يتم شفاءه او حتى على الأقل تسمح حالته الحرجة بذلك ..

وقف زكرياء و زينة للحظات خلف الجدار الزجاجى يتطلعا للحاج مندور الذي رفع غطاء الأكسجين عن وجهه لثوإن .. همس لابنته بحروف كلمة "مبروك " لتبتسم في شجن و عيونها دامعة تتحسس الزجاج بأطراف أناملها كانما تتحسس وجنة ابيها

.. همس زكرياء بعد لحظات بصوت متحشرج يتنحنح في احراج :

- أني بجول نروح الفيلا ..

إنتفضت هي حتى قبل ان يكمل كلماته التي أيقن إنها ما كانت الكلمات المناسبة في تلك اللحظة و ان تعبيره خانه و صاغ الكلمات بشكل خاطئ تماما ليتنبه مستدركا :

- اجصد أني اروح اجيب حازم من البنسيون و أرجعه الفيلا تكوني ارتاحتى و نعاود تاني هنا عند الحاج ..

أومأت برأسها متفهمة و موافقة .. ليشير اليها بالمغادرة خلفه ليعود بها للفيلا وعند المدخل الذي فتحه البواب العجوز يتبعها حتى الداخل .. و ما إن اطمئن لدخولها حتى عاد بالسيارة للبنسيون لتقابله تهاني بفضولها المعتاد لكنها لا تستطيع صبر أغواره فقط أبلغها إنه سينتقل للعيش بجوار

رب عمله و ترك لها اجرة الشهر الباقي كاملا ..شاكرا كل ما فعلته في سبيل حازم و لأجل صداقتها لامه رحمها اللّه ..

دخل الغرفة ليجد حازم قد غفا منذ فترة قليلة بدأ يجمع في حاجياتهما و هو يتطلع لتلك الغرفة التي شهدت اجمل اللحظات بينه و بين بدور .. الآن هو متزوج من امرأة أخرى .. امرأة مختلفة تماما عن بدور الطيبة حد السذاجة .. الحانية حد الثمالة الشفافة ..النقية .. العاشقة حد الألم .. تطلع للمرة الأخيرة للبحر من هذه الزاوية و زفر في محاولة لوأد شعور جارف بالحنين لتلك الرائعة الراحلة ..و التي طالما خالطت انفاسه إنفاسها في محيط تلك الغرفة التي جعلتها عالم في حد ذاته ..عالمهما ..

.....

ايقظ حازم في حنو .. وحمل الحقيبة بذراعه السليمة ..و رحل مودعاً تهاني .. و جال ببصره حوله قبل ان يودع بنسيون السعادة..

فهل يا ترى ستقابله السعادة مرة أخرى في مكان اخر ..؟!..

ام إنها ضلت طريقها اليه

بعد رحيل بدور عن عالمه ..

****

.....

-١٤-

خرج عاصم من غرفة مكتبه مندفعا ينادي سعيد الذي أتى على عجالة كعادته ليهتف أمرا :- أرمح اجمع الهوارية كلهم في المُندرة .. و جولهم محدش يتأخر ..حالاااا..

إندفع سعيد ينفذ الامر و عاد عاصم ادراجه لداخل السرايّ لتتلقفه الحاجة فضيلة من موضعها هاتفة في قلق :

- ايه في يا عاصم..؟!.. خير يا ولدي ... چامع الهوارية كلهم ليه ..؟؟!..

.....

هتف عاصم في شرود :- مش خير يا حاچة .. مش خير أبدا ..

إنتفضت أمه هاتفة :- الستر من عِندك يا رب .. ايه في ..؟!..

.....

استطرد عاصم :- سليم يا حاچة .. سليم واد عمي ..

اضرب بالنار النهاردة ..

شهقت الحاجة فضيلة وهي تربت على صدرها في ذعر ..

ليستطرد عاصم :

- الحكومة عرفت مكانه و لما راحوا يجبضوا عليه حاول

يُهرب ..فضربوا عليه نار .. ووجع جتيل في ساعتها ..

بكت الحاجة فضيلة رغما عنها هاتفة :

- ليه كِده يا سليم يا ولدي .. يا خسارة شبابك ..

.....

تنهد عاصم مندفعا لاعلى الدرج هاتفا :

- أنا رايح أجابل الهوارية اعرفهم بالخبر .. عشان ألحج

اجيب الچثمان و ندفنوه ..

و صعد للأعلى تاركا للحاجة فضيلة محاولة مواساة سمية

اخته .. و اخبار الحاجة بخيتة .. حتى يصل الامر لزكرياء

عند اتصاله .. فهو على ايه حال.. أخيه ..

.....

****

ظلا على حالهما لأسبوع كامل يعودا للفيلا حتى يطمئنا على حازم و يبدلان ملابسهما

و يتناولا طعامهما و يعودا ادراجهما للمشفى من جديد..

حتى تحسنت صحة الحاج مندور بشكل ملحوظ فاق التوقعات لكن للأسف تلك الضربة القوية على رأسه جعلت من الصعب عليه السير على قدميه من جديد فقد اثرت بشكل كبير و خاصة في مثل سنه على أعصاب قدميه و التحكم فيهما ..

و بالرغم من حزن الحاج مندور على حاله و ما آل اليه الا إنه شكر اللّه كثيرا إنه لايزل في عمره البقية حتى يسعد برؤية ابنته عروسا سعيدة ..

كان لابد من وضع بعض التغييرات في الفيلا من اجل استقبال الحاج مندور بحالته الجديدة فعمل زكرياء على

تجهيز غرفة له في الطابق السفلي لا يحتاج فيها لاستخدام الدرج و ملحق بها كل ما يحتاج اليه ..

اما هو وحازم فكان بقائهما و بيات لياليهما في جناح الضيوف مثلما كانا من قبل .. لا شيء تغير .. حتى إن زكرياء لم يخبر حازم حتى تلك اللحظة بخبر زواجه بزينة ..

عاد الحاج مندور للفيلا مدفوعا على كرسي مدولب و مع ذلك ترتسم ابتسامة رضا على شفتيه مما دفع رزقة الخادمة لإطلاق زغرودة فرحة برجوع رب عملها و سيدها

هتف الحاج مندور في سعادة برجوعه لبيته من جديد :

- تسلمي يا رزقة .. بس حوشى زغاريدك دي ليوم فرح زكرياء و زينة ..

.....

بهتت الخادمة التي بالطبع لم يكن لها علم بأمر كتب الكتاب و لا علم لحازم الذي لم يستوعب الامر جيدا نظرا لصغر سنه ..

.....

هتف الحاج مندور عندما وجد الصدمة مرسومة على الوجوه و خاصة من أصحاب الشأن .. زكرياء و زينة و الذي أمتقع وجه كل منهما بلا سبب واضح ..لذا هتف الحاج مندور متسائلاً :

- هو محدش منكم جاب سيرة إن كتب كتابكم كان في المستشفى ..!؟..

هتفت رزقة معاتبة:- و لا حصل يا حاج مندور ..!؟..ثم استطردت عندما لاحظت نظرات زكرياء الغاضبة :- بس تلاقيهم كانوا مستنيين خروجك بالسلامة عشان تبقى الفرحة فرحتين..

.....

هتف زكرياء :- اه .. صُح .. هو كِده يا حاج..

المهم إنت ترتاح دلوجت و متشغلش بالك بأى حاجة ..

.....

هتف الحاج مندور :- خلاص يا زكرياء .. أنا أصلا شلت ايدي من كل حاجة بعد اللي حصل لى .. البركة فيك إنت يا بني ..

و ربت على ظاهر كف زكرياء التي كانت ممسكة بمقبضى دفع المقعد المدولب ..

هتف زكرياء :- متجوليش كِده يا حاج .. البركة كلها فيك ..

هتف مندور مغيرا الحديث :- طب بصى يا زينة .. و إنت يا زكرياء .. حددوا ميعاد الفرح .. و أنا اعمل احلى فرح في اسكندرية كلها ..

هتف زكرياء مبهوتا وهو ينظر لزينة التي تلبكت و توترت مكانها :-.. فرح ..؟!..

.....

هتف مندور :- اه .. اكيد فرح .. هو أنا هفرح ببنتي الوحيدة و أشوفها بفستانها الأبيض كام مرة ..!؟..

كانت تقف زينة متسمرة في مكانها لا تحرك ساكنا .. و لكن قرأ زكرياء اضطراب عيونها مع كلمات ابيها الإندفاعية و فرحته بعودته لبيته .. لكن مع كلماته الأخيرة بخصوص الفرح و الثوب الأبيض كان احتمالها قد نفذ بالفعل لتشهق بقوة هاربة للأعلى تحتمى بجدران غرفتها ..

هتف مندور مبهوتا يهمس لزكرياء :- هو أنا قلت حاجة غلط ..!؟..ده أنا عايز افرحها ذى كل البنات ..

.....

همس زكرياء رابتاً على كتفه مطمئناً اياه :

-عارف يا حاج .. بس معلوم هي اكيد بتضايج من السيرة دي .. و فاكرة إن جوازنا غصب ..

.....

همس مندور متعجباً :- قدرت تفهم سكوتها و تفسره بسرعة كده و صح قووى كده يا زكرياء ..؟؟..

همس زكرياء بشجن :- اللي جعد سنين مينطجش خوف .. هايفهم اللي مش جادر ينطج خوف برضك يا حاج مندور ..

استفسر مندور في دهشة :- مش فاهم قصدك ايه يا زكرياء ..؟..

ابتسم زكرياء و هو يدفع كرسي مندور المدولب أمامه حتى غرفته المعدة خصيصا لاجله :- دِه موال طووويل يا حاج ..المهم دلوجت تستريح .. عشان دي أوامر الداكتور ..و هإنعمل الفرح اللي إنت عاوزه كمان .. ايه رايك ..؟..

هلل مندور في فرحة :- تسلم يا زكرياء ..

وصمت فجأة ..ليستفسر رافعا كفه لاعلى :- طب و اللي فوق دي يا زكرياء .. مش عايز اضايقها .. بس دي من ضمن

تعليمات الدكتور ..و أنا عايز اصالحها بس مبقتش اقدر اطلع لها زي الأول ..

هتف زكرياء بلهجة مرحة :- طالما الداكتور جال يبجى لازماً ننفذ .. سيب دي عليا أني متجلجش يا حاج ..

خرج زكرياء من عند الحاج مندور من يراه يعتقد إنه يخطط لكل شيء و يعرف كيف يسير الأمور لكن الحقيقة إنه ما قال ذلك الا لبث الطمإنينة في قلب الرجل المريض ..

و هاهو يقف مكتوف الايدي ليس في جعبته اى أفكار لتلك القابعة بالأعلى و التي تحتاج لمعاملة خاصة ..لا يعلم من أين يأتي بها !!.

صعد للأعلى حيث غرفتها و طرق بابها و لازال رأسه خاوية من الأفكار .. فتحت الباب بعد الطرقة الثانية و عيونها

تغطيها الدموع .. يعرف إنها تعشق ابيها لذا شعر إن هذا هو المدخل ..

تنحنح في توتر هامساً و هو يحاول إن يرفع نظراته في وجهها حتى تتمكن من قراءة شفتيه :

- أنا عايز اجولك حاچة مهمة .. الحاچ مندور نفسه يفرح بيكِ و بعد تعبه بالخصوص .. أنا عارف إنك مش عاوزة فرح ولا فستان .. إنت مش محتاچة الحاچات دي عشان تفرحي .. بس هو محتاچهم .. هاتبخلي على ابوكِ بيهم ..

هزت رأسها نافية في سرعة ..ابتسم في راحة عندما علم إنه أصاب الهدف فاستكمل في هدوء يعاكس تماما تلك العاصفة المضطربة التي تمور بداخله من جراء نظراتها البريئة تلك و الموجهة لشفتيه بغرض قراءتهما:

- يبجى ننزل نختار فستان .. و نحاول نريحه على الاخر .. صُح ..؟!...

.....

اومأت موافقة من جديد .. ليهمس هو في سعادة لاقناعها للمرة الثانية :

- زينة ..!!..

.....

إنتبهت بكل حواسها عند نطق اسمها بهذا الشكل .. هو نفسه كان الاسم له وقع خاص على مسامعه و هو ينطقه مجردا ..

استكمل متحاشيا تلك الأفكار الحميمة هامساً:

- أني عمرى ما هفرض روحى عليكِ و لما جبلت بپوازنا كان برضك عشان الحاڢ مندور .. متجلجيش منى .. أني بس كل اللي عاوز اجوله إن أني و إنتِ هدفنا دلوجت الحاڢ مندور و راحته و بس ..و اذا كانت فرحته هتكون في وچودنا سوا نبجوا سوا و نبين له إننا مبسوطين كمان .. صُح .. و لا إنتِ ليكِ رأى تاني ..!!؟..

.....

هزت رأسها نفيا .. و اشارت إنها ستفعل المستحيل من اجل إسعاد ابيها ..

.....

ابتسم زكرياء و قد فهمها بسهولة ليهتف في سعادة :

-يبجى اتفجنا ..حددي ميعاد الفرح و شرا الفستان .. و أوعدك هيكون فرح هنا ع الضيج اذا كان دِه اللي هيريحكِ ..!!

ابتسمت للمرة الأولى في وجهه و هي تومىء مؤكدة له فرحتها لاقتراحه الأخير ..

ابتسم بدوره ابتسامة لاإرادية قفذت لشفتيه و ملأت تفاصيل وجهه الأسمر ليتنبه إنه يبتسم في بلاهة ردا على ابتسامتها الصافية..فاستأذن في عجالة و غادر ...

****

لم يكن من اللائق بالطبع عقد قران يونس و كسبانة في ظل تلك الأجواء التي تخيم على النجع ...بالتأكيد لم

يكن سليم محبوبا و لكنه كان فردا من الهوارية

و التي يُعمل لافراحها كما لأتراحها الف حساب و حساب ..

بكت كسبانة وحيدة .. فقد ابتعد ميعاد لم شملها

على ذاك الذي حاولت صد باب قلبها بوجهه لكنه ابى الا

إن يُفتح .. حتى دخل و تربع على عرشه و استحوذ على

مجامع عقلها و قلبها معا .. اصبح صوته العذب و شدوه

الصافي هو زاد يومها الذي يحييها ..

همست رغما عنها لشدة حزنها :

- في حياتك و موتك يا سليم مش سايبنى في حالي..

اجول ايه غير ربنا يرحمك ..

وصلتها الآن همهمات شدوه من نافذة المطبخ.. كانت

تتجنبه كل تلك الفترة الماضية و ما كانت تخرج

لملاقاته أو حتى اعطاءه صينية الطعام كما اعتادت ..

.....

مسحت دمعها و أرهفت السمعلذاك الصوت المحبب لروحها ..ليتناهي اليها كلماته التي يشدو بها في صوت يقطر حسرة :-

.....

ولا هد قلبي العليل غيرك

يا وچع البعاد

ولا شالوا م الأرض شيل

غير فرحته بحب عاد

اه يا وچع البعاد

أنا چمل صلب لكن علتي الچمال

شيلني احمال إن شالها الچبل جام مال

طعمني علجم وخد من كدي منهم مال

ورماني وسط الرمال

منكاد كسير الفؤاد

اه يا وجع البعاد

يا دنيا ليه فوق كتوفنا زيدتي احمالنا

وبدل م نبني ونجني خيرنا راح مالنا

وزمنا جاحد مفيش في ظلامه رحمة لنا

مالك يا دنيا ومالنا ؟!

جطعتي حبل الوداد

اه اه يا وجع البعاد

بكت و بكت بقهر على كلماته التي اصابت قلبها في الصميم .. و هو لا يدري أن كلماته تلك تنكئ جرحها النازف لبعاده بالمثل ..

****

على الرغم من معرفة زكرياء لخبر وفاة أخيه سليم الا إنه اثرها في نفسه و لم يخبر احد لا الحاج مندور و لا زينة ..ظل يتجرع الحزن على أخيه وحيدا على الرغم من إنه يعد ظالمه الثاني بعد أبيهما غسان .. أبوهما الذي ظلمهما معا حين فرق كل منهما عن الاخر فشبا غريبين اقتتلا على اسمه و ميراثه .. لكن رغم ذلك كله يظل سليم أخاه و لقد حزن عليه بالفعل .. لكن دفن ذاك الحزن في قلبه كما تعود بل اصبح خبيرا في ذلك .. و تطلع إلى حياته التي تأخذ مسارا جديدا بعد معرفته بالحاج مندور و ابنته ..

.....

و الذي اصر على إقامة فرح لابنته الوحيدة مما دفع زكرياء لكتمان خبر الوفاة حتى لا يعكر صفو تلك الفرحة البادية على الأب المقعد ...

كان الفرح الذي أقيم في حديقة الفيلا الواسعة لا يقل فخامة عن اي فرح كان يمكن ان يقام خارجها فلقد اشرف الحاج مندور على اعداد و تجهيز الفرح على كرسيه المدولب في نشاط منقطع النظير .. و اهتم بتفاصيل الحفل حتى أصغرها ليخرج الزفاف بهذا الشكل الرائع و خاصة في وجود زمرة كبيرة من اكبر رجالات التجارة في الإسكندرية و الذي كان الزفاف فرصة مميزة لمقابلتهم زكرياء و تعريف الجميع علي زوج ابنته الوحيدة و الذي سيتولى معه الإدارة لشركته منصافة ..

كان زكرياء يقف الآن في إنتظار نزول العروس و هو يرتدي تلك البدلة التي اصروا عليه ليرتديها .. ما بالهم

الجلباب و العباءة و العمامة ..!!؟.. فها هو حماه الحاج مندور يرتديهم .. و هي لبسه المعتاد و اليومي ..

لما طلب الحاج مندور ذلك .. على الرغم إنه اشترى العديد من الجلابيب الجديدة غالية الثمن و عباءات مختلفة الألوان و الخامات ..فهو يكاد يختنق في تلك البدلة .. إنها ليست المرة الأولى التي يرتدي فيها قميصا و بنطالا .. بل إنه يتذكر عندما جاء للإسكندرية بعد اتهامه بمقتل سمري نصحه غندور بتغيير طريقة لبسه التي تشير لموطنه الاصلى و يسهل التعرف عليه ..

إنطلقت الزغاريد عندما بدأت تخطو العروس باتجاه سلم الفيلا الداخلى لتهبط متوجهة اليهم .. كانت ترتجف .. شعر بها و تمنى لو ترفع نظراتها اليه حتى يستطيع ان يطمئنها ..و كانها سمعته يناديها لترفع وجهها و تتلاقى نظراتهما ففعلت ..

ابتسم عندما لاحظ صدمتها من مرآه ببدلته السوداء الداكنة و التي زادته وسامة لم تكن تتخيلها ..شعرت بالدفء في نظراته و شعور عجيب فصلها عن كل هذا الصخب الدائر حولها و الذي يثير توترها حتى إنها عندما وضعت كفها في أحضان كفه الممدودة الآن عند وصلها اليه .. ألقتها في بساطة و تلقائية و لم تهتز للحظة او تتردد كما كان في السابق .. جذبها برفق حتى جلسا سويا و بدأ الحفل

الذي استمر لساعة متأخرة .. حتى إن حازم الذي كان يرتدي بدلة رائعة مثل ابيه لم يستطع ان يقاوم النعاس لتأخذه رزقه تضعه في فراش الحاج مندور كما امرها .. لا في جناح الضيوف كما كان الوضع ..

إنتهى الحفل على خير ما يرام .. حتى عدم رغبة زينة في تقديم كفها لالقاء التحية على الرجال كان مبرره هو

غيرة زوجها ذو الطبع الصعيدي .. تفهم الجميع الامر و لم يعلق احدهم ..

.....

صعد العروسان لجناحهما شكليا ..توترت عندما أغلق خلفهما الباب فهتف مطمئنا إياها :- اول ما اخر ضيف يمشي .. هنزل على الچناح ..

اتخذت هي مجلسا متطرفا من الغرفة و إنكمشت فيه تحاول على قدر استطاعتها مداراة حزنها و تلك الدموع التي تترقرق في مأقيها ..

و بالفعل ما إن هدأت الأمور و تأكد زكرياء من مغادرة اخر ضيف حتى تسلل ليعود لجناحه لكن الحاج مندور و لحظ زكرياء العسر خرج من غرفته في نفس ذات اللحظة التي كان يمر بها زكرياء في قلب البهو متجها للخارج حيث مدخل جناح الضيوف الذي يعتقد إن ابنه حازم ينام هناك ..

.....

هتف الحاج مندور مندهشا:- على فين يا زكرياء

.؟!.

.....

تنحنح زكرياء :- على الپناح بجى يا حاچ .. أنام چار ولدي ..

ابتسم مندور :- ولدك هينام جنبى .. لحد لما نجهز له

أوضة و إنت مكانك فوق مع مراتك في جناحكم ..

هتف زكرياء معترضاً :- بس يا حاچ أنا مش عايز اضايجها او

تحس أني ..

هتف مندور بكلمته السحرية :- دي أوامر الدكتور ....

لازم تفضل معاها و تتعود عليك و على وجودك قريب منها

..إنت سبتها دلوقتي عارف هاتفتكر ايه ..؟!.. هاتفتكر

إنك مش شايفها ست كاملة و تستحق تبقى عروسة بسبب

الحكاية أياها ..

.....

حاول زكرياء إن يضبط أفكاره التي بدأت تدور في فلك

واحد .. كيف له إن يبقى معها في غرفة واحدة .. ؟!.. لا

قبل له و لا لأعصابه على ذلك .. هي زوجته ..

لكن ليس برضاها .. و هو زوجها لكن لا يشعر ان من الصواب البقاء معها و بقربها .. فهذا عذاب من نوع مختلف .. عذاب ذو شعر كستنائى و نظرات بريئة و ملابس متحررة و أُسلوب خاص في المعاملة ..

و هو لا قبل له على مواجهة كل هذا الخليط في امرأة واحدة .. فمنذ رحلت بدور و قد عدم النساء في حياته و نسي او تناسي إنه رجل و له متطلبات حتى رأها ..و شعر إنه سقط في مجال مغناطيسي .. و إنحرفت كل بوصلات ثباته .. و ضاع استقراره النفسي بلا رجعة ..

.....

اخرجه الحاج مندور هاتفاً :- روحت فين يا عريس .. ياللاه على فوق ..و إنسي بقى الجناح ده باللي فيه ..ده كان جناح الضيوف و إنتوا دلوقتي أصحاب بيت ..

.....

اومأ زكرياء للحاج مندور برأسه إيجابا و هو يصعد السلم من جديد في سبيله لجناح الزوجية ..

كيف يفسر لها و هو يطرق على بابها إن رغبة ابيها ونصيحة الطبيب هي القرب منكِ

و تعودكِ وجودي .. فهل من المنطقى وضع النار جنب مادة حارقة .. !!؟..

طرق زكرياء باب جناحهما المزعوم ربما للمرة الثالثة و هو يتمنى الا تسمعه و لا تفتح

.....

لكن للأسف فتحت و العجيب إنه وجدها تبكي .. مسحت دموعها بظاهر كفها وأفسحت له الطريق للداخل متباعدة و نظراتها تحمل الكثير من التساؤلات و التفسيرات .. هتف زكرياء يريحها مفسرا:

- لقيت الحاج مندور تحت لما شفنى قولته نسيت حاجة و راجع اجبها من جناح الضيوف .. و رجعت تاني .. بس إنت لو ..

.....

قاطعته باشارة من كفها ..و جلست على طرف الفراش بفستانها الأبيض الرائع ..

ليجلس هو بدوره على تلك الأريكة الوثيرة في احد أركان الغرفة ليهتف مؤكدا :

- بصى.. أنا بس مستنى الحاج يخش اوضته و هرجع تاني چناح الضيوف و مش هضايجك..

.....

اومأت برأسها موافقة بلامبالاة تدعيها لكن نظراتها تشي بالعكس تماما .. نظراتها كلها

طلب و رغبة في بقائه بقربها و في نفس الوقت لا قبل لها لتفرض نفسها عليه و تجعله يبقى مع امرأة لم يرغبها يوما و كان زواجهما مجرد حل من قبل والدها لينقذ أموالها ويضع حياتها بين كفيه في امان لكن هي ترتاح للبقاء معه منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها على شاطئ البحر و إنقذها من تطفل هؤلاء الشباب .. كل يوم تمر من هناك فقط لتراه ..

لتشاهد جلسته على تلك الرمال و تطلعه للبحر ..

كان صوته ساعتها يحمل حنان و دفء لم تعهدهما .. و نظراته كانت آسرة .. تحيط القلب ببلسم شاف.. يهدهد الألم الذي ادمن المكوث فيه منذ سنوات .. لما هو ..؟!.. هي لا تعلم ..كل ما تعلمه إنها تعلقت به دون ان تدري .. حتى إنها يوم إن اكتشفت إنه ما عاد يجلس في بقعته المفضلة و ظلت تتردد لايام بل لأسابيع على مكانه حتى يئست من عودته

عندها فقط بكت .. بكت بجنون حد الضياع..

هو لا يعلم هذا ..؟!.. و لا تظن انه سيعلمه يوما ..؟!.. لن تفرض قلبها على رجل لا يشعر بما تعاني ..ستفعل كل ما يمليه عليها من اجل صالح والدها و صحته .. ستفعل اى شيء اى كان لاسعاد ابيها .. اما زكرياء ..

.....

فيكفيها إنها بقربه .. هي لن تستطيع ان تهبه المزيد لأنها بكل بساطة لا تملكه .. هي نصف امرأة .. فقط نصف امرأة فقدت احساسها و أحلامها و أمانيها و قلبها و روحها يوم إن ذبحها الاوغاد و تَرَكُوا لها مجرد جسد ملطخ بالعار و اسم ليس على ما يسمى ..زينة .. ماذا يمكن إن تهبه ..؟!.. لا شيء..

عليها إن تقنع بما هو متاح .. لإن لا قبل لها لخوض المعارك للحصول على مزيد هي لا تملك ما تقايضه به .. إنها ترتعش مجرد تذكرها إنه يمكن إن يمسها .. لازالت لمسات و فحيح هؤلاء القتلة في آذإنها تذكرها إنها بقايا أنثى .. ما الذي يمكنها إن تهديه ..؟!..

لا قلب .. لا روح .. لا جسد .. فقط حطام امرأة .. و بقايا أنثى .. و جسد يرتجف حتى من لمسات حانية لا يستطيع أن يتقبلها ..

او ربما يعتقد إنه لا يستحقها ..دقات على باب الحجرة أيقظت زكرياء ليدرك إنه نام ببدلته على الأريكة مثلما فعلت هي على اطراف الفراش و نامت بفستان زفافها

تعالت الدقات مرة أخرى جعلته ينهض مقتربا منها ينحنى ليربت بهدوء على كتفها مناديا باسمها في خفوت :- زينة .. زينة ..

إنتفضت هي كعادتها و إنكمشت كالمذعورة تجمع شتات نفسها و ردائها في صدمة حتى إنتبهت لزكرياء فخفت حدة توترها قليلا و هو يشير للطرق على باب الغرفة ..

هتف في نبرة ناعسة من خلف الباب :- مين؟!..

لم يجب احدهم .. فتح الباب في حرص ليجد صينية الطعام موضوعة امام الباب .. سحبها سريعا و أغلق الباب .. ترك الصينية على الأرض في منتصف الغرفة تقريبا وخلع

سترة بدلته و حذاءه و إندفع جالسا يشعر بجوع قاتل حد المجاعة ..

رأها تنظر اليه في استمتاع و ابتسامة تبرق على شفتيها فتشجع هاتفاً :ذ

- مش هاتفطري؟!.. تعالي ..

و أشار اليها للنزول ارضا لتشاركه الطعام .نهضت من مكانها و جلست أمامه بفستانها الضخم ذاك بطبقات التل و الاورجانزا و ما إن جلست حتى غطى الفستإن على صينية الطعام المغطاة..

نظر زكرياء مازحاً و قد اختفى الطعام تماما تحت طيات ردائها :

- طب لو إنتِ جعإنة كِده جولى .. لكن تخدي الصينية كلها لحالك..؟!...

.....

إنفجرت ضاحكة .. و كانت المرة الأولى الذي يسمع فيها رنين ضحكاتها .. تحرك شيء ما بالقرب من معدته أرجعه للجوع ..

لكن ماذا عن ملامحها التي تغيرت تماما و أصبحت اجمل بمراحل عندما أشرقت تلك الابتسامة و علت الضحكة من حنجرتها و كانها ألف ناى يعزف لحنا شجيا .. و كم كان خبير بالناى و نغماته ..!!!..

شعرت بالخجل عندما لاحظت تفرّس زكرياء بوجهها .. فنكست رأسها الصغير ليصنع شعرها الكستنائي ستارا يخفى ملامحها خلفه تنبه لغيبته في التطلع اليها .. فتنحنح وهو يحاول إظهار صينية الطعام من جديد من تحت طيات الفستان ..

.....

ضم لقيمة صغيرة و رفعها لاإراديا لفمها و فجأة غامت عيناه و تذكر بدور ..

شعر باحتقان عجيب للدمع في حلقه و حتى هي ترددت في قبول يده الممدودة خجلاً .. كان على وشك إزاحة كفه الا إنها اقتربت بوجهها في بطء و فغرت فاها و هي ترفع نظراتها اليه في خجل .. ابتسم و غصة الحزن لازالت تتملكه و مد أصابعه لفمها بلقيمتها الأولى .. تناولتها في سعادة بدت ظاهرة على محياها ليعيد الكرة و يرفع لقيمة أخرى فتشير إنه دوره و هو من كان جائعا من الأساس ..

ابتسم لها و وضع اللقمة في فمه و بدأ كلاهما في تناول الطعام ...فى شبه سعادة

****

.....

دخل عاصم متنحنا لبيت زكرياء :- يا رب يا ساتر..

.....

ظهرت كسبانة مندفعة تفتح الباب الداخلي للدار

وهي تعدل من شالها فوق رأسها هاتفة في ترحيب:- اتفضل ..

اتفضل يا عاصم بيه .. ده بيتك ..

وقف عاصم على اعتاب الباب هاتفا :- كيفك يا أم حمزة

.. معلش ندخل الصالون بس عشان معاي ضيوف ..

أفسحت الطريق في عجالة و هي تهتف متعجبة :- اتفضل يا

عاصم بيه .. و اهلًا بضيوفك ..

دخلت تستتر بالداخل ليهتف عاصم لحمزة الذي ظهر

مسرعا ملبيا نداء عمه.. و الذي أمره بمناداة يونس من الأرض

فورا إندفع حمزة مسرعا ينادي عمه يونس الذي ما إن سمع

بوجود عاصم بالدار حتى ارتدي جلبابه على عجالة و أسرع

لداخل الدار متنحنحا كعادته .. على الرغم من شوق عينيه

لمرأها و لو للحظة الا إنه غض الطرف حتى وصل الصالون

مرحبا بعاصم و ضيفه الذي لا يعرفه ..

.....

هتف عاصم ما إن جلس يونس :- بص بجى دِه .. و أشار للرجل الذي كان بصحبته مستطردا .. عم الشيخ مصباح .. مأذونا الخصوصي ..

هتف يونس بتعجب :- مأذون .. !!..

و إنتفضت كسبانة بدورها في الخارج و هي تسترق السمع في فضول دفعها اليه رغبتها في معرفة كنه الضيف المصاحب لعاصم .

عاد عاصم مؤكدا :- اه .. مأذون .. لجل ما يكتب كتابك إنتِ و أم حمزة ..

.....

هتف يونس متعجبا :- بس يا عاصم بيه .. حالة الوفاة .. و يا دوب الأربعين معدي و ..

هتف عاصم مقاطعا :- هو اللي مات دِه الله يرحمه مش واد عمي .. و المفروض أني أنا اللي احزن عليه .. طب أني اللي جايب لكم المأذون لحد عنديكم .. عايز ايه تاني

..؟..موضوع چوازكم مينفعش يتأچل اكتر من كِده .. و أنا هبجى مطمن اكتر على أم حمزة وولدها و هم في حمايتك .. و بيت زكرياء يبجى فيه راچل صاينه .. جلت ايه ..؟..

هتف يونس غير مصدق :- هجول ايه بعد جولك يا عاصم بيه ..؟.. اللي تجوله يمشي على رجبتي ..

هتف عاصم في فرحة موجها حديثه للمأذون:- افتح دفترك يا عم الشيخ مصباح ..واتكل على الله ..

.....

ابتسم يونس في سعادة غير مصدق إنه بعد دقائق معدودة سيكون من حقه التطلع اليها و البقاء بقربها للأبد ..

حصل عاصم على موافقتها و أتم المأذون عقد قرانهما ليستأذن عاصم مصطحبه معه

مهنئا العروسين .. أغلق يونس الباب ووقف لا يعلم ما عليه فعله ..حتى ظهرت اخيراً على اعتاب باب حجرتها ..

.....

و ظهر على اعتاب الغرفة الأخرى الحاجة بخيتة التي جلست على اقرب أريكة بمساعدة حمزة هاتفة في سعادة :

.....

- الف مبروك يا يونس يابني .. الف مبروك يا كسبانة .. ربنا يسعدكم دايما .. ويجمعكم في الخير ..

لاحظت الصمت المخيم على المكان فهتفت و هي لا ترى بسبب نظرها العليل :

- إنتوا رحتوا فين..؟!..

كان كل منهما هائم في عالم اخر لا يستطيع رفع ناظريه عن صاحبه ..

ليهتف حمزة مجيبا بخيتة :- اهم واجفين يا ستى .. بس مش عارف مبيتكلموش ليه .؟!

ابتسمت بخيتة في خبث هاتفة :

.....

- تعال يا واد يا حمزة .. سندنى عشان عايزة ادخل اوضتى أنام .. و اعمل حسابك .. هتنام چارى ..

.....

اسند حمزة كفها هاتفا معلقا على قرارها

- ماشي.. موافج هنام چارك .. بس تحكيلي مش تضحكي علي يا زي كل ليلة ..

إنفجرت ضاحكة و هي تأمره بغلق باب حجرتها حتى تترك كسبانة و يونس لشأنهما تحرك يونس في اتجاهها .. منجذبا بقوة لاإرادية تجاه مكان وقوفها وهي متسمرة منكسة الرأس خجلا .. وجيب قلبها يكاد يُسمع لذاك القادم اليها في ثبات ..

وقف أمامها مباشرة لا يفصله عنها الا سنتيمترات قليلة ..همس بصوت متحشرج:

-اول مرة ابجى جريب منيكِ كِده ..

.....

مد كفه ليرفع رأسها ليطالع عينيها التي ترقص فرحا و سعادة لقربه .. وفى ذات الوقت تضطرب خجلا وهي تنظر لعمق عينيه بهذا الشكل الصريح ..همس لها في عشق :

- زي ما أكون دعيت في ليلة جدر .. و الدعوة اتحججت .. و اكتر

همست بخجل و نبرات مضطربة :- دعيت بأيه ..؟!..

همس وهو يقترب اكثر يمد كفيه ليحتض كفيها التي ارتجفت للمساته :

- دعيت أطول نجمة في السما بعيدة .. و طولتها ..

همست مخدرة بسحر كلماته :- و النجمة دي تبجى أني ..؟!..

اومأ برأسه موافقا و اخيراً طوقها بذراعيه لتسكن صدره حيث غمرها فيض من الأمان الذي ظلت عمرها كله باحثة عنه و لم تجده إلا الآن و في تلك اللحظة ..

.....

****

قرر الحاج مندور و اصدر بالفعل فرمانا بوجوب ذهاب زكرياء و زينة لقضاء شهر العسل في قرية سياحية و قد تم الحجر باسمهما بالفعل و لا سبيل للتراجع ..

حاول زكرياء اثناء الحاج مندور عن فكرته و الإنتباه للعمل و إعادة إصلاح ما لحقه من أضرار بسبب ما حدث من شعلان و جماعته الفاسدة .. الا إن الحاج مندور اصر على موقفه هاتفاً :

- خد يا زكرياء .. أدي مفتاح العربية .. و الشنطة البت رزقة وضبتها و حطناها في العربية و معاكم كل اللي يلزمكم هناك .. ياللاه إنت و مراتك من غير مطرود و مش عايز اشوف وشكم هنا قبل ٣ أيام .. اهو مدة مش كبيرة عشان الشغل اللي خارب الدنيا عليه ..

.....

تنهد زكرياء مستسلما و هو ينظر لزينة كأنما يقول لها ليس باليد حيلة .. وكانت هي على استعداد للذهاب لاخر الدنيا تلبية لرغبة ابيها مهما كانت .. و خاصة لو هي معه .. ألقت التحية على الجميع و بالمثل فعل زكرياء الذي اخذ يوصى حازم بالهدوء و عدم ازعاج الجد مندور كما كان يحب إن يسميهو كم اطرب الحاج بسماعها منه وتمنى في قرارة نفسه لو يُكتب له العمر ليسمعها من احفاده .. أبناء زينة و زكرياء ..

.....

إنطلق كلاهما بالسيارة يتبع زكرياء إرشادات الحاج مندور للوصول لتلك القرية السياحية.

نظرت زينة بشكل جانبي لزكرياء و هو يرتدي قميصا ابيض و بنطال من اللون الكحلى .. و يغطى عينيه بنظارة شمسية أهداه له ابيها لا تظهر الا ملامحه الرجولية و

خاصة شاربه المهذب ذاك .. كان وسيما بشكل

لا يصدق.. مما دفعها لتصرف نظراتها عنه ..

كانت دوما تراه وسيما بشكل خاص .. حتى عندما قابلته

للمرة الأولى على الشاطئ

وهو يرتدي جلبابه و عمامته .. أسرها بخليط خاص لا تعرف

له كنه او تفسير ..

.....

طال صمتهما ليقر إنه غبي بما فيه الكفاية فعليه هو

البدء في الحديث و محاورتها

فهي لا تتكلم رغما عنها .. لو بيدها لكان الامر مختلف ..

ابتسم و هو يحيد نظراته عن الطريق لثوان موجها نظراته

اليها .. شعرت بحمرة خجل

تغزو وجنتيها الصافيتين ليهتف :

- تحبى اشغل لك الراديو .. او اي اغأني يعني .؟!..

.....

اومأت موافقة .. بدأ في وضع احد الأشرطة في مشغل الاغاني الخاص بالسيارة ليصدح في عذوبة صوت سيدة الغناء العربى :-

.....

ادِ إيه من عمري قبلك راح وعدي يا حبيبي

ولا شاف القلب قبلك فرحة واحدة

ولا داق في الدنيا غير طعم الجراح

إبتديت دلوقتي بس أحب عمري.

.إبتديت دلوقتي أخاف أخاف لا العمر يجرى

اخذ كلامهما يستمع لكلمات الاغنية التي لمست شيء ما بداخلهما .. قطعت الصمت الذي طال بالاستماع للأغنية بأن أخرجت احدي الشطائر من حقيبة كانت قد سلمتها لها رزقة عند خرجهما للسيارة لتعينهما على الطريق ..

.....

هتف زكرياء عندما وجد الشطيرة في يدها تقدمها له مع ابتسامة :

.....

- الله .. هو دِه الكلام .. چه في وجته .. اتسعت ابتسامتها و للعجب مد كفه و بدل من التقاط الشطيرة ليلتهمها بنفسه .. ضم كفه حول كفها الحامل للشطيرة و رفعه لفمه ليقتطم منه قضمة جبارة تدل على مبلغ جوعه ..

توقع ان ترتجف او تتوتر او حتى تسحب كفها بعيدا لكن لدهشته و جدها تبتسم لفعلته في سعادة .. جذب باقى الشطيرة من كفها هاتفاً بمزاح :

- حوشى يدك بجى لأكلها من الچوع ..

قهقهت و هي تخرج له شطيرة أخرى .. ليتناولها هذه المرة في سعادة هاتفاً :

- إن مكنتيش تحلفي ..!؟..

.....

علت قهقهاتها من جديد .. على إنغام ام كلثوم

التي تشدو في هذه اللحظة :-

بعيد بعيد أنا وإنت

بعيد بعيد وحدينا

ع الحب تصحى أيامنا

ع الشوق تنام ليالينا

صالحت بيك ايامي

سامحت بيك الزمن

نستني بيك آلامي

ونسيت معاك الشجن

رجعوني عنيك لأيامي اللي راحوا

.....

علموني إندم على الماضي وجراحه

اللي شفته قبل ما تشوفك عنيه

.....

عمر ضايع يحسبوه إزاي عليّ

****

وصلا مساءً لذا قررا تناول طعام العشاء و بعدها الصعود لغرفتهما للنوم بسبب تعب الطريق ..تناولا طعامهما بالفعل و نهضا لغرفتهما المطلة على جزء من القرية و البحر الحالك الظلمة من بعيد لا تُرى حدوده ..الا بعض إنوار لسفن بعيدة و كانها نجوم في سماء حالكة السواد ..

.....

تنهد في هدوء و هو ينتظرها لتخرج من الحمام .. لكن طال بقاءها ليهتف باسمها في قلق :- زينة .. إنتِ كويسة ..!!؟..

طرقت على الباب كى يسمعها فظن إنها حبيسة بالداخل ليفتح الباب بهدوء هاتفاً باسمها من جديد .. ليجدها تجلس على حافة المغطس تمسك ملابس نومها تقلبها بين كفيها

في ذهول .. تعجب و لم يفهم شيء ..حاولت ان تفهمه لكنه لم يدرك ماذا تعني .. تنهدت في نفاذ صبر و تركت الحمام وخرجت .. سحب ملابسه من الحقيبة و دخل ليرتديها ليصرخ هاتفاً بغضب :

- ايه دِه ..؟!..

.....

خرج من الحمام و لازالت نوبة الغضب تجتاحه حتى إنه لم يلحظ إنه لا يرتدي الا بنطال قطنيا بلا سترة ..و.. صدر عار ..

هتف بغيظ :- طيب يا رزجة .. اما اشوفها هخنجها ..؟!..

إنفجرت زينة مقهقهة عندما تيقنت انه ادرك الآن ماذا تعنى .. فرزقة عندما حضرت حقيبتهما وضعت فيها أجزاء مستقطعة من كل منامة او قميص نوم .. الآن كل ما يملكه زكرياء هو ثلاث سراويل لمنامات من دون سترات .. و هي كل ما تملكه سترة من هنا و بنطال قصير من منامة

أخرى .. ولا مِئْزَر على الإطلاق تداري خلفه تلك الفضيحة غضت بصرها عندما شاهدت زكرياء بهذا الوضع و الذي جذب احد الشراشف ملتحفا به .. مشجعا أياها لارتداء ما تملك على اي حال .. و الا كيف النوم ..؟!..

تشجعت و دخلت الحمام تبدل ملابسها بما تملكه .. لتخرج و يشهق زكرياء بصوت مكتوم متمنيا إنها لم تكن لترتدي تلك المنامة الحريرية ذات السترة الرقيقة الوردية بلا أكمام و ذاك البنطال القصير الحريرى الأخضر اللون ..

دخلت للحجرة تقف كالمتخشبة لا تستطيع الحراك .. و هو لا يستطيع ان يحيد بناظريه عنها ..سحبت شرشيف اخر تتدثر به .. ليتنحنح زكرياء محاولا ترطيب الجو الحار:

.....

- شكلنا الصراحة كِده مش ولابد .. كل واحد متلحف بغطا و لا اللي اتسرجت هدومه ف حمام التلات ..

.....

إنفجرت مقهقهة غير قادرة على كبح جماح ضحكاتها حتى دمعت عيناها .. ليهتف وهو يشاركها قهقهاتها :- منكِ لله يا رزجة .. اشوف فيكِ يوم يا بَعِيدة ..

لتشير اليه ان يصمت فقد ألمتها بطنها من كثرة الضحك على حالهما و تعليقاته ..

نهضت تجلب لنفسها كوب من الماء ترطب به حلقها فتعثرت رغما عنها في طرف دثارها المحيط بها لتندفع للأرض.. ليشهق هو مندفع بدوره لإنقاذها ..

.....

ليتعثر بدوره ساقطا معها .. سقطة كبيرة و ارتطام ثم صمت مطبق .. لحظات قبل ان يرفع كل منهما رأسه يتطلع حوله في تشوش كانت هي بالأسفل و هو يشرف عليها بهامته و جزعه المرتفع قليلا عن الأرض و ذراعاه تحيطان بها و قد تلقت اثر الارتطام عن جسدها ..

.....

تلاقت نظراتهما .. و بدأ جسدها يرتجف تحت وطأة لمساته على ظهرها .. و نظراته التي تربكها .. همس رغما عنه :

- متخافيش.. طول ما إنتِ معايا أوعاكِ تخافى..

سحب كفه اليمنى رويدا من تحت ظهرها لتمتد بلا إرادة منه يبعد عن وجهها خصلات شعرها الكستنائي التي تناثرت على ملامحها المصدومة قليلا ..

.....

لما فعل ذلك لا يعرف .. لكنه إنحنى و لثم جبينها في رقة و رفع رأسه ناظراً اليها من جديد يدعو اللّه ان يصبره على تلك النظرات التي تدعوه اليها و في نفس اللحظة تقصيه عنها .. نهض و رفعها ليحملها بين ذراعيه بدثارها الذي حمد اللّه إنه لازال يلتف حولها بإحكام ووضعها على الفراش متمنيا لها مساء طيبا و إندفع إلى الحمام .. لعله يبيت ليلته فيه بعيدا عن تأثيرها الدامي على أعصابه ..

.....

****

نزلا لتناول الإفطار و شراء بعض الملابس عوضا عن تلك القطع الغير متناسقة التي اتحفتهم بها رزقة الخادمة ..

.....

جالا قليلا خارج القرية السياحية .. أراد شراء بعض المشروبات لها فتركها للحظات ليعود ليجد شابين يحاولإن التحرش بها في صفاقة .. ألقى بما كان في يده .. و بدأ في الشجار معهما و لم يتركهما الا بعد ان أتى أمن المكان ليلقوا بهما خارجا ..

كانت هي ترتجف في خوف ليندفع اليها هامساً بقلق :

- زينة .. فيكِ حاچة ..؟!.. طمنينى .. حد فيهم مسك ..حد جل أدبه ..

هزت رأسها حتى تطمئنه .. تؤكد له إنه جاء في الوقت المناسب .. جذب كفها ضامه اليه في تملك ليدفع جسدها

ليحتضن كتفيها بطول ذراعه لسحبها بعيدا عن الزحام حيث يصف عربته ..

.....

جلس معها في مكان هادئ يحضر لها بديل عن المشروبات التي ألقاها جانبا حتى تستعيد بعض من هدوئها .. ربت على ظاهر كفها الممدودة على الطاولة قبالته وهو يهمس مازحاً محاولا إخراجها من حالة السكون التي اعترتها منذ ما حدث :

- ايه اللي حصل يعني .. ملحجناش نشترى اللي عاوزينه.؟!..آخرتها ايه ...ها نلبسوا لبس رزجة المخربط تاني ..؟!..

ابتسمت على مزاحه .. فإنشرح صدره لما رأى ابتسامتها تكلل محياها من جديد ..

هتف ليغير الموضوع :- مپعتيش ..؟!..

.....

هزت رأسها إيجابا .. ليطلب الطعام و يشرعا في تناوله .. لكنه تعجب منها عندما وجدها إنتظرت و لم تمد كفها على اى من الأصناف قبالتها قرأها و فسر رغبتها بشكل أثار دهشته ليمد كفه و يقدمه لها بلقيمة .. ألتمعت عيناها بفرحة و مدت فمها المفتوح لتتناول الطعام الذي بات أشهي من يده ..

عادا للفندق في سعادة و دخلا غرفتهما و جاءت لحظة الكرنفال اليومي لعرض الأزياء الاغرب على الإطلاق .. هو ارتدي احد السراويل بلا سترات و هي ارتدت منامة غير متناسقة الألوان و لا الخامة ..

و بدأت وصلة الضحك على مظهرهما العجيب .. و أخيرا.. بدأ التوتر يسدل استاره على الغرفة ..قطعه هو مؤكدا أين موضعه بالضبط حينما جلس على احد المقاعد مادا قدمه على الاخر وهو يتدثر بغطاءه المعتاد و يضع احدى الوسائد

التي جذبها في طريقه من على الفراش أسفل رأسه

داعيا اللّه إن تمر الليلة على خير ..

تمددت هي على طرف الفراش .. محاولة تقليده و التدثر بغطائها و الغطيط في النوم

و لكن ذاك الألم الذي داهمها منذ قليل يصرف عنها النوم بالفعل ..

لا تعرف ماذا حدث ليصبح ألم معدتها لا يحتمل بهذا الشكل ..؟!.. ربما هو طعام الغذاء..!!..

فطعام العشاء لم تتناوله حتى لشعورها بالامتلاء بالفعل فشربت بعض المهضمات .. لكن يبدو إنها لم تفلح .. ارتفعت وتيرة هنات ألمها لتسترعى إنتباهه فينهض في ذعر باتجاهها ينحنى هاتفاً في

قلق :- زينة .. ايه اللي حُصل ..!!.. ماالك..؟!..

.....

اشارت لألم معدتها .. فهتف يهدأها وارتدي ملابسه على عجل يشترى دواء ويعود سريعا ليعد لها مشروبا ساخنا من الأعشاب .. مر بعض من الوقت حتى هدأت تماما و هو بجوارها ..

لا يعرف كلاهما متى غفلا .. لكن همهماتها قد علت لتبدو و كانها تصارع شيء ما في أحلامها.. شيء بغيض يحبس إنفاسها و لا يدعها تطلق الصرخات استنجادا .. شيء يكمم فاها و لا يتركها تنادي باسمه لعله يأتي ليخلصها من عذابها و ألامها ويكفيها معأناة ستعيشها لسنوات و عار سيلحق بها للأبد ..

لكن لا فائدة من المقاومة لتشهق منتفضة في ذعر لينتفض بدوره جوارها يتيه لثوان غير مدرك ما يحدث .. ثم يستفيق دفعة واحدة و قد أيقن إنه كابوس من كوابيسها والتي اخبره عنها طبيبها و التي يبدو إنها

عاودتها بعد إن ظن إنها ذهبت بغير رجعة فهو لم يصادف اى من تلك الكوابيس منذ اصبح يبيت ليلته في غرفتها ..

ما الذي دفعها للظهور من جديد يا ترى .!؟. و طلت الإجابة في سرعة .. ما حدث معها اليوم فى المركز التجاري من الشابين الفاسدين لابد و إنه أعاد على ذهنها تلك الحادثة المقيتة ..

نظر اليها في إشفاق و هي تلتقط إنفاسها في تلاحق مما دفعه ليستدير متناولا كوب الماء ليقدمه لها .. نظرت اليه نظرات تائهة و أخيرا إنخرطت في بكاء مرير و هي تندفع لأحضانه بقوة تنكمش داخلها في ذعر دفع القليل من الماء لينسكب على كفه الحاملة للكوب ..

ظل للحظات مبهوتا مما يحدث تشل الصدمة رد فعله المفترض .. أفاق تدريجيا ليضع الكوب موضعه الأول و

يعود إلى تلك المنتحبة في أحضانه .. و بلا إرادة منه وجد ذراعيه تحكمان أسرها و تقربها إلى أضلاعه يخبئها من كل ألامها و أحزانها وهواجسها التي تطاردها بلا رحمة..

لثم هامتها في محبة حقيقية هامساً بالقرب من اذنها :

- متخافيش .. مش أنا جلت لك طول ما أني چنبك متخافيش ..!!؟..

رفعت رأسها عن أحضانه قليلا و تلاقت نظراتهما لتدفع بحروف اسمه في بطء على شفتيها ليستطيع قراءتها .. فكان دوره هو ليرتجف .. لتسحب هي نفسها من بين ذراعيه ليحمد اللّه ان رحمته به جاءت في وقتها قبل إن يفقد عقله من جراء تلك الرقيقة المهلكة .. التي اتخذت من طرف الفراش البعيد ملجأ لها تتدثر بغطائها و تتركه يعاني الامرين من ذاك المد و الجزر ..

.....

****

عادا للفيلا و اصبح من المعتاد ان ينام في حجرتها بعد إن تم تخصيص غرفة في نفس الرواق لحازم .. كان يتمدد على الأريكة في مقابلة فراشها الذي كانت تتمدد على أحد اطرافه و لا تغفو في اطمئنان الا اذا كان وجهها في مقابلة وجهه الذي كان يديره اليها دون إن يدرك انها تتفرسه دوما حتى تغيب في نوم مريح هادئ بلا كوابيس تزعجها كالسابق ..

دفع حازم باب غرفتهما باكيا شاكيا في احدي الليالي هاتفاً في ذعر :

- أنا خايف يا زكرياء..إنتفض زكرياء مع هجوم حازم المباغت داخل الغرفة و ذلك لعدم رغبته في رؤيته ممددا على الأريكة لا على السرير بجوار زينة كما هو مفترض

.....

هتف به زكرياء :- تعال يا حازم نروح اوضتك ننام فيها .. متخافش هنام معاك ..

سمعتهما زينة و زكرياء يحاول جذب حازم خارج الغرفة الا إنها استدارت مهمهمة ليتنبه حازم و هي تشير اليه ليندفع راكضا لأحضانها فتدفعه ليتمدد جوارها ..

وقف زكرياء متعجباً من افعالها و طبعا لم يكن من المنطقى إن ينام بعيدا عن الفراش الذي يجمعهما حتى لا يخرج حازم يخبر الجميع .. تمدد في هدوء و جسده متشنج لكن رويدا رويدا .. بدأ يسترخي و يثقل جفنه ليروح في نوم عميق لأول مرة منذ وقت طويل ربما لأنه لأول مرة منذ فترة يتمدد جسده على فراش وثير لا على أريكة متعرجة تصيب عضلاته بالتيبس ..

همهم حازم فضمه زكرياء هامساً فيه من أعماق غطيطه :- نام .. نام ..

اخذ يربت عليه و تمسد كفه رأسه مهدهدا و هو اقرب للنوم منه لليقظة ..

همهم حازم من جديد ليهمس زكرياء مجددا و هو يجذبه اكثر لأحضانه :- هششش .. نااام.. و اعتصره بين ذراعيه أخيرا .. لكن تلك الهمهمة الأخيرة جعلت زكرياء يفتح جفونه في تثاقل هامساً :- يا واد ما تنام ...نااا..

قطع أمره لحازم الذي بين ذراعيه و الذي لم يكن سوى زينة و قد نهض حازم هاربا خارج الغرفة منذ زمن و تركه يعتقدها ولده الذي يهدهده و يضمه لصدره..ابعد كفيه عن الضغط عليها قليلا لكنه لم يجذبهما بعيدا ..

.....

ازدرد ريقه في صعوبة و هو يرى تلك النظرات الشقية التي تتطلع اليه في بريق عجيب كانت المرة الأولى الذي يراه يتراقص بهما .. همس يحاول إن يفسر ما يحدث الا إنها رفعت رأسها اكثر تنظر لأعماق عينيه ..

.....

لم يكن يصدق إنها هنا بجواره على مثل ذاك القرب الحميمي دون خوف دون ارتعاش او ارتجاف .. غابت تلك النظرة التي تقصيه عنها لتحل محلها نظرة مشتاقة و مرحبة بقربه ..

رفع ذراعه لا أراديا ليحيط خصرها هامساً بالقرب من اذنيها باسمها :- زينة .. !!؟..

رفعت فمها مقابلا لنظراته تنطق كل حرف من حروف اسمه مفردا متفردا .. كل حرف كان مسمارا في نعش ثباته الوهمي الذي يدعيه أمامها ..و الآن أعلن استسلامه لها دون قيد او شرط وهو يقربها اليه اكثر هامساً في اذنها بصوت متحشرج بعد إن أنهت نطق اسمه بهذا الشكل الخطر:- عيون زكرياء ..

غابت بين أحضانه و هي لا تصدق إنها أخيرا صالحت الدنيا .. او ربما صالحتها الدنيا إن أهدتها ذاك الرجل الذي

عشقته من الوهلة الأولى ..لتجد نفسها أخيرا ...وتشعر أخيرا ..إنها امرأة طبيعية يمكن إن تهب الحب و تناله بكل روعة و في منتهى الرقى مع ذاك الحنون الذي تنعم الآن بدفء الأمان في أحضانه ..

****

جاء من الخارج بعد إن استدعاه الحاج مندور لقضاء بعض الأعمال فإندفع ملبيا مبتعدا عنها بعد إن وجدت اخيرا طريقها لأحضانه .. صعد الدرج متوجها لحجرة حازم يطمئن إنه خلد لنوم هانئ .. أغلق باب حجرته و توجه بقلب خافق باتجاه غرفتهما..

فتح باب الغرفة في وجل و دخل في تؤدة و أغلق الباب خلفه متطلعا حوله باحثا عنها ماسحا الغرفة بنظراته المتلهفة لمحياها و ما إن هم بالتحرك لداخل الغرفة حتى ظهرت هي من داخل الحمام في ثوب حريرى رقيق ظهرت و كانها

شذى عطر فاح في الإنحاء ليغمر روحه .. تسمر موضعه .. و كذا هي لم تتحرك قيد إنملة و هي تنكس رأسها في خجل .. دفع نفسه دفعا للتوجه اليها في خطوات متمهلة لا تشى إطلاقا بما يعتمل بصدره من شوق اليها .. وقف أمامها مباشرة لا يفصلهما الا بضع سنتيمترات ..شعر بارتجافاتها المعتادة و تسلل القلق لروحه .. هل عادت سيرتها الأولى ..؟!.. سأل نفسه في توجس .. الا ان شيء ما في أعماق نفسه اجابه بالنفى و دفعه ببطئ ليمد كفيه لبعضهما على اعلى ذراعيها و في بطء و تؤدة يدنيها إلى أحضانه و يطبق في حنو عليها بذراعين من حنإن يدثراها .. و ابتسم في سعادة عندما اختفت الارتجافات المعهودة و سكنت هي في أحضانه بوداعة .. اخفض رأسه ليهمس بإذنها في حنو :

.....

- أنا مش جلت لك طول ما إنت جنبى متخافيش ..

أوعي تخافي ..

رفعت رأسها في تردد باتجاه وجهه لتلتقى نظراتهما و أخيرا اماءت برأسها في إيجاب

.....

و هي تحرك شفتيها بكلمة غالية تمنت إن تبوح بها منذ سنوات :- بحبك ..

لمعت عينا زكرياء لكلمتها الثمينة التي تعنى إنه اصبح مالكا لقلبها و ان أمإنها بالفعل بين ذراعيه و هو لا يدرك إنه كذلك منذ إن وعته يتطلع اليها على شاطئ البحر في تلك الليلة التي تعدها هي ليلة القدر بالنسبة لها ..

همس و هو يقربها لصدره من جديد بشوق و لهفة بعد إن باحت بمكنون صدرها أخيرا:- و إنت يا زينة .. جلب زكرياء ..

.....

رفعت نظرات دامعة لوجهه ليحنى هامته مقبلا جبينها الوضاء و يضمها إلى أضلعه في شوق ..

****

.....

www.hakawelkotob.com

-١٥-

خرجت تترنح من داخل الحمام .. لا تصدق ما استنتجته منذ عدة ايّام و أكده لها الطبيب و ظلت لا تصدقه حتى هذه اللحظة ..

تقدمت خطوات باتجاه فراشها لكنها شعرت بالدوار و كادت تسقط عندما مادت الأرض بها الا إن كفى زكرياء القويتين تلقفتاها عندما دخل للغرفة على حين غرة و أسرع لنجدتها

رفعها مسرعا باتجاه الفراش و ما إن هم بالإندفاع لإحضار الطبيب حتى همهمت معترضة و جذبته ليعاود الجلوس بجانبها من جديد ..

.....

أخذت تلتقط إنفاسها في تتابع و هي تنظر اليه في استكانة تربت على كفه تطمئنه إنها بخير .. هتف زكرياء في اضطراب :- لازما اجيب الداكتور يشوفك ..

هزت رأسها نفيا و ابتسمت في سعادة و هي تقربه لتضم وجهه بين كفيها .. و قربت جبينه لشفتيها مقبلة إياه في عشق ثم ضمت رأسه لصدرها ..

استكان في تعجب بين أحضانها و هو يستشعر قبلاتها الدافئة على جبينه ..

رفع رأسه في تردد باتجاه نظراتها يود لو تطمئنه و تزيح ذاك القلق الذي يتسلل إلى أعماقه بسرعة ..

استشعرت هي ذلك التوتر البادي على محياه المحبب فمدت كفها و التقطت كفه السمراء تضعها على بطنها و تشير .. لم يستوعب ما تقصده او ربما لا قبل له ليتستنتج مقصدها .. اتسعت ابتسامتها لمرأى صدمته .. فأشارت بكفيها لبطنها

و مثلت إنها ستتكور و ضمت عضديها كانها تحمل طفلا و تهدهده ..

دمعت عيناه في سعادة غير مصدق .. و إندفع اليها ضاما إياها في فرحة غامرة

اعتصرها بين ذراعيه مقبلا جبينها في حبور طاغ .. و همس بالحمد و الشكر للّه وهي تبكى بين ذراعيه في وجل رافعة نظراتها للسماء شاكرة ..

****

هتف الحاج مندور بنبرة غير مصدقة :- حامل .. زينة بنتي حاامل ..؟!.. الف حمد وشكر ليك يا رب ..

.....

غامت عيناه بدموع فرحة و هو يفتح ذراعيه لاستقبال ابنته التي شاركته دموع فرحته وهي تلقى بنفسها في سعادة لأحضانه ..

.....

هتف حازم سعيدا بالخبر السار:- يعني هيكون عندي اخ يا ماما زينة ..؟!..

إنفجر زكرياء ضاحكاً :

- يعني هي اتپوزت ابوك بجت ماما و أنا ابوك افضل زكرياء .؟!

إنفجر الجميع ضاحكين ليرد حازم :- حاضر يا زكرياء .. هقولك يا بابا ..

قهقه زكرياء :- طب كتر خيرك و الله بصراحة معرفش أودي چمايلك فين..؟!..

و اه يا سيدي .. هياچيلك اخ او اخت ..

.....

هتف حازم معترضاً :- لاا ..بنات لاا .. عايز ولد ألعب معاه ..

قهقه الجميع ليرد زكرياء :- اهو عشان لمضتك دي هيجيك بت ..ايه رايك ؟!..

إنفجر حازم باكيا :- لاا .. عاايز واد ألعب معااه ..

.....

ضحك الجميع على سذاجة حازم و كأن الأطفال بضائع معروضة في محل الألعاب ننتقيهم كما نحب و نرغب ..

****

كان حمل زينة مستقرا لحد كبير مع بعض المحاذير ..اتبعتها بحذافيرها و خاصة مع وجود الحاج مندور الذي كان يعد الأيام و الليالي حتى يهل حفيده الذي إنتظره طويلا

.....

و لطالما دعا اللّه ليطيل في عمره حتى تتكحل عيناه برؤيته ..

مرت أشهر الحمل على خير ما يرام لتأتى اللحظة الحاسمة .. إندفع زكرياء بزوجته للمشفى المتفق على الوضع بها .. كان يروح و يجئ في قلق لا يستطيع تهدئته ..

.....

لقد دخلت لغرفة العمليات منذ ما يزيد عن الساعة

و لكن لا جديد ..ماذا يحدث بالداخل..؟؟!.. التوتر وصل به حدالحنون وهو يرى ممرضات تروح و تجيء لداخل غرفة العمليات حيث ترقد زينة و لا احد يطمئنه...و أخيرا خرجت إحداهن لتضع بين كفيه لفافة صغيرة تحمل ابنتهما ..كانت قطعة مصغرة عن أمها .. نظر اليها في فرحة لكنها منقوصة لقلقه على أمها التي لم يطمئنه احد عليها حتى هذه اللحظة و أخيرا خرج الطبيب يتطلعلزكرياء هاتفاً:- حضرتك جوزها مش كِده ..؟؟!..

اكد زكرياء في ذعر :- اه .. أنا جوزها يا داكتور خير .. ؟!.. هي كويسة ..؟!..

اكد الطبيب :- هي للأسف ..

صرخ زكرياء و قد ذابت مفاصله هلعا غير قادر على الوقوف من ذعره متذكرًا بدور :- مالها ..ايه فيها ..؟!..

.....

أقر الطبيب :- للأسف بعض المضاعفات اثناء الولادة هاتضطرنا نشيل الرحم .. بس كان لازم ابلغك و اخد موافقتك ..

.....

صرخ زكرياء مضطربا يهزه الذعر هزا:- اعمل اللي تجدر عليه يا داكتور .. بس هي تبجى كويسة .. اى حاچة بس تجوم بالسلامة .. اى حاچة ربنا يخليك.

ربت الطبيب على كتفه مطمئناً و هي يعود من جديد لداخل غرفة العمليات لينهار زكرياء تماما على احد المقاعد القريبة من باب الغرفة يسند رأسه على احدي كفيه و ينظر لابنته بغصة و أخيرا نظر بعين دامعة للسماء متضرعا بقلبه:

- يااارب .. اجول ايه ..؟!.. أسوى كيف .؟!..يارب مش جادر اجولها بس إنت اعلم بيها.. يا رب .. جلبى معدش

جادر.. أني معدتش جادر .. زكرياء معدش جادر

على وجع تاني.. يااارب ..

.....

و سالت دموع قلبه قبل عينيه ..لا يعلم كم مر من الوقت و هو يناجى ربه ..لينتفض اخيراً باتجاه الباب عندما رأى الطبيب خارجا ..

و الذي ابتسم في وجه زكرياء هاتفاً :- الحمد لله .. عدت على خير .. هاتبقى كويسة باذن الله .. بس لازم نخبى عليها موضوع إزالة الرحم ده شوية لحد ما تشد حيلها ..

هتف زكرياء غير مصدق :- يعني هي بجت تمام كِده .. بجت بخير ..؟!..

ابتسم الطبيب من جديد :- الحمد لله .. هانتقلها لاوضتها دلوقتي و هاتابعها و تبقى ذى الفل .. و مبروك عليك العروسة الصغيرة ..

.....

نظر اليها زكرياء للمرة الثانية منذ وضعوها بين ذراعيه لكن تلك المرة بفرحة عارمة حامدا للّه كثيرا ..

****

إندفع ماجد ذو السبعة أعوام لمجلس جدته فضيلة فى قاعتها المفضلة يراها تجلس القرفصاء فوق احدي الأرائك تمسك بمسبحتها ذات الألف حبة تتمتم بالاستغفار حتى تأخذها سنة من نوم .. و تستفيق فجأة كما غفلت فجأة معاودة التسبيح من جديد .. ليهتف فى استكانة مصطنعة :

- يعني يا ستى حفظتى مهران القرآن .. و أنا لاااه .. ؟!..

.....

هتفت الحاجة فضيلة :- مين جال كِده .. احفظك يا ماچد .. ده إنت حبيبى .. اخر العنجود ..

.....

ابتسم ماجد فى شقاوة هاتفا :- طب ياللاه .. جولي و أنا اجول وراكِ ..

أكدت هي :- تماام ..ياللاه ورايا ..

و بدأت بالفعل تتلو بعض آيات من القرآن الكريم حتى راحت فى نعاسها المعتاد ..

ابتسم ماجد فى سعادة و ما إن هم بالإندفاع خارجا ليلعب حتى استفاقت الحاجة فضيلة هاتفة :- رايح فين ..؟!.. تعالى سمع يا واد.

هتف ماجد مشاكسا :- خبر ايه يا ستي .. ما أنا لسه مخلص تسميع .. إنت نمتي تاني و لا ايه ؟!..

.....

هتفت الحاجة فضيلة نافية :- لاه .. ما نمتش يا جليل الأدب ..

هتف ماجد بضيق :- طب اعمل ايه أنا طيب .. اسمع تاني .. ؟!..

.....

أكدت الحاجة فضيلة :- اه .. سمع ياللاه ..

ما إن هم ماجد بفتح فيه حتى راحت الحاجة فضيلة فى نوبة نعاسها السريعة من جديد ..لينهض ماجد متسللا من خلف أريكتها ليخرج .. الا إنها استيقظتمتلفتة حولها هاتفة فى ضيق :- واه .. الواد سهأني و خرچ .. معچون بمية عفاريت ..

قفز ماجد من خلف اريكتها هاتفا فى شقاوة :- أنا أهو يا ستي ..

.....

لتنتفض هي مذعورة هاتفة فيه :- طيب يا ماچد .. و اللّه لأجول لأبوك لما ياجي .. واللّه ليعلجك فى الشچرة اللي بره لحد لما يبإن لك صحاب ..

هتف ماجد مستعطفا :- و اهون عليكى يا ستى !؟.

هتفت الحاجة فضيلة بعد ان رق قلبها لاستعطافه:

.....

- لاه .. متهونش يا جلب ستك .. ده إنت الغإلى واد الغاليين .. بس بجولك ايه ؟!.. لساتك معاك من البسكويت الطرى دِه اللي دوجتهوني عشية.. ؟!..

أكد ماجد :-اه .. لسه معايا يا ستى ..

امرته هاتفة :- طب اچرى هاتلى منيه أحسن أني نفسي فى حاچة حلوة ..

إندفع ماجد مسرعا يحضره لها هاتفا قبل أن يغيب:- بس مش هتجولي لبابا حاچة ماشي .. ؟!!

.....

اكدت :- لاه .. مش هچول .. بس هاته إنت .. اچري..

لتغيب الحاجة فضيلة فى سباتها المفاجئ مرة اخرى ..

****

إندفع زكرياء بجوار السرير المدولب المدفوعة عليه زوجته زينة داخل أروقة المشفى .. يتطلع اليها في ذعر ..هو

يكره المستشفيات و كل ما يتصل بها وكان يتجنب الدخول اليها او التواجد فيها لأي سبب ...

اخر مرة كان فيها داخل المشفى يجرى مضطربا بنفس ذاك المنظر المذعور يوم ولادة هدير منذ سبع سنوات .. و الآن .. لا يعلم ما الذي حدث لزينة بالضبط ..فكل ما قصته رزقة عليه .. أن هدير كانت تخرج من حافلتها المدرسية و كعادتها المشاغبة بدلا من إن تدخل لبوابة الفيلا إندفعت في الاتجاه المضاد تعبر الشارع للجانب الاخر حيث احد بائعي الحلوى و الذي رغبت في الشراء منه تلك المصاصات ذات الألوان والأشكال المختلفة التي تعشقها .. و في اثناء ذلك كانت زينة تنتظرها كعادتها في نافذة الطابق الثاني .. لتسمعها رزقة فجأة تصرخ عندما شاهدت هدير تعود ادراجها للفيلا بشكل غير محسوب و هناك

سيارة قادمة في سرعة باتجاهها فما كان منها الا الصراخ .. و الهتاف باسم هدير ..لتسقط فاقدة وعيها تساءل :

- هل حقا زينة هتفت باسم ابنته ..؟!

.....

هل تكلمت اخيراً .. نطقت بعد كل تلك السنوات ..؟!.. لا يدرى حقيقة ذلك ..؟!..

و لا ثقة له في رواية رزقة .. و التي يعلم تماما مدي تركيزها المحدود .. و التي للأسف كانت الشاهد الوحيد على ما حدث ..

لحظات و خرج الطبيب المعالج مطمئنا زكرياء :

- دي صدمة عادية .. متقلقش ..هتاخد وقتها .. و خاصة إن بقالها سنين متكلمتش ..

هتف زكرياء مستوضحا :- يعني هي هتبجى بخير ..؟!..

.....

أكد الطبيب رابتا على كتفه :- أكيد بأذن الله ..

بس لازم دكتور متخصص يتابعها أفضل..

.....

أكد زكرياء بايماءة من رأسه ..و هو يفتح باب غرفتها ليتقدم إلى فراشها رابتا على رأسها في حنو .. متلهفا على استفاقتها ليتأكد إنها بخير .. و ربما يستمع لصوتها الذي يشتاق لسماعه منذ سنوات ..

****

دخل حمزة إلى

الإسطبل فى سعادة فأخيرا سيكون له فرسا باسمه .. فرسا خاصا به

يحمل اسمه .. هكذا وعده عمه عاصم عندما ينجح فى الإ عدادية و ها قد نجح

بتفوق كعادته و الْيَوْمَ هو يوم إنتقاء الجائزة . هدية النجا ح .. فرسته الحبيبة التي حلم

بها دوما .. جال بنظرة فى الإسطبل باحثا عنها حتـ

ى وقعت إنظاره عليها .. فرسة

شامخة مشعة اللون كالعسل المصفى المخلوط بتبر الذهب

.. كانت خلابة .. ذهبية .. هكذا قرر تسميتها .. إندفع ف

ى اتجاهها يربت على عنقها الشامخ القوي كأى فرس

عربي اصيل و أخرج من جيب جلبابه مكعبات من السكر ا

بتاعها خصيصا لأول لقاء بها .. دفع بقطع السكراليها و هو

يهمس باسمها بجوار اذنيها و هي تنحنى تلتقط قطع السكر

فى استمتاع صهلت الفرسة فى سعادة و كانما قد راق لها الإ

سم ..

اسرجها بغية امتطاءها قليلا حتى و لو داخل الإسطبل فعمه

عاصم لم يسمح له

بالخروج بها بعد .. إنتهي من وضع السرج الفضي على ظهرها

ليزيدها فتنة ..

و ما إن هم بالصعود على صهوتها حتى هتف صوت ر

قيق أسفل منه فى نبرة مترجية :

- ممكن تخلينى أركبها يا حمزة ..؟!..

نظر حمزة للأسفل منتفضا ليجد تسبيح ابنة عمته سهام ..

تلك الصغيرة الشقية التي تبلغ السابعة من عمرها التي

لا يُرفض لها طلبا و الا ملأت الدنيا صياحا

و ظلت تبكى حتى تحصل على مبتغاها .. كان لديها القدر

ة للبكاء بالساعات دون

إنقطاع و لا قبل لأحد على احتمال هذا العذاب ..

لا تغرنه تلك النظرة البريئة المطلة الإن من عينيها

.. فهي نظرة توسل تأتى فى البداية

قبل الرفض الذي يكون عاقبته وخيمة و يظهر ساعتها

الوجه الاخر لتلك البراءة المزيفة ..

هتف فيها حمزة :

.....

لاااه .. مش هاينفع يا تسبيح .. أنا لسه متعودتش ع

لى الفرسة و معرفلهاش .. و بعدين إنتِ ايه اللي جابك هنا

من الأساس ..؟!..

رفعت كتفيها بلامبالاة مجيبة :

-

كنت راجعة من المدرسة شوفتك داخل هنا .. رحت جيت و

راك .. مش هتركبنى بجا.؟! .. باسل

مش بيرضى .. و إنت كمان يا حمزة ..!!

.....

و بدأت فى إطلاق شهقات خفيفة إيذأنا ببدء وصلة البكاء ا

لمعتادة ..

هتف فى ذعر :-

لاه .. خلاص ما تبكيش .. أنا هخليكى تركبيها بس تنز

لي على

.....

طوول .. اتفجنا ..؟!..

سكتت شهقاتها فى التو و ابتسمت مؤكدة باهتزازات متتابعة

ة من رأسها إنها موافقة

على اقتراحه ..

جال حمزة ببصره فى المكان ليجد دلوا فى احد الأركان .

. احضره على عجالة

وضعه مقلوبا أسفل سرج الفرسة و طلب منها الوقوف عليه و

قفت بالفعل .. فأمرها

بوضع قدمها داخل موضع القدم المدلى من السرج مع دفع

جسدها لاعلى الفرس

بمساعدته لتستقر على ظهرها ففعلت فى طاعة عمياء.. و

اتبعت تعليماته بحذافيرها ..لتجد نفسها قد أصبحت على

ظهر الفرس و نظرت من عليائها في سعادة

منقطعة النظير ابتسم هو لسعادتها و هتف أمرا :

.....

ياللاه .. بكفياكى كِده .. هاتى يدك إنزلك ..

هتفت تسبيح فى رعونة :- لاااه ..خلينى شوية

و مدت يدها تلتقط لجام الفرس والتي تنبهت برفع رأسها عن جوال التبن الذي كانت

.....

تغرس فمها فيه و تحركت آذإنها استشعارا لبدء نشاط ما منذ لمست يد تسبيح اللجام والذي لسوء الحظ حاول حمزة ألتقاطه منها لمعرفته بخطورة

العبث بلجام الفرس دون دراية لكن .. سبق السيف العزل .. واشرأبت عنق الفرس

و صهلت لتندفع فى حماسة خارج الإسطبل و تسبيح تحاول التوازن على صهوتها مع

صرخات حمزة و نداءاته و ركضه خلفها .. لكن .. لا فائدة

**********.

.....

إندفعت سندس لداخل السرايّ تلقى حقيبتها المدر

سية فى حنق باكية مما استرعى إنتباه

زهرة التي توجهت اليها فى قلق هاتفة :

-

في ايه يا سندس ..؟.. بتعيطى كده ليه يا حبيبتى ..؟..

فتحت سندس كفيها ليظهر بينهما اساورها العزيزة عليها و

قد تحطمت تماما .. تلك

الأساور التي كانت تتباهي و تزهو بهما فى سعادة لندرة

الحصول على مثلهن ..

فقد طلبتهن مخصوص من احدي صديقاتها التي كانت تساف

ر لأبيها احدي دول الخليج .. فتلك الأساور هي أساور هندى

ة اصلية .. و هي تعشق الأساور بجنون .. و هي

المفضلة لديها من بين جميع المجموعات التي تملكها. ول

كم تعجب عاصم ابيها لحبها الشديد لارتداء الأساور من ص

غرها .. و طالما أكد إنه يريدها إن ترتديهم من الذ

هب

الخالص.. لكنها ترفض بشدة مكتفية بالأساور الخاصة با

لزينة بألوانها المبهجة وصوت رنينها الأخاذ ..

هتفت زهرة مؤنبة :-

كام مرة قلت لك المدرسة مش مكان للبس الغوايش بتا

عتك

دي و إنتِ مفيش فايدة .. برضه بتلبسيهم .. اهم اتكسروا ..

رق قلب زهرة لبكاء ابنتها الحار فسألت مستفسرة :-

بس اتكسروا ازاى ..؟!..

هتفت سندس من بين دموعها :

مدرس العربى طلب منى أعراب جملة غلطت راح ضاربني بال

عصايا ..

جت فى الغوايش و اتكسروا ..

ضمتها زهرة هامسة :-

طب خلاص .. متزعليش .. هنجيب لك غيرهم .. بس

متلبسيهمش فى المدرسة ماشي .. !!..

ابتعدت سندس عن أحضان أمها واضعة اساورها المكسورة

على الطاولة فى حنق

مندفعة للدرج :-

مش هتلاقوا زيهم يا ماما .. دوول جايين من بره ..

رن جرس التليفون .. فاتجهت زهرة للإجابة تشعر بالضيق لحـ

ال ابنتها و عشقها

العجيب للاساور و التي ألقت نظرة على بقاياهم المحطمة عـ

لى الطاولة قبل إن تنصرف للإجابة على الهاتف الذي يدوى

رنينه بغرفة المكتب ..

لم تكن زهرة تعلم أو حتى تدرك إن هناك من

كان يستمع للحديث الدائر و دخل يجمع بقايا الأساور المحـ

طمة يضعها فى جيب جِلْبابه و يخرج فى هدوء كما جاء ...

.

****

.....

صرخت سهام داخل رواق المشفى و هي تندفع إلى

الحجرة التي تضم ابنتها و الطبيب الذي يقوم بفحصها الإن

.. إندفعت تستند على

ذراعي حسام زوجها الذي كان يقف مشدوها لا يعرف ما الـ

ذي يحدث بالضبط و

خلفهما يقف عاصم فى حيرة لا يعرف ما عليه قوله .. صرخـ

ت فى جنون فى حمزة

الذي كان يقف فى احد الأركان زائغ البصر لا يدر

ك ما عليه قوله أو فعله :

-

إنت السبب ..إنت يا بن سليم السبب .. منك لله .. ذنبها فى

رقبتك .. حرام

عليك ..

كانت تهذي بتلك الكلمات كالذي فقد عقله غير مدر

كة لأثر كلماتها فى نفس متلقيها .. هي مكلومة فى ابنة

ها و تريد إن تلقى اللوم على احدهم ..بكى حمزة .. ذاك

الفتى

الذي يعلم إن دموع الرجال عيبة كبيرة فى حقه ..لكنه

لم يحتمل اتهاماتها و بكى

بدموع صامتة .. ربت عاصم على كتفه مطيبا خاطره .. و ه

امسا بالقرب من مسامعه عندما تأكد من ابتعاد سها

م بعد إن جذبها حسام بعيدا عن

حمزة محاولا تهدئتها حتى خروج الطبيب :-

معَلش يا حمزة يا ولدي متاخدش على عمتك و كلامها ..

من خوفها على بتها..

أومأ حمزة برأسه متفهما هامسا بصوت مختنق بالبكاء:

و اللّه يا عمي عاصم هي اللي ركبت الفرس و أنا جلت لها تن

زل مرضيتش و شدت لجام الفرسة فرمحت بيها و ملحجتهاش

.. و لجيتها بعديها واجعة و رجليها منصابة ..

ربت عاصم على كتف حمزة من جديد :-

الغلطة مش غلطتك يا حمزة .. الغلطة غلطة الغفير الفجر

ى اللي جلت له يخلى باله عليك و إنت بتختار فرسك ..

كان فين ساعتها ؟!...لو كان موجود مكنتش تسبيح

دخلت الإسطبل من اساسه ..

بكى حمزة من جديد : أنا مكنش جصدي اللي حـ

صل لتسبيح دِه .. جول لعمتي سها

تسامحنى ..

هم عاصم بإجابة الفتى و طمإنته الا إن باب الغرفة فُتح فجـ

أة فإنتفض الجميع عندما خرج الطبيب و إندفعوا كلهم نحو

ه فى لهفة ليكون عاصم السائل الاول :

خير يا داكتور .. طمنا ..

هتف الطبيب بصوت يحاول إن يخفف عليهم الصدمة :

أنا كان بوسعي أطمنكم .. بس الحالة صعبة و إصابة رجـ

لها شديدة و لازم لها عملية حالا .. و بعدها ممكن نقرر ..

لجمت الجميع الصدمة و لم يتفوه احدهم بكلمة و استفاقـ

وا جميعا على سهام التي

سقطت بين أيديهم فاقدة الوعي ..

****

استفاقت من غيبوبتها التي تدخل اليها مرغمة بسبب تلك الأدوية و العقاقير التي تتناولها .. همست بصوت متحشرج واهن متقطع الأحرف :- هدير .. هدير ..

إندفع اليها زكرياء غير مصدق ينظر اليها و عينيه تكللها الدموع .. إنها تتحدث بحق .. إنها تسأل عن هدير .. همس متأثرا :-

هدير بخير يا زينة .. و الله بخير .. و هجبها تشوفيها ..

اومأت إيجابا و هي تمد كفها لوجهه المحبب لقلبها تملس على جانبه في شوق ..

لتهمس بوهن :- زكرياء ..بحبك يا زكرياء

ابتسم في حبور و إنحنى يقبل جبينها في شوق اليها.. و يرفع كفها الممدودة جواره ليقبل باطنه في سعادة لا توصف ..

همست من جديد :- كنت واخدة عهد على نفسي ..

اول كلمة إنطقها لو ربنا أراد واتكلمت .. هي اسمك .. زكرياء ..

و اعادت نطقه من جديد في حبور ..وهو ينظر لعمق عينيها الجوزيتين في عشق .. لتهمس من جديد متسائلة :- برضة لسه معرفتش أنا مين يا زكرياء ..؟!..

ابتسم محركا رأسه في تأكيد على فشله الذريع في تذكر أين رأها و متى ..؟!..

لتهمس هي :- أنا البنت اللي إنت إنقذتها من غلاسة الشباب على البحر .. و اللي وقفت تتنفض في خوف و مكنش في حاجة غير صوتك اللي حسسها بالأمان .. واللي خلتها تقدر تقاوم لحد ما تقدر ترجع لطبيعتها ..

شهق زكرياء متذكرًا غير قادر على التفوه بحرف .. لا يصدق إنها تلك الفتاة حقا..

اومأت برأسها إيجابا مستطردة :- أنا حبيبتك قبل ما ترجع إسكندرية تاني و تنقذنى يوم ما جيت اتفرج على الفيلا .. حبيبتك قبلها بسنين .

مد كفه ليعيد خصلة متمردة من شعرها إلى جانب وجهها ليبتسم متسائلا :

- كيف..؟!..

من يوم الموقف ده على الشط و أنا كل يوم امر من هناك .. اشوفك قاعد قصاد البحر .. أفضل قاعدة أبص لك من بعيد لحد لما تقوم تمشى .. كل يوم على كده ..لحد لما جه يوم .. مشفتكيشعلى البحر تاني .. و فضل عندي أمل أسابيع إنك راجع .. بس مرجعتش ..لدرجة أني تعبت فترة بعدها .. و اليوم اللي شفتك فيه تاني و إنت بتنقذنى في موقع البنّا .. ده كان اجمل يوم في عمري .. لأنك رجعت ..

ظهرت تاني في حياتي بعد ما كنت فاكرة أني مش هشوفك تاني أبدا ..

إنحنى في حب يلثم جبينها من جديد هامسا :

-ده كان اسعد يوم في حياتى أنا .. و النهاردة .. تاني اسعد يوم لأني سمعت صوتك .. صوتك اللي كان نفسي اسمعه من يوم ما عرفتك ..

ابتسمت في حبور غير مصدقة إنها اخيراً تتكلم اليه .. تحادثه .. منذ اللحظة لن تصمت أبدا .. ستظل تتكلم و تتكلم . ستظل تبثه حبها و عشقها كلمات و كلمات لسنوات طويلة قادمة .... لتعوض كل ما فاتها وهي غارقة في دنيا الصمت ..

****

إندفع حمزة لداخل داره فى حزن حقيقي .. فذاك الْيَوْمَ الذي ظل ينتظره حتى يحصل على فرسه التي تمناها أصبح اليوم الاسوء على الإطلاق بعد ما حدث لتسبيح ..

دخل حمزة لغرفة جدته بخيتة و التي استشعرت وجوده بعد إن ذهب الحزن و البكاء بنظرها فى بطء دون إن يستشعر احد حتى اصبح علاجها لا يصلح لإعادة بصرها .. و كم استحلفت الجميع الا يخبروا زكرياء بذلك و عاهدتهم و اوفى الجميع بالوعد ..

هتفت بخيتة في سعادة :- حمزة ..!!.. تعال يا ولدي .. جرب ..

.....

إندفع حمزة في حزن باتجاه جدته ليلقى برأسه فى حجرها لتمسد على جبينه و شعره هاتفة فى توجس :- خير يا ولدي .. ايه في..؟!..

شهق حمزة فى محاولة لكتم بكائه :

.....

- يعني مسمعتيش باللي حصل لتسبيح يا ستى ..؟!.

اومأت جدته برأسها ايجابا ليستطرد فى حنق ..أنا مكنتش اجصد ..أنا معملتش حاچة .. هي اللي طلبت تركب الفرس و أنا مجدرتش اجولها لاه ..

همست بخيتة :- عارفة يا ولدي .. مهياش غلطتك يا حبيبي .. روج حالك ..

هتف حمزة شاهقا :- لكن عمتى سهام ..

.....

قاطعته بخيتة هاتفة :- معلَش .. متخدش على كلامها ..محروچ چلبها على بتها .. ربنا يكون فى عونها .. بااذن الله تجوم بالسلامة .

هتف من قلبه :- يارب يا ستي .. يااارب

****

كان الجد قدرى يراجع بعض الآيات لحفيدته المفضلة و ال قريبة لقلبه تسنيم و لم يكن وصلهما بعد ما حدث لتسبيح

عندما تنحنح مهران في أدب مستأذنا للدخول

.. تأكدت

تسنيم من احكام حجابها حول رأسها حتى أذن الجد قدري

لمهران

بالدخول .. دخل مهران يغض بصره فى تأدب هاتفا للجد قد

ري :

.....

- ازيك يا جدي .. أنا جيت حسب الميعاد

هتف قدري : تمام يا ولدي .. اجعد عشان اراجع لك إنت و ت

سنيم ..

ثم أخذ يقلب في

مصحفه متسائلا و قد اخذه النسيان كعادة كل أسبوع

عندما يجمعهما ليسترجع لهما ما أمرهما بحفظه:-

احنا وصلنا لفين .. ؟!..

.....

هتف كلاهما .. مهران و تسنيم فى نفس اللحظة :-

الجزء ال..

و صمت كلاهما فى نفس اللحظة دون إن يكمل احدهما إ

حراجا ..

فتعجب الجد قدريي ليرفع رأسه عن مصحفه هاتفا :

- الجزء الكام.. محدش جال يعني ..!؟..

.....

هتف مهران فى عجالة ليجنبها الاحراج :

-الجزءالأخير يا جدي ..سورة المطففين ..

هتف قدرى وهو يفتح مصحفه :-

ايوه يا ولدي صُح .. ربنا يبارك لك ..

ثم استطرد أمرا حفيدته الخجول التي لم تتفوه بحرف منذ

بداية الجلسة :

ياللاه يا تسنيم ابدإي .. تنحنحت فى اضطراب و بدأت فى ال

تلاوة بصوت أخاذ

و ما إن وصلت للأية الكريمة التي تحمل اسمها حت

ى ابتسم مهران فى فرحة متذكرًا

كيف كانت تكره اسمها .. و كيف ذكر لها الجد قدري

تلك الآية فى نفس ذاك المكان

.....

الذي يجمعهما الآن .. هل لا زالت تذكر ذاك الاسم الذي أ

طلقه عليها عندما ارادت إن تختار اسما غير اسمها الذي كا

ن مثار سخرية الاولاد منها .. هل لا زالت تذكر ..؟!.. هتف ا

لحاج قدرى مخرجا مهران من شروده و فرحته التي غافلته لت

رتسم بابتسامة بلهاءعلى شفتيه دون إن يدرك ذلك :

ايه فى يا مهران .. بتضحك ليه !!.. ما تفرحنا معاك

إنتفض مهران هاتفا فى احراج :

- لاه .. مفيش يا چدي .. عادي ..

أمره الجد :- طب ياللاه كمل .. السورة اللي جبلها..

.....

بدأ فى التسميع بإجادة و استمروا على هذاالحال ..

حتى وصلوا لسورة كان يحفظها

.....

مهران عن ظهر قلب ..بدأت تسنيم فى التلاوة لكنها تلجلج

ت و أخفقت فى تذكر بعض

الآيات مما استرعى إنتباه الجد ليؤكد لها ضرورة إجادة ح

فظ تلك السورة بشكل أفضل

واكثر إتقانا .. و هنا جاء دور مهران الذي ألقى نظرة سريعة

عليها فوجد وجهها يحمل

الكثير من الحزن لإخفاقها .. فصمت ..

هتف الجد مازحا :-

خبر ايه يا مهران .. سمع ياللاه .. و لا شكلك عايز عزومة

..

ابتسم مهران بإحراج هاتفا :-

أصل شكلي ياجدي أنا كمان نسيتها و عايز أراجعها ..

.....

إنفجر الجد ضاحكا :

.....

طيب و ماله .. خلاص راچعوها و نبجى نسمعها الأسبوع الچاي مع السور الچديدة .. ياللاه تعالي يا مهران خد بيدي لحد الچامع .. العصر وچب ..

إنتفض مهران فى اتجاه الجد قدرى يأخذ بيده متوجها لخارج القاعة ليفاجئ بتسنيم تنحنى تضع خُف جدها الجلدي تحت أقدامه ليرتديه الجد في بطء هامسا بالدعاء لهما .. دعاء وصلت بعض من حروفه و كلماته المبهمة لأذن مهران .. ليبتسم فى سعادة عندما استنتج إن الجد يجمعه بها فى دعائه الذي دوما يخصهما به .. لكن هذه المرة .. تلك الكلمات التي كانت دوما مبهمة و كانه ا طلسم أو تعويذة ما

لا يستطيع احد فك رموزها استطاع مهران اخيراً

ادراك احدى الكلمات التي تحمل دلالة

تخص.. قلبيهما .. فابتسم فى حبور.

.....

****

هتف صديق باسل والذي كان يتدارى داخل غيط من القصب بجوار بيت مدرس

اللغة العربية بالمدرسة الإعدادية و بجواره يرقد باسل فى شرود يقلب تلك الأساور المحطمة و الغالية على قلبه فى تيه تام حتى إنه لم يسمع هتاف صديقه للمرة الثانية والذي لم يستطع رفع صوته اكثر من ذلك فألقى بإحدى الأحجار بجوار باسل الذي كان ممددا داخل الغيظ بلامبالاة و تنبه اخيرا لإشارة زميله دلالة على وصول المعلم .

صف معلم اللغة العربية دراجته البخارية المتهالكة بجوار باب داره و دخل و أغلق

بابه خلفه .. إندفع كلاهما باسل و صديقه فى اتج

اه الدراجة البخارية و بدأ كل منهما فى إلحاق الضرر بها بأ

ي شكل من الأشكال ..

كان على باسل إن ينتقم .. نعم .. كان عليه ان يثأر من ذا

ك المعلم القاسي الذي تجرأ و ضرب سندس و حطم اساورها

الغالية و التي يتزايد وجيب قلبه كلما سمع رنينها قادما ت

جاهه .. هي لا تدرك ذلك أبدا .. و هو لم يجعلها يوما تدر

كه كلاهما على طرفي نقيض .. هي تلك المتفوقة التي

لا تعبء لشئ سوى دراستها و تلك الأساور التي

تعشقها .. اما هو فلم يلقى بالا بأى شئ فى حياته سوى سند

س .. هي فقط .. لا شئ اخر يحتل مكانتها أو حتى يزاحمها

فى محبتها . ..على عكسها هو فإن الدراسة لم

تستهويه يوما .. منذ بلغ الثانية عشرة و هو يصحب ابوه فى

كل ما يخص

العمل والغيطان و القصب و العصارة .. و اخيراً...اصبـ

ح يترك له بعض السفريات إلى

القاهرة يقوم بها منفردا و اثقا فى قدرته على اتخاذ القرار ا

لسليم و كم اسعد ذلك حسام والده فهو ولده الوحيد و ذر

اعه الأيمن بقدر ما احزن أمه التي كانت تتمنى لو تراه

طبيبا أو مهندسا .. إنتهي و صديقه من مهمتهما الثأرية و افتـ

رقا ليندفع فى سعادة وهو يربت على جيب جلبابه يطمئن إذ

ه يحمل بغيته ..

تسلل بهدوء للسراىّ و استدار حيث ذاك المرأب القديم الذ

ي يحتفظ فيه خاله عاصم

بتلك السيارة القديمة الطراز و التي لم يعد يستخدمها بر

غم حالتها الجيدة منذ زمن بعيد . لقد سمع أمه تخبر أبيه إ

نها نفس العربة التي اختطف فيها خاله عاصم .. زوجته

زهرة لينفذ إنتقام الهوارية القديم من ابيها .. ابتـ

سم عندما وصل للسيارة القابعة فى احد

الأركان و فتح بابها الذي يزأر عند فتحه دوما .. و الذي حاو

ل على قدر استطاعته اخفاض صوته بإن يبطئ في

فتحه حتى لا يدرك احدهم وجوده ..

تنهد فى سعادة و هو يضع تلك الأساور الرائعة الألوان على

مقعد السيارة الخلفي حيث تحب سندس دوما الجلوس وحيدة

لقراءة رواياتها أو حتى بعض كتبها المدرسية فهذا

هو مكانها المفضل .. بالاصح .. مكانها السرى المفضل و ا

لذي لا يعلمه احد غيره ..

تطلع لمجموعة الأساور البراقة التي تركها على مقعد الس

يارة و أغلق الباب بحرص و

هو يتخيل مدى سعادتها عندما تأتى لتجد اساورها ا

لحبيبة .. نعم .. نسخة جديدة من تلك الأساور التي لف و

دار الكثير من المحال فى اخر زيارة له فى القاهرة حتى

يستطيع الحصول على نسخة منها .. و عندما وجدها كاد ي

قفز فرحا .. تسلل عائدا من جديد و هو يبتسم فى سعادة لأ

نه استطاع إن يثأر من المعلم الاحمق الذي تطاول

عليها و الأهم هو إن اساورها قد عادت اليها من جديد .. عاد

ت على يديه ..

****

دخل يونس لدار زكرياء و التي أصبحت داره بعد إن كتبها

زكرياء باسمه هو وكسبانة كهدية بمناسبة زواجهما ..

.....

ليجلس فى حزن قبالة كسبانة التي كانت تضع الطعام لصغارها حمزة و حامد واخيراً تنبهت لنبرة الحزن فى صوت زوجها وهو يلقى التحية فتساءلت فى قلق :

- خير يا يونس ..؟!.. ايه في ؟!.

هتف محزونا :- خالتي البقاء لله ..

شهقت كسبانة :- لا حول ولا قوة الا بالله .. الله يرحمها ..

همس مكررا :- الله يرحمها .. المهم دلوجت أمي .. كيف هسيبها لحالها هناك .. كانت جاعدة مع خالتي و مونساها ..دلوجت هتجعد هي فى بلد و أنا فى بلد و كمان بطولها .. طب دِه أني اللي كان مصبرنى إنها هي اللي مش عايزة تفوت اختها وتاجى تعيش هنا و اهي راحت الله يرحمها ..

هتفت كسبانة :- لاه .. ميصحش تسيبها لحالها يا يونس .. روح چيب الحاچة سَكينة تعيش معانا .. و أهو البيت واسع

و يساع من الحبايب ألف ..و حتى و لو مش واسع نشيلها فوج روسنا ..

هتف يونس :- بس هي ترضى تاجي..

أكدت كسبانة :- هاتاجى .. هي ليها مين هناك .. مش بجيلها حد .. روح جيبها يا يونس وجولها إنك ساكن فى ملكك ..ساعتها هاتيجي و هي عارفة إنها مش هتجل على حد و إنها جاعدة فى ملك ولدها ..

هتف يونس فى فرحة :

.....

- و الله و عِندَك حج يا كسبانة .. يمكن دِه يخليها تاجى صُح ..

ابتسمت كسبانة عندما بدأ حزنه يتبدد و جذبته ليجلس بجوار ابنهما حامد لتضع له صحنا هو الاخر ليتناول عشاءه و قد بدأ يستعيد راحة باله ..

****

.....

دخل زكرياء يخلع سترته و يضعها على ظهر مقعده ليتناول الطعام مع عائلته كالعادة .. كان يترك كل ما يشغله ليأتي اليهم ليقضى سويعات قليلة في صحبتهم قبل عودته للعمل من جديد .. عدة سنوات مرت عمل فيها بجد و اجتهاد

حتى اصبح من اكبر رجال المقاولات في الإسكندرية ..

هتف في رزقة :

.....

- فين باچى الأكل يا رزجة .. چعإنين ..

طلت زينة في سعادة لعودته تشاركه المائدة:- حالا يا حبيبى .. الأكل هايجي ..

ابتسم لها متسائلا :- طب و فين العيال ..؟!.

إندفع كل من حازم و هدير لداخل الفيلا في صخب .. لتهتف هدير ممتعضة :

.....

- يا بابى لو سمحت خلى حازم ملوش دعوة بيا .. و ميعيبش على لبسي و لا صحباتي ..

هتف حازم ذو الخمسة عشر عاما مدافعا عن نفسه:

- إنت اللي تنتبهي للبسك ده .. كام مرة اتخانق بسببها و بسبب لبسها ..العيال بيعكسوها ..؟!..

إنفجر كل من الحاج مندور و زينة ضاحكين و هم يروا حازم يشعر بالغيرة على اخته الصغرى التي لم تبلغ العاشرة بعد .. بينما طلت من عينىّ زكرياء نظرات إعجاب لرجولة ولده و اصله الصعيدي الذي يتسرب رغما عنه في تصرفاته ..

استطرد حازم هاتفاً في حنق :

- كمان صحباتك أساسا بنات هايفة ..أنا مش عارف إنت بتحبى فيهم ايه دوول ..؟!..

.....

إنفجرت هدير باكية ساخطة مندفعة لأحضان جدها مندور نصيرها الأوحد و الأقوى في فيلا مندور.. فأبوها دوما ما يخبرها إن عليها طاعة اخيها الأكبر .. وأمها تقف دوما على الحياد و أحيأنا في صف حازم و لا يبقى لها غير جدها مندور و الذي لا يقبل إن يضايقها احدهم او يفرض عليها امرا لا تحبه .. و بالتأكيد لا يستطيع احد ان يخالف الجد مندور او يرد له امرا ..

ضمها جدها بين ذراعيه مهدهداً.. و جاذبا أياها لتجلس على قدميه فوق ذاك المقعد المدولب الذي لم يغادره منذ سنوات طويلة..هاتفاً بما يشبه الفرمإن :

- هدير تعمل اللي هي عيزاه .. دي حبيبة جدها .. متزعلهاش تاني يا حازم ..

اكد حازم بأدب :- حاضر يا جدي ..

.....

بينما نظر زكرياء لزينة و التي تعلم تماما سبب نظرات زكرياء التي تحمل الكثير من الضيق نظرا لإنه لفت نظرها كثيرا لذاك الدلال الزائد الذي تحظى به هدير من جدها مندور و مخاوف زكرياء من إن يفسدها دلاله و لكم أخبرته زينة إن ابيها يفعل ذلك رغماً عنه فهي حفيدته الوحيدة و التي يعشقها بالفعل و يرى إن بعض الدلال لن يفسدها ..

بل إنه يرى إنه من حقها و من أولى بالدلال اكثر من حفيدة الحاج مندور الوحيدة...و خاصة إن الحاج مندور يعلم إنه لن يكون له المزيد من الأحفاد بعد إزالة الرحم التي تعرضت لها زينة ابنته بعد ولادة هدير مباشرة ..و كم نبه زكرياء زينة كثيرا لتساهلها مع هدير فيما يخص ملابسها المتحررة قليلا و التي لا ترضيه و لكن دوما كان هناك الجد مندور الذي يحكم لصالح هدير و كل ما ترغب به ..

جلس الجميع يتناول طعامهم بصمت خيم على الطاولة ..كان يقطعه بين الحين و الاخر بعض كلمات هنا و هناك حتى هتف زكرياء متذكرًا :

.....

- بجولك ايه يا حاج ..؟!..

إنتبه الحاج مندور ليستطرد زكرياء باهتمام :-تعرف حد اسميه الباشا ..؟!..

ردد مندور الاسم في محاولة للتذكر ثم هتف أخيرا :

- لاا يا بنى .. مصدفنيش الاسم ده قبل كده .. مين ده ..؟!..

هتف زكرياء بحنق :- دِه واحد بجيله فترة جليلة في السوج.. بس ايه مجلكش ياحاج .. خارب علينا المناجصات كلها .. مش سايب لحد حاجة يتهنى بيها ..

هتفت زينة :- مش ماشى قانوني !!.خلاص

.....

هتف زكرياء معترضاً :- بس الرحمة حلوة برضك .. يعني الناس اللي حواليه مش تاكل عيش ..؟!.. و لا تجعد تتفرج عليه .. اخر مناجصة احنا جايبين فيها اجل سعر و كنت متاكد إنها بتاعتنا .. فجأة لجيته طلع من تحت الأرض و اخدها لحسابه .. أنا مش هسيبه الباشا دِه.. هجبله و اعرف ميته ايه .؟!.

هتفت زينة في لوعة :- لا يا زكرياء .. عشان خاطري .. بلاش السكك اللي فيها مشاكل ..

و همست بالقرب منه .. أنا خايفة عليك ..

نظر إلى عمق عينيها في محبة هامساً و هو يغمز لها بطرف خفى بكلمته التي طالما كان يرددها على مسامعها عندما كان يجدها ترتجف مذعورة :

- طول ما أني معاكِ متخافيش ..

.....

ابتسمت وعادت تتناول طعامها في سعادة ليهتف الحاج مندور مؤيدا لقرار زكرياء :

.....

- عين العقل .. اعرف خصمك مين و دماغه فيها ايه ..؟!..

روح قابله يا زكرياء ..

هز زكرياء رأسه موافقا ..

****

حاول زكرياء مقابلة ذاك الرجل المدعو الباشا عدة مرات و في كل مرة يكون عير متواجد في الإسكندرية و أحيأنا يكون خارج مصر كلها فيأس زكرياء من مقابلته .. اليوم يقف الإن كل رجال المقاولات في الإسكندرية تكتظ بهم قاعة المزادات .. اليوم يوم حاسم في مزاد ضخم لا يتكرر الا كل فترة طويلة لذا يتكالب على النيل به كل رجال الاعمال في الإسكندرية بلا استثناء

.....

و بالتأكيد ذاك المدعو الباشا من أوائل من سينضمون لقائمة المتصارعين على ذلك المزاد و مكسبه الخيالي الذي يفوق التوقعات لذا وطد زكرياء نفسه على الفوز به مهما كان الثمن .. فالفوز بمزاد كهذا سينقل شركته نقلة نوعية جبارة في عالم الإنشاءات و المقاولات و هذه فرصة لا تعوض و لن تأتى في القريب ..

كان المكان يعج بالوافدين من كل صوب و حدب و كان هتافهم و نقاشهم يعلو حتى يصم الاذإن .. تلفت حوله يبحث عن مندوب الباشا الذي يعرفه الجميع و الذي يحضر بالنيابة عن الباشا نفسه في كل المزادات ..

.....

لكنه لم يجده كالعادة و كم تعجب لذلك .. فكيف يتغيب عن مزاد كهذا ينتظره الجميع

إنتبه و صمتت الأصوات المتعالية فجأة عندما سُمع عدة طرقات على طاولة ما إيذأنا

.....

ببدأ المزاد .. تعالت الهتافات هنا و هناك مع بدء المزايدة و احتدم صراع الأرقام التي كانت تتقاذف من الأفواه هنا و هناك .. و في لحظة ما و عندما وصل الصراع لاشده .. فُتح باب القاعة ليهتف احدهم برقم ألجم الجميع عن المتابعة و المزايدة بل أرغمهم على التطلع لذاك الذي دخل القاعة متبخترا و حوله زمرة من رجاله من بينهم ذاك المندوب الذي تغيب اليوم ليحضر و معه سيده ..

.....

توقف الباشا في قلب القاعة لا يفصله عن طاولة المزاد سوى خطوات ليهتف من جديد بالسعر الذي حدده .. و يستدير لكل من بالقاعة .. نظر اليه زكرياء في شك يعقد جبينه في حيرة .. و أخيرا عندما خلع الباشا نظارته الشمسية شهق زكرياء في صدمة جعلت الباشا نفسه يتطلع نحوه ليصمت للحظات و يشهق بدوره و هو يتطلع لزكرياء في ذهول ...

.....

****

دخل حسام غرفة نومه لتطالعه سهام تجلس فى احد الأركان تبكى فى صمت .. اقترب ليجلس بجوارها على تلك الأريكة التي تجلس هي على احد اطرافها تنوح فى حزن يمزق نياط القلب ..

.....

ربت حسام على كتفها هامسا:

- خبر ايه يا بت الشيخ مهران ..؟!.ايه المناحة دي .. ؟!.

همست و هي تمسح دموعها الغزيرة عن وجنتيها بظهر كفيها :

- يعني معرفش ليه المناحة .؟!.. بتى ضاع مستجبلها و تجولي ليه المناحة ..؟!..

هتف فيها مهدئا :

.....

- طب استهدي بالله كِده .. و متخليش شيطإنك يغلبك و جولى الحمد لله إن بتك لساتها عايشة و رجعت الدار بعد شهور العلاج الطويلة اللي فاتت..

.....

شهقت سهام باكية من جديد و لم تعقب على كلام زوجها الذي احزنه بكاء زوجته الموجوعة ليهتف من جديد :-

وحدي الله يا أم باسل .. وحدي الله ..

هتفت بصوت متحشرج :

- لا اله الا الله .. اللهم لا اعتراض .. بس البت يا حبة عينى مش جادرة تمشي

و هي ساندة على العكاز دِه .. بتك بجت عاجزة يا حسام و متجدرش تمشي لحالها .. تسبيح اللي كانت بترمح يمين و شمال طول النهار مش بتجدر تمشي خطوتين من غير العكاز اللي مبتعرفش تمشى بيه و لا حتى تجدر تمشي من غيره.

.....

صمت حسام للحظات يستجمع شتات نفسه و يتغلب على حزنه لكلماتها التي تقر بها حقيقة وضع ابنته الجديد بعد الكثير من دورات العلاج المكثفة نتيجة لحادثة سقوطها من على صهوة الفرس .. و اخيراً همس :

- الداكتور جال هاتاخد لها فترة و بعدين تستغنى عن العكازدِه .. و هاتجدر تمشى لحالها تاني ..

هتفت سهام صارخة فى ضيق :

- هتمشي كيف .؟!....عارف هاتمشي كيف ..؟!.. عارچة يا ابو باسل .. بتي هاتبجى عارچة طول عمرها .. ااه يا حرجة جلبي عَلَيْكِ يا بتي ..

عند هذه النقطة و لم يحتمل حسام المزيد ليندفع خارج الغرفة غير قادر على مداراة ألمه و حزنه على تسبيح ابنته الأقرب لقلبه و التي كانت مدللة الدار كلها بلا منازع .. الآن .. أصبحت لا تقوى على المسير لخطوات و

اصبح لزاما عليها الاتكال على ذاك العكاز حتى تقوى عضلات قدمها من جديد و تستطيع الاستغناء عنه .. لكن ماذا بعد ..؟!.. هتفت بها أمها منذ لحظات .. ستظل هي تلك العرجاء التي لن تعود قدمها لحالتها الطبيعية من جديد ..

مما أورثه المزيد من الحزن لتدمع عيناه ألما و يملؤه شعورا غامرا بعجز لا يوصف ..

****

هتف زكرياء في سعادة و هو يجلس بجوار الباشا في سيارته الفارهة :

- واه يا سعادة العميد .. عاش مين شافك ..!!

.....

إنفرجت اسارير العميد مختار هاتفاً :

- لواء من فضلك ..أنا اترقيت بعد ما إنت طلعت من السجن بسنتين و محبتش اكمل في الخدمة و كانت عيلتى كلها

في سوق المقاولات من زمن فقلت اجرب .. و اهو ..

ايه رايك..؟!..

ابتسم زكرياء :- رأيي ..؟!.. هي دي عايزة كلام حضرتك .. ده إنت بسْم اللّه ما شاء اللّه أكلت السوج كله في فترة جصيرة كنك متربى فيه من صغرك ..

اتسعت ابتسامة العميد مختار :

- واضح إن المقاولات في دمى و مكنتش عارف .. المهم إنت بقى ايه اللي جابك هنا و ايه اللي غيرك كده .. ده اما معرفتكش يا صعيدي ..

.....

إنفجر زكرياء ضاحكاً :

- يا باشا الهدمة تتغير لكن اللي في الجلب مبيتغيرش ..أنا بعد ما طلعت و ظبط اموري رجعت اسأل عليك جالولى اترجى و معرفتش أوصل لحضرتك و بصراحة مجدرتش

اجعد في القاهرة .. جيت على اسكندرية و ربنا عترنى في الحاج مندور واتجوزت بته و معايا هدير دلوجتي منيها ..

قاطعه مختار :- ده غير حازم طبعا يابو حازم .. !!..

اكد زكرياء :

- اه .. أمال ايه ..!؟.. ده إنت لو شفته متعرفوش دلوجت .. و جال ايه عايز يبجى ظابط .. !!..

.....

إنفجر مختار ضاحكاً :- و ماله يا صعيدي .. هو يشد حيله بس و سبهولى .. ده إنت مداين الحكومة بتلت سنين سجن ظلم ..

ابتسم زكرياء و لم يعقب ليهتف مختار متسائلا :

- متعرفش اخبار عن اللي كانوا معاك في السجن ..!؟..

هتف زكرياء :- لاه يا باشا .. الوحيد اللي اعرف هو فين .. يونس ..

.....

سال مختار :- مين يونس ..؟..

ابتسم زكرياء مؤكدا :- سنچأ يا باشا .. الصعيدي اللي كان دايما ملازمني ..

ابتسم مختار :- اه .. افتكرته .. اللي صوته حلو ده ..؟..

.....

اكد زكرياء :- ايوه يا باشا تمام .. بعته النچع عندىنا يباشر ارضى و ياكل لجمة بالحلال و اهو اتجوز و خلف كمان ..

ربت مختار على كتف زكرياء هاتفاً :- دايما معرفتك .. معرفة الخير يا زكرياء .. مقلتليش كملت تعليمك و لا خلاص بعد ما طلعت بعت الموضوع ..؟..

اكد زكرياء :- لاه كملت .. و بصراحة بعد جوازي من بت الحاچ مندور.. هي كمان مكنتش كملت علامها .. شچعتنى .. و دخلنا الجامعة المفتوحة سوا ..خدت بكارليوس إدارة اعمال .. و الفضل يرجع لحضرتك ..

.....

هتف مختار في سعادة :- اللّه اكبر .. بجد فرحتنى .. و عشان كده...بص بقى .. المزاد اللي وقع في حجرى ده .. ليك نصيب فيه..

هتف زكرياء متعجباً :- أنا ..؟!.. بس ده تجيل عليا يا باشا ..

هتف مختار :- ملكش دعوة .. إنت هتخش معايا شريك ..ايه رايك ..؟!..

هتف زكرياء في سعادة :- و هو أنا اجدر اجول لاه للحكومة ..؟!..

إنفجر مختار ضاحكاً :- إنت بكاش يا زكرياء .. حكومة ايه بقى ..!!.. ما قلنا سبناها ..

قهقه زكرياء :- بس لسه برضك إنت الباشا

قهقه مختار بدوره :- تصدق .. غلبتنى ..

.....

و ..تعالت ضحكاتهما.

.....

****

مر حمزة كعادته ببيت عمته سهام و هو فى طريقه لدرس الفيزياء .. تمنى إن يغمض عينيه و يفتحهما فيجد إن تلك السنة الكبيسة المسماة الثانوية العامة و قد مرت بسلام و حصل على ذلك المجموع الذي يؤهله لدخول كلية الهندسة كما تمنى دوما ..

نظر باتجاه الدار و شرفاته المغلقة و لم يلمح اى كائن .. صمت مطبق خيم على تلك الدار التي كانت تعمها الفرحة دوما بعد حادثة تسبيح و التي ألقت على الدار وأصحابها غيمة من حزن و كآبة منذ ما يزيد عن العامين ..

.....

استمر فى مسيره و ما إن هم بإنهاء الطريق الترابى المحاز لسور الدار المتوسط الارتفاع حتى سمع صوت صخب و

هتاف قادم من ناحية الغيط القريب من الدار بجوار تلك الشجرة السامقة العتيقة ..

جال بنظره و مد بصره بعيدا ليكتشف فجأة حفنة من الأطفال يحاوطون فتاة ما و يشكلون حولها دائرة واسعة و يطلقون عليها الألفاظ و المسميات إندفع ناحية تلك الجمهرة ليكتشف إن تلك الفتاة الصغيرة ما هي الا تسبيح و هي تقف منكسة الرأس ينعتها الأطفال حولها بمسميات تعيب فيها من اجل عكازها و خطواتها المتعثرة ..

.....

صرخ فيهم حمزة ناهرا :- إنت يا واد إنت وهو ... اقسم بالله .. اللي هيضايجها تاني منيكم لهيشوف مني اللي عمره ما شافه و إنتوا عارفيني ....

إنفض الأطفال من حولها فى ذعر مبتعدين فى عجالة ليختفوا خوفا من حمزة الذي يعرفه جميعهم خاصة من حكايات اخوتهم الأكبر سنا و الذين اوسعهم حمزة مرات و

مرات العديد من الضربات و اللكمات .. فعلى قدر هدوء طبعه و رزانته .. لكن عندما يغضب يتحول إلى أسد كاسر لا يستطع اى من كان السيطرة عليه..

اقترب حمزة من تسبيح و التي لم تبلغ العاشرة بعد و الواقفة فى ثبات رغم دموعها التي تغطى وجنتيها .. احنى حمزة رأسه الشامخ ليطالع وجهها الطفولي هامسا: - إنتِ كويسة يا تسبيح .. ؟!..

رفعت رأسها و مسحت دموعها هاتفة :- ايووه .. أنا كويسة .. و راجعة دارنا ..

و استدارت ببطء تحاول السيطرة على ذاك العكاز الذي يعاندها اثناء سيرها على الارض الطينية ..

و كادت إن تسقط عدة مرات و هو يتابعها فى صمت يتأكله شعوره بالذنب تجاهها .. كادت إن تسقط للمرة الرابعة .. و المسافة حتى باب الدار لازالت بعيدة .. اقترب منها و حملها

فجأة لتهتف فى نزق طفولي :- نزلني يا حمزة .. أنا كويسة ..

هتف بدوره :- أني عارف إنك كويسة ..

.....

أنزلها بجوار باب الدار و سلمها عكازها هاتفا و ابتسامة على وجهه :

- كِده أنا مطمن إنك جدام الدار و محدش هيضايجك تاني ..

هتفت باكية :- بعد ما تمشى هيرجعوا تاني ينادوا عليا و يجولولى .. يا أم رجل مسلوخة

اشفق عليها فهتف مازحا :- اي حد من العيال دي يضايجك جوليله هنادي حمزة .. هيخافوا و محدش فيهم هيجرب لك تاني .. خلاص ..

اومأت موافقة فهي على علم تماما بإن الجميع يهابه فهو على قدر طيبته التي ترتسم على وجهه الان الا إنه عندما

تفور أعصابه لا يرى أمامه ..يصبح كالثور الهائج و يتصرف كبركان ثائر يلقى حممه .. و كم حكى باسل اخيها عنه و عن شجاراته و إنه لا يتفاهم الا بكفه الصلبة التي اورثتها فلاحة الارض مع زوج أمه يونس مزيدا من الصلابة جعلته يتفوق على اقرانه في اي نزال .. بل جعلت الجميع يهابه و يتحاشى الاقتراب أو الاحتكاك به ..

دفعت تسبيح باب الدار لتدخل فى بطء تتعكز و تغلق الباب ليتنبه هو انه متأخر اكثر من اللازم على درسه ليندفع للطريق مهرولا ..

****

جلست تسبيح داخل غرفة القراءة الخاصة بزهرة زوجة خالها في الحديقة الخلفية لسراىّ جدها مهران الهواري ..

.....

تطلعت للكتب المختلفة على الأرفف و مدت كفها تحاول إن تطال احداها جذبها غلافه الملون ليخذلها

عكازها و ينزلق على تلك الأرض الملساء للغرفة و ما إن همت بالصراخ حتى إندفع اليها ماجد الذي يماثلها في العمر لينجدها من سقوط محقق ..

اجلسها على الأريكة الأقرب لكليهما و بدأ في اللهاث لحمله ثقل جسمها ..

و أخيرا هتف مازحا :- كل ده عشان كتاب .. طب كنتِ نادتينى اچبهولك اسهل من شلتك دي ..

ابتسمت بدورها لابن خالها و توأمها فهي تعتبره توأمها بالفعل فهو يكبرها بنصف ساعة فقط فرق في توقيت الولادة بين أمه و أمها و لو حدد الطبيب لامه توقيت متأخر قليلا لاصبحت هي الأكبر ..

هتفت في تأكيد حقيقة :- معلش .. العكاز مش مخليني أتحرك على راحتي ..

.....

هتف و هو ينهض جاذبا ذاك العكاز من جوارها دافعا به بعيدا :

- إنت اللي عاوزه و خايفة تمشى من غيره .. الدكتور بتاعك جال إنت مش محتاجاه بس إنت چبانة .. مش جادرة تستغني عنه ..

هتفت هي في ذعر و هي تراه يدفع بعكازها بعيدا عن متناول يدها :

- لااه يا ماجد .. الله يخليك .. رچعه چنبى ..

.....

هتف ماجد في إصرار :- لاه .. مش هرچعهولك .. و هتجومي و تمشى من غيره .. و استطرد مازحا :- بلا دلع ماسخ .. على جولة ستك فضيلة...

شعرت بضعفها و رغبتها في البكاء الا إن قلبه لم يحن لها بل اقترب منها و أمسك بكفيها جاذبا إياها لتقف فجأة و تشهق في صدمة و تكاد تسقط .. ليصرخ هو فيها هاتفا

بعزم :- أنا مش هجدر اشيلك لو وجعتى تاني ..

اسندي على رجلك .. وبالراحة ياللاه نتمشوا ..

تماسكت قدر استطاعتها و اشفقت عليه من حمل معظم ثقل جسدها فتحاملت على نفسها و داست على قدمها المصابة أخيرا ..

بدأ هو في استشعار استجابتها فبدأ في جذبها رويدا .. رويدا .. حتى سارت خطوات قليلة مستندة على قدمها لأول مرة منذ سنوات .. بدأت تبتسم .. و نظرت إلى ابن خالها بامتنان فما كانت قادرة على اتخاذ تلك الخطوة الا بدفعة منه .. دوما كان قادرا على اقناعها بما يفشل فيه الجميع .. فهي لا تتذكر عدد المرات التي حاول فيها باسل و ابيها فعل ذلك و كان نصيبهما الفشل الذريع في إقناعها و خاصة بعد اطلاقها عدة صرخات و كذلك زجر أمها لكل من يقترب

منها لأي سبب من الأسباب .. تراها ما هي بفاعلة عندما تراها الإن ..؟!..

بدأت بالفعل تخطو عدة خطوات و أخيرا ترك ماجد كفيها متقهقرا عدة خطوات للخلف مشجعا إياها على المضي في طريقها معتمدة على نفسها .. ظلت واقفة في ثبات غير قادرة على التقدم .. كانت تحتاج لقوة دفع داخلية جبارة كى تقوم بتلك الخطوة ..

استجمعت قواها و تقدمت بالفعل ليهتف ماجد في سعادة مشجعا لمزيد من الخطوات تجاهه .. استطاعت بالفعل السير عدة خطوات غير مصدقة ما فعلت ليندفع ماجد ليحضر احد المقاعد داعيا إياها للجلوس لتلتقط إنفاسها

بعد ذاك المجهود الشاق .. ما إن بدأت في استجماع قواها حتى حاولت إعادة الكرة تريد إن تثبت لنفسها إنها بدأت تسير على قدميها من جديد ..

ابتسمت لابن خالها و بدأت مسيرتها ..

يدعمها هو مازحا و هاتفا لتتعالى ضحكاتها التي بدأت تصدح في فرحة غابت عنها لسنوات .. تتناهي صوت ضحكاتهما لتلك التي تقف منذ مدة تتابعهما بنظرها متحسرة

غير قادرة على الاقتراب لتلعب معهما او حتى تجالسهما بسبب أمها سمية و تحذيراتها الدائمة لها بالا تقترب من أولاد زهرة ..

دمعت عيون ايمان في حزن فطالما كانت لتسبيح مكانة خاصة عند الجميع على خلافها لا تعلم ما السبب .. هل لمرضها ..؟!.. جاءتها لحظات تمنت فيها ان تكون في وضع تسبيح ولو قليلا حتى تنال اهتمام الكل و رغبتهم في أرضاءها و الأهم هو صحبة ماجد الذي لا يعيرها التفاتا حتى ..

إنتفضت ايمان عندما فاجأها صوت مؤمن اخوها

هامسا :- ياللاه يا ايمان .. أمك بتنادم عليكِ عشان نمشوا

..

.....

دوما مؤمن هو الأقرب لقلبها من اخيها ماهر الذي كان دوما

صلفا و قاسيا معها لذا كان دوما محل ثقتها و لا تعصي له

أمرا ..

هزت رأسها في إيجاب و سارت معه راحلة و هي تلقى نظرة

بعيدة لذاك الباسم الضاحك هناك ..دونها ...

****

.....

-١٦-

ترددت تكبيرات عيد الأضحى من اقرب جامع للسراىّ تلك التكبيرات التي تصدح عاليا بصوت مهران الذي كان يصمم كل عيد منذ بلغ الخامسة عشرة إن يهتف بها عاليا من مأذنة الجامع العتيق بالقرب من السرايّ و الذي بناه جده الأكبر صادق و أضيفت اليه الكثير من التعديلات و التوسعات ...

إنتهى مهران و باسل و كل رجال العائلة من صلاة العيد ليندفعوا للسراي من اجل الذبح و التضحية و التي صمم شباب العائلة القيام بتلك المهمة هذا العام .. باسل الذي إنتهى من معهده المتوسط منذ ما يقارب السنتين و زاد ما يحمله من مسؤليات العائلة و مهران الذي إنتهى من سنته

الثانية فى كلية الطب البيطري و الذي مارس مهامه فى اختيار البهيمة و إنتقائها من اجل الذبح بعين خبير مدقق .. و الذي كان اكثر الشباب اصرارا للقيام بمهمة الذبح لانه امر مستحب دينيا ..

إنتفخت أوداج عاصم و هو يهمس لحسام التهامي:

- و الله و كبروا العيال .. ((.. ربنا يبارك لنا فيهم .. و نشوفوا هيعملوا ايه فى الدبايح .. و قهقه مستطردا .. ربنا يستر .. الحريم مستعجلين عايزين يطبخوا و دول شكلهم لسه غشم .. شكلهم هيفطرونا على المغرب ..

.....

قهقه حسام بدوره :- لاه .. باذن الله يظبطوها تمام .. احنا أهم حاجة نضمن الكبدة ندوها للحريم يفطرونا بيها و بعدين يبجى لها صرفة ..

أكد عاصم باسما :- على جولك .. نضمن الفطور و بعدين يحلها ربك ..

.....

توجه الشباب مهران و باسل للذبيحة الكائنة فى الجانب الخلفى من السرايّ ..و اعدوا العدة .. وذبحوها و عملوا على تقطيعها و توزيعها كما يجب ..

عمل كل منهما بهمة و نشاط .. حتى نهض مهران هاتفا :

- محتاجين حاچات تاني نوزعوا فيها .. أنا رايح اجيب اللي أجدر عليه من المطبخ ..هز باسل رأسه موافقا و هو منهمك فى عمله لحظات غاب فيها مهران ليبقى وحيدا يفكر في تلك التي لم يرى محياها فى صبيحة العيد ..

لم يأت العيد بعد يا باسل ..كان يحدث نفسه .. ما عاد هناك عيد ما لم يتكحل بمرأها .. صاحبة الطلّة الصاخبة التي تنقر على جدران قلبه بأساورها فتثير فيه العديد من الزوابع ..

و فجأة و فى عز إنهماكه بتقطيع اللحم إنتفض قلبه لمسمع الصخب الأقرب لقلبه والأحب لروحه صخب اساورها التي

هلت و التي ألتقطها قلبه قبل أذنيه ..و تأكد حدسه عندما هتفت متعجلة اياهم :

- ايه يا جماعة .. محتاجين الكبدة ضرورى فى المطبخ .. هانفطر امتى ..؟.. الضهر ..!!..

.....

تلك الإنتفاضة لمسمع صوتها و رناتها التي تترد بقلبه جعلته ينتفض و تنتفض سكينه بدورها بين كفيه لتضرب احد أصابعه بدلا من اللحم الذي كان ينهمك فى تقطيعه ..

دفع السكين بعيدا وهو يتأوه ممسكا بإصبعه المصاب .. إندفعت هي بلا اي تفكير تجاهه لتجلس بدورها قبالته فى ذعر هاتفة :

- ايه اللي حصل ..؟.. إنت جرحت نفسك ..؟..

هتف فى نزق وبكبرياء حمقاء :

.....

- مفيش حاچة .. ده چرح صغير و السكينة حامية .. عاادي ..

.....

ظهر كذب ادعائه عندما بدأ الدم الغزير يتساقط من بين اصابع كفه القابضة على إبهامه الجريح و النازف بشدة .. هتفت فى رعب :- إنت بتنزف جامد ..

و جالت بنظرها حولها و وضعت يدها فى جيب عباءتها لتصطدم باحد مناديلها و بلا وعي إندفعت تجذب كفه المصابة بين كفيها تحاول إن تكتم إندفاع الدم من الجرح بمندىلها الذي ربطته حوله إصبعه .. صمت هو و هو يرى كفه مستكينة بين كفيها فى وداعة .. يرى لهفتها عليه و ذعرها لجرحه .. يرى إندفاعها لنجدته و مندىلها الغالي يعانق جرحه إنتفض كلاهما عندما دخل مهران هاتفا وهو يراهما فى تلك الحالة :

.....

- ايه فى .. ؟!..ايه اللي چرى .؟!!..

.....

إنتفضت سندس هاتفة فى حرج :- ألحق واد عمتك يا مهران .. جرح حاله .. و بينزف جامد ..

إنتفض مهران ملقيا ما بيده من أوعية مندفعا باتجاه باسل يلتقط كفه ليطمئن على بن عمته المصاب و اخيراً زفر فى راحة :

- الحمد لله .. الچرح مش چامد ... ثم نظر لباسل فى مرح :

- خضتنى يا شيخ .. چلت هتشمت فينا الكبار اللي مستنيين چوه عشان يخلونا سلوتهم ..

ابتسم باسل هاتفا :- لاااه .. الحمد لله چت سليمة ..

دفع مهران بوعاء لسندس التي كانت تقف دون أدنى رد فعل و هي تداري إحراجها تتذكر ما فعلت مع باسل و كيف إندفعت اليه بهذا الشكل ..لا تصدق إنها وصلت من الحماقة تلك الدرجة التي جعلتها تصرح بذعرها و قلقها عليه ..

.....

لم تع يد مهران الممدودة لها و هي غارقة فى افكارها تجاه ذاك الجريح الذي كان لا يقل عنها تيهاً و شرود ينظر لذاك المندىل الغالي الذي مازال يعصب إصبعه و لا يجرؤ على رفع نظراته ليتأمل صاحبته فما عاد قلبه يستطيع تحمل وجيبه المتنأمي فى حضرتها ... و قد اكتفى .. نعم اكتفى .. فها قد طل العيد و هلت نسائمه بمرأها .. بل زاد روعة بلهفتها و ذعرها لجرحه .. فما أروعه من عيد !!..

هتف مهران للمرة الثالثة صارخا :

.....

- سندس .. ايه .. روحتي فين ..؟!.. خدي اهاا الكبدة عشان نفطروا بدل ما ابوكِ و عمك حسام يفضحونا ..

إنتفضت تتناول الوعاء من يده .. و تخرج مندفعة للمطبخ تناوله للنساء ..

.....

و تعود لتنادي مهران من جديد حاملة كوب من اللبن المحلى بالعسل الأبيض ليعطي باسل إياه ..

اخذه مهران لباسل هاتفا :- ياللاه يا عمّ .. اشرب .. الظاهر سندس چالت للدكتورة زهرة على اللي حصل فبعتت لك كوباية اللبن دي ..

تناول باسل اللبن ليتجرعه على دفعتين متلذذا و هو يتساءل كيف عرفوا إنه يحبه بارد من المبرد رأسا لمعدته ..

.....

دخلت زهرة الحظيرة حيث تتم عملية الذبح لتطمئن على سير العملية لتهتف فى قلق :

- ايه ده ؟!.. إنت اتجرحت و لا ايه يا باسل ..؟!..

هتف مهران :- چرح بسيط يا مرت خالي .. متجلجيش..

إندمجت زهرة فى الحديث مع ولدها مهران بينما تاه هو فى ذاك الكوب الفارغ الذي وضعه بالقرب يؤكد له إنها هي من احضره من تلقاء نفسها و ليست الدكتورة زهرة كما

ادعى مهران و هو يناوله إياه .. هل تهتم لأمره .. ؟!..

أم هي مجرد شفقة من قبلها لابن عمتها الجريح .. !!.. نظر لاصبعه الذي عقمه و ضمده له مهران بالشاش الطبى و مد كفه يربت على جيب جلبابه الذي يحمل هديتها الثمينة التي ما كان حاصلا عليها الا وهي مدرجة بدمائه ..

.....

****

هتف زكرياء في حازم محاولا إثناءه عن رأيه:

- يعني خلاص يا حازم .. هي كلية الشرطة ..!؟!.. لازماً يعني .. ما جدامك اى جامعة هنا في اسكندرية .. اختار لك واحدة و خليك جنبينا ..و اذا كان ولابد كلية عسكرية ما جدامك البحرية طيب ..!؟..

هتف حازم في إصرار :

.....

- لا يا بابا .. أناعايز شرطة .. و عمي مختار وعدني إنه يساعدني .. و بعدين محدش عارف مش يمكن مقبلش .. ادينى بجرب ..

ابتسم زكرياء و هو يربت على كتف ولده :

- ربنا يجدم لك اللي فيه الخير يا ولدي ..روح جرب حظك .. محدش عارف نصيبه فين!؟..

.....

هتفت هدير ذات الأربعة عشر عاما مشاكسة:

- سيبه يا بابا خليه يروح .. هو في كلية تاني هاترضى تقبله بتكشيرته دي ..!؟.

إنفجر زكرياء ضاحكاً على مشاكسة هدير لأخيها و خاصة مع امتعاض حازم الذي نظر اليها في غيظ لكنه ترفع عن الرد عليها..

تساءل زكرياء و هي يضم كتفيها :

- و إنتِ بجي يا ستي .. تحبي تدخلي كلية ايه ..!؟..

.....

هتفت هدير بدلال :- يا دادي أنا لسه مخترعوش كلية تليق لي ..

عاد زكرياء يقهقه من جديد ليهتف حازم حانقاً:

- ايوه صحيح ...لسه مخترعوش كلية تليق على تسريحة شعرك .. او لون بلوزتك

.....

نظرت اليه هدير بابتسامة واسعة و ما إن استدار والدهما ليجلس خلف مكتبه حتى أخرجت لسإنها تكيد اخيها .. الذي نظر اليها متوعدا .. لتخرج في سرعة تختفي من أمامه

ليهتف زكرياء :- طالما ده اللي إنت عاوزه يا حازم ..يبجي لازم إنزل معاك جريب ..

سأل حازم مستفسراً :- هاتيجي معايا عشان الاختبارات و التقديم يعني يا بابا ..؟!..

.....

نفى زكرياء :- لاه .. روح إنت جدم و خلص على خير .. و لما تجبل باذن الله .. هايبجى لينا جاعدة تإنية .. و نزولة لمصر باذن الله .

اومأ حازم برأسه موافقا و هو يتعجب متسائلا في نفسه .. عن اى شيء يتحدث والده ..؟!..

.....

****

.....

وصل السرايّ نبأ وفاة الحاج قدرى التهامي فى الصباح الباك ر ليهرع الجميع لدار

التهامية فى لحظتها لمساندة صهرهم حسام التهامي و اداء الواجب المفترض في مثلهذه الظروف الحزينة ..

إندفع مهران بدوره مع ابيه ..كان الأكثر تأثرا بين الجميع فقد كان دوما الأقرب له ..

مرت الثلاث ليال الاولى بعد وفاة الحاج قدري كئيبة تظلل الجميع بسحابة من حزن

طغى على جميع الملامح بلا استثناء ..اليوم .. ميعا

د لقاءه الاسبوعي مع جده قدري .. دمعت عينا مهران .. فى

تلك اللحظة كان من المفترض عليه التوجه لدار التهامية

ليجلس فى تلك القاعة التي كان لا يبرحها الجد أبدا الا

إلى فراشه ليلا ..

ازداد حزنه عندما تذكر موعد اللقاء و زاد الحزن شدة عند

ما ادرك إنه لن يراها بشكل

أسبوعى كما كان يحدث بالسابق .. فمن كان يجمعهما م

ن اجل حفظ و ترتيل كتاب

اللّه قدرحل .. غادر بغير رجعة .. لن يراها .. و لكم كان

ذاك الخاطر قاسيا

لا يُحتمل .. لم يع الا و قدماه تقوده الا بيت عمته و دخل م

ن الباب الخلفى للدار

حيث يظل باب القاعة مفتوحا على مصراعيه كعادته .. تذ

حنح فى تأدب و كانما كان يتوقع إن يسمع الجد

صوت استئذانه فيأذن له .. كانت القاعة فارغة كعادتها ف

ى تلك

الساعة من النهار ..تقدم مهران لداخلها و جال ببصره فى ار

جائها حتى وقعت عيناه

على مصحف الجد قدرى الذي لم يكن يبارح كفه الا فيم

ا ندر .. و بجانب المصحف مدلاة من حامله الخشبي تقبع م

سبحته الكهرمانية تقدم مهران يتحسس أشياء جده

قدري العزيزة فى محبة و شوق لذاك الرجل الذي يدين له

بالكثير من أمور دينه ودنياه .. اصطدم مهران بعصا الجد ال

تي كانت تقبع بالقرب و لم يرها فسقطت أرضا محدثة دويا

مسموعا لحد كبير .. لم يكن يريد إن يدرك احد إنه ه

نا . كان يريد الإنفراد ولو قليلا بذاك المكان الطاهر الذ

www.hakawelkotob.com

ي جمعهم هو و جده و تسنيم .. ااه .. تسنيم .. ما با

لها الإن ..!؟.. إنه يشفق عليها

فمن المؤكد إنها فى دنيا اخرى من حزنها على جده .. ليته

يستطيع إن يراها أو حتى

يطمئن على حالها .. و كانما كانت أبواب السماء مفتوحة

لتُستجاب أمنيته فى لحظتها .. فقد فُتح الباب فى إندفاع لت

دخل منه تسنيم .. إنتفض هو ليواجه القادم .. نظر اليها و إل

ى ذاك الحزن الذي عشش على ملامح وجهها الصبوح ..

كانت تقف كالمشدوهة .. نظرت للعصا الساقطة أرضا و ق

د ادرك أن صوت سقوطها هو ما جذب إنتباهها للقاعة بدأت

تستفيق من صدمة ما تجلت على

ملامحها و استطاع إن يستنتج إنها تعيش نفس حالة النكرا

ن التي عأني منها فى الأيام الاولى للوفاة .. كان يعتقد إنه

فى حلم سئ و سيستيقظ منه قريبا ليدرك إن كل هذا

محض خيال و إنه لم يحدث فى الواقع .. و بالفعل اس

تفاق.. لكن على الحقيقة التي

كان يحاول الهرب منها بالإنكار ..

هي لم تستفق بعد .. ولقد أتت تجرى للقاعة ظنا منها إنها ي

مكنها رؤية الجد قدري

و هو يجلس على مقعده و يقرأ فى مصحفه أو يتمتم محركا

حبات مسبحته .. لكنها لم تجد الا طيف ذكرى و إياه .. ت

حركت فى بطء و جلست على أطراف الأريكة القريبة من

الباب.. و زاغت نظراتها فى المجهول أمامها .. ماذا عليه إن يف

عل ..؟!.. إنه لا

يطيق رؤيتها بهذه الحالة .. كيف يمكنه مواساتها ..؟!..

كيف يمكنه اخراجها من حالة التيه و النكران التي تس

يطر عليها بهذا الشكل الموجع ..

؟!.. عاد ينظر من جديد للمصحف و المسبحة و اخيراً جلس

www.hakawelkotob.com

فى هدوء و بدأ فى تلاوة القرآن بصوت عذب شجي .. و بدأت هي تبكي و تبكي .. حتى إنتهى و صمت .. كان تأثره وصل به مبلغاً شديداً جعله ينهض راغبا فى الرحيل ..

و ما إن هم بالخروج من باب القاعة حتى هتفت به تسنيم بصوت متحشرج :

- يا شيخ مهران ..؟!..

نادته كما تناديه جدته فضيلة .. كانت المرة الاولى التي تناديه فيها منذ زمن بعيد .. منذ تخطيا اعتاب الطفولة و هي لم تنطق اسمه مطلقا .. لا مجردا أو حتى بألقاب تسبقه .. الآن فقط سمعه منها .. و تعجب من حاله ..

هل يمكن لإنسإن إن يجمع بأعماق قلبه مشاعر حزن دفين و مشاعر فرح صارخ في

إن واحد ..؟!.. هل يمكن إن يحدث هذا لشخص عا

قل ..؟!.. استدار فى بطء يحاول إن يغض الطرف عن محياها

قدر استطاعته .. توجهت هي حيث موضع المسبحة

و تناولتها فى إجلال و ضمتها لصدرها فى شوق لصاحبها و ا

خيراً تمالكت نفسها و

ازدردت ريقها و هي تستدير له هامسة بصوت غير قادر على

الإفصاح من شدة تحشرجه :

چدي كان موصيني لو چراله حاچة تبجى السبحة بتاعته م

ن نصيبك إنت ..

كاد ان يمد كفه ليلتقطها من كفها لكنه خشى إن يمس

ذاك الكف الطاهر الذي لم يصافح رجلا قط فعدل وضعي

ة كفه ليبسطها أمامها فتسقط عليها المسبحة فى بطء ليض

م عليها أصابعه و يندفع خارجا و قد إنتزع نفسه من امام نظراتها التي تقطر حزنا على جدها إنتزاعا ..

****

هتف زكرياء في مشاكسة :

.....

- نلاقي عندكم كباية شاي مظبوطة و لا ناخد بعضنا ونمشي ..؟!..

إندفع المعلم خميس من داخل مقهاه ما إن سمع صوت زكرياء يهتف مشاكساً من الخارج ليهتف خميس مللا في فرحة :

- زكرياء ..؟!.. يا مرحب يا مرحب.. شاي بس .. ده احنا نجيب شربات لمجيتك دي ..

ثم هرش خميس في رأسه يحاول التذكر:- بس هو النهاردة موافق كام..؟!.. ده مش معادك من كل سنة يا صاحبي ..؟!..

.....

أومأ زكرياء مؤكدا على صدق قول خميس

فبالفعل لم توافق بعد ذكرى رحيل بدور السنوية و التي يأتي إليها من الإسكندرية يطل على الحارة و أهلها و يزور البيت و يخرج ما أمكنه من صدقة على روحها و روح ابيها .. قبل ان يزور قبرهما ..

جلس زكرياء و قبالته جلس خميس متعجباً و خاصة عندما لم يرد زكرياء بل نظر لمدخل الحارة و أخيرا أشار لأحدهما من بعيد ما إن اقترب حتى هتف زكرياء مشيرا لحازم الذي تأخر عن والده قليلا يبتاع غرض ما :

- اهو يا سيدي السبب ..!!؟..

نظر خميس للشاب الفارع الطول و الذي يمشى في كبرياء متطلعاً حوله حتى وصل اليهما ليشير له زكرياء :- سلم يا حازم على عمك خميس .. فاكره ..

.....

صرخ خميس مهللاً :- حازم ..!! ده حازم..!!.. اللّه اكبر .. اللّه اكبر .. بقى راجل طول بعرض ما شاء اللّه .. دي خالتك نعمة هاتفرح بشوفتك قووي ..

ابتسم حازم بدبلوماسية و لم يعقب ..و جلس على احد المقاعد المجاورة ليستكمل زكرياء هاتفاً :- حازم قبل في كلية الشرطة .. هايبقى ظابط باذن اللّه .. و أنا قلت مفيش مكان ممكن يقعد فيه هنا في مصر لو اضطرته الظروف و منزلش اسكندرية كل إجازة .. الا هنا .. في الحارة وسطكم ..

هلل خميس بنشوة :

- و احنا نشيله في عنينا ده هيبقى ضهرنا في الداخلية باذن اللّه ..

.....

قهقه زكرياء .. و ابتسم حازم و الذي بالتأكيد لم يكن اقتراح ابيه في البقاء لو اضطرته الظروف في الحارة على

هواه .. فقد كان يتمنى إن يشترى له ابيه شقة خاصة تكون ملاذه وقت الحاجة .. لا بيت قديم في حارة شعبية عتيقة حتى و لو كان يحمل عبق امه الراحلة.. هو يعلم كم كان يكن ابوه لامه من مشاعر دوما كانت محل نقاش بينهما .. دوما ما كان حازم يسخر من الحب و المحبين و لا يصدق في ترهات القلب واحاديث العشق و الشوق .. يعتبر رغم حداثة سنه إن تلك الشاعر المرهفة التي طالما ذكرها ابوه ما هي الا نوع من انواع الضعف التي لا يحب و لا يتمنى إن يعيشها و لو للحظة .. و لا يعتقد إنه سيفعل .. بل كان واثقا من إنه ابعد ما يكون عنها ...

****

سار فى اتجاه جامعتها يمني نفسه برؤيتها .. فمنذ حادثة أصبعه صبيحة العيد لم يلمح طيفها حتى و لو من

بعيد .. فقد اعتزلت حجرتها من اجل المذاكرة بسبب امتحأناتها التي على وشك البدء ..

و اخيراً جاءته الفرصة على طبق من فضة .. خاله عاصم مسافر و مهران فى جامعته فقد بدأت امتحاناته .. و السيارة التي دوما ما يبعثها خاله من اجلها معطلة بالفعل و سعيد أتى بالمكانيكى لإصلاحها ....إنتشى فرحا فقد اجتمعت الأسباب والظروف كلها ليكون هو الوحيد الموجود ليذهب لاحضارها ..

.....

اقترب من الحرم الجامعي الذي لم يكن له حظ الالتحاق به فمعهده المتوسط فى محافظة اخرى و قد إنهى الدراسة التي لم تزد عن السنتين به ليتفرغ للعمل مع والده منذ ما يزيد عن عامين ... اما هي فألتحقت بكلية الحقوق عن رغبة قوية منها رغم مجموعها العالي فى الثانوية العامة ..

.....

تنهد فى ضيق .. لطالما كان و سيظل الفارق التعليمى بينهما سبب قويا فى ابتعاد كل منهما عن الاخر .. هو يعلم تماما انها تسعى للتفوق فى كليتها للحصول على الماجستير فى تخصصها اما هو فقد اكتفى من التعليم بما حصل عليه بالفعل

.....

كل سنة يجد الهوة بينهما اتسعت بل و تزداد اتساعا مع ازدياد طموحها العلمي الذي يخالف عدم شغفه التام بالدراسة ..

توقف امام بوابة الجامعة و كما أكدت عليه زوجة خاله زهرة إن سندس تنتظر امام البوابة مجئ سعيد بسيارتهم كما تعودت .. جال بنظره امام البوابة لعله يلمح طيفها ليجدها تقف بالفعل مع احدهم إنتفض فى غيظ هامسا فى ضيق لنفسه :- مين دِه؟!؟؟.. و ليه واجفة تكلم معاه عادي كِده ..؟!..

.....

اشتعل غيرة و رغبة فى الإندفاع اليها ليجذبها من ذراعها دافعا بها للسيارة بعيدا عن هذا الشاب السمج الذي يحادثها لكنه سيطر على نفسه بالكاد جازا على اسنانه فى حنق بالغ ..

.....

لمحته صديقتان لسندس يقف فى توتر بإنتظارها ليتهامسا بغمز :- بصي .. ده بن عمة سندس .. اللي واقف مستنى هناك ده عند العربية الزرقا..

هتفت صديقتها :- معقول .. دي سندس دي محظوظة متوقعش الا واقفة ..

و نظرتا لسندس التي كانت تنهي حوارها مع الدكتور عمرو الذي وقفت تستفهم منه على بعض النقاط الخاصة بامتحان المادة القادم .. لتهتف احداهما :

- طبعا .. بن عمتها من ناحية و الدكتور عمرو من ناحية تانية .. بجد مبتضيعش وقت و الاتنين ايه .. مال و جمال..

.....

هتفت الاخرى :

.....

- لاا .. سيبك من بن عمتها .. ده اخره معهد متوسط .. لكن خليكى فى دكتور عمرو اللي واضح إنه مغرم قووى .. حظها نااار .. مش احنا ..!!..

هنا كانت وصلت سندس لتنضم إليهما لتهتف احداهما فى نبرة متمنية :

- بن عمتك أهو يا سندس .. يا بختك يا ستى .. حد يكون عنده ابن عمة بالشكل ده و يسيبه .. طول بعرض .. اوعدنا يا رب ..

صمتت سندس و لم تعقب لتهتف الاخرى بنبرة حاقدة استطاعت اخفاءها ببراعة :

- لاااا .. لاا .. بن عمتها مين .. ده معهد سنتين .. بقى اسيب دكتور عمرو اللي هايبقى دكتور فى القانون و اخد ده ..!؟

.....

عند هذه النقطة اشتعلت سندس ضيقا و حنقا لتهتف بهما :

.....

- إنتوا خلاص قررتوا و بتختاروا لى اللي هتجوزه كمان .. !!؟.. ده إنتوا بنات دماغها فاضية .. أنا امشى أحسن .

و إنصرفت فى ضيق مندفعة باتجاه باسل الذي كان اخر من تريد رؤياه بعد هذه المناقشة السخيفة ..

فكلتاهما ضغطت على المعضلة التي تؤرقها ليل نهار .. و تزيد من احتدام الصراع المتواصل بين قلبها و عقلها ..

وصلت عنده فألقت التحية فى هدوء تجيد اصطناعه رغم ذاك الصخب الدائر داخلها لتفتح الباب و تجلس فى المقعد الامأمي بلا تفكير ..

.....

دخل هو يضبط نفسه امام مقود العربة فهو أبدا لم يكن قريبا منها فى مجلس ما مثلما هو قريب منها الآن .. فيما عدا تلك اللحظة التي إندفعت مزعورة تجاهه يوم جرح إصبعه الميمون ..

.....

ازدرد ريقه فى توتر و هو يحاول ضبط أعصابه التي بدأت فى الغليإن هاتفا لنفسه : - مش هتسألها مين ده ..؟!.. مش هتسألها سااامع .. !!؟..

و أخذ يؤكد لنفسه ذلك مرارا و تكرارا وهو يدير السيارة و ينطلق بها عائدا للنجع ..

اخرجت هي احد كتبها و منظارها الطبي و بدأت فى مطالعته متناسية إياه أو ربما تتجاهل وجوده كعادتها التي تثير اعاصير غضبه..

.....

ألقى ببضع نظرات فى اتجاه نافذته للخارج يحاول التنفس بعمق حتى يضبط قدرته على الإنفعال و يسيطر عليها ..و داس بعنف على زر مشغل الاغاني لعله يقذف بخواطره فى اتجاه اخر بعيدا عن تلك الهادئة حد برود القطب الشمالي بجواره و هو يستعر غضبا بجانبها حد الجحيم ..

تسربت الاغنية من المشغل هاتفه :

.....

- جرب نار الغيرة و قولي .. ايه رأيك ..؟!. رأيك ..؟!.. جرب و أوصِّف لي ..

إنتفض فى غيظ مغلقا الاغنية التي شعر إنها تخرج له لسانها بغية إغاظته و سكب البنزين على نار صدره ..

هنا استفاقت الساكنة لتهتف فى اعتراض :- ليه قفلت الاغنية ..؟!؟.. . دي لذيذة قووي ..

.....

جز على اسنإنه طالبا من اللّه المزيد من السيطرة على النفس وهو يهتف :

- مش عجباني ..

نظرت اليه بغيظ و عادت لتجاهله بالنظر لكتابها الذي مارس أقصى درجات ضبط النفس حتى لا ينتزعه من يدها ملقيا به فى عرض الطريق .. و اخيراً قررت التمرد لتمد كفها تفتح مشغل الاغأني من جديد ليهتف الصوت المنبعث منه هاتفا :

.....

- ياامستبدة ..

اعادت إغلاق المشغل بسرعة و شعرت و كانه يسبها لينفجر باسل هاتفا فى استمتاع :- ليه جفلتيه .. و بدأ فى تقليد صوتها هاتفا :

- دي أغنية لذيذة قووى ..

.....

زفرت فى حنق و لم تعقب كعادتها التي تثير جنونه ليسود الصمت الصاخب بينهما من جديد ليعود مؤكدا لنفسه إنه لن يسألها .. نعم لن يسألها ..

و فجأة هتف مجفلا إياها :- مين اللي إنت كنتِ واجفة معاه دِه ..؟!..

رفعت رأسها فى هدوء مجيبة :- ده دكتور عمرو .. استاذي .. و دكتور المادة اللي هنمتحنها كمان أسبوع .. ليه ..؟!..

.....

هتف محاولا تصنع اللامبالاة :- لاه .. مفيش .. بس هو عادي توجفى مع الدكاترة بتوعك كِده و فى الشارع كمان .. و فى الاخر تسلمي عليهم بيدك و إنتِ ضحكتك مليه وشك .. !؟..

.....

هتفت فى حنق :- قصدك ايه ..!؟.. و بعدين أنا مكنتش فى الشارع .. أنا كنت على البوابه لحقته قبل ما يخرج عشان فى حاجات مهمه كنت بستفسر عنها .. و بعدين ايه ضحتك ماليه وشك دي .. أنا مقبلش اى تلميح من اى نوع .. و بعدين إنت ايه اللي جابك أصلا .. فين عم سعيد ..!؟..

نظر اليها و على الرغم من إنه أشعل غضبها الا إنه كان فى قمه الاستمتاع فها هو يرى وجها اخر لها بخلاف ذاك الوجه البارد الذي تطالعه به دوما ما إن يلتقيها ..

نظر اليها فى ضيق مصطنع هاتفا وهي يضغط على حرف السين عقدتها محولا إياه ل ثاء كما تنطقه :

.....

- عم سعيد بيصلح عربيتكم و مرت خالي هي اللي طلبت منى أجيبك .. المرة الپاية أنا اللي هجول لمرت خإلى اعفينى .. عشان مبحبش اضايج بتك .. و اسيبها توجف مع اللي يعجبها من غير ما يكون ليا حج فى السؤال ..

إنتفضت فى غضب حقيقى تغلق كتابها فى عنف هاتفة :- أنا مسمحل...

قاطعها مشغلا الراديو هذه المرة بصوت هادر حتى لا تصله اعتراضاتها و يستمتع بإنتصاره عليها اخيراً و خاصة إنه نجح فى إذابة بعض من الجليد الذي يحيط بتلك الواثقة الباردة دوما ..

.....

ليهدر المذياع قاذفا كلماته التي ألجمت كلاهما لتصمت هي و ينتبه هو بكل حواسه لتلك القصيدة الملقاة :-

ايوه بغير ..

.....

اصل المشكلة عندك .. عِندك ..

جلت حاسيبها وبكرة تحس

بعده تحس

بعده تحس

ده أنا لو جبس كنت زعجت

ماشي صداجة وماشي زمالة

بس مچتش على الرچالة

ماهي نسوان الدنيا كَتير

وأنا ما بجولش تخاصمي الناس

ولا تِتْحِچبي عن الرچالة

ولا تعتكفي وتسكني دير

بس يا ريت حبة تجدير

إني بحبك

وإني بريدك

وإني زرعت حياتي في ايدك

وإني غزلت بنات الدنيا عجود على چيدك

وإني تعبت من التفكير

وإني بغير

إنتهت القصيدة .. ليعلو صوت التصفيق من المذياع و يمد باسل كفه فى آلية ليغلقه وهو فى تيه كامل .. لا يجرؤ حتى للنظر لتلك التي عادت لسكونها المريب بالقرب منه ..نظر من نافذته لثوان ثم عاد بناظريه يثبتهما على الطريق و قد أيقن إنهما وصلا بالفعل فقد لاحت السرايّ على مرمى البصر .

توقف في لحظات امام بابها الداخلى بعد إن اجتاز بوابتها فى سرعة و اخيراً داس على المكابح فى غيظ لتتوقف السيارة مزمجرة فتندفع منها سندس إلى داخل

السرايّ بسرعة الصاروخ ليزفر هو فى قوة و يضرب المقود بكفه فى غضب .. و يستدير بالسيارة راحلا ..

****

مرت عدة أعوام من عمر شراكة زكرياء مع العميد مختار كانت أخصب سنوات عمل بالنسبة لزكرياء .. فقد توطدت علاقتهما الاجتماعية و توسعت المعرفة على نطاق العائلتين لتصبح صداقة متينة الأواصر ..

وقفزت شركة زكرياء من مصاف الشركات الجيدة السمعة والكفاءة إلى مستوى اعلى بمراحل وضعها في مصاف أقوى شركات الإنشاءات ..

كان من المفترض إن تتم بينهما مقابلة في تمام الساعة الخامسة .. لكن هاهي الساعة شارفت على السادسة و لم يظهر مختار كما هو متفق و هذه ليست من عادته فهو دقيق جدا في مواعيده مما دفع القلق إلى نفس

زكرياء و هو يتلفت على امل إن يراه قادما لكن لا

فائدة... ليهم بالنهوض مغادراً ليجده أخيرا يندفع معتذرا :

.....

- اسف على التأخير يا زكرياء .. معلش امر طارئ ..

هتف زكرياء بقلق :- خير يا باشا ..؟!..

اكد مختار :- خير ..أصل من فترة كانت بتجيلى شوية

تهديدات ..؟!.. و الظاهر عرفوا مين وراها ..؟!...

هتف زكرياء مزعورا :- تهديدات ..؟!.. و مين وراها دي

..؟!..

هتف مختار كان الامر لا يعنيه :- عارف العيال اللي حاولوا

يموتونى في السجن لولاك ..؟!.. هم دوول ..

هتف زكرياء :- بس دِه كان من زمن يا مختار باشا و إنت

سبتلهم الداخلية بحالها عايزين منك ايه تاني ..؟!..

.....

ابتسم مختار :- عايزين تارهم ..العيال دي مبتنساش .. و اللي

كان منهم ساعتها لسه تابع صغير دلوقتي بقى أمير جماعة

قد الدنيا .. بيأمر والكل يطيع .. دلوقتي بقوا متوغلين في كل حارة و كل بيت .. كلامهم اللي متغمس بآيات من القرآن و احاديث نبوية مخلي الناس مغشوشين فيهم و بيقولوا عليهم بتوع ربنا ..

هتف زكرياء في ضيق :- لا حول و لا قوة الا بالله .. طب و العمل دلوجت يا مختار بيه..؟؟...

ابتسم مختار :- العمل عمل ربنا يا زكرياء.. العمر واحد و الرب واحد و اللي له نصيب في حاجة هيشوفها ..

همس زكرياء :- و نعم بالله ..

.....

نهض مختار متعجلا :- طب يا زكرياء أنا لازم امشى دلوقتي .. عندى معاد مهم جدا.. و اكيد هقبلك تاني عشان نكمل كلامنا اللي مخلصش النهاردة ..

نهض زكرياء بدوره هاتفاً :- طب أنا كمان ماشي معاك .. إنت تروح مشوارك و أنا ارجع الشركة ..

.....

خرجا سويا من ذاك المقهى العريق في احد اهم شوارع الإسكندرية .. اتجه زكرياء لسيارته و بالمثل فعل مختار .. ليتذكر مختار شيئا ما ليعود مسرعا لزكرياء هاتفاً

به من نافذة عربته :- زكرياء ..؟!.. خد ..

و يسلمه ظرفا مغلقا يتناوله زكرياء بنظرة مستفسرة .. ليستطرد مختار :

.....

- لو حصل لي حاجة يا زكرياء .. افتح الظرف ده .. ده وصيتي ..

إنقبض قلب زكرياء ليندفع خارج سيارته هاتفاً في ضيق :- ليه بس يا مختار باشا السيرة دي ..؟!.. ربنا يخليك لأهل بيتك ..

ربت مختار على كتف زكرياء بابتسامة هاتفاًو هو يودعه ملوحا :

.....

- اشوف وشك بخير يا زكرياء ..

لا يعلم مختار لما هتف بتلك التحية و هو يغادر زكرياء الذي ارتسمت على وجهه ملامح الضيق و شعر بإنقباض في صدره دفعه ليلتقط إنفاسه في شهيق قوي ..

.....

و ما إن عاد للسيارة يتبع مختار بنظراته و هو يستدير بسيارته لتكون بمحازاة سيارة زكرياء .. حتى بدأ الهرج و المرج .. و صوت صرخات تعلو و طلقات متتابعة تدوي.. و ظلام تام غلف واقع زكرياء المحيط و هو يهتف باسم واحد .. مختار ..

و يده يضعها على جيب سترته حيث أودع وصية صديقه ..

****

دخلت زهرة حجرتها فاذا بعاصم ممدد على سريرهما وما إن طالعته وهي تدخل حتى سألها فى تخابث :- لسه في فردة حمام من غداء النهاردة نتسلوا بيها .. !!؟..

.....

ابتسمت وهي ترفع حاجبيها متعجبة :- فردة واحدة .. دوول يبقوا جوز حمام عشان خاطر عاصم بيه ..

.....

جلست على طرف الفراش وهي تستطرد :- بس أنا بخاف على عصومي ينام بالليل تقيل .

ربت عاصم على معدته البارزة مقهقها :

- خايفة على عصومى و لا على شكل عصومي اللي بجى مش ولابد و هايمشى چمبك يجولوا مين الجمر اللي ماشية ويا ابوها دي .. !!!؟..

إنفجرت ضاحكة على غزله الصريح :- قمر ايه بس يا عاصم .. بس تعرف ..

تنبه بكل حواسه عندما قالت كلمتها الاخيرة و التي اعتاد دوما إن يسمع بعدها ما يسر قلبه .. استكملت هي حديثها و ابتسامة هادئة تكلل شفتيها و عيونها تلمع ببريق يحمل جمال الذكرى عندما هتفت :- الكرش مش

فارق معايا كتير ..لإن أنا لسه شيفاك زي اول مرة شفتك فيها ..

ثم أسرعت قائلة بضحكة واسعة:- مش اول مرة قووى يعني .. عشان كانت صعبة الصراحة ..

كان دوره لينفجر ضاحكاً متسائلا :- ألا صحيح .. حسيتي بإيه لما شفتيني اول مرة!؟..

ابتسمت هاتفة :- حسيت برعب غريب و صوت داخلى بيقولى اهربى من قدام الراجل ده .. بس ملحقتش

ابتسم هو و نظراته لها تؤكد عشقه هامسا :- أنا لو اعرف اللي هيجرالي منيكِ ساعتها .. كنت أني اللي هربت.

.....

ظهرت على جانب فمها ابتسامة و نظرة معاتبة و هي تقول :- كنت هربت ..!؟.. طيب ..اما اهرب أنا كمان .. و مفيش أكل حمام النهاردة ..

.....

و إندفعت مبتعدة مشاكسة أياه .. ليهتف هو ضاحكاً :- خلاص بلاها الحمام .. و نحاول نجلل من الاكل بالليل عشان خاطر عيون زهرة ..

قررت الاستمرار فى مشاكسته :- اه الصراحة .. حرام عليك .. يعني زهرة بنت عزيزة تركبها بكرشك ده .. الرفق بالحيوان هيقاضونا يا عاصم ..

لم يصمت هذه المرة بل إندفع ليمسك بها قبل إن تهرب مختبئة فى الحمام و يهتف مازحاً :- خايفة على زهرة الفرسة مني .. و بتجولى الرفج بالحيوان هيجاضينا .. طب شوفى من هيخلص زهرة اللي هو إنتِ من يدي دلوجت .؟!؟

هتفت مازحة وهو يلتف حولها ليقف خلف ظهرها و يطوق خصرها بذراعيه و يرفعها قليلا عن الأرض حتى ما عادت قدميها تلامسها .. :- عاصم .. هصرخ و اشهد عليك عيالك اللي بقوا طولك ..

إنفجر ضاحكاً و هي يلقى بها على الفراش :-

متعمليهاش ..

و اقترب منها لتهتف بتحدي :- ايه ..؟!جايب الثقة دي منين ..؟!..

إنحنى عليها و هي لازالت على حالها ليأسرها بذراعيه وهي يقول بصوت يقطر حبا :

.....

- عارفة چايبها منين ..؟!.. من عيونك دي اللي كلها تحدي و اللي وجعتني فيكِ .. دِه يوم ما وجفتي تتحديني وأنا بكتب عليكِ غصب..مصرختيش .. هاتيجى دلوجت و تصرخي .. !!..

همست مدعية النداء مازحة :- يا مهراإن .. يا سندس .. يا مااجد .. تعالوا شوفوا ابوكوا بيعمل ايه ..

إنفجر ضاحكاً و قال :

.....

- طب ما تخدنيش فى دوكة و جوليلي .. إنتِ شيفأني كيف ..؟!..

ابتسمت وهو تطوق ذراعيها حول عنقه :- شيفاك زي اول مرة شفتك فيها بقلبي ..

رفع حاجبيه معجبا :- واه .. ده باينه كلام كبيير .. كيف يعني ..؟!..

.....

ابتسمت و هي تستطرد :- لسه شيفاك يا عاصم زي يوم ما قلبي و عقلي اتفقوا إن روحي متعلقة بيك و أني مقدرش أعيش من غيرك ...يوم ما خدتني قدامك على الفرسة و كان نفسنا نعيش العمر على ضهرها بعيد عن الدنيا كلها .. يوم ما لقيتك بين دراعاتي غرقان فى دمك و عيونك بتلومني أني هبعد عنك .. لسه شيفاك عاصم اللي مقبلش الظلم على بن عمه و كان هيدفع حياته تمن لرد الحق

لصاحبه .. عاصم البار بابوه و امه .. عاصم الحنين على اخته .. عاصم حبيب قلبي و روحي ..

نظر اليها مشدوها تلمع عيناه كنجمتين فى سماء شديدة الظلمة .. تنحنح محاولا تقليل تأثره بكلامها و إنحنى يقبل جبينها قبلة عميقة أودعها كل عشقه و حنانه و رفع رأسه يقول بنبرة مشاكسة :- خليها اخر مرة .. و جومي هاتي الحمام ..

إنفجرت ضاحكة و هي تتعلق اكثر برقبته .

****

ظلام دامس .. أنوار تُضاء و تُطفأ .. صرخات و ضحكات .. نداءات من عمق سحيق و همسات بجوار مسامعه ..

صورة امه الحبيبة التي لم تتكحل عيناه برؤيتها منذ زمن بعيد .. عاصم بن عمه الذي يعده بمثابة الأخ الحقيقي..

.....

النجع و كل شبر بأرضه التي يعشقها حد الهوس و رغم ذلك ابتعد عنها حد اللإنهاية

ابنة عمه سهام ربيبته .. و حبيبته الأولى و نايه الذي دفنه مع ذكرياته القاتمة بجوار قبر ابيه غسإن الهواري الذي لم يعترف به ابنا في حياته و اقسم أن يعود ليصبح افضل مما حلم إن يكون اذا بقى في النجع .. سيكون زكرياء لذاته ...

بدور و عشقها الذي ما غادر روحه قط و حنانها و الأمان بين ذراعيها .. سنوات السجن و سنجأ ..

زينة و حكايته معها و كيف حركت فيه قلب ظنه دُفن منذ زمن مع سارقة روحه الغالية كل تفاصيل حياته في فيلا الحاج مندور ..

ابناءه .. حازم و هدير.. و أخيرا .. الباشا ..سيادة العميد مختار ..ووصيته ..

.....

حرك كفه في تثاقل يبحث عنها في جيب سترته

.. لكنه لا يجد موضع الجيب من الأساس.. لا .. الا الوصية

.. أين هي ..؟!..

.....

أين ذهبت ..؟!.. تململ في ضيق و أخيرا بدأ يفتح جفونه في تثاقل ليطالع أشباحا تتراقص امام عينيه لا يستطيع تمييزها مباشرة فهمس:- .. أمي..!!.. عاصم ..!!؟..

بدأت الصورة تتضح امام عينيه المشوشة تدريجياً ليتبين إن الشبحان هما لحازم ولده و زينة زوجته التي كان وجهها يغطيه الدمع بغزارة...

لا يعلم كم غاب .. و لا يعلم ما حدث ..

لكن كل ما استطاع إن ينطقه في صوت منهك متحشرج :

- فين الظرف اللي كان في جيبى ..؟!.. فين وصية مختار باشا ..؟!..

.....

إندفعت زينة تسلمه ذاك الظرف الذي وجدوه في جيب سترته مدرج بالدماء ..

قبض على الظرف و ضمه لصدره مستطردا في وهن .. رجعوني النجع .. عايز ارجع بلدنا .. لينظر كل من حازم و زينة لبعضهما و لم يكن بوسعهما الا الاذعان لطلبه وقد اومأ كل منهما برأسه إيجابا ...ليستكين هو مغمضا عينيه مرة أخرى محاولا الاسترخاء و قد أدرك إن موال تيهه ووجعه قد أوشك على الإنتهاء ...

.....

تمت بحمد الله

و إنتظرونا في الجزء الثالث

رضوى أحمد

.....

حكاوي الكتب للنشر الالكتروني
www.hakawelkotob.com

.....